الإسكندرية

تاريخ ودليل

إ . م . فورستر

مع مقدمة للورنس داريل

إذا الإنسان طاف حول الإسكندرية فى الصباح

فالله سوف يصنع له تاجاً ذهبياً

مرصّعاً باللآلىء

ومعطراً بالمسك والكافور

يشع الضوء شرقاً وغرباً

« ابن دقماق »

لكل منظر عين تأتلفه

« أفلوطين »

- صدرت الطبعة الأولى للكتاب فى الإسكندرية ١٩٢٢م .
- صدرت الطبعة الثانية للكتاب فى الإسكندرية ١٩٣٨م .
- صدرت الطبعة الأولى الأمريكية فى نيويورك ١٩٦١م .

وهى بمقدمة جديدة للمؤلف ، ومطابقة لطبعة الإسكندرية الأولى .

- صدرت الطبعة البريطانية الأولى وهى مطابقة لطبعة الإسكندرية الأولى بمقدمة لفورستر (١٩٦١م) ومقدمة جديدة لداريل وطبعت فى لندن ١٩٨٢م .

- وهذا الكتاب مترجم عن الطبعة اللندنية الصادرة فى ١٩٨٢م بالملاحق والملاحظات التى وضعها «مايكل هاج» لنفس النسخة ، وصدرت عن دار نشر مايكل هاج بنفس المقدمة التى كتبها داريل ١٩٨٢م .

- من المؤكد أن هذا هو أحسن كتاب دليل .

«بونامى دوبريه»

- هذه الطبعة ذات الهوامش لكتاب فورستر الكلاسيكى : التاريخ والدليل ذات فائدة عملية لكل من يريد أن يستكشف الإسكندرية وضواحيها ســواء كان ذلك بشكل عملى أو بأسلوب نظرى .

كتب فورستر هذا الكتاب أثناء توقفه عن كتابة روايته «ممر إلى الهند» ؛ وذلك عندما كان يعمل كأحد متطوعى الصليب الأحمر فى الحرب العالمية الأولى وكان مقيماً فى الإسكندرية .

وهذا الكتاب - كتاريخ ودليل - هو محاولة لتقديم حيوية الإسكندرية عبر ألفى ومائتى وخمسين سنة من وجودها .

أنجز فورستر - كما كان يتخيل - ربطاً تاريخياً رائعاً وهو يحاول أن يقترب من معالم الإسكندرية الحالية من خلال ماضيها .

تم طبع هذا الكتاب فى مصر مرتين فى مدينة الإسكندرية فى ١٩٢٢م ، ١٩٣٨م ثم صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٩٦١م مع مقدمة جديدة للمؤلف ، ولم يصدر هذا الكتاب فى بريطانيا أو فى أى مكان آخر ، إلى أن كانت هذه الطبعة التى تحتوى لأول مرة على ترجمة لقصيدة كفافيس(*) «الإله يتخلى عن أنطونيو» تلك القصيدة التى استعرض فيها كفافيس حقا أبهة الزمان ، وجلال المكان والتى استفاد منها لورنس داريل فى كتابته لرباعية الإسكندرية .

يكتب جون فويلز : «إن المدن المنفتحة هى أمهات للمجتمعات المستنيرة ، ووجود مثل هذه المدن هام بشكل خاص للأدب ، ولهذا فإننى أعتقد أننا نتعشق أوهامنا عنها ، ونغفر لها الكثير من خطاياها» .

وعندما نفعل ذلك مع الإسكندرية ، فإننا لانلام ، لأنها النموذج الأصلى للكوزموبوليس(**) وانصهار المتناقضات :

قصيدة أنطونيو وكليوباترا لكفافيس ، أ. م. فورستر ، لورنس داريل وغيرهم .

هناك قائمة فى غاية التميز من المحتفين الأجانب ، استطعنا من خلالهم أن نحظى بصورة خالدة للمكان .. هذه الصورة واهنة وماكرة وعنيدة بشكل دائم ، وهى وإن كان الإخفاق يحيط بها ، إلا أن إخفاقاً بمثل هذا الغنى ، يعتبر نوعاً من الانتصار» .

وإسكندرية فورستر هى إعادة بناء لمدينة هائلة من الأطياف ، مدينة تكمن فى أعماق الحلم المشترك للأدب ، وينضوى هذا الأدب ومؤلفوه - فى هذه الطبعة المزودة بالهوامش ، والتى تحتوى على مقدمة داريل التى كتبها خصيصاً مسجلاً فيها عودته الجديدة إلى المدينة - إلى مايمكن أن نسميه بالاحتفالية ، بينما حقيقة الإسكندرية مازال البحث عنها جارياً حتى اليوم .

(*) شاعر يونانى كان مقيماً فى الإسكندرية ، وسيتناول هذا الكتاب بعضا من حياته وإبداعاته - المترجم .

(**) الكوزموبوليس هى المدينة التى يتألف سكانها من عناصر اجتمعت من مختلف أرجاء العالم- المترجم .

محتويات الكتاب

تقديم المترجم ... 19

مقدمة للطبعة الجديدة للورنس داريل ... 25

مقدمة أ. م. فورستر ... 31

تصـديـر ... 35

المراجع ... 37

(١) الجزء الأول

التاريخ

الفصل الأول : العصر اليونانى ... 47

اليـابس والمـاء ... 47

فاروس – راقودة – كانوبس ... 48

الإسكندر الأكبر ... 51

خطة التـأسـيس ... 53

البطالمة الثـلاثة الأوائل ... 55

المدينة البطلمية ... 60

البطالمة الأواخر ... 65

كليوباترا ... 67

الثقافة البطلمية : ... 73

- الأدب ... 74
- المدارس أو المؤسسات التعليمية ... 79
- الفن ... 80
- الفلسفة ... 81
- العلم ... 81

الفصل الثانى : العصر المسيحى ... 89

حكم روما ... 89

المجتمع المسيحى ... 90
آريوس وأثناسيوس ... 93
حكم الرهبان ... 95
الغزو العربى ... 98
الفصل الثالث : المدينة الروحية ... 103
مقدمة ... 103
اليهود ... 104
الأفلاطونية المحدثة ... 107
المسيحية : ... 112
مقدمة ... 112
١ – الغنوسطية ... 114
٢ – الأرثوذوكسية المبكرة ... 116
٣ - الآريوسية ... 118
٤ – مذهب الطبيعة الواحدة ... 119
٥ – مذهب الإرادة الواحدة ... 120
٦ – وأخيراً الإسلام ... 121
الفصل الرابع : العصر العربى ... 123
المدينة العربية ... 123
المدينة التركية ... 125
الفصل الخامس : العصر الحديث ... 129
نابليون ... 129
محمد على ... 132
المدينة الحديثة ... 134
ضرب الإسكندرية بالقنابل ... 137
خاتمة ... 141
الإله يتخلى عن أنطونيو ... 143

(٢) الجزء الثانى

الدليـــل

الفصل الأول : من الميدان إلى شارع رشيـد 147

الميـدان 147

تمثال محمد على 147

بنك رومـا 149

شارع رشيد 150

مسجد النبى دانيال 150

القـديس ســابا 152

المتحف اليونانى الرومانى 153

الفصل الثانى : من الميدان إلى رأس التين 175

مسجد الشوربجى 175

مـسـجـد طوربانة 176

مسجد أبو العباس 177

مـقـابر الأنفـوشى 178

قـصـر رأس التين 181

ميناء ما قبل التاريخ 181

قلعة قايتباى (فاروس) 185

الفصل الثالث : من الميدان إلى الأحياء الجنوبية 195

ميدان سانت كاترين 195

مـسـجـد العطارين 196

جبّانة البروتستانت القديمة 196

عمود بومبى (معبد سيرابيس) 197

مقابر كوم الشقافة 202

ترعـة المحـمـودية 206

الفصل الرابع : من الميدان إلى النزهة 207

حـدائق البلدية 208

المقبرة الأثرية – وضريح بومبى	208
النصب التذكارى للجيش الفرنسى	209
حدائق النزهة	209
حدائق أنطونيادس	210
المقبرة الأثرية	210
الفصل الخامس : من الميدان إلى الرمل	211
السيزيريوم ومسلتا كليوباترا	212
آثار أبركرومبى	216
أبو النواطير	216
كازينو سان ستيفانو	217
الصخور الناتئة	217
الفصل السادس : من الميدان إلى المكس	219
المكس	220
قلعة العجمى	220
الفصل السابع : أبو قير ورشيد	223
المنتزه	223
أبو قير	224
كانوبس	227
حمامات كليوباترا	231
إدكو	234
رشيد	235
الفصل الثامن : الصحراء الليبية	241
أبو صير	242
برج العرب	245
القديس مينا	246
وادى النطرون	252
أديرة النطرون	253

(٣) ملاحق

أولا · المجتمعات الدينية الحديثة ... 265
ثانيا موت كليوباترا ... 269
ثالثا · أناجيل مصرية غير معترف بها (مقتطفات) ... 275
رابعا · العقيدة النيقية (قانون الإيمان المسيحى) ... 277

قائمة الخرائط والمخططات

منظر للإسكندرية لدى مونكونى ١٦٦٥ ... 3
مخطط الإسكندرية ... 45
شجرة العائلة البطلمية ... 58
العالم بالنسبة لإيراتوستينس ... 84
العالم بالنسبة لكلاوديوس بطليموس ... 85
منظر بيلون ١٥٥٤م ... 127
الإسكندرية · خريطة تاريخية ... 148
مخطط للمتحف اليونانى الرومانى ... 154
مقابر الأنفوشى ... 180
ميناء ما قبل التاريخ ... 183
قايتباى مخطط ١ ... 188
قايتباى مخطط ٢ ... 189
عمود بومبى ومعبد سيرابيس ... 199
كوم الشقافة ... 203
الريف حول الإسكندرية ... 225
أبو قير ... 226
أبو صير ... 244
القديس مينا مخطط ١ ... 250
القديس مينا مخطط ٢ ... 251
أديرة النطرون مخطط ١ ... 254
أديرة النطرون مخطط ٢ ... 256
(٤) مدينة الكلمات ... 279
(٥) ملاحظات ... 289
(٦) تغييرات فى أسماء الشوارع والميادين ... 327

تقديم المترجم

إن هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ عن مدينة الإسكندرية «تاريخاً ودليلاً» يعتبر من أهم الكتب التى صدرت عن هذه المدينة الساحرة ، إن لم يكن أهمها جميعاً وأكثرها شهرة ، فهو ذو فائدة عملية لكل من يريد أن يستكشف هذه المدينة وأن يتعرف على ضواحيها سواء كان ذلك بأسلوب نظرى أو بشكل عملى .

والكتاب صدرت منه أربع طبعات بالإنجليزية ، منها طبعتان صدرتا فى الإسكندرية ، وواحدة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والأخرى فى بريطانيا كما هو مبين فيما بعد .

وكتابنا هذا مترجم عن الطبعة البريطانية الصادرة فى ١٩٨٢م بمقدماتها وملاحقها ، وملاحظاتها التى وضعها الناشر .

وتتصدر هذه الطبعة مقدمة للأديب الشهير «لورنس داريل» مؤلف رباعية الإسكندرية[١] ، وهو يثنى فيها ثناء كبيراً على الكتاب وعلى المؤلف الذى يندهش من كونه «واحداً من أبناء الأصول الإنجليزية الراقية استطاع أن يستجيب لغربته فى هذه المدينة بهذا الشكل الإيجابى ، واضعا لنفسه جذوراً جديدة فى هذه التربة الغريبة» . وذلك ليبرهن لنا كم اندمج فورستر فى هذه المدينة تاريخاً وواقعاً ليقدم لنا هذه الرائعة الأدبية[٢] ، ثم يواصل داريل استعراض آرائه حول فورستر ونظرائه من الكتاب أمثال . سويفت ، ونورمان دوجلاس ، وستراتشى ... إلخ . معتبراً إياهم ممثلين «للعصر الفضى» فى الرواية ، بمعنى أنهم يتميزون بمنجزات هامة ولكنها ثانوية بالنسبة لمنجرات «العصر الذهبى» . وكواحد من الكتاب الكبار العاشقين لهذه المدينة التى مازالت تضن بالكثير من أسرارها يقول داريل: «إن الإسكندرية الكلاسيكية التى نتكلم عنها ماهى إلا صدى تاريخى ، لقد كانت من إبداع الإنسان ، وُلدت من هوى الإسكندر الفتى الذى لم يعش ليراها وهى تتحقق فى الواقع ، لكن جسده قد أُحضر إليها ليدفن فى قلبها .. كى يصبح إلهها الحارس» .

---

(١) هذه الرباعية مترجمة إلى العربية فى أربعة أجزاء : جستين ، وبلتازار ومونتوليف وكليا .. ترجمة دكتور/ فخرى لبيب ، وصادرة عن دار سعاد الصباح – المترجم .

(٢) من المعروف أن فورستر كاتب روائى له العديد من الروايات منها «ممر إلى الهند» وله أيضاً كتاب عن الإسكندرية بعنوان «فاروس وفاريلون» عبارة عن عدة دراسات ومقالات – المترجم .

أما مقدمة المؤلف فيستعرض فيها قصة هذا الكتاب ، منذ خطر على باله أن يضع كتاباً عن الإسكندرية ، عندما هبط على شواطئها لأول مرة فى خريف ١٩١٥م أثناء الحرب العالمية الأولى ليعمل ضمن الصليب الأحمر ، وكيف تم له إنجاز الكتاب ، ثم المشاكل التى واجهته من أجل نشره والتسويفات والتأجيلات وسوء الطالع الذى جعل من المتعذر الحصول على نسخة منه طوال ما يقرب من أربعين عاماً رغم أنه قد طبع مرتين .

والكتاب يتكون من قسمين رئيسيين هما «التاريخ والدليل» متضمنا هنا وهناك الخرائط والمخططات .

فى القسم التاريخى المكرس لهذه المدينة ، يبدأ المؤلف من حيث كيفية تكوين اليابس أو الأرض التى ستنشأ عليها هذه المدينة ، وكيف نمت هذه الأرض الطينية وامتدت ، حتى إن الإسكندر عندما رآها لأول مرة - وهو الباحث عن عاصمة لإمبراطوريته - أعطى أوامره الفورية للمهندس دينوقريطس أن يبنى هنا مدينة يونانية رائعة فى هذا المكان المناسب : ميناء رائع ، مناخ ممتاز ، مياه متجددة ، محاجر للحجر الجيرى ، ومدخل سهل للنيل .

وبلغة شاعرية إيحائية يواصل الكاتب تقديم تاريخ هذه المدينة منذ الإسكندر حتى العصر الحديث ، مستعرضاً حكامها وفنونها وآدابها وفلسفاتها وعلومها وأديانها والصراع الدائر على أرضها بين كثير من التيارات الفلسفية والدينية ، بل وبين الأعراق الجنسية المختلفة .

إنها المدينة «الكوزموبوليتانية» التى يصفها عمرو بن العاص فى رسالته التى بعث بها إلى الخليفة عمر بن الخطاب قائلاً «لقد استوليت على مدينة ، كل مايمكن أن أقول عنها إنها تحوى ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ طريق ، ١٢٠٠ محل للخضار ، ٤٠,٠٠٠ يهودى» ولكنها آلت للإهمال بعد أن استقر العرب فى الفسطاط ، وتمطى ألف عام من الخراب فوق ترابها ، إلى أن عادت إليها الحياة مرة أخرى على يد محمد على ، ثم عانت من الغزو البريطانى فى ١٨٨٢م ، بعد أن مر عليها أو بالقرب منها صراع جنود الحملة الفرنسية سواء مع الإنجليز أو العثمانيين .

صارت المدينة مرة أخرى مدينة كوزموبوليتانية ، صارت موطناً لليونانيين والفرنسيين والإيطاليين والإنجليز وكثير من الأمم التجارية الأخرى الذين يتقاسمون غنائمها ... مدينة تشغى باللغات المختلفة والمصالح المتباينة والأعراق المتمازجة ،

والأمزجة المختلطة لتكون مثالاً نادراً بين المدن ، وهكذا ظلت الإسكندرية حتى رحيل الأجانب عنها فى خمسينات وستينات القرن العشرين ، حيث بدأت المدينة مرحلة جديدة فى تاريخها .

أما الدليل ، فهو مكتوب بأسلوب عملى ، والمقصود منه أن يستخدم على الفور مصحوباً بالخرائط والخطط .

وهو يقدم لنا وصفاً دقيقاً للإسكندرية فى ثمانية فصول ، يشمل الإسكندرية القديمة والحديثة، ويربط ما بين القديم والحديث ، ويظهر الآثار؛ الظاهر منها والباطن ، مبرزاً مسارح الأحداث التاريخية ، وغائصاً فى مياه البحر ليرينا ماغطته المياه من آثار ، وكأنه يريد أن ينبهنا إلى آثارنا المغمورة ، والتى بدأت البعثات الأثرية الأوروبية أخيراً فى انتشال البعض منها . بل وفى دراسة إمكانية إنشاء متحف تحت الماء لهذه الآثار المغمورة ، وهناك بعض الكتب التى صدرت فى السنوات الأخيرة تشير إلى أهمية هذه الآثار ، كما ورد فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٩٨/١٠/٢٦م ، إن هناك كتاباً يحمل عنوان «الإسكندرية .. الأحياء الملكية المغمورة» وهذا الكتاب يضم صوراً نادرة لكنوز كليوباترا التى عثر عليها علماء الآثار المصريون والفرنسيون فى البحر المتوسط أمام الإسكندرية .

وفى هذا القسم أيضاً ، يقدم المؤلف «دليلاً» للمتحف اليونانى الرومانى ، يعتبر من أرقى ما يمكن أن يكتب عن محتويات هذا المتحف ، لأنه ينم عن إحساس فنى تاريخى وأدبى رائع يتسم بالحيوية والمتعة الفائقة ، حيث يعلمنا كيف نقرأ القطع الفنية وكيف نربط بينها وبين تاريخها ونستنتج ما يعطينا المعرفة والإمتاع .

والكتاب يربط ما بين قسميه بإحكام متقن ، فهو عندما يتكلم فى «التاريخ» عن حدث أو عن شخصية أو مكان ... إلخ ، سرعان ما يشير إلى ما يرتبط بهذا الحدث أو تلك الشخصية أو ذلك المكان فى «الدليل» مبيناً رقم الصفحة . بل ومكان المعلومة فيها. ويفعل العكس أيضاً فى «الدليل» حيث يربط بين ما يقدمه هنا وما هو مكتوب فى التاريخ وكأنه بقسميه يريد أن يربط بين الزمان والمكان ، بين النظرى والعملى ، بين التاريخى والأثرى . بين الماضى والحاضر .. إنه حقا من تلك الكتب النادرة التى لم ير مثلها الإنسان كثيراً فى التبويب والتوصيف ، كتاب عن التاريخ ، مكتوب بنفَس روائى لامع وروح شاعرة متلبسة ما تكتب . فتجعلنا نحس أننا أمام «حالة شعر تاريخية

أو حالة تأريخ شعرى لمعشوقة فى تجلياتها المختلفة ، فليس هناك وجه من الوجوه العديدة لهذه المدينة ، ولا ظل من ظلال ألوانها إلا ورصدته عيناه بكل دقة . وصوره قلمه الحساس . ولذا فإنه كثيراً ما يلجأ إلى الشعر تضمينا واستشهاداً سواء كان هذا الشعر عن مصرع كليوباترا فى مسرحية شيكسبير : «أنطونيو وكليوباترا» ، أو مسرحية درايدن : «كل شئ للحب» أو كفافيس فى . «الإله يتخلى عن أنطونيو» . أو حتى مقاطع لشعراء مصريين مثل «الديراوى» فى قصيدته عن الإسكندرية ومنارتها ، وجلال الدين بن مكرم فى قصيدته عن زائر الإسكندرية . وذلك إلى جانب الكثير من النصوص الفلسفية والدينية والأدبية ، لدرجة أنك من الممكن أن تعتبره - بدرجة ما - كتاباً فى الأدب أو فى الفن أو فى الفلسفة أو الدين ، برغم ما يثيره من قضايا فى التاريخ سواء كان قديماً أو حديثاً ، وربما هنا ومن هذه الزاوية يستثير الكثيرين للدخول معه فى حوارات طويلة وجدل متواصل من حيث المنهج وأسلوب التناول ، والنظرة المنبثقة من الرؤية المركزية الأوروبية إلى الحضارات الإنسانية ، باعتبار الثقافة الهيلينية هى أصل كل الثقافات والحضارات متجاهلاً إلى حد كبير دور الحضارة المصرية القديمة ، بل وحضارات الشرق القديمة المتنوعة . والتى بدأ كثير من العلماء المحدثين والمعاصرين فى الغرب ذاته يدركون أفضالها على الحضارة اليونانية ذاتها ، معترفين أن تلك الحضارات صارت سجلاً عظيماً طالعته عبر التاريخ شعوب عديدة ، وكان لبعضها فضل تسطير صفحات منه أو أبواب كاملة وهكذا أخذ اليونان حضارة مصر وحضارات الشام ، وما بين النهرين ، بل وفارس ، والهند ، ثم أثروا هذا التراث فى عبقرية ، ثم كان الإسكندر فكانت الإسكندرية ، وهى البوتقة التى انصهر فيها كل هذا وخرج منها أعظم ما خلفه لنا العالم القديم ، ففيها تعانقت الحضارة المصرية العريقة والعقل اليونانى الذى استطاع أن يستوعب الكثير من المعارف البشرية وأن يضع لها قوانينها ومنطقها الفلسفى ، وعلى ترابها أيضاً تجادلت المسيحية مع التراث الدينى العبرى السابق عليها وامتزجت بالروح القبطية والتاريخ القبطى (أى المصرى) ليكون لمصر فى النهاية دورها الرائد فى الفكر الدينى المسيحى الذى استطاع أن يكون راية خاصة للشعب المصرى يرفعها فى وجه الطغيان الرومانى ، معبراً بها عن نفسه فى مواجهة الوثنية الإمبراطورية ومتحدياً بها أعداءه الظالمين والمستغلين ، مقدماً آلاف الشهداء والكثير من التضحيات التى صارت - على مر الزمان - رمزاً لصمود ووحدة وإباء هذا الشعب المستهدف دائماً عبر التاريخ من كل الإمبراطوريات وكل الجبابرة ، إما لسرقة خيراته المادية أو كنوزه الثقافية والحضارية والفكرية .

هذا هو ما قدمه فورستر فى هذا الكتاب - لكن الناشر أيضاً «مايكل هاج» قام بزيارة إلى مصر فى عام ١٩٧٣م لكى يراجع الكتاب على الواقع ، وقدم عدة ملاحظات قيمة للغاية على الكتاب بقسميه ، وصحح بعض المعلومات التاريخية الواردة فيه بعد اطلاعه على بعض الدراسات التاريخية المعاصرة ، وقدم لنا ربطاً دقيقاً بين دليل فورستر وبين رباعية داريل الذى يقول عن هذا الكتاب «إنه كان رفيقاً مخلصاً لى طوال سنوات عديدة ، أضع عليه ملاحظاتى الفورية الكثيفة... وإننى لاحظت أنه ملطخ بالعرق نظراً لولعى بقراءته وإعادة قراءته» ومن هنا يعتبر «هاج» رباعية داريل مبنية من ناحية ما على الدليل ، حيث جستين وبلتازار ومونتوليف يمثلون أبعاد المكان ، بينما كليا تطلق العنان للزمان . ولذا فإنه اقتبس من الرباعية مايربو على عشرين نصاً ليبين لنا ذلك .

وقدم لنا الناشر أيضاً فصلاً بعنوان «مدينة الكلمات» يستعرض فيه تأثير هذه المدينة بتاريخها على كثير من الكتاب والشعراء والآدباء فى العصر الحديث بدءاً من كفافيس الذى اكتشفه فورستر وقدمه للعالم ، وهو الشاعر اليونانى الذى تعشق هذه المدينة التى ولد فيها لأبوين يونانيين وكتب فيها كل قصائده الرائعة . فهو يقول فى نهاية قصيدته «المدينة» :

سوف تنتهى أنت أيضاً فى هذه المدينة

فلا تأمل فى أى شىء فى مكان آخر

فليس هناك سفينة أو طريق لك

والآن ..

ولأنك ضيعت حياتك هنا

فى هذا الركن الصغير

فأنت قد دمرتها فى أى مكان آخر .. فى هذا العالم .

ويشير الناشر أيضاً إلى «ميرامار» رائعة نجيب محفوظ «فيقول إنه وهو الذى جعل من القاهرة عالمه الأدبى ، قد اختار الإسكندرية لتكون إطاراً لنقده تجاوزات وإخفاقات النظام الناصرى حيث يبدأ روايته بتلك الكلمات . «الإسكندرية أخيراً ، الإسكندرية .. قطر الندى .. نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء

السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع»[1] ثم ينهى الكتاب بإثبات التغيرات التى حدثت فى أسماء الشوارع والميادين ، ومن ناحيتنا فقد قمنا بالربط بين قسمى الكتاب بإثبات الإشارة إلى الصفحات فى كل منهما ، علاوة على إثبات ملاحظات الناشر ووضع هذه العلامة ⊗ عند أى مكان فى قسمى الكتاب به ملاحظة للناشر .

منذ صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى ، والاحتفاء به مازال مستمراً ، سواء كان من هؤلاء الأدباء الذين يمجدونه فى أعمالهم الإبداعية أو من ممثلى التاريخ السياسى المعاصر ، وعلينا هنا أن نختص به - مهما اختلفنا معه - اهتماما ودراسة ونقداً . والدخول معه فى حوارات من أجل التوصل إلى مزيد من الحقائق وامتلاك المزيد من الوعى بتاريخنا والدفاع عن منجزاتنا ودورنا الثقافى والحضارى ، من أجل أن تواصل هويتنا الثقافية ازدهارها وهى تتحاور مع كافة الحضارات والثقافات فى الشرق والغرب وتكتسب كل يوم موقعاً جديداً فى مواجهة الكوكبية والعولة والهيمنة .

وأخيراً .. فإننا ونحن نحتفى بهذا الكتاب ونقدمه للقراء المصريين والعرب ، سوف تحتفل مصر قريبا بافتتاح مكتبة الإسكندرية الجديدة ، التى نأمل أن تعطى ثمارها على مر الأيام وتساهم فى إحياء الينبوع السحرى أيضاً بالعمل الدائم على إذكاء روح الاستنارة والتضامن الإنسانى من أجل المزيد والمزيد من الإبداع الحر لكل الشعوب .. ونأمل أن تكون الإسكندرية مرة أخرى منارة للعلم والمعرفة .

المترجم

---

(١) نظراً لخصوبة هذه الحقبة من تاريخ مصر والإسكندرية ؛ فقد توالى شوامخ الشعراء وكتاب الدراما فى تناولها فى أعمالهم ، فعلاوة عن شيكسبير ، ودرايدن ، كان هناك برناردشو فى الإنجليزية ، ثم عملاق المسرح الفرنسى الكلاسيكى . راسين وكورنى ؛ حيث كتب راسين تراچيديا برتيس فى ١٦٧٠م ، وكتب كورنى، تبت وبرنيس ، ثم هناك شاعرنا المصرى أحمد شوقى ، ومسرحيته مصرع كليوباترا ... الخ - المترجم .

مقدمة الطبعة الأخيرة

للورنس داريل

(١٩٨٢م)

إن هذا الكتاب أجدر من أن يكون مجرد عمل أدبي مكرس لهـذه المدينة العجيبة - المثيرة للعواطف والذكريات - المسماة بالإسكندرية · إنه ينجح بأسلوبه فى أن يكون عملاً فنياً صغيراً ، فهو يحتوى على بعض من أفضل كتابات فورستر النثرية ، بالإضافة إلى لمسات من لباقة التعبير ، التى لايمكن أن يمتلكها إلا روائى ذو موهبة عظيمة . إننى أشعر أن هذا الكاتب - الذى أسرته هذه المدينة أثناء الحرب العالمية الأولى - كان ولابد فى منتهى السعادة ، بل ربما كان فى قمة الشعور بالحب ، ففرحته بالحياة كانت تنسج حوله خيوطها الرقيقة .

ليس هنـــاك وجه من الوجوه العـــديدة لهذه المدينة ، ولا ظل من ظلال ألوانها ، إلا ورصدته عيناه بكل دقة وصوره قلمه الحساس .

وعلى «النقيض» من ذلك ، إن كانت هذه هى الكلمة الملائمة ، فهذا الكتاب مفعم بالشعور بالوحدة لرجل مثقف يحدّث نفسه وهو يتجول وحيداً . يقول فورستر «إن الطريقة المثلى لرؤية هذه المدينة ، هى أن تتجول فيهـا فى هدوء وبلا هدف» ياله من اكتشاف حقيقى ورائع . فبمجرد زوال الشعور بالغربة ، يجد العقل بغيته فى التعرف على مدينة الأحلام - الإسكندرية - حيث ينمو ويتأكد هذا التعرف على هذا الميناء الصغير الذى يطل على البحر المتوسط ، والذى يبدو مألوفاً إلى حد مـا حتى لمن لم يعرفه ، إنها تلعب دوراً غير مقصود كعاصمة ثانية لمصر وهى الراحة الوحيدة التى يجدها ساكن القاهرة - تلك المدينة الرابضة كعدسة حارقة بين صحاريها .

إن الإسكندرية تطل على بحر حالم ، فأمواجه الهوميرية تتدافع وترتد ، يحركها النسيم العليل من رودس وبحر إيجه . إن التنزه على شاطئ الإسكندرية يشعرك على الفور وكأنك تسير على حافة الهاوية ، ما السبب فى ذلك ؟ إنه ليس فقط تلك المدينة الإغريقية الحزينة الماثلة أمامك ، وإنما أيضاً تلك الخلفية من الصحارى الممتدة إلى قلب أفريقيا ، إنها مكان الفراق الدرامى ، والقرارات النهائية والأفكار الأخيرة ، كل منا يشعر بنفسه ، مندفعاً إلى أبعد حد ، إلى نهاية قدرته على الاحتمال ؛ فيتحول

الناس إما إلى رهبان وراهبات أوشهوانيين أو نساك وذلك دون أى إنذار . وكما يختفى الكثيرون ببساطة ، يموتون هنا صراحة . إن المدينة لا تفعل شيئاً ! إنك فقط لا تسمع شيئاً سوى ضوضاء البحر وأصداء التاريخ العجيب .

لقد اعتدنا أن نعتقد أن فورستر ونظراءه ذوو أسلوب بارع ، يمثل العصر الفضى(*) ، إلا أنه ليس من الصعب أن نتتبع هذه السلسلة من الكتاب التى تبدأ من سويفت «swift» ونرى كيف يتميز أسلوبها بالوضوح وبالشفافية وبالكياسة ، وبالرغم من عفوية هذا الأسلوب وجماله التلقائى إلا أنه حاد ولاذع ، وهنا نتذكر استراتشى (Strachy) أو نورمان دوجلاس (Norman Douglas) . خاصة هذا الأخير الذى قام بنفس المهمة لمدينة : كابرى . مثلما فعل فورستر مع الإسكندرية فى كتابه هذا ، إلا أن كتاب دوجلاس يبدأ بمسح چيولوچى لكل شبر من أرض المدينة ، والله وحده يعلم ماذا سينتج عن مثل هذا المسح لو تم فى مدينة الإسكندرية ، أى فى هذه الأرض المعبأة بالذخائر التاريخية الثمينة . .

لقد وصلت إلى هنا فى (١٩٤١م) بعد تحرير هذا الكتاب بثلاثة وعشرين عاماً وبعد ثمانى سنوات من موت الشاعر العظيم قسطنطين كفافيس الذى كان صديقاً لفورستر .

وياللعجب .. إنى لا أستطيع أن أدرك أن شيئاً ما قد تغير . فلقد كنت قادراً على مدى سنتين أن أتجول بين صفحات هذا الكتاب ، مستخدماً إياه بالقداسة التى يستحقها ، ومستعيراً الكثير من ومضات حكمته كى تتزايد ملاحظات الرواية التى كنت آمل أن أكتبها ذات يوم .

إن التغيير الحقيقى والوحيد ، الذى أستطيع أن أحدده ، هو ذلك الكرسى الشاغر فى المقهى المفضل للشاعر . لكن حلقة الأصدقاء مازالت متصلة من رجال أمثال مالانوس (Malanos) وبتريدس (Petrides) ، وهما ضمن من كتبوا أخيراً عن صديقهم الفريد .. وهم جميعاً قد ألمحوا إلى تلك المدينة الخيالية التى تتوارى تحت هذه المدينة العادية .

كانت الإسكندرية تبدو لأغلب الناس كمكان باهت ، به فقط طرق جيدة ، وكثير من المطاعم الفرنسية التى تروق لهم ، وهم يكررون دائماً : «لاشىء هناك يمكن أن يرى»

(*) العصر الفضى . يقصد فترة من التاريخ الأدبى تتميز بمنجزات هامة ، ولكنها ثانوية بالنسبة لمنجزات عصر ذهبى - المترجم .

وهذا أيضاً كان حقيقياً . فعمود بومبى كان كارثة جمالية ، ومكان جزيرة فاروس صار خارج نطاق المدينة ، ومقبرة الإسكندر توارت تحت آلاف التخمينات . لكن المدينة ظلت لكثير من بحارتنا وكأنها إينوستوس «ميناء العودة الآمنة» كما كانت فى عهد هوميروس .

والمؤلف قدم لنا فكرة عن التاريخ المعقد لطبع الكتاب ، حيث قام به واحد من أصحاب المطابع الذى لم تكن لديه أى قنوات تقليدية لتوزيع الكتاب . وبالتالى كان من الصعب الحصول على نسخة منه ، وحتى الطبعة الثانية التى ظهرت فى ١٩٣٨م لم يكن من السهل الحصول على نسخة منها أيضاً من أى من المكتبات . وبسلسلة من المحاولات التى توافرت إلى من خبرتى ، استطعت أن أضمن على الأقل - الحصول على نسختى التى ظللت أحملها لعدة سنوات ، واضعاً عليها ملاحظاتى الفورية الكثيفة . لقد كان هذا الكتاب رفيقاً مخلصاً شأنه شأن كتاب «لين» «المصريون المحدثون»(*) الذى يعتبر دليلاً ممتازاً لمدينة القاهرة وبينما كنت أحزم هذين الكتابين لأرسلهما لإحدى الجامعات الأمريكية ، لاحظت أنهما كانا ملطخين بالعرق ، وكان هذا دون شك دليلاً على ولعى بقراءتهما وإعادة قراءتهما .

وبالطبع ، فإن مدينة الإسكندرية الكلاسيكية التى نتكلم عنها ، ماهى إلا صدى تاريخى - كيف كان ذلك ؟ لقد انزلقت المدينة الشهيرة المتألقة إلى النسيان بوصول عمرو بن العاص وهو وفرسانه من العرب ، وزحفت فوقها الكثبان الرملية وغطتها .. وتمطى ألف عام أو يزيد من الصمت والإهمال ، ما بين عمرو ونابليون .. لقد كانت من إبداع الإنسان ، ولدت من هوى الفتى الإسكندر الذى لم يعش ليراها وهى تتحقق فى الواقع ، ولكن جسده قد أحضر ليدفن فى قلبها ، كى يصبح إلهها الحارس .

فى الرسالة التى بعث بها عمرو إلى خليفته العربى ، وذكر فيها غزوه لهذه المدينة ، كتب فى إيجاز جميل «لقد استوليت على مدينة كل مايمكن أن أقول عنها ، إنها تحوى ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ طريق ، ٤٠٠ مسرح ، ١٢٠٠ محل للخضار ، ٤٠٠٠٠ يهودى» لم يتبق من هذا الجمال الفائق أى أثر ، ليقوم بتحية فورستر عندما خطى أولى خطواته

(*) يقصد كتاب إدوارد وليم لين المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم وهو مترجم إلى العربية منذ ١٩٥٠م وصدرت منه طبعتان ١٩٥٠ ، ١٩٧٥م والثالثة أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة ذاكرة الكتابة ١٩٩٨ - المترجم .

على الشاطىء فى ١٩١٥م ، ولكن كانت هناك مدينة صغيرة، يتقاسم مغانمها اليونانيون والفرنسيون والإيطاليون وكثير من الأمم التجارية الأخرى ، ولكنها لو قورنت بسانت تروبيز - ذلك المنتجع الفرنسى الصغير - أو ببيروت - تلك المدينة الشرقية - فإنها سوف تتفوق عليهما ، كانت بها مدارس جديدة بالإضافة إلى المدرسة اليونانية والمدرسة البريطانية العامة ، وقدمت هذه المدارس الكثير من أجل التحدث باللغة الإنجليزية ببراعة فى هذه المدينة .

وإنه لعمل يدعو للألم ، أن نستحضر قصة هذه المدينة حتى ١٩٧٧م وهو تاريخ آخر زياراتى لها ، فالكثير مما تركته فيها قد زال ، والأجانب من طائفة رجال الأعمال يتزايدون واللغات الخمس التى كانت مستخدمة هنا بشكل طبيعى فى المعاملات فى الإسكندرية قد اختفت تماماً وصار الميناء مجرد مقبرة بلا حياة ، وبلا حركة تنعشه ، فغزل عبد الناصر الطويل للشيوعية قد أنتج أثره الحتمى المميت ، والثورة الثقافية الصينية التى خلبت لب طالبات الجامعة سرعان ماخبا سحرها .

فاتر الهمة ، وبلا روح .. يذهب رجل الأعمال المعاصر اليوم لأداء مهامه دون أى حماس . والمقاهى مازالت تحمل أسماءها القديمة ؛ باستوريدس ، بسودرو ، لكنها بلا زبائن تجعلها تتلألأ بالضياء والموسيقى .

كل الملصقات والإعلانات الأجنبية قد اختفت ، فكل شىء هنا مكتوب بالعربية فى زماننا هذا . إلا أن أفيشات الأفلام الأجنبية مكتوبة بعدة لغات ، وبعناوين فرعية باللغة العربية ، والآن فإن الرتابة المملة هى ما يسود فى هذه المدينة . وإنه لمن دواعى الغضب أن تجد كل الأدوية فى الصيدليات معروضة بأسمائها العربية فقط ! حاول أن تحصل على بعض الإسبرين أو أقراص للحلق وسترى ما سوف يحدث(١) .

هناك فى غرفتى القديمة المألوفة فى فندق سيسل قضيت أسبوعاً ، لقد صارت الآن مجردة من كل أبهتها ، يتردد داخلها صوت رياح البحر الآتى من تحت الأبواب أو من خلال النوافذ .

إننى رجل بلا جذور ، سواء كان هذا بسبب أصولى الوراثية ، أو من خلال تجاربى فى الحياة وثقافتى الخاصة . وعندما جئت إلى هنا لم يكن هناك أبداً أى سبب لتوقع انتهاء الحرب ، أو أننى سوف أغادر مصر يوماً ما ، وإنه لمن حسن الحظ أننى كنت بلا جذور ، بسبب أصولى الوراثية وبسبب تجاربى فى الحياة وثقافتى الخاصة .. إننى فقط مجرد ساكن لمستعمرة .

---

(١) كل هذا قد تغير الآن وأصبحت المدينة منفتحة على الثقافات واللغات المختلفة - المترجم .

وإنه لمن الغريب أن فورستر ابن الأصول الإنجليزية الطيبة - كان عليه أن يستجيب لغربته بهذا الشكل الإيجابى ، واضعاً لنفسه جذوراً جديدة فى هذه التربة الغريبة ، وإننا نحن الرابحون من هذا حقاً .

كان كفافيس يسكن شقة صغيرة هنا ذات يوم ، صارت الآن بنسيوناً صغيراً من ذلك النوع الموصوف فى كثير من روايات الشرق الأوسط ، بنسيوناً متواضعاً بل ورثًا إلى حد ما ، لكن كتبه وأثاثه تم إنقاذها وترتيبها فى متحف صغير تم انشاؤه لهذا الغرض فى الطابق الأعلى من القنصلية اليونانية ، ولكى يقوم المرء بزيارته ، عليه أن يركب الترام الصغير القديم الذى يرتج ويقرقع ، وهو ممتلئ بهؤلاء المزوغين المتعلقين على جانبيه ، والذين يختفون بمجرد رؤيتهم لوجه المفتش . كم هى رائعة تلك الحجرة الصغيرة الخاصة بكفافيس والتى تم إنشاؤها فى مبنى القنصلية الطلق الهواء ، إنك هنا تستطيع أن تجلس على ذات المكتب الذى خط عليه «تلك القصائد الشهيرة : إيثاكا ، البرابرة ، الإله يتخلى عن أنطونيو .. أو قصيدة «المدينة» وهى تعتبر من أفضل هذه القصائد ، بل هى تعتبر الأثر الحقيقى الذى أبدعه لمدينة الإسكندرية الحديثة ، ويمكنك أن تتصفح بعض كتبه وتحس أنه لم يكن يمتلك الكثير منها ، وأنه كثيراً ما جلس على هذه المقاعد والكراسى غير المريحة وهى من طراز بيزنطى حديث كانت تعتبره بيوت الطبقة المتوسطة «موضة» فى هذه الفترة من الزمان .

وإنه لمن سوء الحظ أن يكون التمثال النصفى الوحيد لهذا الشاعر غير جميل ، ولكنه - وبشكل عام - كان وسيلة للتعبير عن الإجلال والتوقير لهذا السكندرى العظيم .

وللمرة الثانية تنزلق الإسكندرية إلى النسيان .. يجب أن تغفروا لى هذا الاكتشاف ؛ وهو أن المدينة الحالية تئن أمام تأثير المحن ، خاصة عندما يفكر المرء فى كنوز القاهرة ، أو النمو الزراعى الهائل ، أو فى الآثار القديمة التى تعطى صعيد مصر سمعته الرنانة . - ربما على مر الأيام تأتى الأحداث السعيدة مرة أخرى ، مجددة للينبوع السحرى وجاعلة إياه مثيراً لذكريات وعواطف جيل جديد من الشعراء .

أبو لونيوس ، ثيوكريتس - كفافيس ؛ إنهم يدفعون المرء كى يؤمن بمستقبل كهذا ، بالرغم من مظاهر اليوم .

لورنس داريل

مقدمة فورستر لطبعة ١٩٦١م

ظهرت إلى الوجود طبعتان لهذا الكتاب ، وهذه هى الطبعة الثالثة ، وهنا أنتهز الفرصة لأسرد حكاية صغيرة ولكنها معقدة .

أثناء الحرب العالمية الأولى ، عندما كنت أعمل فى الإسكندرية متطوعاً فى الصليب الأحمر ، كتبت نص الطبعة الأولى ، وهى الطبعة المقدمة هنا الآن .

لقد وصلت إلى الإسكندرية فى خريف ١٩١٥م ، وكنت فى مزاج بطولى إلى حد ما . وكان يتهددنا الغزو التركى ، وبالرغم من كونى شخصاً مدنياً إلا أننى وجدت نفسى فى خط المواجهة ، وبانتهاء التهديد تغير مزاجى . وما كان فى البداية مركزا للمواجهة الأمامية ، تحول فى ارتياب إلى شئ ما يشبه المخبأ ! وهنا التصقت بها لأكثر من ثلاث سنوات ؛ زائراً للمستشفيات ، وجامعاً للمعلومات ، وكاتباً للتقارير . «يالك من مثابر عجيب !» هذا ما قاله لى بجفاء ذلك الكولونيل المقيت الذى يعمل فى الصليب الأحمر ، ولقد كنت ذلك المثابر فعلاً ، ولكنى لم أجرؤ على الرد السريع الحاسم عليه لأن ما قاله لى يحتوى معنى المثابر والمتسلق الذى يسعى إلى تحقيق أغراضه .

لقد كنت أنا نفسى أرتدى زى ضابط أيضاً ، ولكنهم سمحوا لى بأن أخلع هذا الزى بين الحين والآخر ، ولذا استطعت أن أدرك سحر هذه المدينة وعراقتها وتعقيدها ، فقررت الكتابة عنها وخطرت على ذهنى فكرة الدليل ، لأنى كنت دائماً أقدر كتب الدليل وخاصة الكتب القديمة منها مثل كتب بيدكرز ، وموريز (Baedekers and Murrays) ثم حاولت كتابة بعضا من التاريخ طبقاً للأسلوب الموضح فيما بعد . ولقد شجعنى أصدقائى ؛ وكان منهم الإنجليزى واليونانى والأمريكى والفرنسى والإيطالى والنرويجى والسورى والمصرى ، وانهمكت فى الحياة الشرقية ، وعلى خاطرى كان يرد كل ما رأيته من مناظر أثناء تجوالى بالترام أو أثناء سيرى على الأقدام ، أو كنت متمشياً على شاطئ البحر البهيج . فعلى سبيل المثال ، كنت أضاعف ارتفاع قلعة قايتباى أربع مرات متخيلاً «فاروس» التى كانت تقف هناك فى ذات الموقع ، وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين ، كنت أتخيل صورة مقبرة الإسكندر الأكبر وكنت أتتبع الإسكندر فى خيالى حتى سيوه ، واحة كبير الآلهة آمون ، حيث تم تكريسه كابن للإله كما كنت أتتبع الرهبان أيضاً إلى وادى النطرون الموحش، حيث ثاروا وقتلوا هيباتيا . هذا كله حسن ، ولكن كيف يمكن طباعته ؟ ها هو شئ من حسن الحظ المدهش يصادفنى ، كان هناك محل

متواضع يبيع الأدوات المكتبية فى شارع شريف باشا - إذا كان الشارع مازال يحمل نفس - الاسم اليوم⊗ - ولكنه فى الواقع كان هو الفرع السكندرى لإحدى دور النشر اللندنية تسمى مسرزهوايتهد موريس أوف تورهيل (Messrs Crhitehead Marris of Tower Hill) ولقد سمع مستر مان Mann المدير المحلى لهذا الفرع عن مشروعى ، واهتم به بالرغم من كونه يقع خارج نطاق عمله المعتاد .

كان هناك الكثير من التأجيلات والتسويفات وبعض الاختلافات فى الرأى ، ولكن الكتاب تم طبعه بالفعل بعد الحرب ، وبعد عودتى إلى انجلترا فى ١٩٢٢م .

وبعد الطبع مباشرة حدثت كارثة ، فقد احترقت كل الطبعة تقريباً نتيجة للحريق الذى نشب فى المخازن، وهذا هو السبب فى ندرة نسخ هذه الطبعة⊗ .. لقد كانت حقاً نكسة محزنة ، وبعد سنوات قلائل ، وبينما كنت ماراً بالإسكندرية فى طريق عودتى من جنوب أفريقيا ضللت طريقى بالفعل بمجرد خروجى من المحطة الجديدة للقطارات ، وكم كانت تجربة مخزية لكاتب الدليل ! ، إننى حتى لم أستطع أن أعرف طريقى فى مدينتى ! وبدا الأمر لى كما لو أن طبعة جديدة تنادينى ، بالرغم من أنه لم يكن هناك أى نداء مسموع ، وبالرغم من أننى لم أستطع أن أقوم بعمل المراجعة . لكن الإسكندرية لم يتغير فيها أى شىء ، لقد كانت ومازالت مدينة الأصدقاء الذين يودون فى إيثار أن ينحُّوا أعمالهم جانباً كى يساعدوا الآخرين ، فاستطاعوا أن يقوموا بتحديث القسم الخاص بالدليل من الكتاب وذلك بزيارة كل المواقع والأماكن التى تم ذكرها ، وقاموا بتصحيح الأخطاء الواردة فى القسم الخاص بالتاريخ ، وصدرت هذه الطبعة فى ١٩٣٨م مرة أخرى تحت رعاية فرع مسرزهوايتهد موريس فى الإسكندرية ، وهذه الطبعة لم تحقق مبيعات كثيرة ، ربما بسبب بداية الحرب العالمية الثانية فى العام التالى ، وصارت نسخها نادرة جداً ، فاقترح على بعض الأصدقاء أن أقدم طبعة جديدة محلية ، وأشاروا على بضرورة القيام ببعض التعديلات ، حتى لايثير الكتاب بعض الحساسيات القومية لدى المصريين ، ولقد كنت واثقاً أنه سوف يثير هذه الحساسيات ، فنادراً ما تكون هناك حساسيات قومية غير مؤذية ، ولكن الإسكندرية هى المكان الوحيد الذى لن يتأذى من هذا الكتاب لأنها على امتداد ألفى عام من عمرها لم تأخذ أى حساسيات قومية بجدية تامة .

وهذا ما يعيدنى إلى كفافيس ، هذا الشاعر اليونانى العظيم الذى عبر بشاعرية ضارة مدينته المختارة ، والتى كانت صداقته لى هى إحدى مباهج تلك السنين .

لم يكن كفافيس معروفاً على نطاق واسع وكانت ترجمة صديقنا چورچ فالاسوبولو (George Valassopoulo) لقصيدة «الإلة يتخلى عن أنطونيو» هى بداية التعرف عليه باللغة الإنجليزية ، وقد تمت ترجمة أعماله بالكامل وامُتدحت على نطاق واسع ، وخاصة من مستر لورنس داريل (Lawrence Durrell) وهو العاشق الآخر للإسكندرية ، وقد أهديت الطبعة الثانية من هذا الكتاب لكفافيس بعد وفاته أما الطبعة الأولى فكانت مهداة إلى . ج . هـ . لودولف (G. H. Ludolf) وهو واحد من الكثيرين الذين ساعدونى .

أما الطبعة الحالية ؛ فقد صدرت عن دار نشر مسرز والترهوايتهد ليمتد ممثلى مسرز هوايتهد موريس .

وختاماً ، فإن هذا الكتاب ليس هو تحية الإجلال الوحيدة التى أقدمها للإسكندرية فهناك أيضاً «فاروس وفاريلون» وهو مجلد يحتوى على عدة مقالات صدر فى ١٩٢٣م عن دار النشر «مسرز أ. كنوف (Messvs A. Knopf) فى الولايات المتحدة وأيضاً عن مؤسسة هوجرت (Hogarth) للطباعة والنشر فى إنجلترا .

ا. م. فورستر

كامبريدج . إنجلترا ١٩٦٠م

تصـــديــر

يتكون هذا الكتاب من قسمين : التاريخ والدليل

ويحاول التاريخ بأسلوب احتفائي - تقديم نشاطات الإسكندرية خلال ألفين ومائتين وخمسين عاماً من وجودها .. إنه يستعرض سلالة البطالمة بادئاً بالمظهر البطولى للإسكندر الأكبر ، ومبرزاً بشكل خاص سيرة آخرهم : كليوباترا ، ثم يلى ذلك عرضاً للأدب والعلوم البطلمية ثم ينهى هذه الفترة الرائعة التى أعطيتها الاسم التالى : «العصر اليونانى المصرى» أما العصر الثانى فقد أسميته «العصر المسيحى» وهو يبدأ بحكم روما ، ويتتبع خط سير المسيحية أولا كقوة مقهورة ثم كقوة قاهرة ، حيث فقدت الإسكندرية كل ذلك عام ٦٤١م . عندما سلمها البطريرك سيرس (المقوقس) . ثم يأتى فصل عن المدينة الروحية ، يستغرق فى تأمل الفلسفة والدين السكندرى وثنيا كان أو مسيحياً ، وإنه لمن الأفضل أن نعطى هذه المواضيع حيزاً متواضعاً لأنها تعترض المسار التاريخى الرئيسى ، ولأن العديد من القراء لا يهتمون بها .

لقد اختصرت تاريخ العصر العربى ، لأنه لا أهمية له بالرغم من امتداده لأكثر من ألف سنة ؛ من عمرو حتى نابليون .

ومن نابليون .. يبدأ العصر الحديث ، الذى يتمثل ملمحه الأساسى فى بناء المدينة التى نراها الآن ، وهذا هو ما تم تحت رعاية محمد على . إن هذه التجليات التاريخية تنتهى كما ينبغى أن تكون ، مع رواية أحداث عام ١٨٨٢م ، ومع توقعات النمو المحلى للمدينة فى المستقبل⊗ .

لقد كتبت التاريخ فى فصول مختصرة ، وفى نهاية كل منها إشارة للقسم الثانى (الدليل) والفائدة الأساسية لهذا الكتاب تعتمد على هذه الإشارات ، ولهذا نوصى القارئ أن يعطيها اهتماماً خاصاً لأنها قد تساعده فى ربط الماضى بالحاضر ؛ فلو افترضنا على سبيل المثال أنه قرأ فى تاريخ «فاروس» فسوف يجد فى نهاية القسم إشارة إلى قلعة قايتباى حيث كانت فاروس .

وفى نهاية تاريخ أبو صير توجد إشارة إلى نسخة لنموذج مصغر لها فى غرفة العملات فى المتحف ، حيث تعرض عملات دوميتان وهادريان .

أو لو افترضنا للمرة الثانية أنه قرأ ما قدمه التاريخ عن المصير المؤلم لهيباتيا ، فسنجد فى النهاية إشارة إلى السيزريوم ، حيث قتلت هيباتيا ، ولوادى النطرون حيث عاش الرهبان الذين قتلوها .

وعند الكلام عن الانتصارات البريطانية فى ١٨٠١م ستتم الإشارة إلى المناطق التى مـرت عليهـا القـوات البريطـانية إلى مقـبرة أبركـرومبى (Abercrombie) فى سيدى جابر ، وإلى شاهد القبر فى ساحة البطريركية اليونانية .

إن مشاهد الإسكندرية ليست ممتعة فى حد ذاتها ، ولكن لأنها تشد انتباهنا إلى الماضى كلما اقتربنا منها ، وهذا هو ما حاولت أن أقوم به فى الترتيب المزدوج للتاريخ والدليل .

والدليل لا يستدعى عمـل مقدمة ، لأنه مكتـوب بأسلوب عملى ، فالمقصـود به ، هو أن يُستخدم على الفور مصحوباً بالخرائط والخطط⊗ .

وتنقسم المدينة إلى أقسـام ، ويبـدأ الزائر فى كل الأحوال من الميدان ، وباقى الأقسام تتعلق بالضواحى وبالريف المحيط حتى رشيد شرقاً وأبو صير غرباً .

أما بالنسبة للأسماء العربية فقد فضلت كتابتها باللغة الفرنسية ، حيث إن هناك ثلاثة أنظمة إنجليزية كل منها يرجع إلى إدارة حكومية مختلفة ، ولذا فإن الفرنسية تبدو لى هى اللغة الأكثر دقة ، وإن لم أكن قد التزمت بها بصرامة ، إلا أننى سرت فقط وفق نظام بلدية الإسكندرية بصورة ما .

ويزحف «التاريخ» هنا وهناك ليتداخل مع «الدليل» وخصوصاً فى حالة «أبو قير» التى بالرغم من اعتـماد مصـيرها على الإسكندرية ، إلا أنهـا أى «أبو قيـر» تحـمل ملامحها الخاصة .

المـــراجـــع

لا توجـد على حـد علمى أى دراسـة عن الإسكندرية ، وبالرغم من ذلك لايمكننا الادعاء بأن هذا الكتاب الصغير الذى نقدمه اليوم بحث مبتكر .. إنه فقط يحتوى على الكثير من المعلومات التى ظلت مبعثرة حتى اليوم .

وقد تم الرجوع إلى الأعمال التالية بالإضافة إلى مراجع أخرى ، مع ملاحظة أننا قد ميزنا الأعمال التى تم طبعها محلياً(*) بوضع نجمة أمامها .

أولا - التـاريخ :

١ - العصر البطلمى : تم الرجوع إلى : بوشيه لكليرك فى كتابه :

"Bouché-leclercq, Histoire des Lagides".

وهو عمل أكاديمى رائع من أربعة أجزاء .

٢ - أما الأدب البطلمى : فقد تم الرجوع إلى : أ . كواه فى كتابه :

"A. Couat, la poésie Alexandrine".

وهو كتاب جيد .

وكتاب ثيوكريتس "Theocritus" ترجمة أ . لانج "A. Lang" .

٣ - العصر المسيحى : ليس هناك عمل مرض . ولكن يمكن الرجوع إلى الجزء الثانى من كتاب «تاريخ مصر حتى الغزو العربى» "S. Sharpe, History of Egypt until the Arab Conquest" - والفصل الحادى والعشرون والفصل السابع والأربعون من كتاب "Gibbon" قصة الكنيسة فى مصر "Mrs - Butcher, The Story of the Church in Egypt" . وهو كتاب وافر المعلومات ، إلا أنه مطنب ولا يحمل وجهة نظر نقدية .

٤ - الغزو العربى : كتاب «الغزو العربى لمصر : أ . ج . بتلر

"A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt".

وهو دراسة على أعلى قدر من الجدارة ، ومكتوب بأسلوب عبقرى ، وقد أعاد صياغة الأحداث بشكل عملى .

---

(١) يقصد المطبوعة فى بريطانيا - المترجم .

٥ – الفكر اليهودى : "E. Herriot, Philon le Juif".

٦ – الأفلاطونية المحدثة : أعمال مختلفة . وقد تم الرجوع إلى مقدمة س. ماكينا لأفلوطين فى كتابه «ترجمة التاسوعات» جـزء (I) "S. Mckenna, Translation of the Enneads" (I) وهى ترجمة رائعة مازالت تحت الطبع .

– رسالة بورفيرى لمارسيلا . ترجمة أ . جاردنر .

"Porphyry's letter to Marcella" (Translated. A. Gardner).

وهو كتاب ممتع أيضاً .

٧ – اللاهوت المسيحى : انظر العصر المسيحى . ويمكن قراءة الأصول فى المكتبة المسيحية المسماة "The Ante - Nicene Christian Library" .

٨ – العصر العربى : وهو غامض جداً حتى إننا لم نتمكن من الحصول على كتب عنه .

٩ – الحروب النابوليونية : «ماهان . تأثير القوات البحرية على الثورة الفرنسية» . والفصل التاسع والعاشر "Mahan, Influence of Sea Power upon the French revolution"

– «ر. ت. ويلسون . تاريخ الحملة البريطانية على مصر» .

"R. T. Wilson, History of the British expedition to Egypt".

انظر أيضاً – فى الدليل – ماكتب عن أبو قير .

١٠– التاريخ الحديث العام : «د. أ. كاميرون . مصر فى القرن التاسع عشر» .

"D. A. Cameron. Egypt in The nineteenth century".

وهو كتاب جيد ، من تأليف القنصل العام الأسبق(*) بالإسكندرية ، ويحتوى على تفاصيل جيدة عن عصر محمد على .

ومن الأعمال التى تعد هامة أيضاً أعمال اللورد كرومر ، وأعمال و. س. بلونت "W. S. Blunt" وأعمال السير ف . كيرول "Sir V. Chirol" .

١١ – أحداث ١٨٨٢م: «ك. رويل. الحملات المصرية – "C. Royle, The Egyptian Campaigns" ومن المكن هنا أن نشير إلى روايتين ومسرحيتين يتعرض كل منهما إلى التاريخ .

فقد ألهمت سيرة كليوباترا اثنين من شعراء التراچيديا المتميزين وهما : شكسبير فى مسرحيته «أنطونيو وكليوباترا» ، ودرايدن فى مسرحيته «كل شئ للحب» "All For Love" ، وقد قدمنا مقتطفات منهما فى صفحات ، ومن المؤكد أن رائعة درايدن أكثر شهرة ، فهى أكثر حركة ، وأبرع صياغة ، وتحتوى على بعض المشاهد الرائعة .

ورواية بيير لويس «أفروديت» "Pierre Loüys, Aphrodite" تتعرض هى أيضاً لهذه الفترة ، ولكن بأسلوب باريسى ذى سمات خاصة .

ورواية «تاييس» لأناتول فرانس "Anatole Frans, Thaise" تصور الحياة فى القرن الرابع الميلادى ، وتفاصيلها تمتاز بالحيوية وبالدقة معاً ، وتقدم عملاً فنياً متكاملاً .

وعن بدايات القرن الخامس الميلادى ، هناك كتاب يدعى «هيباتيا» لتشارلز كنجسلى "Charles Kingsley, Hypatia" .

وهو عبارة عن قصة مثيرة تدور أحداثها حول الصراع الأخير بين الوثنية والمسيحية وقراءة كنجسلى دائماً ممتعة ، ولكن مزاجه الفظ والمخادع كان عاجزاً عن فهم الإسكندرية .

وتوجد روايتان جيدتان لمارمادوك بكتال تتناولان بعض أحداث العصر الحديث . "Marmaduke Pickthall".

وهما: «قال الصياد» "Said The Fisherman" ، «وأبناء النيل» "Children of The Nile".

ثانياً - الدليل :

١ - «إ . بريشيا[*] . الإسكندرية ومصر» "E. Breccia, Alexandrea ad Aegyptum" .

(النسخة الفرنسية) ، وقد تم نشر الترجمة الإنجليزية . وهذا الكتاب يتعرض أساساً للآثار الكلاسيكية ، ويحتوى على جزءين - يتناول الجزء الأول الآثار الموجودة بالمدينة وضواحيها ، بينما يتعرض الجزء الثانى للمتحف اليونانى الرومانى . وكان البرفيسور بريشيا من أمناء المتحف البارزين . وأنا ممتن لهذا الكتاب الأكاديمى الممتاز ، وخاصة للأجزاء التالية :

المتحف اليونانى الرومانى- مقابر الأنفوشى وكوم الشقافة - السيرابيوم - أبو صير .

٢ - ميناء ما قبل التاريخ : «إ . چونديه . الموانى المغمورة لجزيرة فاروس القديمة» .

"E. Jondet, Les Ports Submergés de l'ancienne Isle de Pharos".

وهو عبارة عن دراسة لكشف هذا الميناء . ويحتوى على خرائط رائعة .

٣ - فاروس وقلعة قايتباى : «هـ . ثيرش . فاروس : أثر إسلامى وغربى» .

"H. Thiersch, Pharos, antike Islam und Occident".

وهو عبارة عن دراسة قيمة ، ولكن تتبدى فيه عيوب ومميزات المدرسة الألمانية .

٤ - كانوبس وأبو قير : «چ . فيڤر(*) . كانوبس ومينوثيس وأبو قير» .

"J. Faivre, Canopus, Menouthis, Aboukir".

صادر بالفرنسية والإنجليزية .

- «ر. د. داونز(*) . تاريخ كانوبس» .

"R. D. Downes, A History of Canopus".

وهما كتيبان رائعان ، يكمل أحدهما الآخر ، يتناول الأول الشواهد الأدبية ، أما الثانى فيختص بأسلوب الطباعة .

٥ - رشيد : «ماكس هيرزبك(*) . مساجد رشيد» .

"Max Herz Bey, Les Mosqués de Rosette".

(مقالات متنوعة عن تقارير لجنة الحفاظ على الآثار العربية) .

٦ - القديس مينا : «ك . م . كوفمان(*) . اكتشاف الأماكن المقدسة فى ميناس» .

"C. M. Koufmann, La Decouverte des Sanctuaires de Menas".

٧ - أديرة النطرون : « أ . ج . بتلر . الكنائس القبطية القديمة» .

"A. J. Butler, Ancient Coptic Churches".

وقد ساعدنى الكثير من الأصدقاء ، وأود أن أشكر منهم بشكل خاص :

- السيد چورچ أنطونيوس (Mr. George Antonius) لمساعدته لى فى التعرف على مساجد الإسكندرية . تلك الأبنية المتعة ، والتى لا يُعرف عنها سوى القليل .

- السيد م. س. برجز (Mr. M. S. Briggs) لمساعدته لى فى الجزء الخاص برشيد .
- الدكتور أ. ج. بتلر (Dr. A. J. Butler) لسماحه بنسخ خريطتين لكنائس النطرون .
- السيد ق. ب. كڤافيس (Mr. C. P. Cavafy) لسماحه بنشر إحدى قصائده .
- السيد ج . ڤالاسوپولو (Mr. G. Valassopoulo) لترجمة هذه القصيدة .
- السيد ر. د. داونز (Rev. R. D. Downes) لمساعدته لى فى أبوقير .
- السيد ر. أ. فرنس (Mr. R. A. Furness) لترجمته لشعر كاليماكس وشعراء يونانيين آخرين .
- السيد إ. چونديه (M. E. Jondet) مدير الموانى والمنارات ؛ لاصطحابى لرؤية اكتشافه المذهل لميناء ما قبل التاريخ ، ولوضعه لمجموعته النادرة من الخرائط تحت تصرفى ، وقد نسخت اثنتين منها .
- والشكر الجزيل للسيد ج. هـ. لدولف (Mr. G. H. Ludolf) ، والذى كان اقتراحه سبباً فى ظهور هذا الكتاب ، ولولا مساعدته لما اكتمل أبداً .

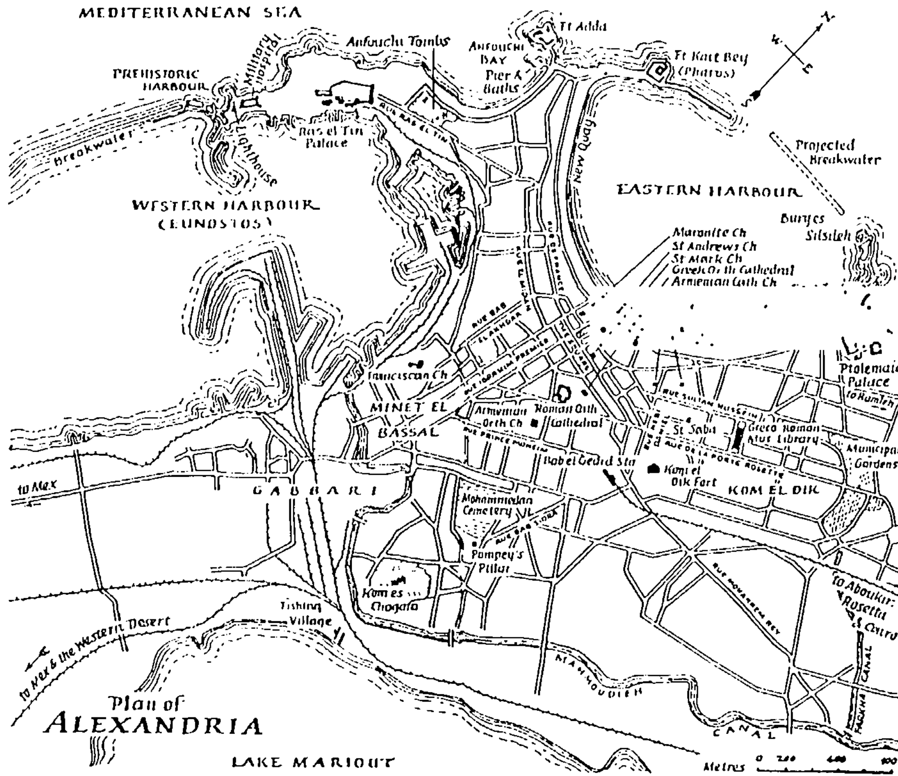
ولن أنسى مطلقاً تلك المودة التى استقبلت بها فى الإسكندرية . وأن أصادق على رأى سلفى ، الشاعر جلال الدين بن مكرم ، والذى أكد بشدة على أن :

زائر الإسكندرية لا يتلقى شيئاً من كرم الضيافة
سوى بعض الماء وحكاية عن عمود بومبى
ومن يود منهم أن يتجاوز حدود الكرم
فما عليه سوى أن يبتعد ليفسح له مجالاً للهواء المنعش
وأن يخبره بمكان الفنار
ويعطيه تعليمات عن البحر والأمواج
مضيفاً ، وصف القوارب اليونانية الضخمة
وليس للزائر أن يطمع فى كسرة من الخبز
لأن طلباً كهذا لا يلقى جواباً .

لقد أجلت الظروف - التى لم أستطع التحكم فيها - نشر هذا الكتاب . ولكن بمساعدة بعض الأصدقاء حاولت أن أجعل الدليل فى هذا الكتاب موافقاً لزمن النشر على قدر استطاعتى .

القسم الأول

التاريخ



خريطة حديثة للإسكندرية ، تبين الميناءين الشرقى والغربى ، وموقع ميناء ما قبل التاريخ والمنارة والمتحف وقصر رأس التين ومقابر الأنفوشى وكوم الشقافة وقلعة قايتباى وأهم الشوارع والكنائس والمزارات السياحية الهامة .

الفصل الأول
العصر اليونانى المصرى

اليابس والمـاء

إن موقع الإسكندرية لافت للنظر إلى أبعد الحدود ، ولكى نعى ذلك علينا أن نعود إلى الوراء آلاف السنين .

فى العصور السابقة ، وقبل الحضارة المصرية ، عندما لم تكن دلتا النيل تكونت بعد ، كانت كل الأراضى الواقعة حتى القاهرة مغمورة بالماء ، وكانت شواطى هذا البحر تتكون من صحراء الأحجار الجيرية ، وبشكل عام كان الساحل أملس ، ولكن لسانا غير عادى كان يبرز من الكتلة الرئيسية فى الشمال الغربى ، لم يكن عرضه يتجاوز الميل ، ولكنه يمتد لأميال عديدة ، وقاعدته لم تكن بعيدة عن «بهيج» الحديثة ، وتم بناء الإسكندرية أسفل هذا اللسان ، عند منتصف المسافة بينه وبين الأرض ، وطرفها كان رأس «أبو قير» ، وعلى جانبيها كانت توجد المياه المالحة العميقة .

وقد مرت القرون ، ومازال النيل يتدفق خارجاً من «شقه» أعلى القاهرة ، حاملاً معه طمى الصعيد(*) ، مرسبا إياه حيثما يضعف تياره ، وفى هذا الركن الشمالى الغربى كان الطمى يترسب عندما يصطدم باللسان ، وواصل الغرين ارتفاعه فى هذا الركن مستنداً على هذا اللسان ، الذى كان درعاً ليس فقط للحماية من البحر خارجه ، ولكنه كان أيضاً حامياً من الرياح السائدة .

ظهرت الأرض الطينية ، وتكونت بحيرة مريوط الضحلة ، ولم يستطع تيار النيل أن يهرب من الحاجز الجيرى الذى أحاط برأس «أبوقير» فدخل إلى مصبه فى البحر عن طريق مانسميه فى العصور التاريخية «بالمصب الكانوبى» .

إن هذا يوضح ملمحا من ملامح الإسكندرية ، ذلك النتوء الضيق الطويل المحدود فى الشمال بالبحر ، وفى الجنوب بالبحيرة والحقول المنبسطة ، ولكنه لايوضح سبب وجود ميناء بها .

هناك حاجز صخرى آخر من الحجر الجيرى ، وهو أقل طولا وأكثر انخفاضا ، وهو يوجد فى شمال هذا اللسان موازيا له إلى حد ما ، ويظهر غالباً تحت سطح البحر فى صورة حواجز صخرية ، وهو يبدو غير هام ، ولكن الميناء بل والمدينة ذاتها لم يكن

(*) يقصد الطمى أو الغرين الآتى من الحبشة مع الفيضان - المترجم .

وجودهما ممكنا بدونه ؛ لأنه يكسر قوة الأمواج . وابتداء من العجمى يستمر هذا الحاجز كسلاسل من الصخور عبر مدخل الميناء الحديث ، ثم يعاود الظهور ليكون نتوءا كرأس المطرقة يسمى رأس التين ، ثم يختفى على شكل سلسلة أخرى من الصخور التى تغلق الميناء الشرقى لتظهر أخيراً فى نتوء «السلسلة» حيث تعاود بعدها الاتصال باللسان الكبير .

هذه هى الملامح الرئيسية للموقع ، حاجز من الحجر الجيرى له ميناء على أحد جوانبه وأرض طينية على الجانب الآخر .. إنه موقع فريد فى مصر ، والسكندريون لم يكونوا أبداً مصريين حقيقيين .

أحسن مواقع البحث عن الحاجز الصخرى هى :

- محاجر ما بعد المكس . صـ ٢٢٠
- تل أبو النواطير . صـ ٢١٦
- المنتزه . صـ ٢٢٣
- رأس أبوقير . صـ ٢٣٣

فاروس . (راكوتيس)(*) . كانوبس

من الذى استقر أولا على هذا الامتداد الرائع من الساحل ؟

يبدو أنه كانت هناك ثلاثة مراكز قديمة .

(١) يقول هومر فى الجزء الرابع من الأدويسة «توجد جزيرة فى البحر المتلاطم ، تدعى فاروس ، تقع بالقرب من مصر ، ولها ميناء ذو مرسى جيد ، ولهذا فهم يبحرون بعيداً فيما وراء المياه العميقة» .

جزير هومر هذه ، هى الآن نتوء «رأس التين» والمجرى المائى الذى كان يفصل بينها وبين الأرض قد امتلأ بالطمى ، ولايوجد أثر لأى استيطانات قديمة على أرضها ، ولكن فى اتجاه الشمال الغربى منها ، تم اكتشاف آثار لميناء ما قبل التاريخ فى البحر ، ويواصل هومر إخبارنا كيف استطاع «مينلاوس» أن يوقف مركبه على جزيرة فاروس

(*) وهى معروفة فى الأدبيات التاريخية باسم قرية راقودة ، أما كانوبس فهى مايعرف الآن بأبوقير – المترجم .

حينما كان عائدا من «طروادة» وكيف أنه لم يقلع حتى أوقع بيروتس «الملك المقدس للجزيرة» وانتزع منه ريحاً طيبة .

وهناك أسطورة مشابهة فى إحدى البرديات المصرية القديمة ، وهى البردية التى يتسمى فيها الملك ببروتى أو بفرعون فاروس .

وإنه لمن المدهش حقاً أن تكون أولى لمحاتنا عن هذا الشاطئ بعيون بحار يونانى .

٢ – ولكن بحثنا التاريخى . يجب أن يبدأ براكوتيس ، وهى مدينة مصرية صغيرة، بُنيت على المرتفع الذى يقف عليه عمود «بومبى» ، وقد وجدت منذ زمن بعيد يعود إلى ١٣٠٠ ق.م حيث تم اكتشاف تماثيل بها تعود إلى ذلك التاريخ ، عندما كان الناس هناك حراساً للساحل أو رعاة لقطعان الماعز ، وكان أوزوريس هو إلههم الرئيسى ، وراكوتيس لم تكن مهمة أبدا فى حد ذاتها ، ولكن كجزء من المدينة اليونانية التى بنيت حولها ، كانت قطعة صغيرة من مصر . وبمقارنتها بالقرى العربية والأحياء الفقيرة التى طوقت تخطيط المدينة الحديثة كالمزاريطة أو كوم الدكة ، فإن «راقودة» كانت تشبه إحداها ، لقد احتشدت فيها كل العناصر الوطنية والمحافظة بصورة طبيعية ، وصارت هذه الجزيرة مقراً للجهود الدينية العظيمة لمدينة الإسكندرية فى عبادة سيرابيس .

٣ – فى طرف حاجز الحجر الجيرى ، حيث كان النيل يصب فى البحر ، كانت هناك مستوطنة أخرى قديمة ، وهى تظهر أيضاً فى الأساطير اليونانية فى العصور التاريخية وكانت تسمى كانوبس .

- رأس التين (فاروس هومر) . صـ ١٨١
- ميناء ما قبل التاريخ . صـ ١٨١
- عمود بومبى (راكوتيس) . صـ ١٩٧
- كانوبس . صـ ٢٣٠

الإسكندر الأكبر ٣٣١ ق.م

مدن قليلة لها هذه الروعة ، هى التى دخلت التاريخ مثل الإسكندرية ، تلك التى أنشأها الإسكندر الأكبر .

عندما وصل إلى هنا ، كان مايزال فى الخامسة والعشرين من عمره ، وعلينا أن نحدد ملامح عصره ؛ فقد كان مقدونيا ، ابتدأ بتدمير حضارة مدن اليونان القديمة ، لكنه لم يكره اليونانيين بل كان يقدرهم كل التقدير ، وكان يود أن يُعامل مثل واحد منهم ، وكانت مأثرته التالية ، أنه قاد حملة عسكرية ضد فارس ذلك العدو التقليدى لليونان ، واستطاع أن يهزمها فى موقعتين حربيتين كبيرتين ، إحداهما فى الدردنيل ، والأخرى فى آسيا الصغرى ، وبمجرد أن غزا سوريا سقطت مصر فى يديه ، سقطت برغبتها ، لأنها كانت تشعر نحوه بالأمل ، ولأنها كانت تكره الفرس غاية الكره ، لقد ذهب إلى «ممفيس» بالقرب من القاهرة الحديثة ، ثم هبط فى النيل حتى ساحل البحر ، وأمر مهندسه المعمارى دينوقريتس أن يبنى حول راكوتيس مدينة يونانية رائعة ، لم تكن هذه محض مثالية من جانبه ، ولكنها كانت مثالية لها جانبها العملى ؛ فهو يحتاج إلى عاصمة لملكته المصرية الجديدة ، ولكى ترتبط هذه العاصمة بمقدونيا ، كان يجب أن تكون على الساحل ، وهنا كان المكان المناسب ؛ ميناء رائع ومناخ ممتاز، ومياه متجددة ، ومحاجر للحجر الجيرى ، ومدخل سهل للنيل .

وهنا سوف يُخلّد كل ما هو رائع فى الحضارة الهيلينية ، وسوف تنشأ هذه العاصمة الأم لليونان الكبرى التى لن تتكون من - الدول/المدن - بل من ممالك ، وسوف تشتمل على كل العالم المأهول .

لقد وجدت الإسكندرية .

وبمجرد أن أعطى أوامره ، سرعان ما رحل ، لم ير أبداً مبنى واحداً يرتفع ، وكان اهتمامه التالى أن يقوم بزيارة لمعبد آمون فى واحة سيوه ، حيث كرّسه الكاهن كإله ، ومن تلك اللحظة شحبت عواطفه اليونانية ، لقد أصبح شرقياً ، ومتحرراً من الأحقاد القومية ، وبالرغم من ذلك عاد لمحاربة فارس مرة أخرى ، لقد كان روحاً جديدة تريد أن تجعل العالم كله منسجماً وليس هيلينيا .

يجب علينا أن نسترجع ذكرياتنا عن الإسكندرية كإبداع ليافع ، كان عليه أن يعود إليها مرة أخرى ، ولكن الإسكندر مات بعد ثمانى سنوات ، وبعد غزوه لفارس . وأتوا بجثمانه – وكانت به بعض التغيرات – إلى ممفيس للدفن . ولكن الكاهن الأكبر رفض أن يتسلمه صائحاً : لاتجعلوه يستقر هنا ولكن فى المدينة التى بناها هناك ، فى راكوتيس ، فجسده ما إن يحل بمدينة حتى تضطرب ، تضطرم فيها الحروب والمعارك .

ولذا هبطوا به مرة أخرى إلى النيل ، ملفوفاً بالذهب فى تابوت من زجاج ، وتم دفنه فى قلب الإسكندرية عند تقاطع طرقها الرئيسية(*) ، لكيون بطلها وإلهها الحارس .

• عُملات الإسكندر	المتحف – حجرة ٣
• تماثيل الإسكندر	المتحف حجرة ١٢ ، ١٦
• مقبرة الإسكندر	السوما(*) صـ ١٥٠
• شاهد قبر لضابط مقدونى	المتحف حجرة ٢٠

(*) أو «السيما» وهو المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الإسكندر الأكبر – المترجم

خطة التأسيس

انظر خريطة المدينة القديمة صـ ١٤٨

قبل تحليل خطة الإسكندرية ، يجب أن نتذكر أن هناك ثلاثة اختلافات حدثت فى سطح الأرض عما كان عليه الوضع فى عهده .

١ - كما أوضحنا سابقاً كانت رأس التين فى ذلك الحين عبارة عن جزيرة ، وقد فكر فى البناء هناك ، ولكنه رفض هذه الفكرة حيث كان المكان ضيقاً ، فشيد فيه ضريحاً لصديقه المتوفى هيفايستيون (Hephaestion) .

٢ - كانت بحيرة مريوط أكثر عمقاً مما هى عليه الآن ، ومتصلة بالنيل بشكل مباشر ، وبالتالى كانت بالغة الأهمية ، فهى طريق مائى مثلها مثل البحر ، وكان ميناء البحيرة جزءاً أساسياً من الخطة .

٣ - كان هناك اتصال مائى ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط حيث كان المصريون القدماء قد حفروا قناة من النيل عند ممفيس حتى البحيرات المرة التى توجد بالقرب من الإسماعيلية الحديثة(*) . وهكذا احتلت الإسكندرية مكان بورسعيد الآن كبوابة بحرية للهند والشرق الأقصى .

المدينة : كانت مستطيلة ، وتحتل الشريط الممتد ما بين البحيرة والبحر ، وتمتد فى خطوط مستقيمة ، فشارعها الرئيسى (الكانوبى) مازال موجوداً بشكل جزئى فى شارع رشيد ، وهو يتجه غالباً من الشرق إلى الغرب ، وهو اتجاه سئ لأنه يبتعد عن الرياح الشمالية الباردة التى هى القديس الحقيقى الحارس لمدينة الإسكندرية ، ولكن وبسبب موقعها هذا ، لم يكن هناك أى تخطيط آخر يمكن عمله ، لقد كان هذا الطريق ينتهى غرباً فى البحر ويمتد شرقاً حتى كانوبس (أبوقير) وكان طريقاً رئيسياً طبيعياً بطول لسان الحجر الجيرى ، وبدون شك كان هذا الطريق موجوداً منذ القدم وقبل مجئ الإسكندر .

كان شارع السوما وهو الشريان الرئيسى الثانى متقاطعاً مع الشارع الكانوبى ، وفى نفس مسار شارع النبى دانيال الحالى ، وكان هذا الشارع يبدأ من ميناء البُحيرة ، ويمتد شمالاً حتى البحر ، وعند تقاطعه مع الشارع الكانوبى يوجد مكان السوما أو مكان دفن الإسكندر ، وذلك فى مواجهة المسجد الحالى (مسجد النبى دانيال - المترجم) وهناك العديد من الشوارع الموازية لهذين الشارعين التى تقسّم المدينة إلى أحياء على النسق الأمريكى ، علماً بأن هذا النسق لم يكن يمتلك الكثير من الروعة ، ولكن اليونانيين لم يكونوا راغبين فى هذه الروعة !

(*) وتعرف بقناة سيزوستريس - المترجم .

لقد كانوا يحبون أن تكون مدنهم مخططة على غرار «رودس» ، «وهاليكارناسوس» اللتين تم تخطيطهما على هذا النسق ، وكان البحر هو الملمح الطبيعي الوحيد الذى اهتموا بالاستفادة منه ، وتجمعات المبانى كانت مرقمـة حسب ترتيب الأبجدية اليونانية .

كان يجب الاستفادة من شاطىء البحر بشكل أفضل ، والملمح الوحيد الذى يجب ذكره هنا هو الطريق المرتفع والمسمى الهبتاستوديوم(*) التى تم بناؤها لتربط جزيرة فاروس بالأرض ، ونتج عن ذلك ؛ زيادة فى مساحة المدينة ، وكسر لقوة التيارات المائية ، مما سمح بتكوين ميناء مزدوج : الميناء الكبير فى الشرق والإينوستس أى «العودة المأمونة» فى الغرب .

وفى العصر العربى تزايد تراكم الطمى على هذا الطريق المرتفع ، فأصبح بذلك هو عنق الأرض المؤدية إلى رأس التين ، وكان مسار الحواجز المائية غير محدد ، وربما كان مسارها الشرقى يبدأ من بروز «السلسلة» حتى البحيرة ، أما المسار الغربى فيبدأ من منطقة القبارى الحديثة حتى البحيرة .

كان التأسيس مصحوباً ببشرى من النوع العادى ، إذ لم يكن هناك طباشير لتحديد خطوط المدينة ، فاستعاضوا عنه باستخدام جريش الحبوب ، وخرجت الطيور من البحيرة واندفعت نحوه وأكلته كله ، ففسر اليونانيون هذه البشرى بشكل يجلب الرضا للمصريين ، إذ إن هذا ينبئ عن إغاثة لهفة الجوعى ، ولم نعرف بأى شىء تم استبدال الجريش ولكن وبشكل ما تم إقامة الجدر ، وترصعت بالأبراج عند فواصل متقاربة(**) .

- بحيرة مريوط . صـ ١٣٥
- شارع رشيد . صـ ١٥٠
- شارع النبى دانيال . صـ ١٥٠

(*) الهبتا ستوديوم هو الطريق الذى يبلغ طوله سبعة استوديومات - المترجم .

والاستوديوم . هو وحدة إغريقية قديمة من وحدات الأطوال تتراوح ما بين ٦٠٧ ، ٧٣٨ قدماً إنجليزياً. وهى وحدة رومانية أيضاً تساوى ٦٠٦,٩٥ قدماً إنجليزياً - المترجم .

(**) جاء للإسكندر فى النوم حلم غريب ، رأى فيه شيخاً أبيض الشعر ، جليل الخلقة ، يقترب منه وينشده تلك الأبيات :

فى وسط البحار التى فيها مصر

قامت جزيرة فاروس الذائعة الصيت

{ وهذان البيتان من أوديسة هوميروس ، النشيد الرابع سطر ٣٥٤ } .

وانطلق إلى رؤية تلك الجزيرة ، فأعجب بها ، وقال إن هوميروس العجيب فى كل شىء ، كان أيضاً مهندساً بارعاً ، ثم أمر بعمل رسم للمدينة يتفق وموقعها ... إلخ . وبقية الرواية تتفق مع ما أورده المؤلف

د/ نجيب بلدى تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها .. دار المعارف ١٩٦٢ - المترجم .

البطالمة الثلاثة الأوائل⊗

بطليموس الأول : سوتير ٣٢٣ - ٢٨٥ ق.م

بطليموس الثانى : فيلاديلفوس ٢٨٥ - ٢٤٧ ق.م

بطليموس الثالث : يورجيتس ٢٤٧ - ٢٢٢ ق.م

انظر شجرة النسب . صـ ٥٨ ، ٥٩

● عندما مات الإسكندر ، تم تقسيم الإمبراطورية بين قواده ، الذين حكموا لفترة قصيرة باسم أخيه غير الشقيق أو باسم ابنه ، ولكنهم سرعان ما نصبوا أنفسهم ملوكاً مستقلين . ووقعت مصر فى يد أقدر هؤلاء القواد وأرجحهم عقلاً ، وهو المقدونى المسمى بطليموس ، ولم يكن بطليموس مثالياً (محلقاً فى سماء المثالية) ولم يكن يرغب فى جعل العالم هيلينيا ، أو فى جعله متجانساً ، ولكنه لم يكن كلبياً(*) أيضاً ، فقد كان يحترم العمل الذهنى بقدر ما يحترم النشاط المادى ، وكان حاضراً أثناء تأسيس الإسكندرية ، وقرر أن موقعها ملائم له ، والآن وقد اتخذ مقره فى المدينة غير المكتملة ، بدأ فى تزيينها بالمبانى والمدارس والغناء ، واستنفد القادة المنافسون الكثير من جهوده ، وخاصة فى آسيا الصغرى ، فاشترك فى هذه الحرب الغريبة فى بدايات حكمه وذلك للاستيلاء على جسد الإسكندر ، الذى استطاع أن يختطفة وهو فى طريقه من فارس إلى واحة آمون واستولى بطليموس الأول على الجسد ، وعلى الكثير من غير ذلك ، وقبل موته ادعى لنفسه لقب الملك ولقّب «سوتير» أى المنقذ أو المخلص وأضاف إلى مملكته سيرين Cyrene (قورينه)(**) وفلسطين وقبرص وأجزاء من ساحل آسيا الصغرى ، كانت الإسكندرية هى العاصمة والمركز الجغرافى لكل هذه المملكة الواسعة ، وهى كما كانت دائماً ومازالت تنتمى إلى البحر المتوسط أكثر من انتمائها لمصر ، وهذا هو ما حققه البطالمة ، هؤلاء الذين واصلوا دور الفراعنة فى صعيد مصر ، فى إعادة بناء المعابد المقدسة المهجورة كإدفو ، وكوم أمبو ، وهم الذين كانوا هيلينيين وهم فى الإسكندرية .

(*) الكلبى فى الفلسفة هو من يعتقد أن السلوك البشرى تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها ، وهو يعبر عن موقفه هذا عادة بالسخرية والتهكم - المترجم .

(**) كانت إحدى المدن الإغريقية وتسمى حالياً بالقيروان - المترجم .

● بطليموس الثانى فيلاديلفوس (صديق أخته) وكان ذائع الصيت أكثر من أبيه ، وكان معروفاً عنه فى فارس أنه يرعى الشعراء واليهود ويحتفى بهم ، ولكن إنجازاته كانت قليلة ، حيث كانت معظم الأحداث الهامة فى عهده ذات طابع محلى ولم يكن لها طابع توسعى ، وفى ٢٧٧ ق.م تزوج من أخته أرسينوى ، وكان هذا الحدث مروعاً لمشاعر اليونانيين مثلهم مثل المسيحيين(*) الآن ، لو سمعوا بمثل هذا .

كان هذا تقليداً لما وجده فى مصر من زواج الإله أوزوريس بأخته إيزيس ، وبرر بطليموس هذا الزواج بأعلى قدر من الكهنوتية ، إذ تم تأليهه هو وأرسينوى كإلهين دلفيين ، تجرى فى عروقهما الدماء غير الملوثة لأبيهما المقدس القائد ، ومثلهما سوف يفعل اللاحقون عندما يكون هذا أمراً ممكنا ، حيث إن هذا يعتبر اعتزازاً بالسلالة إلى أبعد الحدود ، وشبيه به ما يحدث فى أيامنا هذه عند طبقة النبلاء من زواج بنات العم مباشرة خوفاً من انحطاط قدرهم ، ولكن البطالمة بطريقة أكثر منطقية حاولوا أن يتناسلوا فى أضيق الحدود .

لقد أرادت هذه السلالة أن تظل بعيدة عن العامة جسدياً وروحياً وأن تبدو دائماً كتجل متواصل للألوهية فى زوجين (ذكر وأنثى) .

كانت أرسينوى - عندما تعود إلى الأرض - امرأة مستبدة وشريرة ، وكانت تكبر أخاها بسبع سنوات ، وعندما تزوجها كانت لديه زوجة قامت بإبعادها عن الإسكندرية بحيلها ومكائدها . وعلى كل ، فقد أحبها ، وعندما ماتت بسبب سوء الهضم صار حزيناً جداً حتى إنه لم يتزوج مرة أخرى .

وتقسّمت السنوات الأخيرة من عهده ما بين عشيقاته وبين النقرس ، وفى إحدى فترات النقاهة من مرضه ، نظر من نافذة قصره فى أحد أيام العطلات ، ورأى المواطنين هناك يتنزهون على الرمال كما يفعلون فى عيد شم النسيم فى أيامنا هذه ، كانوا بعيدين وكانوا سعداء ، فتنهد الملك العجوز قائلا : لم لا أستطيع أن أكون سعيداً مثلهم ، وانفجر بالبكاء ، كان عهده مستقراً أكثر منه جميلاً ، وهو لم يساهم إلا بالقليل فى الحضارة السكندرية علاوة على زواجه الملغز والمريب . كان يستطيع أن يهب

(*) وهو ليس مروعاً للمسيحيين الآن فقط ، ولكنه مروع عند كل الديانات السماوية وغير السماوية أيضاً فهو محرم دينياً ومستنكر اجتماعياً - المترجم .

الأموال وأن يمنح ويعطى ، ولكنه كان بخلاف الإسكندر وبخلاف والده ، لم يستطع أن يبدع ، فقط لقد أكمل ما أسسوه ، واستولى على فارس .

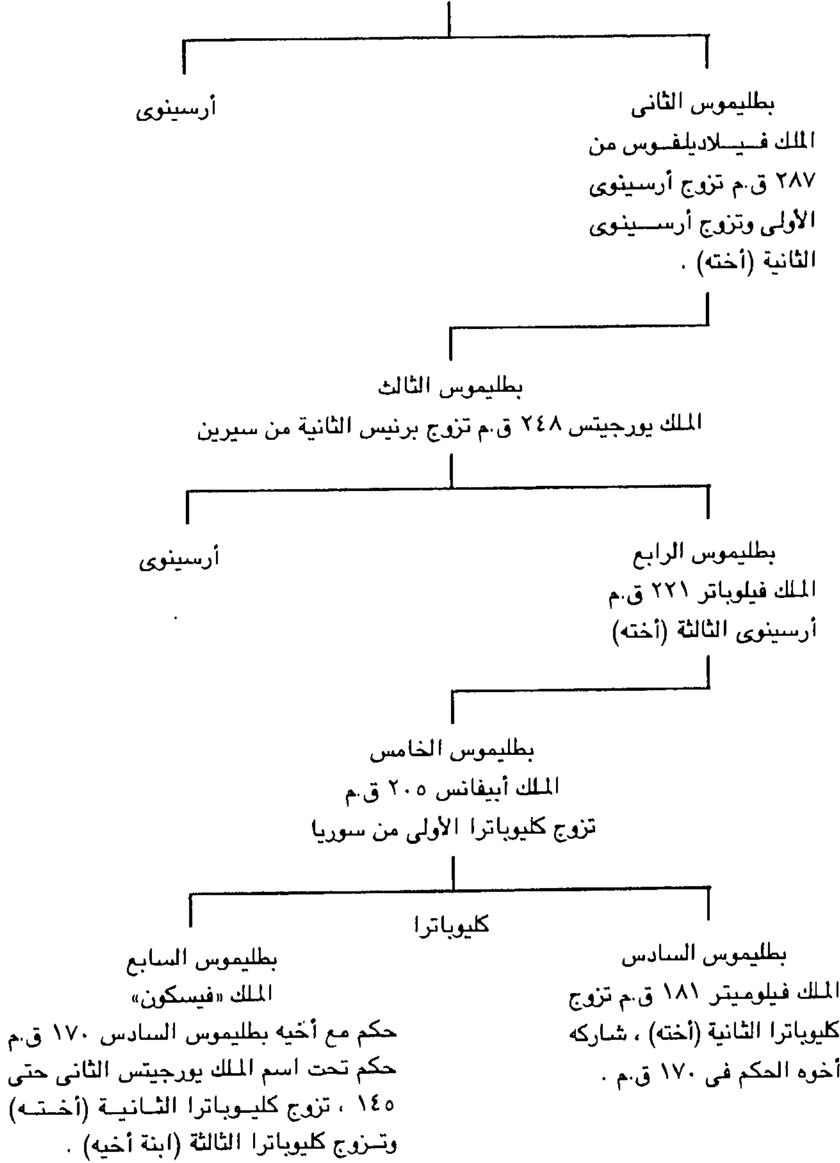
- بطليموس يورجيتس = (حسن الفعل)

وكان ابناً لفيلاديلفوس من زوجته الأولى ، ومثل جده فى شخصيته ، وكان جندياً ماهراً وحساساً ، ذا ميل للعلم ، وبزواجه من ابنة عمه برنيس(*) (Berenice) ضمن سيرين التى كانت قد انفصلت عنه ، وكان نصيب برنيس من المديح أكثر من كل ملكات البطالمة بالرغم من أننا لانعرف عن شخصيتها شيئاً وفى عهدهما اكتملت قوة مصر وعظمة الإسكندرية وقد حان أوان استجلاء هذه العظمة ، فقد مرت مائة سنة منذ أن أرسى الإسكندر دعائم الإسكندرية ، فماذا تم تشييده عليها ؟

- عملات البطالمة الثلاثة الأوائل : المتحف حجرة ٣
- النقوش : المتحف حجرة ٦ ، ٢٢
- بطليموس يورجيتس تماثيل : المتحف حجرة ١٢
- برنيس تماثيل : المتحف حجرة ٤ ، ١٢

(*) وردت هكذا فى الأصل وهى باليونانية تدعى برنيكى (الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها حـ٢ ص ٥٠٩) - المترجم

شجرة العائلة البطلمية⊗



السادس | السابع

كليوباترا (٣)

بطليموس الثامن
ابن بطليموس السادس - الملك بوباتور
١٤٥ ق.م ، ومات فى نفس العام .

بطليموس العاشر (لاثيرس)
الملك سوتير الثانى ١١٦ ق.م
نفى إلى قبرص من ١٠٨ - ٨٨ ق.م
تزوج أخته كليوباترا الرابعة وتوفى عام ٨٠ ق.م

كليوباترا (٤)

بطليموس الحادى عشر
الملك الإسكندر الأول
تزوج (١) ؟
(٢) ابنة أخيه برنيس (٣)

الابن غير الشرعى : بطليموس الثالث عشر .
الملك أوليتيس
الملك نيوس يونيس ٨٠ ق.م
تزوج أخته كليوباترا الخامسة ونفى
من ٥٨ إلى ٥٥ ، وتوفى عام ٥١ ق.م

كليوباترا الخامسة
برنيس(*) الثالثة

بطليموس الثانى عشر
الملك الإسكندر الثانى ٨٠ ق.م
وتزوج زوجة أبيه وبنت عمه
كليوباترا الخامسة (برنيس الثالثة)
{ وهو نهاية الفرع الشرعى } .

برنبس الرابعة
٥٨ - ٥٥ ق.م
(ملكة)

كليوباترا السادسة
الملكة فيلوباترا ٥١ - ٤٧ ، ق.م
تزوجت أخويها بطليموس ١٤، ١٥
عشيقة يوليوس قيصر ٤٨ - ١٥ ق.م
وعشيقة مارك أنطونيو ٤٠ - ٣٠ ق.م

بطليموس ١٦
ابن يوليوس قيصر من ٤٤ - ٣٠
واسمه قيصرون

بطليموس ١٤
٥١ - ٣١ ق.م

بطليموس ١٥
٤٧ - ٤٤ ق.م

أرسينوى

□ بطليموس التاسع . حذف من هذه القائمة لأنه على الأرجح ابن لبطليموس السابع وكليوباترا الثانية ، وتم وضع اسمه فى الحوليات بعد وفاته مباشرة باسم نيوس فيلوباتر .

(*) برنيس وتنطق باليونانية برنيكى "Berenikê" - المترجم .

المدينة البطلمية

انظر خريطة المدينة صـ ١٤٨

مايلى هو أهم المعالم فى المدينة البطلمية

١ - المنــارة :

حيث إن الساحل المصرى مكون أساساً من الطمى ، لذا كان من الصعوبة رؤيته من البحر ، ولهذا كان من الضرورى أن يتم تحديد موقع المدينة بواسطة «معْلَم هائل جداً» ومن الأفضل أيضاً أن يتم بواسطته إرشاد البحارة ليصلوا بعيداً عن حواجز الأحجار الجيرية التى تبطن الشاطئ ، ولهذه الأسباب بنى البطالمة منارة ، ارتفاعها أكثر من أربعمائة قدم ، تقع فى الطرف الشرقى من جزيرة فاروس (قلعة قايتباى الحالية) والتفصيلات الكاملة صـ ١٨٥ .

أما هنا فيكفينا أن نلاحظ أن فاروس «كما كانت تدعى» كانت أكبر إنجاز عملى للعقل السكندرى، فهى التعبير المجسد للعلوم الرياضية التى كانت تجرى فى الجامعة ، كان سوزتراتوس (Sostratus) مهندساً معاصراً لإيراتوسثينس (Eratosthenes) وإقليدس (Euclid) وكانت فاروس كقلعة ومنارة هى محور الدفاع البحرى للمدنية .

إنها تطل على كلا الميناءين ، وتراقب – على الأخص – الميناء الشرقى ، وهى الأكثر أهمية ، حيث كان يرسو الأسطول الملكى ، وحيث كان الجزء البارز من القصر يمتد فى اتجاه هذا الميناء . أما فى الغرب فكان بالإمكان أن نميز الميناء الآخر الذى يمتد إلى تشيرزونيز وهى حالياً قلعة العجمى ، وإلى الغرب أكثر كان يمتد صف طويل من أبراج المراقبة والمنارات التى رصعت ساحل شمال أفريقيا وربطت مصر بشقيقتها مملكة سيرين ، وأحد هذه الأبراج مازال موجوداً (وهو عند أبوصير) وهو يُبرز بصورة مصغرة ما كانت عليه فاروس ذات يوم .

- قلعة قايتباى (فاروس) صـ ١٨٥
- عملات تبدو فيها فاروس المتحف حجرة ٢
- برج أبوصير صـ ٢٤٣

٢ - القصر :

يمكننا أن نحدد مكاناً واحداً من القصر ، أو سلسلة القصور التى كانت تغطى بالتأكيد بروز السلسلة ، والتى كانت حينذاك أكثر طولاً وعرضاً من الآن ، ولكن لايستطيع أحد أن يعرف إلى أى مدى كانت المبانى تمتد على الأرض أو على طول الشاطئ ، ولا كيف كان شكل المعمار ؛ فكل بطليموس أضاف شيئا ، وكلها كونت مربعاً خاصاً يشبه إلى حد ما المدينة الإمبراطورية فى بكين ، ولكون مصر بلداً أو أوتوقراطيا ، كان القصر مقراً للحكومة ، كما كان مقراً ملكياً ، وكانت فيه مكاتب للكتبة ، وله ميناء خاص (يسار السلسلة) وجزيرة القصر أو الكُشْك المسمّاة أنتيرودس التى نافست أمجاد جزيرة رودس ، كانت أنتيردوس تقع فى الميناء الشرقى وتتحدد معالمها بالصخور المغمورة الآن بعيداً عن السطح هناك فى الأعماق .

وعلى الأرض ، كان القصر متصلاً بنظام معمارى هائل آخر وهو «الجامعة» وفى جانبه من ناحية البحر ، كانت حواجز الأمواج تمتد فى اتجاه فاروس .

- السلسلة (مكان القصر) صـ ٢١٤
- أعمدة من الموقع · المتحف حجرة رقم ١٦

٣ - الجامعة أو المتحف (الموسيون(*)) :

كانت الجامعة إنجازاً عقلياً عظيماً لهذه السلالة ، فهى لم تحفظ لنا الآداب والعلوم فقط ، بل تركت لنا أثراً دائماً على هذا الزمن . لقد اختفت مبانيها تماماً ، أما موقعها المحدد فيمكن افتراضه فربما كانت واجهتها فى مقابل السوما أى إلى القرب من شارع النبى دانيال الحالى ، وفى أفنيتها الواسعة كانت هناك قاعات المحاضرات والمعامل والمكتبة وقاعة الطعام والحديقة ، وحديقة الحيوان .

أسس هذه الجامعة بطليموس سوتير الذى استدعى ديميتريوس(**) فاليروس تلميذ أرسطو وأمره أن يقيم معهداً على نسق المتحف الأثينى ؛ مؤسسة فلسفية تحتوى على مكتبة أرسطو ، ولكن الجامعة أو المتحف السكندرى سرعان ما اختلف كثيراً عن

(*) كلمة موسيون (موزيون) تعنى أصلا معبد ربات الآداب والفنون والتاريخ والفلك ، وأصبحت علماً على المعاهد الثقافية حيثما وجدت فى بلاد الإغريق ، وعلى دور العلم الإغريقية بوجه عام ودار الإسكندرية بوجه خاص. (مصر فى عصر البطالمة جـ٤ مكتبة الأنجلو المصرية . دكتور إبراهيم نصحى صـ٢٢٦) - المترجم .

(**) وهو المعروف بديميتريوس الفاليرونى - المترجم .

نموذجه الأثينى ، فقد كان أكثر غنى وأعظم ضخامة لسبب واحد ، هو أن الاعتمادات المالية كان يديرها الكاهن المعين من قبل الملك ، حيث كانت الجامعة أساساً معهداً للبلاط تحت حكم القصر ، ولذا فإن الجامعة هذه عرفت كل محاسن ومساوئ المساندة الملكية .

وإلى حد ما كانت هذه الجامعة تشبه الجامعة الحديثة ، ولكن الدارسين والعلماء والمحاضرين الذين تدعمهم الجامعة لم يكونوا ملزمين بالدراسة ، بل كانوا يتابعون دراساتهم فقط من أجل المجد الأعظم للبطالمة .

وكانت المكتبة هى أكثر أقسام هذه الجامعة شهرة ، والتى كانت أحيانا تسمى «الأم» تميزا لها أيضاً عن المكتبة الأخرى ، وكان بها مجموعات هائلة من الكتب تبلغ ٥٠٠٠٠٠ كتاب وكتالوج مفهرسة فى ١٢٠(*) (لفافة) وكان منصب أمين المكتبة ذا أهمية كبيرة ، ويتولاه أحد موظفى الجامعة ، وسنتناول الإنتاج الأدبى والعلمى الفعليين لهذه الجامعة فى الصفحات القادمة صـ ٧٣ .

● شارع النبى دانيال (مكان الجامعة) صـ ١٥٠

٤ - معبد سيرابيس :

الفكرة التى تقول . إن أحد الأديان خاطئ بينما الآخر صحيح ، هى فكرة مسيحية أساساً ، وهذا لم يحدث عند المصريين ولا عند اليونانيين الذين كانوا يعيشون سوياً فى الإسكندرية ، وكان كل منهم يعبد آلهته مثلما يتكلم لغته ، ولكنه لم يفكر أبداً فى أن آلهة جاره غير موجودة ، بل ربما كان يؤمن أنهم آلهته وقد اتخذت أسماء أخرى، واليونانيون على الأخص تمسكوا بوجهة النظر هذه ، وعرفوا الإله أوزوريس وهو إله عالم ما بعد الموت على أنه إلههم ديونيسيس الذى كان إلها للأسرار وللخمر أيضاً ، ولهذا عندما قرر بطليموس سوتير أن يجعل لمدينته الجديدة إلهها ، استفاد من هذه النزعة ، وأعطى التقاليد المحلية اسما وتمثالاً ليجسد ما كان موجوداً بالفعل بأسلوب عاطفى ، كان أوزوريس الذى كان معبوداً بالفعل على تل راقودة ، وهو أكثر آلهة المصريين تبجيلا ، هو المكون الرئيسى فى الديانة الجديدة ، بعد أن تمت إضافة

(*) أضفنا كلمة «لفافة» نقلا عن كتاب نجيب بلدى (مصدر سابق) صـ٤٨ ، حيث إن الرقم ورد فى الأصل دون تمييز (١٢٠) - المترجم .

العجل أبيس «معبود ممفيس» له ، وتم إحياء عبادته فى تلك الآونة ، كما تم دمج اسميهما معاً فيما سمِّى . «سيرابيس» ولكن ، وبينما كان الأصل والاسم للإله الجديد مصريين ، إلا أن مظهره ونسبه كانا يونانيين ، وكان تمثاله الذى ينسب إلى النحات اليونانى «برياكسيس» يظهره جالساً فى ملابس يونانية – على العرش التقليدى – وكانت ملامحه مثل الإله «زيوس ملتحياً» ، ولكنها كانت أكثر رقة وعذوبة . لقد كان حقاً أكثر شبهاً باسكلابيوس إله الشفاء ، والذى تحول إليه الناس فى العصور الأكثر تحضراً ، حيث كانت السلة على رأسه توضح أنه إله للحصاد ، وكان الكلب سيربروس "Cerberus" ذو الثلاثة رءوس واقفا بجواره ليظهر أنه يمثل بلوتو إله العالم السفلى .

كان فى استطاعة البطالمة أن يروجوا لهذه الأفكار دون خوف من إيذاء المشاعر الدينية ولكنهم لم يستطيعوا أن يستشفوا مدى نجاح إلههم سيرابيس ، الذى لم يستطع فحسب أن يفى بمطالبهم السياسية فى إمداد السكندريين بديانة شائعة ، بل إن عبادته انتشرت فيما وراء المدينة بل وخارج مصر/، وأنشئت له المزارات المقدسة على امتداد كل منطقة البحر المتوسط ، أوزوريس ، أبيس ، ديونيسس ، زيوس ، اسكلابيوس ، بلوتو . ربما تبدو لنا هذه كتوليفة مصطنعة ، ولكنها صمدت فى مواجهة الزمن ، حيث كانت تشبع رغبات الناس ، وكانت تعتبر آخر قلاع للوثنية ضد المسيحية . كان المعبد موجوداً فى مكان القلعة القديمة لراكوتيس ، حيث يقف عمود بومبى الآن والذى كان منتصبا فى وسط الرواق ، يتصل به صفان من الأعمدة يصلانه بجانبى الرواق .

وكان بناؤه المعمارى ذا طابع يونانى ؛ لذا كان المعبد عبارة عن قاعة فسيحة فى نهايتها يوجد «قدس الأقداس» وبه تمثال الإله ، ومع مرور القرون أضيفت إليه مبان أخرى بل وأنشئت داخله المكتبة الثانية العظمى للإسكندرية والمسماة «الابنة» .

- معبد سيرابيس وعمود بومبى صـ ١٩٧
- تمثال سيرابيس – المتحف حجرة رقم ١٦
- سيرابيس على العجلات – المتحف حجرة رقم ٢ ، ٣
- معبد فى كانوبس صـ ٢٣٠

٥ - المقابر الملكية :

صارت «سوما» الإسكندر شهيرة إلى الحد الذى دفع البطالمة الأوائل أن يوصوا بدفنهم بالقرب منها ، ونشأت مجموعات من المبانى التى كانت ربما يونانية المعمار - حيث يتقاطع شارع رشيد بشارع النبى دانيال ، وفيما بعد كانت أماكن الدفن - على ما يبدو - إلى جوار القصر وربما كان الضريح «الموسوليم» حيث ماتت كليوباترا فى منطقة بروز السلسلة بجوار معبد إيزيس الصغير داخل اللسان البحرى .

- شارع رشيد صـ ١٥٠
- نتوء السلسلة صـ ٢١٤

٦ - مبان أخرى :

المسرح ، ومضمار السباق : وكلاهما كان بالقرب من القصر ، وكان أولهما غالباً فى موقع المستشفى الحكومى المصرى الحالى ، وكان معماره يونانياً . وكان هناك أيضاً الطريق المرتفع والممتد - كما أسلفنا - إلى سبعة استوديومات ، والذى كان جزءاً من خطة الإسكندر ، ثم أكمله البطالمة حتى استقر على جزيرة فاروس .

- المستشفى الحكومى المصرى موقع المسرح صـ ٢١٤ :

كانت هذه هى المبانى الهامة والمعاهد التى تم إنشاؤها أثناء المائة سنة الأولى من عمر هذه المدينة ، وقد أضيفت إليها مبان أخرى ، مثل «السيزيريوم» الذى بدأته كليوباترا .

وإجمالاً نستطيع أن نقول : إن الإسكندرية كانت نتاج الخطة الوحيدة التى وضعها دينوكريتس - ونفذها البطالمة الثلاثة الأوائل ، والتى أظهرت كل المزايا وربما بعض المساوئ للمدينة التى تم تخطيطها بدقة ، كان هناك الكثير من الفخامة فى هذه التأثرات الهائلة ، ولكن كان هناك أيضاً القليل من عدم الوضوح ، فبالتأكيد لم تكن هناك أى من اللمسات الساحرة التى تذكّر أثينا أو حتى روما بالماضى الذى لايمكن إدراكه .

لقد تم بناء المدينة فى زمن حررت فيه الروح الهيلينية نفسها من كثير من الأوهام ، واكتسبت فيه الهيمنة على قوى مادية لم تهيمن عليها أبداً من قبل ، وفى نفس الوقت جاءت إليها اللغة اللاتينية أيضاً ، لكن المدينة أخذت طابعاً جديداً ، كانت بيضاء وناصعة ، لها روعة تمثال مصنوع من المرمر .. كل شىء فيها تم حسابه حتى الدين .

البطـالمة الأواخـر
٢٢١ - ٥١ ق.م

انظر شجرة النسب صـ ٥٨ - ٥٩

تدهورت السلالة بعد موت يورجيتس ، فبعض خلفائه كانوا رجالاً قادرين ، ولكن ظهر بعد ذلك نوع من الرجال ؛ لم يخلق لا للفضيلة ولا للنجاح .

كان بطليموس السابع رقيقاً ، وكان لديه مزاج فنى ، ولكنه لم يمتلك أبداً أى حب شديد للفن ، لقد وُلد فى القصر بالإسكندرية ، وقضى كل حياته هناك لدرجة أن موته ظل مجهولاً لمدة عام ، لم يكن بطبيعته قاسياً ، ولكن كان من الممكن أن يستثار بسهولة إلى حد القسوة ، وكان خجولا بشكل غير عادى ، وفى شيخوخته صار بديناً حتى إن الرسول الرومانى تمتم قائلا : «على كل .. لقد رأى السكندريون مليكهم يمشى» ، ذلك عندما جاء بطليموس السابع يلهث ليحييه على رصيف الميناء .

وبينما كان الرجال يضعفون ، كانت النساء تتقوى ، فهذه السلالة كان بها ملكات رائعات ، حيث كانت أرسينوى التى تزوجها فيلادلفوس ، وأرسينوى الثالثة التى واجهت الجيش السورى عند رفح ، وكليوباترا الثالثة التى قتلت ابنها ، وكانت هناك أيضاً كليوباترا الأخيرة والعظيمة وهى التى تلاشت بها هذه السلالة المعقدة .

وعلى عكس هذه الفوضى ، برزت الصرامة فى روما فى صورة غير جذابة ، فالحملة الأولى تمت فى ٢٧٣ ق.م ، ثم كان التدخل العسكرى الأول فى ٢٠٠ ق.م ، وتأجل بعد ذلك تقدم روما ، حتى استولت على الجزء الغربى من البحر المتوسط بسقوط قرطاج ، ثم تقدمت بكياسة كحامية للحرية وللأخلاق فى الشرق ، معتقدة أنها الأقوم أخلاقاً - وبشكل شرعى - وجهت روما كافة الضربات إلى كل العالم الهيلينى ، وقد روعت بفساد هذا العالم ، هذا الفساد الذى لم تدخر جهداً فى الاستفادة منه ، وسقطت إمبراطورية الإسكندر المبعثرة جزءاً فجزءاً فى يديها .

كان البطالمة حلفاء لهذا «المارد» المعصوم من الخطأ ! ، وكان هذا التحالف غريباً ولكنه استمر لأكثر من مائتى عام . وبينما كان الأسطول المصرى والجيش يتحللان ، كانت المساعدات الرومانية تتعاظم ، وقد أعلنت روما نفسها حارسة للسلالة البطلمية ، إلى أن أورثها أحد البطالمة مصر فى وصية لم تُظهرها أبداً .

وابتداء من بطليموس الثالث عشر صارت السلالة غير شرعية ، وأجبرته روما على أن يدفع لها لتعترف بشرعيته ؛ فعندما اقتيد من مصر فى ٨٩ ق.م اضطرته أن يدفع لها لتعيده إلى العرش . وعند عودته كان يرافقه جيش من الدائنين ولكى يستطيع جمع المبلغ المطلوب وقدره عشرة آلاف «طالن»(*) كان عليه أن يسحق الناس بالضرائب ، مما جعل روما تُصدم مما فعله ولكنها ظلت ثابتة .

وفى مواجهة هذا الزحف العنيف لم تستطع الإسكندرية أن تفعل أى شىء ، كانت هى عقل مصر وحواسها الخمس ، وبينما كانت كل السفارات تلمس بأقدامها أرصفة موانيها كانت تتحقق مما لم تستطع بأن تتحقق منه مدن الداخل الخاضعة للكهنة - من أن المجد يرحل عن النيل . كان هناك أمل وحيد ، هو أن تنقسم روما إلى أجزاء قبل أن تستولى على مصر ، وكانت هناك مؤشرات على ذلك ؛ فالجمهورية المنتصرة قد امتصت من الغنائم والأفكار أكثر مما كان فى طاقتها أن تستوعبه ، ووجدت أنه من الصعوبة استيعاب فكرة : أن البطالمة المتنافسين تنافسوا فى الإسكندرية ، ولكن الرومان المتنافسين يتنافسون الآن فى روما ، فهل من الممكن أن يلعبوا مباراة فاصلة ضد بعضهم البعض ، حيث تكسب مصر السلامة ؟

إن المخطط أودع نفسه لدى السكندريين ، وهذا هو ماحدث مع ابنة المفلس بطليموس الثالث عشر ؛ وهى أميرة جميلة . ولعوب ، تدعى كليوباترا .

- عملات للبطالمة الأواخر — متحف - حجرة ٣
- بورتريه لبطليموس الرابع — متحف - حجرة ١٢
- نقش لبطليموس السابع — متحف «الحديقة»
- كاريكاتير لسيناتور رومانى (على هيئة جرز) متحف - حجرة ١٢

(*) الطالن وحدة نقد أو وزن قديمة - المترجم .

كليـــوباترا
من ٥١ - ٣٠ ق.م

انظر شجرة النسب صـ ٥٨ - ٥٩ .

إن الفتـــاة التى تولت العــرش تحت اسم كليوباترا السادسة فيلـوباتر ، كانت فى السابعة عشرة فقط من عمرها ، وكان بطليموس الرابع عشر - أخوها وزوجـها - فى العاشرة، وأخوها الأصغر كان فى الثامنة ، أما أختها فكانت فى الخامسة عشرة ، وقد تحول القصر فى الإسكندرية إلى حضـانة ، حيث كان هناك أربعة أطفـال أذكيـاء يراقبون النزا ع الجارى بين بومبى وقيصر فيما وراء البحار ، وكان بومبى حـامياً لهم ، ولكن لم تكن لديهم أى أوهـام عنه ولا عن غيره ، فكل ما كانوا يحرصون عليه هو الحياة والقوة ، لقد فشلت كليوباترا فى مؤامرتها الأولى التى حاكتها ضد زوجها ، وقد لفظها ، وفى أثناء غيـابهـا انتهى الصرا ع ، وانسحب بومـبى إلى مـصـر بعـد هزيمتـه على يد قيصر ، وألقى بنفسه تحت رحمة حراسه ، فقُتل على يد عملائهم بمجرد نزوله من على ظهر السفينة .

ومع قدوم قيصر ، بدأت انتصارات كليوباترا التى لم تختلف فى شخصيتها عن الأخـريات من ملكات سلالتـهـا القـادرات والمجردات من المبـادئ ، لكنهـا كـانت تحـوز مصدراً من مصادر القوة ، - وهو الذى استنكره الجميع - وهو قوتها كمحظية من محظيات البلاط ، وقد استغلت ذلك باحتراف ، لم تكن أبداً عبدة لعواطفها ، وكانت ومـازالت بخيلة بعواطفها لأن همـهـا كان هو سلامتـها وسـلامة مصر . والرومـانيون السذج ؛ أولئك المولعون بها ، أو هؤلاء الذين يتهددونها ، كانوا ضحـايا طبيعيين لـهـا . وفى الأزمنة القديمة ربمـا كانت الملكة تحكم من عرشـهـا ، أمـا الآن فـعليـهـا أن تنزل وتلعب كامرأة .

ما إن سمعت بإقامة قيصر فى القصر حتى توجهت كليوباترا إلى الإسكندرية ، ولفّت نفسها فى لفافة من السجاد الشرقى ، وتم تهريبها إليه فى هذا الغلاف المثير ! واحـتج الأطفـال الآخـرون ، ولكنهـا كـانت قد فـازت بانتـصـارهـا الأول ، لأنـهـا صـارت تستطيع الاعتماد على يوليوس قيصر ضد زوجها .

ومن جهة أخرى كان وضع قيصر أكثر زعزعة ، فقد كان حاكما للعالم ولكن سعيه للإمساك ببومبى دفعه إلى التسرع ، مما جعله يهرع متقدماً قواته العسكرية ، وعندما بدأ سحر قدومه يأفل ، أدرك السكندريون ذلك ، وفى حرب صغيرة شرسة (أغسطس ٤٨ إلى يناير ٤٧ ق.م) حاولوا أن يسحقوه قبل أن تصل إليه التعزيزات .

لقد وضع قيصر يده على القصر (بالقرب من الشاطبى) والمسرح (المستشفى الحكومى المصرى) ووضع أيضاً يده على جزء من الميناء الشرقى ، حيث استقر أسطوله الصغير ، أما هم فاستولوا على باقى المدينة مشتملة على الميناء الغربى والجزيرة ، وأخذوا معهم أخت كليوباترا التى هربت من القصر ، وبطليموس الأخير الرابع عشر نفسه ، كى يدّعوا أنهم هم الممثلون للسلالة .

لقد كان حقا نهوضا قوميا ضد الرومان ، أداروا فيه باقتدار خمس معارك : انظر الخريطة صـ ١٤٨ .

١ - حصار القصر : ونجح هذا الحصار عن طريق البر ، ولكنه فشل عن طريق البحر ، عندما قام قيصر بجولة مفاجئة إلى أحواض السفن فى الميناء الشرقى ، وأضرم النار فى الأسطول السكندرى ، فانتشر اللهيب ممتداً إلى الجامعة⊗ واحترقت المكتبة «الأم» وفشلت أيضاً محاولة لتلويث مياه القصر ؛ عندما ضخ السكندريون ماء مالحاً فى مجارى المياه ، فحفر الرومان المحاصرون آباراً داخل أسوار القصر .

٢ - الاشتباك البحرى الأول : بدأت التعزيرات القادمة إلى قيصر فى الوصول ، ودفعتها ريح شرقية شديدة ، فتخطت مدخل مينائه ، وخرج قيصر لسحبها ، فهرع وراءه السكندريون من مينائهم الغربى محاولين اقتناصه ولكنهم فشلوا .

٣ - الاشتباك البحرى الثانى وفقدان جزيرة فاروس : خرج قيصر من مينائه وأحاط برأس التين ، ونشر قواته خارج خط الحواجز الصخرية . تلك الحواجز التى تمتد من الميناء حتى العجمى ، وتحمى مدخل الميناء الغربى ، وظل السكندريون داخل مدينتهم ، ولكن قيصر - مخترقاً مدخل المدينة - ضغط عليهم فى اتجاه أرصفة ميناء راكوتيس وهزمهم وأصبح الآن فى استطاعته مهاجمة الجزيرة من كلا الجانبين ، وفى اليوم التالى سقطت هذه الجزيرة ، فجعلها مركزاً لقيادته مغيّراً بذلك استراتيجية الحرب .

٤ - معركة الرصيف البحرى : أغلق قيصر المنافذ المخترقة للهبتاستوديوم حتى لايستطيع السكندريون المناورة من ميناء إلى آخر . ثم حاول أن يجد طريقه

بالقوة إلى داخل المدينة ، مستخدماً فى ذلك العديد من فرق الجند ، ولحق السكندريون بخلفية جيشه فأصابوه بالارتباك إلى الحد الذى جعله شخصياً يقفز من الرصيف البحرى ويسبح حتى وجد قارباً ، وبهذا استطاع السكندريون الاستيلاء مرة أخرى على الهبتاستوديوم وأعادوا فتح المنافذ مرة أخرى محققين بذلك انتصارهم .

٥ - معركة بالقرب من النيل : وفى هذه المعركة تم حسم الحرب خارج الإسكندرية ؛ حيث كانت الإمدادات والتعزيزات تتوالى على قيصر ، هناك عند أسفل المصب الكانوبى للنيل ، وقد خرج السكندريون لاعتراض هذه الإمدادات بقيادة بطليموس الرابع عشر الذى كان حديث السن ، وقد غرق بعد أن تمت هزيمته وتحطم جيشه وعاد قيصر بالنصر لمدينته ولكليوباترا .

وبدا أن مستقبل كليوباترا الآن صار مضموناً ، فقد تزوجت أخاها الأصغر وهو الملقب ببطليموس الخامس عشر ، وخرجت فى رحلة مع قيصر إلى صعيد مصر لتريه آثارها القديمة . وكرهها المصريون لخيانتها لهم ولكنها لم تكترث بذلك ، ثم حملت من قيصر وأنجبت ولداً ، وتبعت قيصرها حتى روما تستعرض غطرستها هناك ، فقد كانت فى قمة جمالها وكمال قوتها عندما وقعت الكارثة ؛ لقد قتل قيصر فى العيدس(*) من شهر مارس ٤٤ ق.م ، لقد اختارت العشيق الخطأ على أية حال .

وبالعودة إلى الإسكندرية من جديد ، أخذت تراقب الصراع الدائر هناك مابين مارك أنطونيو وقتلة قيصر ، لم تناصر أيًا من الفريقين ، وعندما استدعاها أنطونيو لتوضح لماذا كان حيادها ، ذهبت ليس فى سجادة ، ولكن فى سفينة كبيرة مذهبة ، وحياتها من الآن فصاعداً ستنتمى إلى الشعر أكثر من انتمائها إلى التاريخ . وإنه لمن الصعب ، التفكير فى كليوباترا الأخيرة كشخصية عادية ، لقد التحقت بزمرة هيلين وإيسولت ، بينما بقيت شخصيتها على ماهى عليه . وتعاملت مع عشيقها الجديد مثلما كانت تتعامل مع القديم ؛ بشهوانية ولكن فى يقظة ، فهى لم تسبب له الضجر لإدراكها أن التبذل يعنى الرتابة والملل ، ولذا فتحت شهيته إلى أعظم المباهج رقة ، وذلك عندما تتحول الحواس إلى روح ، حيث كانت قدرتها اللامتناهية فى التلون تكمن فى ذلك .

(*) هو اليوم الخامس عشر من شهر آذار أو آيار أو تموز أو تشرين الأول أو اليوم الثالث عشر منه. أى شهر آخر فى التقويم الرومانى القديم - المترجم .

إنها كانت آخر تلك السلالة المتعالية الماكرة ؛ وكانت هى الزهرة التى قضت الإسكندرية ثلاثة قرون من عمرها لكى تبدعها ، والتى لن يذوى خلودها أبداً ، تلك الزهرة التى تفتحت لجندى رومانى بسيط ولكنه كان غاية فى الذكاء .

والآن .. لقد استسلمت الإسكندرية لأقدارها وصارت منذ الآن محمية بقوات أنطونيو ، كما أنها أصبحت عاصمة للعالم الشرقى ، حيث كان العالم الغربى يحكمه أو كتافيان (أوكتافيوس) وهو ابن أخ لقيصر . وكان من المحتم وقوع صراع ثالث . هذا الصراع الذى تأجل لبعض السنوات ، تزوج خلالها أنطونيو من زوجة رومانية ثم هجرها ، وأنجبت منه كليوباترا عدّة أطفال - وتم تتويج ابنها من يوليوس قيصر تحت اسم بطليموس السادس عشر مع لقب إضافى وهو ملك الملوك ، وأصبح أنطونيو نفسه إلهًا ، وبنت له كليوباترا معبداً سمِّى بعد ذلك السزيريوم وتمت زخرفته بمسلتين قديمتين (مسلتا كليوباترا) وانتهت هذه الفترة من السعادة والأبهة بكارثة بحرية فى «اكتيوم» فى البحر الأدرياتيكى ، عندما هزم أوكتافيان أسطولهما المشترك وتسبب جبن كليوباترا فى الإسراع بالهزيمة⊗ ؛ ففى اللحظة الحاسمة هربت ومعها ستون سفينة مخترقة خطوط أنطونيو الخلفية فتسببت فى إرتباكه وتبعها هو إلى الإسكندرية ، وهناك - عندما توقف تبادل الاتهامات - استأنفا حياة المتعة التى احتدمت وازدادت اشتعالاً باقتراب الموت . لم يقوما بأدنى محاولة لمواجهة ملاحقة أو كتافيان ، وبدلاً من ذلك كونا نادياً للانتحار ، وقام أنطونيو ببناء صومعة فى الميناء الغربى مقلداً (تيمون) «مبغض البشر» وأسماها تيمونيوم . ولا حتى الدين ظل صامتا فالإله هرقل الذى أحبه أنطونيو والذى هو أيضاً كان يحب أنطونيو غادر الإسكندرية ذات ليلة ، محفوفاً بالموسيقى والغناء الرائعين كما يحكى الرواة .

وصول أوكتافيان : كان أوكتافيان واحداً من أبغض وأنجح الرجال فى العالم ، ولبرود عقله لم ير فى عهد كليوباترا إلا مجرد فسوق مبتذل ، كانت الرذيلة من وجهة نظره يجب أن تكون مختلسة .

وعندما اقترب أوكتافيان انسحب أنطونيو إلى المدينة بعد مقاومة خارج البوابة الكانوبية «عند معسكر قيصر» وسقط على سيفه ، وحملوه محتضراً إلى كليوباترا التى آوت إلى داخل مقبرتهما .. والآن بزغت قصتهما لتخلد أبداً فى عالم الفن ، وشكسبير استوحى إلهامه من بلوتارك الذى استوحاه هو بدوره عن غيره ، وإنه لمن الصعب أن

نكتشف الحقائق الفعلية من خلال التواصل الانفعالى ؛ فالأفعى مثلاً ليست شيئاً مؤكداً ، ولم يُعرف أبدًا كيف ماتت كليوباترا . وقد تم أسرها وحملت إلى أوكتافيان الذى كانت على علاقة غرامية به حتى أثناء حياة أنطونيو ، حيث كانت روح الغانية فيها لم تزل متوقدة .

وبدت هذه المرة لا فى سجادة ولا فى سفينة ، ولكن جالسة على أريكة فى صورة من الحزن ، يتبدى فى إهمال مغو ، وساعتها صدم الشاب الطيب . ومدركة عزمه على اقتيادها منتصراً إلى روما .. ومتحققة أنها الآن فى التاسعة والثلاثين من عمرها .. قتلت نفسها ، وثم دفنها فى المقبرة مع أنطونيو ، ووصيفتيها ؛ شيرميان وإيراس اللتين ماتتا معها وصارتا تمثالين من البرونز تحرسان أبواب المقربة .

وأصبحت الإسكندرية عاصمة للإقليم الرومانى .

- عملات لكليوباترا المتحف - حجرة ٣
- بورتريه لكليوباترا المتحف - حجرة ١٢
- مصرع كليوباترا : عند بلوتارك وشيكسبير ودرايدن - الملحق صـ ٢٦٩
- شكل لأنطونيو المتحف - حجرة ٦
- تمثال ضخم لأنطونيو المتحف - بهو الحديقة
- موقع السيزيريوم صـ ٢١٢
- ضريح بومبى صـ ٢٠٨
- رحيل الإله هرقل صـ ١٤٣

وهكذا انتهى عهد المدنية المصرية اليونانية كما بدأ ، فى جو رومانسى . فشخصية كليوباترا بالطبع كانت أكثر وضاعة من الإسكندر الأكبر ، وكان الطموح داخلها أنانياً تماماً ، أما بالنسبة للإسكندر فكان طموحه مرتبطاً بحلم صوفى برفاهية الجنس البشرى . لم تكن كليوباترا تعرف شيئاً ما عما وراء الجسد ، لذا كانت تنسحب بعيداً عن الألم والتعب . أما الإسكندر فقد أحرز قوة البطل ، وبالرغم من الفارق بينهما ؛ فالرجل هو الذى أبدع الإسكندرية ، أما المرأة فهى التى فقدتها . إلا أن كليهما يمتلك عنصراً واحداً من العظمة الفائقة ، وبينهما تتعلق سلالة البطالمة كسلسلة هشة مخلخلة .. إنها تلك السلالة التى انتقدها المؤرخون كثيراً ،

ولكن المصريين الذين عاشوا تحت حكمهم كانوا أكثر منهم تسامحاً . ولكون هذه السلالة تمتلك سمة العظمة فإنها بذلك كانت تمثل هذا البلد البالغ التعقيد الذى حكمته ؛ لقد واصلت تقاليد الفراعنة فى الصعيد بينما كانت على الساحل هيلينية على اتصال بثقافة البحر المتوسط .

وبعد انقراض هذه السلالة تحول نشاط الإسكندرية إلى «الداخل» ؛ حيث كان عليها أن تقدم الكثير فى الفلسفة والدين ، فهى لم تعد بعد لا عاصمة للمملكة ولا حتى ملكية .

الثقافة البطلمية

وقبل أن نترك البطالمة ، علينا أن نلقى نظرة عجلى على حضارتهم ، لقد رأينا كيف أنهم أنشأوا مؤسستين هائلتين وهما : القصر والجامعة وهما اللذان يرتبط أحدهما بالآخر ، وهما يمتدان من نتوء السلسلة إلى منطقة داخل المدينة ربما تصل إلى محطة السكة الحديد الحالية . وفى هذه المنطقة ذات الحدائق والأعمدة المصفوفة نشأت ثقافة الإسكندرية . وكان القصر يمد الجامعة بالأموال ويفرض عليها ما ينبغى لها أن تفعل ، وكان المتحف «الجامعة» يستجيب سواء بالإبداع أو بالمعرفة ، وكان الارتباط بينهما قوياً وحميماً لدرجة تفوق التصور . فعلى سبيل المثال ؛ عندما وهبت الملكة برنيس زوجة يورجيتس شعرها للمعبد الذى كرسته له ، كان على منجّم القصر أن يرصده . ككوكبة من النجوم ، وكان على شاعر البلاط أن ينظم مرثية عنه ؛ أما ستراتونيس التى كانت صلعاء فقد طرحت مشكلة دقيقة أخرى ، حيث أرسلت رسالة إلى الجامعة توجب عليها أن تكتب شيئاً عن شعرها هى الأخرى أيضاً .

ملاحم النصر ، الترانيم الجنائزية ، عقود الزواج ، الطرائف ، أشجار الأنساب ، الوصفات الطبية ، الألعاب الميكانيكية ، الخرائط ، آلات الحرب .. أى كل ما يحتاجه القصر ، عليه فقط أن يخبر الجامعة ، وعلى القائمين المدفوع لهم جيداً أن ينشطوا للقيام بالعمل فوراً . والشعراء والعلماء لم يحاولوا عمل شىء يمكن أن يضايق الأسرة الملكية ، ولا أن يربكها ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فشلوا فى إعطائها ما يرضيها فسوف يطردون من هذا المكان الساحر ، وعليهم إما أن يجدوا سيداً آخر يدفع لهم أو يتضورون جوعاً .

لم تكن النظم المتبعة نموذجية ، حيث كان من الممكن أن يشار إلى الأدعياء بالبنان . حيث كان التباهى الكاذب والخنوع الذليل يصمان ثقافة الإسكندرية منذ بدايتها ، لقد نشأت هذه الثقافة خلف الأسوار ، وأبداً لم تعرف التفرد ، ولم تعرف أيضًا لا أمجاد ولا مخاطر الاستقلال ، والمدهش حقاً هو أنها ازدهرت بمجرد أن كانت .

وعلى كل فهى لا تستحق النقد لأنها لم تكن متميزة ، فلو كانت متميزة لما كانت سكندرية . كان القصر والجامعة مرتبطين روحياً وواقعياً ، وكان القصر أقدم وأقوى ، ولذا فإن هذا الارتباط خنق الفلسفة وحرم الأدب مما كان يمكن أن تمده به الفلسفة

من عون ومؤازرة ، ولكنه شجع العلم وأعطى أيضاً للأدب سمات معينة لم يعرفها أبداً من قبل .

● المعبد : حيث كرّست برنيس شَعرها صـ ٢٣٣

(أ) الأدب :

كاليماخوس "Callimachus" حوالى ٣١٠ - ٢٤٠ ق.م .

أبولونيوس "Apollonius" من (جزيرة رودس) من ٢٦٠ - ١٨٨ ق.م .

ثيوقريطس "Theocritus" حوالى ٣٢٠ إلى ٢٥٠ ق.م .

لم يكن للأدب الذى نشأ فى الجامعة أهداف سامية ، فهو لم يكن مهتماً بالقضايا الجوهرية ولا حتى بمسائل السلوك ، ولم يحاول أدنى محاولة للاقتراب من القضايا العليا للفن ، وكان يكفيه أن يكون طريفاً أو محزناً أو تعليمياً أو مسلياً أو بذيئا ، وهو فى كل ذلك كان موالياً للقصر ، وبالرغم من احتشاده بالتجارب إلا أنه كان خالياً من المغامرة ، لقد نشأ هذا الأدب بعد انتهاء العصر البطولى لليونان وبعد افتقاد الحرية وربما الشرف أيضاً .

لقد ضل الطريق ولنا أن نكون سعداء أنه لم يتدهور أكثر فأكثر ، إنه كان يمتلك قوة فريدة من نوعها لأنه رأى ثلاثة أشياء جيدة مازالت باقية من حطام الآمال التقليدية ، وهى بالتحديد ؛ الوجه المزخرف للكون ، وبهجة التعلم ، ومباهج الحب ، والأخير كان أكثرها حسناً ، لقد غنت اليونان القديمة أيضاً للحب . ولكن مع التحفظ معتبرين إياه واحداً من الأنشطة العديدة ، أما السكندريون فنادراً ما غنوا لسواه : هجائياتهم القصيرة ، مرثياتهم ، أناشيد الرعاة وأغنياتهم الحماسية ، كل ذلك كان يدور حول عشقهم الرقيق محتفياً به بأساليب لم تعرفها العصور السابقة أبداً ، لكن العصور التالية سوف تعرفها جيداً . السهام والقلوب ، التنهدات والعيون ، النهود والصدور كلها ابتدأت من الإسكندرية ، والتزاوج ما بين القصر والجامعة يعتبر اليوم تدبيراً قديما لكنه كان فى حينه حديثاً .

من الذى يستطيع أن يجعل من الحب تمثالاً

وأن يضعه بالقرب من البحيرة

معتقداً أنه يمكن أن يطفئ لهيب الحب بالماء ؟

وعلى هذا النسق يجرى المقطع الشعرى المنسوب إلى واحد من أوائل أمناء المكتبة ، محتوياً بأسلوب موجز خصائص تلك المدرسة ؛ الأسلوب الزخرفى والتضمين الأسطورى والتغنى بالحب . كان هو الولد القاسى والشهوانى الذى يرفرف بجناحيه خلال أدب الإسكندرية وهو أيضاً يتخلل الآلاف من التماثيل الطينية الصغيرة التى تم استخراجها من تربة الإسكندرية ، وإن المرء ليضجر منه ولكنه كان من الملائم له أن يولد فى ظل هذه السلالة التى بلغت أوجها فى كليوباترا . واتخذ الأدب طابعه من كاليماخوس ، وهو شاعر رقيق بالرغم من أنه لم يكن بتلك الرقة التى توقعها سادته . بدأ حياته كدارس فى إليوسس (النزهة الحديثة) وتم استدعاؤه إلى الجامعة حيث أصبح أميناً للمكتبة فى عهد يورچيتس ، كان تعلمه ممتازًا وفطنته جديرة بالاعتبار ، وولاؤه بلا حدود . إنه ذلك الشاعر الذى كتب القصيدة الخاصة بشعر برنيس ، فهو أنيق ومتحذلق فى كل ما كتب ، لقد أعلن أن «الكتاب الكبير هو إزعاج كبير» واهتمامه بدقة التعبير كان أكثر من اهتمامه بعمق المشاعر ، بالرغم من وفرة هذه المشاعر فى قصيدته الصغيرة التالية .

شخص ما ..

أخبَرنى ياهرقل عن نهايتك

بكيتُ وأخذت أفكر

كم أغرقنا الشمس بالكلام .. أنا وأنت

حسنا

لقد صرتَ ترقد الآن فى مكان ما

رماداً مهملاً

ياصديقى الكارى(*)

لكن عنادلك

وأغانيك .. مازالت تحيا

والموت الناشب أظفاره

فى كل شئ ..

لم يستطع أن ينالها .

(*) نسبة إلى منطقة تقع أقصى جنوب غربى الأناضول تسمّى «كاريا» - المترجم .

انقطع اطّراد هذه السيرة الرائعة مرة واحدة فقط ، عندما كان أحد تلاميذه ويدعى أبولونيوس ، وهو شاب من رودس ذو ساقين نحيلتين ، كان يطمح فى أن يكتب ملحمة ، وهو نوع من التأليف كان يكرهه كاليماخوس ، ولكن أبولونيوس الذى كان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره ، قرأ مسودة أولية لقصيدته على الحاضرين من أعضاء الجامعة ، وكانت هناك مشادة عنيفة من جراء ذلك ، طرد على إثرها أبولونيوس وكتب كاليماخوس هجاء سماه : «الأيبيس» وفيه كشف عن كافة عيوب منافسه بما فيها ساقاه . ورد عليه أصدقاء أبولونيوس بنفس الروح ، واختل التوازن فى المتحف ، وكسب كاليماخوس المعركة ، ولكن نصره لم يكن نهائياً ، فبعد موته تم استدعاء أبولونيوس إلى الإسكندرية ، وسرعان ما أصبح أميناً للمكتبة خلفاً له .

وأصر أبولونيوس مرة ثانية على إحياء ملحمته التى كان قد صاغها على نسق ملحمة هوميروس .. كانت ملحمته تحكى عن رحلة آرجو لاستعادة «الفروة الذهبية» ولكنها كانت خالية تماماً من أى معالجة هومرية ، فرغم أنه ، من المفترض أننا نعيش فى أرض بربرية ، إلا أننا لم نتجاوز أبداً ثقافة البلاط البطلمى ؛ فمازال الحب هو الاهتمام المسيطر ، والولد الصغير الشقى قد تسلل لقصر ميديا وصوب سهامه الدقيقة إليها ليبث فيها عشق جايسون ، مثلما فعل مع الملكة برنيس أو أرسينوى ، ففى هذه الملحمة تتبدى الآلام والضعف والنشوة ، أما الضالة المنشودة فقد تم نسيانها ، إن كاليماخوس لم يكن باستطاعته أن يجد شيئاً ليعترض عليه فى مثل هذه الملحمة سوى طولها .. لأنها كانت نموذجاً مطابقاً لمدرسته ، وطريقتها التصويرية - هى الأخرى - تحمل ملامح الإسكندرية ، بل إن كثيراً من أحداثها أمكن تجسيده فى تماثيل طينية وأشكال مختلفة للحلى .

ولكن أحد هؤلاء الشعراء الذين كانوا يعملون فى الجامعة ويدعى ثيوقريطس كان عبقرياً بشكل مختلف ، عبقرياً لم تصنعه الإسكندرية ولكنها أنضجته .

قدم ثيوقريطس إلى الاسكندرية فى وقت متأخر من عمره ، فقد ولد فى كوس وعاش فى صقلية ، ووصل إلى هنا مفعما بذكرياته عن الهواء الطلق والشمس الساطعة ومروج أعالى الجبال والأشجار الوارفة ، ذكريات عن الماعز والأغنام ، وذكريات عن الرجال والنساء الذين اهتموا به . ذكريات عن كافة ألوان السحر وعن الخشونة التى تشكل مجمل الحياة الريفية ؟ وطرح كل تلك الذكريات فى صياغات شعرية ، معطياً إياها أحيانا شكلا مثالياً وأحياناً أخرى شكلا بدائياً ، وسمى هذه القصائد : أناشيد الرعاة ؛ صور صغيرة من الحياة الريفية - وكان الحب والأوهام

الأسطورية والمعالجة الزخرفية من الأمور التى أحبها أيضاً ، ولكنه دعمها باتساع خبرته - والفكاهة التى لم يعرفها كاليماخوس وأبولونيوس أبداً ، فبينما كان كلاهما كلاسيكيين وجبت دراستهما ، فإن ثيوقريطس يحتكم إلينا فى التو فى قصيدته الخامسة عشرة وهى التى تعتبر من قصائده القصصية ، التى يصف فيها لنا الحياة فى القطاع اليونانى من الإسكندرية ، وهى فى حدّتها مازالت حتى اليوم كما كانت عندما كتبها ؛ فالحوار الذى يفتتح به القصيدة يمكن سماعه اليوم فى أى بهو صغير للاستقبال فى كامب شيزار أو الإبراهيمية ؛ إننا نجد براكسينوى وهى سيدة من الطبقات الوسطى ، جالسة لا تفعل شيئاً بالتحديد وتدخل عليها صديقتها جورجو .

جورجو . هل براكسينوى فى المنزل ؟

براكسينوى : أوه ياعزيزتى جورجو ، إنها فى المنزل ، منذ أزمان مضت أى منذ أن كنت هنا ، ومن المدهش أنك أتيت الآن (منادية الخادمة) إينوى - هات مقعَداً لابنة العم تجلس عليه .

جورجو : الدنيا جميلة كما هى دائماً .

براكسينوى : اجلسى .

جورجو : لقد تحطمت أعصابى يا براكسينوى ووصلت إلى هنا وأنا أكاد أموت .. ما كل هذا الزحام ؟ وما كل تلك العربات ؟ ... أحذية الجنود ومعاطفهم الهائلة ، والشوارع .. لانهاية لها .. إنك تعيشين بعيداً جداً .

براكسينوى : إنه زوجى المجنون .. أخذ لنا هذا الكوخ الذى لايمكن أن يسمَّى منزلاً ، عند نهاية العالم كى لا يكون حولنا جيران .. إنها الغيرة القاتلة كما هى العادة .

جورجو : ولكن يا عزيزتى : لا تتحدثى عن زوجك هكذا : عندما يكون الصغير موجوداً .. إنه يحملق فيك (موجهة الكلام إلى الولد الصغير) يا حبيبى المدلل .. كل شىء على ما يرام .. إنها لا تتحدث عن والدك.. (الحمد لله .. لقد فهم الطفل) إن أباكَ رجل طيب .

براكسينوى : بالأمس ، وكما عهدنا دائماً أن نطلق كلمة الأمس على كل الأيام الماضية ، ذهب هذا الأب ليحضر بعض الصودا من البقال ، فأخطأ وعاد محضراً ملْحا .. إنه الحظ المفرط فى التعاسة .

جـورجـو : إن حظى مثل حظك تماماً ... إنه(*)

وهكذا تستمر الافتتاحية .

ولكن جورجو أرادت أن تخرج مرة ثانية بالرغم من عصبيتها .. فاليوم هو عيد البعث – بعث أدونيس . وستقام صلاة مهيبة داخل القصر ، لها مرتل خاص ، وبراكسينوى هى الأخرى قررت أن تغامر ، فارتدت ملابس تغطى كل جسمها كلفتها ثمانية جنيهات مشتملة على التطريز وأخيراً استعدوا ، وبدأ الصغير فى الصراخ ، إنه يرغب أن يذهب معهما إلى الحفل ، لكن أمه قالت : «صح كما تريد – ، فأنا لا أستطيع أن أراك مقعداً ..» وأخذت إينوى بدلاً منه ، كان الزحام فى الشارع رهيباً ، وكن مرتعبات من المصريين (كما يحدث اليوم بالنسبة للسيدات اليونانيات ، وإينوى التى كانت دائماً خرقاء ، كادت أن تسقط تحت أرجل الحصان ، والمعركة عند بوابة القصر كانت أسوأ ، تمزق فيها حجاب براكسينوى الموسلين ، لكنها كانت سعيدة لأنها لم تحضر الصغير ، ولولا هذا الرجل المهذب الطيب لاستحال عليهم الدخول ، وعندما تيسر لهم ذلك .. بدالهم كل شىء ممتعاً ، فالستائر رائعة – كما هو متوقع عندما تكون الملكة أرسينوى هى من أنفقت عليها .. إنها أرسينوى زوجة فيلاديلفوس ، وهناك أيضاً ذلك الضريح المقدس لأدونيس وعليه صورته التى يبدو فيها وعلى خديه زغب الرجولة المبكرة ، أما السيدات فكن فى حالة من الوجد التى يبذلن فيها جهداً كى يهدئن أنفسهم لينصتن إلى ترنيمة البعث · تلك التى يتبدى فيها الوجه الآخر من عبقرية ثيوقريطس – وهو الوجه السكندرى – فهو هنا لم يعد ذلك الواقعى المدهش ، ولكنه صار الشاعر المحيط علماً بكل شىء ، والذى كان الحب هو موضوعه الرئيسى .

أيتها الملكة التى أحبت جولجى وإيداليم وإيراكس ، إنك أفروديت التى تلاعبت بالذهب ، عجباً لهذا النهر الخالد المتدفق من العالم الآخر والذى بُعثتَ منه حياً مرة أخرى يا أدونيس ....

إنه العريس ذو الثمانية أو التسعة عشرة من عمره ، إن قبلاته ما تزال ناعمة ، فزغبه الذهبى لم يغط شفاهه بعد ... وأنت فقط يا أدونيس العزيز، هكذا يقول الرجال ، يا من عاش فى هذه الحياة الدنيا ، وزار نهر العالم الآخر ، إن أجاممنون لم يكن له مثل هذا الحظ ولا أجاكس النبيل ، ولا هكتور ، الابن البكر لهيكوريا ، ولا بتروكلوس ،

(*) بتصرف من ترجمة أندرولانج – المؤلف .

ولا بيروس الذى قفل راجعاً من طروادة ، حتى ولا كل أبطال العصور الغابرة .... فلتكن رحيماً بنا يا إلهنا العزيز أدونيس ، وبارك لنا فى سنتنا القادمة حتى عيد بعثك الآتى ... وسيكون هذا العبد عندما تعود إلينا مرة أخرى .

إنها لترنيمة جميلة ولكن جورجو علقت «على كلٍ .. لقد حان وقت العودة إلى المنزل ، فإن زوجى لم يتناول عشاءه ، وعندما يطول عليه انتظار العشاء ، يصبح لاذعاً وحاداً» وحّيت النسوة الثلاث الإله المبعوث حياً ورحلن . هذه هى القصيدة القصصية (الملحمية) الرائعة التى لم تكن خصيصة مميزة ليثوقريطس فهو عادة ما كان يتغنى بالرعاة وقطعانهم ، ولكن هذه القصيدة تعتبر من اسهاماته العظيمة فى الأدب السكندرى ، ومرجعاً رئيسياً لنا عن الحياة اليومية فى عهد البطالمة ، فالتاريخ ليس مجرد علاقة بين جيوش وملوك ، والقصيدة القصصية الخامسة عشرة تعبر عن هذا التصور الخاطئ ، فعن طريق الأدب وحده يمكن استرجاع الماضى ، وهنا – فى هذه القصيدة – أعاد ثيوقريطس الحياة لمدينة كاملة من الموتى ، وملأ شوارعها بالرجال مستخدماً السحر المزدوج للواقعية والشعر ، وكما قالت أرسينوى : «لماذا تبدو التماثيل وكأنها ستقف وتتحرك ... إنها ليست جامدة .. إنها حية» .

كانت الجامعة فى أبهى صورة أثناء حكم البطالمة الثلاثة الأوائل ، ثم بدأت فى التدهور لاسيما فى إنتاجها الأدبى ، وعلى الرغم من أن الإسكندرية ظلت تنتج القصائد وغيرها لمئات من السنين إلا أن القليل منها كان جديراً بالاهتمام .

وبقدوم الرومان اتخذت عبقرية الإسكندرية مساراً جديداً ، فاتجهت نحو الفلسفة والدين اللذين كانا مهملين ، ولكنها ظلت جذابة لرجال الأدب ، فكل كاتب من كتاب المدونات زارها تقريباً أثناء سفره .

- تمثال صغيرة للعشاق المتحف – حجرة ١٨
- النزهة (مسقط رأس كاليماخوس) صـ ٢٠٩

(ب) المـــدارس :

اهتم اليونانيون بتراثهم الأدبى لأول مرة فى جامعة الإسكندرية ، لم يقوموا بجمع أعمالهم السابقة فقط . بل تم فى المكتبة تصنيفها وتنقيحها وشرحها أيضاً ، ويرجع تاريخ المدارس إلى زينودوتس الذى كان أول أمين للمكتبة ، وهو الذى أبدى اهتماماً

بهومر ووضع الإلياذة والأوديسة فى أجزاء ، واستهل عمله باستبعاد المقاطع الشعرية الزائفة من النص ، وأشار إلى ما به شك أيضاً ، ووضع أساليب جديدة لقراءة النص ، وأعطى ، دافعاً هاماً للبحث بشكل عام ؛ حيث كان تطور اللغة اليونانية حتى زمانه غير ملحوظ ، وفى أيامه تم دراسة هذه اللغة بوعى ، وتم وضع أول قواعد للغة اليونانية فى حوالى ١٠٠ ق.م نتاجاً لما قام به من جهد .

وقواعد اللغة موضوع هام للغاية ، ولكنه خطر أيضاً ، لأن هذه القواعد تجتذب المتحذلقين والحفظة وكل من يعتقد أن الأدب قضية لها قواعد ، فنحاة الإسكندرية نسوا أنهم بالكاد كانوا يستطيعون تصريف الفعل الماضى ، فتجرأوا على إجبار الأجيال المعاصرة لهم وما تلاها من أجيال على اتباع أساليب رديئة ، ظلت سارية لما يقرب من عشرين قرنا (فاللهجات اليونانية المخترعة والمشكوك فى أمرها) كانت هى أيضاً ابتكاراً من ابتكارات الجامعة .

وفى الواقع فإن كل المدارس الأدبية كما نعرفها بما فى ذلك الهزليات الثقافية ، قد انبثقت كمنتج ثانوى مضحك وغريب ، فعلى سبيل المثال ، ألَّف أحد الأشخاص المتعلمين قصيدة ، أخذت شكل طائر عندما تم نسخها ، وكتب آخر قصيدة على شكل فأس ذى رأسين ، وثالث أعاد كتابة كل الأوديسة دون استخدام حرف (السين) .

إن هذا الاستظراف المتحذلق للجامعة قد أصاب القصر بالعدوى ومارسه حتى البطالمة أنفسهم ، فقد شكا أحد الدارسين وكان اسمه «سوسيبيوس» إلى الملك فيلاديلفوس أنه لم يتقاض راتبه ؛ فأجابه الملك : إن أول مقطع فى اسمك موجود فى «سوتيرّ» ، والمقطع الثانى موجود فى «سوسيجنس» والثالث فى «بيون» والمقطع الرابع فى «أبولونيوس» .. وأنا دفعت لهؤلاء الرجال ، وبذا أكون قد دفعت لك .

(جـ) الفـن :

احتل الفن فى الإسكندرية مرتبة ثانوية ، فقد كان للمدينة صناعاتها الخاصة مثل الزجاج وصناعة الخزف ، ومثل فخاريات الملكة المصرية ، وصناعات النسيج – كما كانت بها دار شهيرة لسك النقود .

أما بالنسبة للفنانين المبدعين ، فكان نظر البطالمة متجها إلى هناك ، فيما وراء البحر ، فلم تتوحد الدوافع المصرية واليونانية فى الفن ، كما توحدت فى الدين ، بالرغم

من وجود بعض المحاولات التى لا تحظى بكثير من الأهمية ، وعلى أى حال ، فإن المدينة تابعت الميول الهيلينية فى اتجاهها فى ذلك الوقت .

هذه الميول التى قادتنا إلى أن نذهب بعيداً عن التصورات الخالية والتجريد ، وأدت بنا إلى الوصفية والحسية والتصويرية .

لقد فقد الناس فى تلك الأيام - كثيراً من الأوهام سواء كانت دينية أو سياسية ، وحاولوا أن يجمّلوا حياتهم الخاصة ومقابر من كانوا يحبونهم .

- الزجاج وفخاريات الملكة المصرية المتحف - حجرة ١٧
- تماثيل فخّارية — المتحف - حجرة ١٨
- العملات البطلمية — المتحف - حجرة ٣
- أشكال مصرية ويونانية — المتحف - حجرة ١١ ، ١٥
- مقابر كوم الشقافة — صـ ٢٠٢
- زخارف المقابر — المتحف - حجرة ١٧-٢٢

(د) الفلسفة :

كانت الفلسفة بالنسبة للبطالمة شيئاً غير مرغوب فيه ، لكنهم استدعوا بعضاً من تلاميذ أرسطاطاليس الثانويين ليعطوا طابعاً فلسفياً للجامعة ، ولكن هذا الموضوع لم يأخذ منهم اهتماماً كبيراً ، بل كانوا فى الحقيقة كارهين له ، لأن الفلسفة من الممكن أن تؤدى إلى حرية الاعتقاد والفكر ، وهذا أدى إلى أن مدرسة الإسكندرية الفلسفية لم تحقق أى نهوض إلا بعد انتهاء سلالتهم .

انظر صـ ١٠٣ تحت عنوان «المدينة الروحية» .

(هـ) العلم :

لقد حقق البطالمة فى العلم نجاحاً ، لم يستطيعوا أن يحققوه فى الأدب ، بل إنهم فضلوا العلم عن الأدب ، لأنه لم يستطع أن ينتقد حقهم المقدس ، بل قدم لسلالتهم أعظم الهبات ، وجعل الإسكندرية شهيرة على مر التاريخ ، ففى اليونان القديمة كانوا يدرسون العلم بشكل جزئى ، فلم يكن هناك أى تنسيق ، ولم تكن هناك أى معامل

وبالرغم من ذلك فإن هناك حقائق هامة أمكن اكتشافها أو تخمينها ، ولكنها كانت تواجه خطر النسيان لعدم قدرة اليونانيين على تعميمها ..

لكن الجامعة فى الإسكندرية ، استطاعت تغيير كل ذلك ، حيث كانت تعمل تحت الرعاية الملكية ، ولذا أمكن للعلم أن يحقق نجاحات باهرة لوجود الكثير من التسهيلات ، التى مكنته من أن يمنح البشرية الهبات العظيمة ، حيث صار القرن الثالث قبل الميلاد - طبقاً لوجهة النظر هذه - هو أعظم فترة عرفتها الحضارة ، إنه أعظم حتى من القرن التاسع عشر الميلادى . إن العلم لم يجلب لا السعادة ولا الحكمة لأنه لا يمكنه أن يفعل هذا وحده أبداً ، لقد استطاع أن يكتشف الكون الفيزيقى ، وسخّر العديد من القوى لخدمتنا ، فكل من الرياضيات والجغرافيا والفلك والطب ، نما وترعرع هنا فى تلك المساحة الصغيرة من الأرض ، ما بين شارع رشيد الحالى والبحر ، وإذا كان لدينا أى إحساس بالانسجام مع أنفسنا ، فعلينا أن نقيم لهم النصب التذكارية فى هذا المكان .

I الرياضيات :

تبدأ الرياضيات بذلك التقدم الهائل الذى أنجزه إقليدس منذ زمان بعيد ، هذا الرجل الذى لم نعرف عنه شيئا ، وفى الحقيقة فإننا نتذكره اليوم كفرع من المعرفة أكثر مما نتذكره كشخص ، بالرغم من أنه كان يوما ما مشتعلا بالحياة ومستقراً هنا فى عهد بطليموس فيلاديلفوس ، وقام بإبلاغنا بمقولته البسيطة والفذة فى نفس الوقت ، والتى يقرر فيها «أنه لايوجد طريق معبد للهندسة» . وهنا أى فى الإسكندرية ألف كتابه «العناصر» وبعض الأعمال الأخرى ، وفى كتابه «العناصر» دمج كل المعرفة السابقة على عصره ، ولذا ظل كتابه هذا مرجعاً للعالم فى الهندسة حتى أيامنا الحاضرة وهنا أيضا أسس المدرسة الرياضية التى استمرت سبعمائة عام ، وأقرت بريادته على مدى الدهر ، فأبولونيوس «البرجاوى(*)» الذى يعتبر أول من بدأ دراسة القطاعات المخروطية كان واحداً من تلاميذ أقليدس المقربين ، وأضاف «هسبكليس» جزءين آخرين إلى الثلاثة عشر جزءاً من كتاب «العناصر» وقد نسخ الأب الروحى للشهيدة هيباتيا جميع أجزاء كتاب العناصر وأعطاها شكلها الحالى ، وصار رياضيو الإسكندرية من أولهم حتى آخرهم مشغولى البال بهذا الكتاب .

(*) نسبة إلى برجا وهى مدينة بالأناضول ، كانت مركزًا للثقافة وعبادة الإلهة أرتميس إلهة الطبيعة .

كان إقليدس رجلاً بسيطاً طبقاً للأعراف التقليدية ، وكان شديد الخجل ، ولكن ازدراءه لفيلاديلفوس - كما يبدو - كان غير عادى .

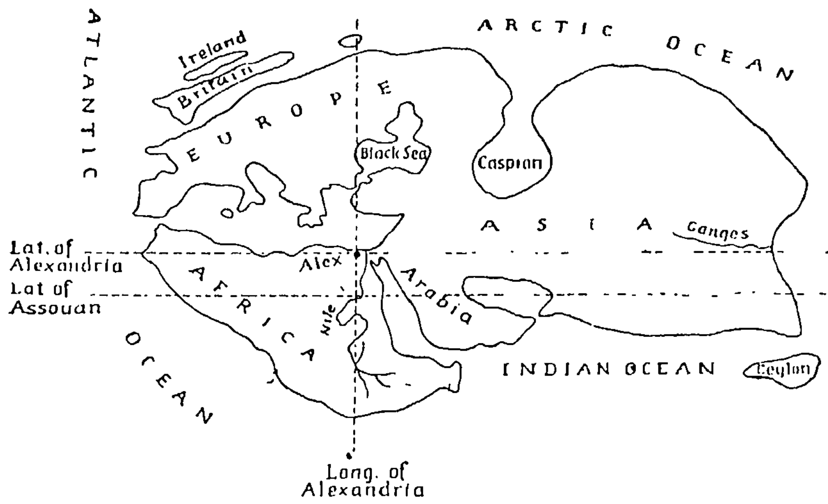
II الجغرافيا :

وهناك شخصيتان رائدتان فى علم الجغرافيا إيراتوسثينس(*) "Erotosthenes" وكلاوديوس بطليموس "Claudius" ، وأولهما كان أكثر أهمية من الآخر ، لأنه كان متعدد المواهب ، متفوقا فى الأدب كتفوقه فى العلم ، وميلاده كان فى سيرين ٢٧٦ ق.م - وعندما مات كاليماخوس - تم استدعاؤه إلى الإسكندرية ليصبح أميناً لمكتبتها بدلاً منه ، وفى مرصد الجامعة استطاع قياس الكرة الأرضية ، وربما لم يكن هذا هو أعظم إنجاز للعلم السكندرى ، ولكنه بالتأكيد كان الأعظم إثارة ، وكان منهجه هو التالى · إنه كان يعرف أن الأرض كروية ، وقد أخبروه أن شمس منتصف الصيف فى أسوان فى صعيد مصر لا تلقى ظلا فى منتصف النهار ، بينما هذه الشمس فى نفس اللحظة تلقى ظلاً فى الإسكندرية ، وحيث إن الإسكندرية تقع على نفس خط الطول فى اتجاه الشمال ، وبقياس الظل فى الإسكندرية وجد أنه كان ٧,٠٥° أى أنه $\frac{١}{٥٠}$ من دائرة كاملة ، وبذلك تكون المسافة من الإسكندرية إلى أسوان $\frac{١}{٥٠}$ من محيط الكرة الأرضية الكامل والبالغ طوله ٢٥٠٠٠ ميلاً وبناء عليه فإن قطرها يكون ٧٨٥٠ ميلاً ، وبمقارنة هذا مع القياسات الحديثة تبين أنها أقل بحوالى ٥٠ ميلا ، وإنه لمن الغريب حقاً أن العلم كان يحقق هذه الإنجازات بينما كانت البشرية تنحدر إلى البربرية وإلى حكايات الجنيات .

كان هناك عمل آخر عظيم لايراتو سثينس وهو «الجغرافيات» الذى ضمنه كل المعلومات الجغرافية السابقة ، كما فعل إقليدس فى كتابه العناصر ، حيث ضمنه كل المعلومات الرياضية السابقة ، وكان كتاب «الجغرافيات» مكوناً من ثلاثة أجزاء وبه خريطة للعالم المعروف حينئذ انظر صـ٨٤ وهى بالطبع مليئة بالأخطاء ؛ فمثلاً :

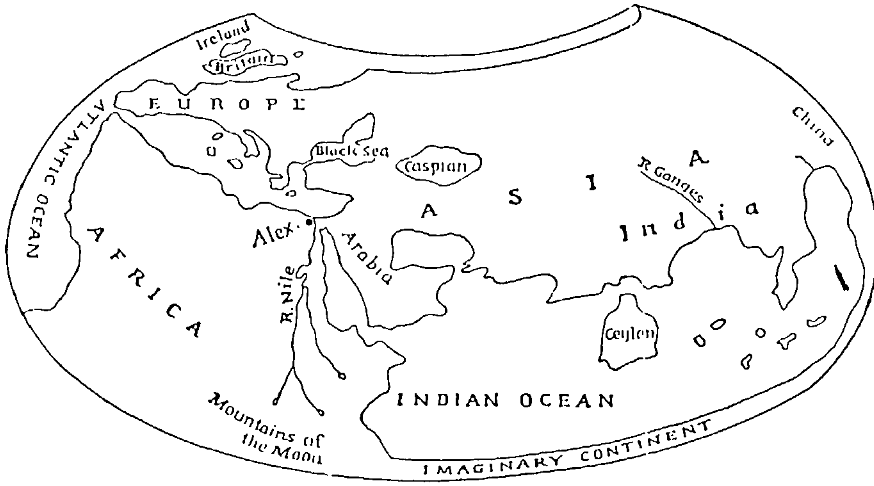
تبدو فيها بريطانيا العظمى (!) ضخمة جداً ، وتكف الهند عن أن تكون شبه جزيرة ، ويصير فيها بحر قزوين متصلاً بالمحيط المتجمد الشمالي ، وبالرغم من ذلك فهى تتسم بالروح العلمية ، وتمثل العالم كما يراه إيراتوسثينس ، وليس كما ينبغى أن يكون ، وعندما كان يجهل شيئاً لا يحاول أن يدرجه ، لم يكن يخجل من أن يترك

(*) وهو المعروف بأرطستنيس القوريناثى . نجيب بلدى . مرجع سابق - المترجم .



THE WORLD ACCORDING TO ERATOSTHENES
B.C. 250

العالم كما رسمه ايراتوستينس وهو العالم الذى قاس محيط الكرة الأرضية ، وبها يبدو المحيط الهندى ، والأطلنطى والقطبى ، وقارات آسيا وأفريقيا وأوروبا عام ٢٥٠ ق.م .



THE WORLD ACCORDING TO CLAUDIUS PTOLEMY
A.D. 100

العالم عند كلاوديوس بطليموس ، وبه المحيطان الأطلنطى والهندى ، وقارات أفريقيا وآسيا وأوروبا ثم القارة الخيالية الجنوبية ، عام ١٠٠م .

مساحات فارغة ، وهو يبنى خرائطه على أساس من الحقائق التى كان يعرفها ، وعندما كان يعرف حقائق أكثر كان يقوم بتبديلها .

أما الجغرافى العظيم الآخر فكان كلاوديوس بطليموس ، الذى ينتمى إلى فترة متأخرة (١٠٠م) ، ومن الملائم أن نذكر هنا أنه كان على الأرجح مرتبطاً بالعائلة الملكية الراحلة ، فنحن لا نعرف عن حياته شيئاً . لقد فاقت شهرته ايراتوسثينس لأنه بلاشك كان أكثر علماً ، وذلك لأن كثيراً من الحقائق صار بين يديه ، ولكننا نستشف من خلاله اضمحلال الروح العلمية .. انظر خريطة العالم صـ٨٥ . وللوهلة الأولى تبدو أنها أفضل من خريطة ايراتوسثينس ، فيها نجد أن مكان بحر قزوين صار أكثر دقة ، وأن بلاداً جديدة مثل الصين تم إدراجها ، وفى «الخريطة الأصلية» توجد أسماء أكثر ولكن بها خطأ جسيم ' هو أن أفريقيا قد استطالت وارتبطت بقارة خيالية واتصلت بالصين . كان هذا محض خيال ، حتى إنه ملأ هذه القارة بالمدن والأنهار ولم يصلح أحد هذا الخطأ، وظل فى اعتقاد الناس لمئات السنين ، أن المحيط الهندى بحيرة داخل الأرض ؛ لقد انتهى زمن البحث والتحقيق ، وابتدأ عصر النصوص ، وإنه لمن نافل القول أن نذكر أن التدهور الذى أصاب العلم بالإسكندرية تزامن تماماً مع قيام المسيحية .

III الفلك والتقويم :

إن الفلك يتطور بتطور الجغرافيا ، حيث كانت هناك فترة مبكرة من البحث العلمى بقياده ايراتوسثينس ، ثم فترة متأخرة ، قام فيها كلاوديوس بطليموس بتنسيق النتائج وتسجيل آرائه للأجيال اللاحقة ، حيث أعلن - على سبيل المثال - أن الكون يدور حول الأرض ، وهذه النظرية البطلمية تبناها كل الفلكيين حتى عصر جاليليو ، وتأيدت بكل وعيد الكنيسة وتهديدها .

كانت هناك وجهة نظر أخرى فى مواجهة نظرية بطليموس - بالرغم من تجاهله لها - فأرستارخوس "Aristarchus" الساموسى الذى كان يعمل فى الإسكندرية مع إيراتوسثينس ألمح إلى أن الأرض ربما كانت تدور حول الشمس ، كان من الممكن أن تكون لوجهة النظر هذه فرصة كبيرة وألا تُسحق بشكل رسمى ، وأن تفرض نفسها كفكرة صحيحة على امتداد العصور الوسطى ، ونحن لا نعرف ماذا كانت براهين أرستارخوس ، لأن كتاباته تم تدميرها ، ولكن ربما كان من المؤكد أنه كان يعمل فى القرن الثالث قبل الميلاد وكانت لديه البراهين التى لم تجد لها ملجأ عند السلطات ، وكان للفلك عند البطالمة شأن خطير - حيث استضاء بما يُحكى عن شعر برنيس !

أما بالنسبة للتقويم ، فمن المعروف أن التقويم الذى نستخدمه الآن تم تجريبه فى الإسكندرية ، والمصريون القدماء كانوا يحسبون السنة ٣٦٥ يوماً ، وهى فى الحقيقة ٣٦٥ ١/٤ ، وظل المصريون لأزمان طويلة مفتقدين الدقة ، فعيد الحصاد الرسمى – على سبيل المثال – لم يكن يتزامن مع موسم الحصاد الفعلى إلا مرة كل ألف وخمسمائة عام ، وهم كانوا واعين بهذا التناقض ، ولكنهم كانوا محافظين جدا ، حتى إنهم لم يغيروه أبداً ، وتم هذا التغيير على يد الإسكندرية ، ففى ٢٣٥ ق.م ماتت ابنة بطليموس يورجيتس الصغرى ، وأصدر كهنة سيرابيس فى كانوبس مرسوماً بجعلها إلهة ، والمصلح دائماً مصلح حتى وهو يعانى ، لقد أقنع الملك كهنته بتصحيح التقويم ، وأمرهم فى نفس الوقت باستصدار مرسوم يؤكد ضرورة وجود سنة كبيسة كل أربع سنوات ، وكما يحدث الآن فى عصرنا ، حاول أن يقيم تجانساً بين العبادات المصرية والعلم اليونانى ، وفشلت المحاولة كعهدنا دائماً بالإسكندرية . وبالرغم من إصدار الكهنة لمرسومهم ، إلا أنهم احتفظوا بتقويمهم القديم ، فلم تكن قضية الإصلاح قد سادت بعد ، وهذا لم يحدث إلا فى عصر يوليوس قيصر الذى رسخ السنة السكندرية بشكل رسمى وصاغ التقويم «الجوليانى» على غرارها ، وهو التقويم الذى نستخدمه فى أوروبا اليوم . كانت السنة بنفس الطول فى نفس التقويمين ولكن التقويم السكندرى احتفظ بالنسق المصرى القديم للشهور الاثنى عشر المتساوية .

IV الطـــب :

كان إراسستراتوس "Erasistratus" (فى القرن الثالث قبل الميلاد) هو المعجزة الحقيقية لمدرسة الطب السكندرى ، وكان فى حياته المبكرة ممارساً عظيماً ، وأدرك العلاقة ما بين الاضطرابات الجنسية والانهيار العصبى ، واستقر فى شيخوخته فى الجامعة ووهب نفسه للبحث ، ومارس تشريح الكائنات الحية ، سواء كان للحيوانات أو لبعض المجرمين ، وبدا أنه على أبواب اكتشاف الدورة الدموية ، وكانت العادات الدينية فى التداوى – والتى نشأت فى معبدى سيرابيس العظيمين ، فى كل من الإسكندرية وكانوبس – تفتقد إلى الكثير من العلمية ، وظلت هذه العادات مستمرة طوال العصور المسيحية تحت رعاية آخرين !

- موقع الجامعة صـ ١٥١
- خريطة إيراتوسثينس صـ ٨٤
- خريطة كلاوديوس بطليموس صـ ٨٥
- معبد سيرابيس فى كانوبس صـ ٢٣٠
- معبد سيرابيس فى الإسكندرية صـ ١٩٧

الفصل الثانى

العصر المسيحى

حكم روما من ٣٠ ق.م - ٣١٣م

كره أوكتافيان {أغسطس} مؤسس الإمبراطورية الرومانية مدينة الإسكندرية ، حتى إنه بعد انتصاره على كليوباترا ، أسس مدينة صغيرة بالقرب من منطقة الرمل الحديثة ، وأسماها نيكوبوليس (مدينة النصر) ، بل ومنع أيضاً أى رومانى من الطبقات الحاكمة من دخول مصر دون إذن منه مدعياً خوفه عليهم من الطقوس الدينية العربيدة(*) التى من الممكن أن تفسد أخلاقهم ، ولكن السبب الحقيقى كان اقتصادياً حيث كان يريد أن يحتفظ بأهراء القمح المصرى بين يديه ، كى يتحكم فى الجماهير الجائعة فى روما . وصارت مصر إقطاعية خاصة للإمبراطور خلافاً لكافة الأقاليم الرومانية الأخرى ، وهو نفسه الذى كان يعين الحاكم الذى يحكمها ، وتحولت الإسكندرية إلى مخزن إمبراطورى هائل للقمح ، يتم فيه تجميع الأتاوات المفروضة على المزارعين من المحاصيل الزراعية ، وبعد تخزينها يتم إعدادها للشحن ، لقد كان عصراً للاستغلال ، صار فيه أوكتافيان فى المنطقة ، وريثاً مقدساً للبطالمة ، ويظهر اسمه مكتوباً بالهيروغليفية فى دندرة وفيلة بالرغم من أنه لم يحز أى محبة فى القلوب .

وبعد موت أوكتافيان ، تحسنت الأحوال ، فالجمهورية التافهة والقاسية التى جسد هو خصائصها الأساسية ، تحولت إلى الإمبراطورية الرومانية ، وهى التى جلبت السعادة إلى عالم البحر المتوسط على مدى قرنين من الزمان ، بالرغم من فترات جنونها ونالت الإسكندرية نصيبها من تلك السعادة ، فقد تم حل مشاكلها الجديدة الناجمة عن الشغب الدائم بين اليونانيين واليهود ، وتم ذلك على حساب اليهود ، وانتعشت تجارتها بعد توطيد صلاتها بالهند ، حيث أعاد تراجان - مرة أخرى - شق القناة الموصلة إلى البحر الأحمر فى ١١٥ م ، والعديد من الأباطرة المعجبين بالإسكندرية قاموا بزيارتها وهم فى طريقهم لزيارة الآثار القديمة فى صعيد مصر .

(*) يقصد الطقوس التى كانت تقام فى الاحتفال بأعياد آلهة الإغريق وتتميز بالغناء النشوان والرقص العربيد - المترجم .

وفى حوالى ٢٥٠ م عانت الإسكندرية مرة أخرى – مع باقى مدن الإمبراطورية – العديد من المصاعب ، فقد انزلق الجنس البشرى إلى حالة تبدى فيها الحقد والسخط كما لو أنه كان غير أهل للاستمتاع بالسعادة ، وهاجم البرابرة تخوم الإمبراطورية ، واشتعلت الثورات والتمردات بالداخل ، وتفاقمت المصاعب على الأباطرة بسبب المشكلة الدينية ، فأخذوا يؤكدون ألوهيتهم لأسباب سياسية ، تلك الألوهية التى علمتهم مصر إياها ، والتى تجلت لهم ، وكأنها القوة المرابطة فى مواجهة الهمجية الوحشية والانقسام ، لذا فرضوا على كل شخص أن يؤلههم .

فمن كان باستطاعته أن يتوقع احتجاجا ؟

وأن يكون هذا الاحتجاج من الإسكندرية ؟

- الرمل . نيكروبوليس (مدينة الموتى) صـ ٢١٧
- تمثال الإمبراطور (ماركوس أوريليوس) المتحف – حجرة ١٢
- عملات إمبراطورية المتحف – حجرة ٢
- شهادات للجنود الرومانيين المتحف – حجرة ٦

المجتمع المسيحى

طبقاً لمعتقدات الكنيسة المصرية ، فإن المسيحية دخلت مصر على يد القديس مرقص فى عام ٤٥م ، حيث اهتدى على يديه صانع أحذية يهودى ، كان يدعى أنيانوس Annianus وهو الذى استشهد فى ٦٢م بسبب تمرده على عبادة سيرابيس ، ولايوجد أى دليل على صحة هذا المعتقد ؛ فبدايات الحركة الدينية كانت غامضة ، ولم يكن لها أى علاقة بالطبقات الاجتماعية العليا ، ولم تعرهم السلطات أدنى اهتمام إلا فى حالة تمردهم على قوانينها ، وكانت تعاليم هذه الحركة تختلط جزئياً مع اليهودية التى انبثقت هذه الديانة عنها ، كما أنها ، تختلط جزئياً أيضاً مع عقائد الإسكندرية . هنـاك خطاب منسوب إلى الإمبراطور هادريان فى ١٣٤م يقول فيه «إن هؤلاء الذين يعبدون سيرابيس هم مسيحيون ، وهؤلاء الذين يدّعون أنهم أساقفة المسيح هم مكرسون لخدمة سيرابيس» وهذا يبين إلى أى حد جعل خلفاء القديس مرقص التمييز بين الطائفتين صعباً ، ويستمر الخطاب ؛ «وكنوع من الرجال ' فهم محرضون على الفتنة ، وفارغون وحاقدون فى مجملهم ، وهم أغنياء وناجحون ، وليس بينهم من

يعيش عاطلاً فبعضهم ينفخ الزجاج ، والبعض يصنع الورق ، وآخرون ينسجون الكتان، إلههم ليس غريباً ، فالمسيحيون واليهود وكل الأمم يعبدونه ، لقد كنت أتمنى أن يتصرف هؤلاء الرجال بشكل أفضل» .

وانتظم هذا المجتمع تحت رعاية عاهله (أي أسقفه - المؤلف) والذى سرعان ما اتخذ لقب البطريرك ، وعين أساقفة تابعين له فى كل مكان فى مصر .

وكانت المراكز الأولى له .

١ - مصلى القديس مرقص . وهو مشيد فى مواجهة شاطئ البحر - ربما إلى الشرق من السلسلة ، وواصل هذا المكان اتساعه حتى صار كاتدرائية .

٢ - كاتدرائية أخرى كرسها البطريرك ثايوناس لمريم العذراء فى ٢٨٥م ، وكانت فى مكان كنيسة الفرنسيسكان بالقرب من أرصفة الميناء .

٣ - كلية لاهوتية ، وهى المدرسة الكاتدرائية التى تأسست حوالى ٢٠٠م حيث كان يقوم بالتعليم فيها كليمنت(*) السكندرى ، وأريجن ومكانها مازال مجهولاً .

لقد كان السلوك السيء - إذا استخدمنا مصطلح هادريان - هو الذى جذب الانتباه إلى هذا المجتمع ، أو بمعنى أوضح ، هو رفض هذا المجتمع لتأليه الأباطرة فالمسيحية وضعت مطالب ضمير الفرد فى مواجهة المطالب الروحية اللامعقولة للدولة واحتدم الصراع إلى أقصى مدى وكانت الإسكندرية هى أكثر مدن الإمبراطورية سعياً لكسب المعركة لصالح الدين .

ولم يهدأ هذا الصراع إلا بتحول الدولة نفسها إلى المسيحية .

بدأ الاضطهاد بشكل متقطع ، وتعاظم فى عهد الإمبراطور ديسيوس ، وبلغ ذروته فى اتباع الأساليب المتهورة فى عهد دقلديانوس ٣٠٣م حيث أمر بتدمير الكنائس ، وتقليص رواتب ومراتب كل العاملين فى الدولة من المسيحيين واستعباد كل المسيحيين غير العاملين فى الدولة . وكان دقلديانوس هو هذا الحاكم البارع الذى كان من آثاره هذا العمود الضخم المسمى خطأ عمود بومبى ، إن هادريان لم يضطهدهم بدافع من الحقد الشخصى ، ولكن نتائج اضطهاده لم تكن أقل ترويعاً ، وهى بالتأكيد أدت إلى إضعاف الثقة فى الدولة الوثنية .

(*) ويسمى عند المسيحيين الأقباط فى مصر أكليمنضس قصة الكنيسة القبطية - إيزيس حبيب المصرى ، الكتاب الأول ، الطبعة الثالثة ، يناير ١٩٧٨م صـ٤١ وغيرها - المترجم .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقبل تقديرات الكنيسة المصرية لعدد شهدائها ، حيث تزعم أنهو بلغوا ١٤٤٠٠٠ شهيد فى تسع سنوات ، ولكن من المؤكد أن جماعات وجماعات هلكت من كل فئات المجتمع ، وكان القديس مينا من بين الضحايا ، لقد كان جندياً مصرياً شاباً وأصبح راعياً للصحراء فى الغرب من بحيرة مريوط حيث تم بناء كنيسة كبيرة فوق قبره . ويقال أيضاً : إن القديسة كاترين من الإسكندرية قُتلت أيضاً فى عهد دقلديانوس ، ومن المحتمل أنها لم تكن هناك قط ! وهى وعجلتها كانتا من مخترعات الكاثوليكية الغربية ، وأرض آلامها المفترضة عرفتها فقط بعيداً عن التهذيب كما يقول الفرنسيون .

كان الاضطهاد غير مجد ، وانهزمت الدولة ، ووضعت الكنيسة المصرية المنتصرة حديثاً تقويمها ، ليس على أساس ميلاد المسيح ، ولكن بدءاً من عصر الشهداء (٢٨٤م) وبعد سنوات قليلة جعل الإمبراطور قسطنطين من المسيحية ديانة رسمية ، وانتهت أيضاً التهديدات الخارجية .

- عملات لهادريان فى الإسكندرية — المتحف – حجرة ٢
- موقع كنيسة القديس مرقص — صـ ٢١٤
- تاريخ عمود من كنيسة القديس مرقص – المتحف – حجرة ١
- موقع كنيسة القديس ثيوناس — صـ ٢١٩
- عمود من كنيسة ثيوناس — صـ ٢١٤
- تمثال دقلديانوس — المتحف – حجرة ١٧
- عملات لدقلديانوس — المتحف – حجرة ٤
- عمود بومبى (دقليانوس) — صـ ١٩٧
- كنيسة القديس مينا — صـ ٢٤٦
- بقايا من كنيسة القديس مينا — المتحف – حجرات ١ ، ٢ ، ٥
- الكنيسة الحديثة لسانت كاترين — صـ ١٩٥
- عمود سانت كاترين — صـ ١٥٢
- شهادة بعبادة الآلهة — المتحف – حجرة ٦

آريـــوس وأثـنـاسـيـــوس

كان من الضرورى أن تشارك الإسكندرية فى إنتصار المسيحية التى طالما عانت من أجلها ، وعندما تم إعلان سياسة التسامح الدينى . تألق من جديد نجم المدينة ، وانعزلت روما كمعقل للوثنية ، وبدا أن المدينة القريبة من النيل تتهيأ مرة أخرى لأن تصبح ذات طابع إمبراطورى كما كانت فى أيام أنطونيو . وتحطم هذا الأمل ، لأن قسطنطين فكر بحذره الشديد أنه من الأسلم أن يؤسس مدينة جديدة على البوسفور ، ليس بها من ذكريات الماضى ، ما يكون قادراً على اقتحام الحاضر ، ولكن الإسكندرية ظلت هى العاصمة الروحية ، أو هكذا بدت على الأقل ، فهى التى ساعدت على تحرير النصرانية السجينة ، ويمكنها أن تقودها فى انسجام وسلام إلى وطنها تحت أقدام الرب ، ولكن هذا الأمل تحطم أيضاً ، فعصر من الضغينة والبؤس كان يقترب ، وبمجرد أن أمسك المسيحيون بآلة الدولة الوثنية ، أداروها ضد بعضهم البعض ، وأخذ القرن يردد صدى المجادلة بين اثنين من الكهنة المستبدين .

كلاهما كان مواطناً سكندرياً ، وكان آريوس أكبرهما سناً ، راعياً لكنيسة القديس مرقص – وهى كنيسة لا وجود لها الآن وموقعها كان بالقرب من البحر عند الشاطبى – حيث استشهد «الإيفانجلست(*)» كان آريوس مثقفاً مخلصاً طويل القامة ، بسيطاً فى ملبسه ، مقنعاً فى حديثه ، وكان متهماً من أعدائه بأنه يشبه الثعبان ، وأنه أغوى سبعمائة عذراء بالأساليب اللاهوتية .

وأما خصمه أثناسيوس ، فكان يبدو فى أول الأمر طيباً مرحاً ، يلعب مع الأطفال الآخرين أسفل نافذة القديس ثيوناس على شاطئ الميناء الغربى الحالى – كما يقال – كان يلعب عند المعمودية التى ليس لأحد الحق فى الاقتراب منها ، وقد حدث أن نظر البطريرك من نافذة قصره وحاول أن يقصيه ، لم ينجح أحد فى إقصاء القديس أثناسيوس ، هذا الذى استمر فى لعبه بتعميد زملائه ، وأدرك البطريرك المنبهر بنضوجه المبكر سر هذا الصبى المقدس كحقيقة واضحة وألحق هذا العالم اللاهوتى الصغير كسكرتير له .

(*) أحد مؤلفى الأناجيل الأربعة ، ويقصد به هنا القديس مرقص – المترجم .

كان أثناسيوس من الناحية الجسمانية ضئيل الجسم ، يميل إلى السواد فى لونه ، ولكنه كان قوياً ولبقاً للغاية ، وبإمكان المرء أن يتعرف فى شوارع المدينة الحالية على الكثيرين ممن يشبهونه ، فشخصيته يمكن تمييزها بكل صعوبة عن نفايات ذلك القرن . فهو بالتأكيد لم يكن محبوباً بالرغم من أنه عاش إلى أن أصبح بطلاً شعبياً وكانت قواه لافتة للنظر ، فهو كعالم لاهوتى كان يعرف الحقيقة ، وكسياسى كان يعلم كيف يمكن فرض هذه الحقيقة بالقوة .

وتشابكت فى سيرته حدة الذهن بالنشاط ، ونكران الذات بالبراعة فى أرقى أشكالها تميزاً .

بدأ أريوس فى المجادلة المتعلقة بطبيعة المسيح ، وسوف نناقش فيما بعد مفهومها العقائدى صـ١١٨ بينما سنتناول هنا نتائجها الخارجية ، فقسطنطين الذى لم يكن لاهوتيا- بل كان مشكوكاً فى مسيحيته - قد روعه هذا الشقاق الذى سرعان ما قسم إمبراطوريته ، وكتب يطلب العون من مستشاريه ، وعندما تم تجاهله دعا المتجادلين إلى نيقية على البحر الأسود فى ٣٢٥م ، فحضر مائتان وخمسون من القسس . وبعدد وافر من الكهنة وبكثير من العنف تم تحرير مرسوم ، وأدين أريوس . وعاد أثناسيوس الذى كان مايزال شماساً فى الكنيسة منتصراً إلى الإسكندرية ، وسرعان ما أصبح بطريركا . ولكن متاعبه لم تزل فى بداياتها ، فقسطنطين الذى استبدت به الآمال فى التسامح الدينى ، طلب منه أن يستقبل أريوس ، ولكنه رفض ، فتم نفيه هو الآخر .

لقد تم نفى أثناسيوس خمس مرات ، مرة على يد قسطنطين الأرثوذوكسى فى ٣٣٥م ، ومرتين على يد قسطنطينوس الآرى فى ٣٣٨م ، ٣٥٦م ، ثم المرة الرابعة كانت على يد جوليان الوثنى فى ٣٦٢م ، وأخيراً وقبل وفاته مباشرة على يد فالنيس الآرى . أحياناً كان أثناسيوس يختبئ فى الصحراء الليبية ، وأحيانا كان يهرب إلى روما أو فلسطين ، ويصنع من حوله حلقات نصرانية بشكاواه ، وأوشك أن يموت مرتين فى الكنيسة ؛ مرة فى السيزيريوم عندما سير موكباً لإنشاد الترانيم وكان هو خارجاً من أحد الأبواب بينما كان أعداؤه يدخلون من الباب الآخر ، ومرة أخرى عند القديس ثيوناس ، عندما هرب من المذبح قبل هجوم الجنود الآريوسيين عليه ، وكان دائماً يعود أسمى منزلة من أريوس المنفى ، ذلك الذى سقط ميتاً ذات مساء بينما كان يتجول فى أنحاء الإسكندرية مع أحد الأصدقاء .

وبالنسبة لنا نحن الذين نحيا فى هذا العصر اللادينى .. تبدو لنا هذه الانتصارات ضئيلة ، ولربما بدا لنا أنه من الأفضل للمرء ، أن يموت فى سن صغيرة مثل الإسكندر الأكبر من أن ينساق وراء هذه الأسفار اللاهوتية المجدبة . ولكن أثناسيوس حصل على الخلود الذى ابتغاه ، ونظراً لجهوده قبلت الكنيسة فى النهاية وجهة نظره عن طبيعة المسيح ، وبامتنان وافر عرفته كعالم لاهوتى بارز ، ومجدته كقديس . وفى الإسكندرية تم بناء كنيسة ضخمة تكريساً لذكراه . وهى تقع فى الاتجاه الشمالى من الشارع الكانوبى ، ويحتل مسجد العطارين جزءاً من مكانها الآن .

- القديس مرقص صـ ٢١٤
- القديس ثيوناس صـ ٢١٩
- مجمع نيقية (صورة) صـ ١٥٢
- مرسوم نيقية .. نص أصلى يحتوى جملاً ضد آريوس صـ ٢٧٧ فى الملحق .
- السيزيريوم صـ ٢١٢
- مسجد العطارين «كنيسة القديس أثناسيوس» صـ١٩٦

حكم الرهبان

القرن الرابع والخامس الميلادى

ثيوفيلوس Theophilus

سيريل Cyril

ديوسكورس Dioscurus

وبعد هذه المآثر البطولية لأثناسيوس ، صارت بطريركية الإسكندرية قوية جداً ، وصارت مصر من الناحية النظرية تابعة للإمبراطور الذى أرسل لها والياً وحامية عسكرية من القسطنطينية ، ولكن الذى كان يحكمها عملياً هو البطريرك وجيشه من الرهبان ، لم يكن للرهبان أى أهمية طالما هم يعيشون فرادى ، ولكنهم وبقدوم القرن الرابع الميلادى تجمعوا فى تجمعات مرعبة ، وصار من الممكن أحيانا أن يقوموا بشن الغارات على الأماكن الحضرية كما يفعل البدو اليوم . واحد من هذه المجتمعات كان

يبعد تسعة أميال فقط عن الإسكندرية (إنّاتون) والبعض منها كان يقع إلى الغرب أكثر في صحراء مريوط ، وهناك بقايا مازالت شاهدة على هؤلاء الرهبان الذين كانوا يعيشون في وادي النطرون . كان هؤلاء الرهبان يمتلكون بعض المعرفة في اللاهوت وأيضاً في الحرف الزخرفية ، ولكنهم كانوا كارهين للثقافة ، وغير قادرين على التفكير ، وكان من أبطالهم القديس أمّون الذى هجر زوجته عشية زفافهما ، والقديس أنطونيو ، ذلك الذى كان يستحم - وهو آثم - فحمله أحد الملائكة عبر قنوات الدلتا ، ومن أمثال تلك السلسلة من الرجال كان يتم اختيار البطاركة .

إن المسيحية التى أصبحت رسمية فى بداية القرن الرابع الميلادى ، صارت إجبارية فى نهايته ، مما أعطى للرهبان فرصة للهجوم على عبادة «سيرابيس» . فاتخذ الكثير من الناس لهم ملجأ فى الفلسفة البطلمية القديمة المقدسة ، بل وفى السحر أيضا وفى المعرفة ، وفى الإباحية والتحلل . وقاد البطريرك ثيوفيلس الهجوم وأسقط معبد سيرابيس فى كانوبس «أبوقير» فى ٣٨٩م ، ثم الهجوم على المعبد الأصلى فى الإسكندرية بعد ذلك بسنتين ، وكان سقوط هذا الأخير مهيباً لأنه تضمن أيضاً تدمير المكتبة ، التى كانت تحتفظ بكتبها فى الأروقة المحيطة بالمبانى ، وهناك تم بناء دير فى ذات الموقع ، واستمر اضطهاد الوثنيين وبلغ ذروته بمقتل هيباتيا فى ٤١٥م ، الذى بولغ فى إنجازاتها كما بولغ فى حيويتها ، وهى كانت سيدة فى منتصف العمر ، تقوم بتعليم الرياضيات فى الجامعة ، وليس لدينا وثيقة بمعتقداتها بالرغم من أنها كانت فيلسوفة أيضاً . وفى هذا الوقت صار الرهبان هم الأعلى سلطة حتى إن أحدهم قام بقتل الوالى الإمبراطورى ، وأعلن البطريرك سيريل قداسة هذا الراهب بعد وفاته تكريماً له على عمله . وامتلأت الشوارع بجيش سيريل الأسود المتوحش «آدميون فى وجوههم فقط» كانوا شغوفين بالقيام بأى عمل يبرهن على ولائهم تتويجاً لما قاموا به ، وفى هذا المزاج صادفوا هيباتيا التى كانت تقود مركبتها عائدة من محاضرتها - ربما على امتداد شارع النبى دانيال الحالى - فسحبوها من مركبتها حتى السيزيريوم ، وهناك مزقوها إرباً بالأحجار ، لم تكن شخصية عظيمة ، ولكن بها ومعها لفظت اليونان روحها ، تلك الروح التى حاولت اكتشاف الحقيقة وإبداع الجمال وخلقت الإسكندرية .

وعلى أى حال ، كان للرهبان وجه آخر ، فهم كانوا نواة للحركة الوطنية ! ، تلك الوطنية التى لم يكن لها أى وجود فى ذلك الزمان ! لقد كان عصراً دينياً وطنياً ، ولكن التعصب العرقى يمكنه أن يتخفى تحت عباءة الدين ، فالرهبان قتلوا هيباتيا ليس فقط لأنهم يعرفون أنها آثمة ولكن أيضاً لاعتقادهم أنها أجنبية .

كان هؤلاء الرهبان ضد اليونانية ، وعليهم وعلى من شايعهم أُطلق اسم القبط ، فالقبطى تعنى المصرى ، ولغة القبط أشتقت من المصرية القديمة ، وكانت أحرف كتابتها يونانية مع إضافة ستة حروف من الهيروغليفية ، وتخللت هذه الحركة الجديدة كل القطر حتى الإسكندرية الكوزموبوليتانية ، وبمجرد أن وجدت صيغة لاهوتية تعبر بها عن نفسها ، انفجرت الثورة ضد القسطنطينية .

وهذه الصيغة عُرفت بالطبيعة الواحدة ، وهى تتعلق بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وسنناقش مضمونها وفحواها اللاهوتى صـ١١٩ . لكننا الآن نهتم بتأثيرها الخارجى ؛ فالبطريرك ديوسكورس وريث وابن أخ البطريرك سيريل ، كان أول بطل لهذه الصيغة ، وهو المؤسس الحقيقى للكنيسة القبطية ، الذى سرعان ما اتخذ الإمبراطور حياله مسلكاً قوياً وحاسماً ، حيث تم نفيه ، وتحريم معتقداته فى المجمع الكنسى فى خلقدونية(*) ٤٥١م .

وابتداء من هذه اللحظة لم يأمن يونانى على نفسه فى مصر ، وانفجرت المشاكل العرقية التى كان يتجنبها البطالمة وواصلت سيرها ومازالت حتى الآن .

وبعد قليل صار يحكم الإسكندرية اثنان من البطاركة ، كان أولهما هو البطريرك الأرثوذكسى الملكانى الذى تمسك بمعتقدات خلقدونية ، وهو الذى كان يعينه الإمبراطور ويحصل على معظم ريع الكنيسة ، ولكن لم تكن له أى سلطة روحية على المصريين – لأنه كان بالنسبة لهم عبارة عن موظف رسمى يونانى بغيض ويسمى «القس» وكان الثانى من أنصار الطبيعة الواحدة ، وهو البطريرك القبطى الذى كان معارضاً لمعتقدات خلقدونية وهو راهب مصرى متنسك فقير وشديد التعصب ومحبوب ، كلا هذين البطريركين كان يّدعى أنه يمثل القديس مرقص ، ويمثل الكنيسة الصحيحة الوحيدة ، وكل من هاتين الكنيستين مازال ممثلاً بأحد البطاركة فى الإسكندرية حتى اليوم .

وبين الحين والآخر كان أحد الأباطرة يحاول أن يرأب الصدع وأن يقدم بعض التنازلات للمعتقدات القبطية .

ولأن هذا الشقاق كان عرقياً ، وكانت هذه التنازلات لاهوتية ، ولذا لم يتغير أى شىء . وظلت القوات اليونانية فقط هى كل مايربط مصر بالإمبراطورية ؛ لذا سرعان ما قهرها العرب عندما أتوا .

(*) هو المجمع المسكونى المنعقد فى خلقدونية فى ٤٥١م ، وهو الذى حرم القول بالطبيعة الواحدة للمسيح – المترجم .

- شاهد قبر من إنّاتون — المتحف – حجرة ١
- وادى النطرون — صـ ٢٥٣
- معبد سيرابيس فى كانوبس — صـ ٢٢٧
- معبد سيرابيس فى الإسكندرية — صـ ١٩٧
- السيزيريوم — صـ ٢١٢
- البطريركية الأرثوذكسية والبطريركية القبطية — صـ ٢٦٥ ، ٢٦٦
- بورتريه لديوسكورس — صـ ٢٥٨

الغـــزو العـــربى(*)

ونقترب الآن من الكارثة ، التى بالرغم من درامية أحداثها إلا أنها مشوشة ، وهذه الأحداث وقعت فى عهد الإمبراطور هرقل ، وعلينا أن نبدأ باستجلاء عهده العجيب .

كان هرقل رجلاً قادراً وحساساً ، كان حساساً جداً لكنه كان شديد السيطرة على مشاعره . أحياناً يبدو كبطل وكرجل إدارة بارع ، وأحياناً يبدو كناسك فاتر الهمة. لقد ظفر بإمبراطوريته فى ٦١٠م بحد السيف ، ثم جاءت النكسة وسمح للفرس باحتلال سوريا ومصر دون أى قتال تقريباً .

سقطت الإسكندرية بفعل الخيانة . لقد كانت آمنة من جهة البحر ، فالفرس ليس لديهم أساطيل ، وأسوار المدينة الهائلة كانت تحصنها من جهة الأرض ، وجيشهم الذى عسكر بالقرب من المكس – لم يكن يستطيع عمل شىء ما إلا حرق الأديرة لا أكثر . لكن تلميذاً أجنبياً كان يدعى بطرس اتصل بهم وكشف لهم أسرارها الطبوغرافية ، حيث كانت هناك قناة تجرى خلالها ، وتبدأ من جهة الميناء الغربى – إلى الشمال قليلاً من ترعة المحمودية الحالية – وتمر تحت جسر عبر الطريق الكانوبى (شارع سيدى المتولى حالياً – المؤلف) ، وكانت نهايتها من ناحية الميناء دون حراسة ، فتسلل عدد قليل من الفرس بنصيحة من بطرس هذا ، متنكرين على هيئة صيادين ، وظلو يجدفون فيها متجهين نحو الغرب أسفل الطريق الكانوبى ، وفتحوا مزاليج بوابة القمر للجيش الرئيسى فى ٦١٧م . لم يكن حكمهم قاسياً ، وبالرغم من عبادتهم للشمس إلا أنهم لم

(*) الغزو هو الفتح والاستيطان ويكون للبلاد غير المسلمة ، أما الفتح فهو الغزو دون استيطان – لسان العرب صـ٩٨٥ – ٩٨٦ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ – المترجم .

يضطهدوا لا المسيحيين الأرثوذوكس ولا القبط . ولمدة خمس سنوات لم يفعل هرقل أى شىء ، ثم أفاق من سباته وصنع المعجزات ؛ تقدم بقواته ضد جيوش الفرس فى آسيا وهزمهم ، استعاد الأثر المتمثل فى الصليب الحق الذى أخذوه من القدس ، وتم تحرير الإسكندرية ومصر ، وعند الاحتفال بالنصر وباستعادة الصليب – الذى خلدته العملات المصكوكة باسمه – تجلى الإمبراطور كبطل للنصرانية، وظهر كأعظم حاكم فى العالم ، وإنه لمن المستغرب ، أن يعير انتباهه فى ساعة انتصاره هذه – لمبعوثى شيخ عربى مغمور يدعى محمداً ، وقد قدموا لتهنئته بالنصر واقترحوا عليه أن يعتنق ديناً جديداً يسمى السلام أو الإسلام ، ويقال إنه صرفهم بأدب – نفس الشيخ أرسل مبعوثيه إلى نائب الإمبراطور فى الإسكندرية ، وكان هو أيضاً مهذباً ، وردهم بهدية مكونة من حمار وبغل وكيس من المال وبعض من العسل والزبد وفتاتين مصريتين . واحدة منهما «ماريا» صارت محظيته المفضلة(*) .

وبدأت العلاقات بالإسلام بكل هذه الكياسة ، وهنا يبدو لنا أن هرقل قد عاد مرة ثانية إلى المسألة الدينية وهو فى ذروة قوته ونشاطه الذهنى ، كان يرغب أن تكون إمبراطوريته قوية روحياً كما كانت مادياً ، ويرغب فى ضرورة توقف الشقاق فى مصر، لم يكن متعصباً بل كان مؤمنا بالتسامح الدينى ، وأخذ يتلمس صيغة يمكن أن تقنع كلا من الأرثوذوكس والقبط ، كلا من المؤيدين والمعارضين لمجمع خلقدونية ، وكان هذا البحث مشئوماً لأنه كان من الأفضل أن يترك الأمر على ما هو عليه ، فالصيغة التى وضعها والمسماة (بالإرادة الواحدة) كانت من الغموض إلى الحد الذى لم يوجد من يستطيع فهمها ، والرجل الذى اختاره كمفسر كان عبارة عن قوّاد بذىء ، يتمنى هو نفسه ألا يفهمها أحد ، وكان هذا الرجل يدعى سيرس وأحيانا كان يسمى المقوقس . ذلك الشيطان العبقرى الذى كان يعمل كبطريرك وكنائب للإمبراطور فى الإسكندرية ومصر التى وفد إليها فى ٦٣١م ، ولم يقم بأى محاولة لا بالشرح ولا باسترضاء الأقباط ، بل إنه اضطهدهم ، وحاول أن يقتل البطريرك القبطى ، وفى نهاية عشر سنوات من حكمه صارت مصر ناضجة للسقوط .

كانت هناك حامية يونانية فى الإسكندرية وأخرى عند جنوب القاهرة فى حصن يسمى بابليون ، وكانت هناك قوات أخرى فى الدلتا .. والأسطول كان مرابطاً فى البحر ، لكن جماهير الشعب كانت معادية لهم .. حكم هرقل بالعنف بالرغم من أنه لم يدرك ذلك ، فالتقارير التى كان يرسلها إليه المقوقس لم تخبره بالحقيقة أبداً ،

(*) بل إنها صارت روجته بعد ذلك وأنجب منها إبراهيم – المترجم .

وفى الواقع ، فإنه لم يكن يعيرها إلا القليل من الاهتمام - لأنه كان مشغولاً بالرعب الجديد وهو الإسلام ، وأعصابه خانته مرة أخرى كما حدث فى الغزو الفارسى ؛ فالإمبراطورية فقدت سوريا ، وفقدت أيضاً الأماكن المقدسة .. فقدتها هذه المرة إلى الأبد ، وانسحب الإمبراطور منكسراً جسدياً وروحياً إلى القسطنطينية ، وهناك قبل أن يموت بقليل وصل إليه المقوقس بنبأ فقدان مصر أيضاً .

وهذا هو ما حدث : غزا القائد العربى عمرو مصر ، بجيش يتكون من أربعة آلاف فارس ، لم يكن عمرو مجرد قائد عظيم فقط ، بل كان رجل إدارة وصديقاً خفيف الظل ، وشاعراً ؛ واحداً من أقدر الرجال وأعظمهم سحراً ، أولئك الذين صنعهم الإسلام . وكان من الممكن له أن يكون متميزاً فى أى عصر ، وقد كان فائق التميز فى عصر تحجر بفعل اللاهوت .

وفى طريقه إلى مصر راكبا - إزاء ساحل البحر - حيث صارت مدينة بورسعيد الآن ، سرعان ما توجه ناحية النيل ، وهزم فى طريقه جيشاً إمبراطوريا عند هليوبوليس ، وحاصر حصن بابليون وفى داخله كان المقوقس ، الذى سرعان ما انهارت شخصيته مثلما حدث للإمبراطور .

كان المقوقس يعرف أنه ما من مواطن مصرى سوف يقاوم العرب ، ولربما أحس مثلما أحس الكثير من معاصريه أن المسيحية صار محكوماً عليها بالإخفاق ، وأن تعقيداتها كان مقدراً لها أن تندثر أمام بساطة الإسلام . كان يتفاوض بشأن السلام الذى كان على الإمبراطور أن يقره، وهرقل يتميز غيظاً ، فاستدعاه إلى القسطنطينية ، ولكن المصيبة كانت قد وقعت ؛ فمصر كلها ما عدا الإسكندرية قد استسلمت !

وكانت الإسكندرية بالتأكيد آمنة ، حيث إن العرب - فى المقام الأول - لم تكن لديهم سفن ، وعمرو بكل شجاعته لم يكن هو الرجل القادر على بناء واحدة منها ، فقد كتب : «السفينة وهى واقفة تخلع القلب ، وإذا تحركت فإنها تروِّع الخيال ، ويضمحل عليها جأش الرجل ، ويتزايد بؤسه ، وهؤلاء الذين هم بداخلها يشبهون الديدان فى جنوع الأشجار النخرة .. فإذا انقلبت فهم الغارقون» .

لم يكن لدى الإسكندرية ما تخشاه - من جهة البحر - من جانب هذا العدو ، أما من ناحية اليابس فما الذى يمكن أن يفعله هذا العدو ضد جدرانها الهائلة المحصنة بكل معدات العلم العسكرى ؟

وبالرغم من قوة عمرو فإنه لم تكن لديه مدفعية ، وكل ما كان يملكه ، هو مجرد كتيبة من الفرسان .. لم يحدث هجوم مباغت كاسح ، فقط شوهدت القوات وهى تقترب

من جهة الجنوب الشرقى وتعسكر فى مكان فيما وراء حدائق النزهة الحالية ، وإلى جانب ذلك هناك البطريرك المقوقس على رأس قوة عسكرية عظيمة تعسكر فى السيزيريوم ، وكان يحض المسيحيين على القتال .

وإنه لمن الصعب حقا أن ندرك لماذا سقطت الإسكندرية ، فليس هناك سبب مادى وراء ذلك . ولكن المرء يجد نفسه منساقا لأن يقول : إنها سقطت لأنها لم تعد تملك روحاً ، فلقد خان المقوقس الثقة فيه – للمرة الثانية ، وتفاوض مرة أخرى مع العرب ، كما فعل عند حصن بابليون ، ووقعّ فى الثامن من نوفمبر ٦٤١م هدنة معهم تُخلى أثناءها القوات الإمبراطورية المدينة ، ولم يضع عمرو شروطاً قاسية ، فلم تكن القسوة ملائمة له ، ولم تكن هى سياسته ، فسمح للسكان الراغبين فى الرحيل أن يرحلوا وللمقيمين أن يعبدوا ما يشاءون بشرط أن يدفعوا الجزية .

وفى السنة التالية ، دخل عمرو منتصراً من بوابة الشمس ، التى تسد النهاية الشرقية للطريق الكانوبى ، وكان كل ما تم تخزينه قليلاً جداً .

وامتدت صفوف من أعمدة الرخام أمامه ، وعلى يساره كانت ترتفع مقبرة الإسكندر وعن يمينه فاروس ، وربما تأثرت روحه الحساسة والكريمة ! ولكن الرسالة التى أرسلها للخليفة(*) فى بلاد العرب كانت واقعية إلى حد كبير . كتب يقول : «لقد استوليت على مدينة كل ما يمكن أن أقول عنها إنها تحوى ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ حمام ، ٤٠٠ مسرح ، ١٢٠٠ خضرى ، ٤٠ ألف يهودى ..»(**) .

واستقبل الخليفة هذه الأخبار بهدوء مماثل ، وتقريباً كافأ الرسول بوجبة من الخبز والزيت وقليل من التمر ، لم يكن هناك شىء غير عادى فى عدم الاختلاف هذا فى موقفهما ، فالعرب لم يستطيعوا إدراك قيمة الجائزة التى نالوها ، فهم كانوا يعرفون أن الله قد وهبهم مدينة كبيرة ، وقوية ، ولم يستطيعوا أبداً أن يعرفوا أنه لم يوجد لها مثيل فى العالم . فقد خططها العلم الإغريقى ، وهى مكان ميلاد المسيحية فكرياً ، ربما تحركت فى أذهانهم تلك الأساطير الغامضة عن الإسكندر أو الأكثر غموضاً عن كليوباترا .

(*) يقصد الخليفة . عمر بن الخطاب – المترجم .

(**) وردت · أما بعد فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف مُنية (قصر) بأربعة آلاف حمام ، ٤٠ ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك صـ١٢١ ، وورد أيضا : كان على الإسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص ، لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية ، تؤتى من أى مكان صـ٢٣٥ .

(فتوح مصر والعرب لابن عبد الحكم تحقيق عبد المنعم عامر– الهيئة العامة لقصور الثقافة) – المترجم .

ولكن لم يكن لديهم حس تاريخى ، ولذا لم يستطيعوا أن يدركوا أبداً ما الذى حدث فى هذا المكان ، ولا كيف كان من المحتم أن تنشأ هذه المدينة ذات الميناءين بين البحيرة والبحر ، ولهذا وبالرغم من أنهم لم يكن لديهم أى نية لتدميرها ، إلا أنهم دمروها كطفل يحطم ساعة .

ولم تؤد مهامها أبداً مرة أخرى لما يزيد عن ألف عام⊗ .

ولاكتمال الصورة الوصفية للغزو نذكر واحدة أو اثنتين من التفاصيل ، فقد كان من الأمور الإنسانية المحسوبة لهم أنهم لم يدمروا الملكيات الخاصة ، والمكتبة التى يتهم العرب بتدميرها عادة ، كانت قد دمرت فعلا على يد المسيحيين .

وبعد سنوات قليلة ؛ حدث هناك بعض التدمير ، فقد صارت المدينة مدعومة بالأسطول الإمبراطورى ، واضطر عمرو أن يعاود دخول المدينة بالقوة ، وكانت هناك مذبحة ، وقد أوقفها عمرو بإغماد سيفه ، وتم بناء مسجد عمرو أو ما يسمى مسجد الرحمة فى هذا الموضع .

وكحاكم لمصر ، فقد أدارها بشكل جديد ، ولكن اهتماماته كانت تنحصر على الأرض ولبس على شاطئ البحر الكريه(*) !

وأسس مدينة الفسطاط بالقرب من حصن بابليون ، وهى نواة القاهرة الحديثة ، وفيها سوف تتمركز كل حياة المستقبل ، وعندئذ كان عليه أن يموت ، وبينما كان يرقد فى مخدعه قال له أحد أصدقائه «كثيراً ما لاحظت أن المرء يود أن يجد شخصاً ذكياً يوشك أن يموت ليسأله عن أحاسيسه ، والآن أنا أود أن أسألك هذا السؤال !» فأجابه عمرو: «أشعر أن السماء تكاد تنطبق على الأرض وأنا بينهما أتنفس من سم الخياط⊗» فى هذا الحوار ، شىء ما ينقلنا إلى عالم جديد ، فمثل هذا الحوار لا يمكن أبداً أن يدور بين اثنين من السكندريين .

- عملات لهرقل يظهر عليها الصليب   المتحف - حجرة ٤
- بوابة رشيد (بوابة الشمس)   صـ ١٧٢
- جامع عمرو   صـ ١٩٧

كانت هذه هى الأحداث الواقعية الرئيسية والهامة فى المدينة أثناء العصر المسيحى ونعود أدراجنا .. لندرس موضوعاً آخر أكثر أهمية ، وهو الحياة الروحية .

(*) يقصد كراهية العرب للبحر والتى تمثلت فى كلام عمرو السابق - المترجم .

الفصل الثالث

المدينـــة الروحيـــة

مقـــدمة

عندما ماتت كليوباترا ، أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، وبدا أن زمان الإسكندرية قد ولىَّ ، فحياتها تمحورت حول البطالمة الذين جملوها بالعمارة والمدارس والأغانى ، وعندما رحلوا عنها ماذا بقى لها .. ؟

لقد صارت مجرد عاصمة إقليمية ، ولكن حيوية أى مدينة لا تقاس أبداً هكذا ، فهناك من البهاء ما لا يمكن أن يهبه الملوك ، ولا أن يسلبوه ، فمجرد أن فقدت المدينة استقلالها الخارجى كوفئت باكتشاف المملكة التى تتسع داخلها :

كان مواطنوها يتكونون من ثلاث طوائف ؛ وهم اليهود واليونانيون ، والمسيحيون . وكانوا جميعاً مشدودين إلى نفس القضية الروحية ، وحاولوا أن يحلوها بنفس الطريقة ...

• القضية :

لم يحدث أبداً لهؤلاء المفكرين السكندريين – ما حدث لأسلافهم فى اليونان القديمة – أن يعتقدوا أن الله غير موجود ، لأنهم اعتبروا وجوده أمراً مفروغاً منه ، والذى أجهدهم حقاً ؛ هو علاقة هذا الإله بما فى الكون وخاصة الإنسان ، هل كان الله قريباً منه ؟ أم كان بعيداً عنه ؟ وإذا كان قريباً .. كيف يمكن أن يكون مطلقاً وخالداً وكلِّى القدرة ؟

وإذا كان الله بعيداً ... فكيف يمكنه أن يبدى أى اهتمام بالإنسان ، ولماذا حقا يكابد كل هذا التعب فى خلقه ؟

لقد أرادوا أن يكون الله قريباً وبعيداً !

• الحـــل :

البدائيون حلوا هذه القضية بافتراض وجود إلهين ، معبود خاص (صنم جيب) وهو الذى يضربونه عند ما يستثيرهم ويضايقهم . وروح بعيدة فى السماء ، ولم يحاولوا أبداً التفكير فى إيجاد أى رابطة بينهما ... أما السكندريون فلكونهم مثقفين لم يستطيعوا الموافقة على مثل هذه الفجاجة ، وافترضوا بدلاً من ذلك ؛ أن بين الإله والإنسان كائن أو كائنات ، هى التى تحيط بأطراف الكون وتتكفل به ، وبالرغم من أن هذا الإله بعيد ، إلا أنه يجب أن يكون قريباً أيضاً ، لقد أعطوا أسماء عديدة لهذه الكائنات ، ونسبوا لها درجات مختلفة من المنزلة الرفيعة والقوة ، بل أصبحوا متأكدين من وجودها مثل تأكدهم من وجود الله ، وذلك يرجع لكون مزاجهم الفلسفى صوفياً أكثر منه علمياً . وبمجرد أن عثروا على تفسير للكون مريح لهم ، لم يتوقفوا ليدركوا إن كان صحيحاً أم لا .

وبعد هذا التمهيد علينا أن نقترب من الطوائف الثلاث الكبيرة فى الفكر السكندرى .

١ - اليهـــود :

السبتوجنت(*) حوالى ٢٠٠ ق.م

حكمة سليمان حوالى ١٠٠ ق.م

فيـلـو وهو معاصر للمسيح .

كانت أورشليم {القدس - المترجم} مقراً لليهود ، حيث نشأت فيها عبادتهم ليهوه، وبنوا له معبده المتميز . ولكن بمجرد أن تأسست الإسكندرية ، بدأوا فى الهجرة إلى تلك المدينة المربحة والمغرية ، وشرعوا فى إنشاء أحيائهم بالقرب من الإبراهيمية الحديثة . وسرعان ما ظهر منهم جيل يتحدث اليونانية ، كان من الضرورى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اليونانية ليستفيد منه هذا الجيل ، وكما تقول الأسطورة ؛

(*) وهى ترجمة من العبرية إلى اليونانية للعهد القديم ، قام بها اثنان وسبعون عالماً ، فى اثنين وسبعين يوماً وتعرف بالترجمة السبعونية - المترجم .

جمع بطليموس فيلاديلفوس سبعين حَبراً ، كلا منهم فى كوخ على جزيرة فاروس ، حيث خرجوا جميعاً وفى وقت واحد بسبعين ترجمة متماثلة للتوراة ، هذه التى تسمى بالترجمة «السبعونية» وهذه الترجمة تم إنجازها فى حقيقة الأمر على مدى سنوات عديدة ، ولم تكتمل حتى ١٣٠ ق.م ولكن الجيل الجديد كان يونانيا فى الروح ، كما كان يونانيا فى اللغة ، وابتعد كثيراً عن اليهود المحافظين فى أورشليم - كان كلا القسمين يعبد يهوه ، ولكن السكندريين تزايد وعيهم أكثر فأكثر بفظاظة إلههم القومى وتعذر التأثير فيه ، واختلط الفكر عندهم بالعبادة ، فكيف يمكنهم أن يربطوا ما بين يهوه والإنسان ؟

أنتج هذا القسم - كمحاولة أولية - قطعة رائعة من الأدب وهى «حكمة سليمان» مستخدماً إشارات قليلة من الكتاب المقدس الأرثوذوكسى (أى الأصولى - المترجم) وهى حاليا محتواة فى الأبوكريف(*) . وكاتب هذه الرائعة غير معروف ، وهو لم يكتبها فقط باللغة اليونانية ، بل إنه كان دارساً للفلسفتين الرواقية(**) والأبيقورية(***) ، وللطقوس المصرية ، وكان يمتلك ثقافة الإسكندرية الكوزمو بوليتانية ، وحل قضيته بالأسلوب السكندرى ، حيث اعتقد فى وجود وسيط بين يهوه والإنسان وسماه الصوفية أو الحكمة :

«فالحكمة ... أكثر إثارة للمشاعر من أى حافز آخر ، إنها تتخلل كل شىء بسبب من نقائها ، وعلى الرغم من أنها وحيدة إلا أنها تستطيع أن تفعل كل شىء ، وفى كل العصور تدخل إلى الأرواح التقية ، وتجعلنا أصدقاء لله وللأنبياء ، إنها هى الأكثر جمالاً من الشمس بل وكل منظومات النجوم ، وعند مقارنتها بالضياء ستتفوق عليه ، ولأن الليل يأتى بعد ذلك .. إلا أن الرذيلة لايمكنها أن تسود فى مواجهة الحكمة ...» فى مثل هذا النص تبدو الحكمة أكثر شمولاً من «كون المرء حكيماً» إنها رسول يقيم

(*) الأبوكريف : أربعة عشر سفراً ، تلحق أحيانا بالعهد القديم من الكتاب المقدس ، ولكن البروتستانت لا يعترفون بها - المترجم .

(**) الفلسفة الرواقية : هى المذهب الفلسفى الذى أنشأه زينون حوالى ٣٠٠ ق.م ، والذى يقول بأن على الرجل الحكيم أن يتحرر من الانفعال ، ولا يتأثر بالفرح ولا بالترح ، وأن يخضع دون تذمر لحكم الضرورة القاهرة - المترجم .

(***) الفلسفة الأبيقورية . وهى التى أنشأها أبيقور ، الفيلسوف الإغريقى الذى قال بأن المتعة هى الخير الأسمى ، والفضيلة وحدها هى مصدر المتعة - المترجم .

جسوراً على هاوية ، ويجعلنا أصدقاء لله . ووصلت مدرسة الإسكندرية اليهودية مع فيلو إلى قمة تطورها ، فنحن لا نعرف عن حياته إلا القليل ؛ فأخوه كان رئيساً للمجتمع اليهودى فى الإسكندرية ، وهو نفسه ، كان ضمن البعثة المشئومة التى أرسلت إلى الإمبراطور المجنون كاليجولا فى روما سنة ٤٠م .

ولكونه يهوديا أصولياً ، فقد عرض قضيته الفلسفية بلغة العهد القديم هكذا : يهوه قد قال : «أنا هو أنا» بمعنى لا شىء يمكن أن يعلن عن الله إلا وجوده ، فالله ليس له صفات ولا رغبات ولا شكل ولا مكان ، ونحن حتى لا نستطيع أن نسمى الله بالله ، لأن الله كلمة ، ولا توجد كلمة تستطيع أن تصف الله ، بينما اعتبار الله إنسانا هو ارتكاب لإثم أوسع من كل البحار ، فالله يكون ، ولا يوجد ما يمكن أن يقال عنه ، ولكن هذه الكينونة التى لايمكن الدنو منها هى الّتى خلقتنا .. كيف .. ولماذا .. ؟

ومن خلال العقل أو الكلمة وهى اللوجس الخاص بفيلو ، صار هو الحكيم والرسول الذى يمد الجسور على الهاوية . إنه التعبير الظاهرى عن وجود الله ، هو من أبدع العالم وأبقاه ، وفيلو هو الذى استخدم اللغة الحقيقية للتقوى المتعلقة بالله ، داعياً إياه إسرائيل الرائى ، الرحيم ، المقيم فى أعماق الباطن - لغة تستثير الوجدان بالفطرة ، وربما هى التى أوحت بافتتاحية إنجيل القديس يوحنا «فى البدء كان الكلمة .. والكلمة كان عند الله(*)» .

وربما كان فيلو هو من كتب هذا ، ولكنه لم يستطع أن يكتب «وكان الكلمة الله»(**) ولا أن يكتب «وفيه كانت الحياة»(***) لأن هذا كما سنرى .. هو تمايز المسيحية التى تعتقد أن الصلة بين الإنسان والله ، يجب أن تكون هى ذاتها الله والإنسان ، وبهذا المعتقد عن اللوجوس ، أو الكلمة الأولى . استطاع فيلو أن يجعل من يهوه اليهودى إلها مفهوماً ومقبولاً من يهود الإسكندرية . إن هذا المعتقد غير موجود فى العهد القديم ، ولكى يستنتجه اضطر لاستخدام المجاز ولتحريف الكلمات عن معناها الحقيقى ، وهذا هو ما أعطى فلسفته مظهراً فاترا ، وروحاً هلعة ، وحال دون سموها الحقيقى .

(*) إنجيل يوحنا - إصدار دار الكتاب المقدس . الإصحاح الأول - المترجم .

(**) نفس المصدر الإصحاح الأول - المترجم .

(***) نفس المصدر الإصحاح الأول - المترجم .

ومرة أو مرتين يتخلى عن عدم دقته ، ويعلن أن الطريق إلى الحقيقة لايوجد داخل المجاز أو الاستعارة ، وإنما هناك .. من خلال الرؤية «أولئك الذين يستطيعون أن يروا» هم الذين يرفعون أعينهم نحو السماء ، ويتفكرون فى غذائهم الروحى ، وفى العقل الإلهى .... أما هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يروا ، فعليهم أن ينظروا نحو البصل فى الأرض !

ولم ينجز يهود الإسكندرية بعد موت فيلو أى شىء فى الفلسفة ، وظلوا يصوغون نفس القضايا . أما إعادة الصياغة والرواية والتكرار فكانت من نصيب اليونانيين والمسيحيين .

● نقوش يهودية فى الإبراهيمة المتحف – حجرة ٢١

٢ – الأفلاطونية المحدثة :

أفلوطين Plotinus ٢٠٤ – ٢٦٢ م .

بورفيرى Porphyry ٢٢٣ – ٣٠٦ م .

هيباتيا Hypatia ماتت فى ٤١٥ م .

استدعى البطالمة بعضا من فلاسفة الإغريق كقطاع من دائرة الموظفين فى الجامعة ، ولكنهم كانوا فلاسفة من الصف الثانى ، واستمر ذلك حتى انقضاء عصر البطالمة ، وتدهور وضع المدينة نفسها ، وضربت الفلسفة بجذورها فى أرض المدينة ، وأينعت الزهرة الصوفية البيضاء للأفلاطونية المحدثة ، والمتطورة عن تعاليم أفلاطون ، الذى كان يقوم بالتعليم فى أثينا قبل ذلك بستمائة عام ، وكان يقول إن العالم الذى نعيش فيه يمثل نسخة ناقصة لعالم مثالى ، وكان يقوم بتعليم أشياء أخرى أيضاً ، ولكن كان هذا هو المعتقد الذى آمن به الأفلاطونيون المحدثون فى الإسكندرية ، وسعوا إلى التسامى به ، والوصول به إلى نهايات صوفية .

وبالرغم من أنه كان ينظر إلى العالم كفيلسوف .. إلا أنه قد استمتع به كمواطن وكشاعر ، وترك لنا فى محاوراته وصفا مبهجا له ، كان الأفلاطونيون المحدثون أكثر منطقية ، فحيث إن العالم ناقص أو غير مكتمل ، فقد اعتبروه كمّا مهملا ، ولذا استبعدوا من كتاباتهم كل الإحالات عن الحياة اليومية ، ربما كانوا أرواحا متحررة من الجسد ومن المكان والزمان ، إلا أننا بعد دراسة متعمقة يمكننا أن نتحقق من أنهم

كانوا إنسانيين وليس هذا فحسب ، بل كانوا سكندريين مثاليين ، وجدت فيهم المدينة - في زمانها الأخير - تجليهم الأسمى . لقد تم تأسيس هذه المدرسة على يد «أمونيوس ساكاس» الذى بدأ حياته مسيحياً ، يعمل حمالا على أرصفة الميناء ، ولكنه تخلى عن كلا المهنتين لدراسة أفلاطون ، وتعاليمه لا نعرف عنها شيئاً ، ولكنه أنجب تلاميذ عظماء أمثال : لونجينوس ، وأوريجين ، وعلى رأسهم جميعاً (أفلوطين) ، وربما كان أفلوطين من مواليد أسيوط ؛ فلم يتمكن أحد من معرفة هذا الأمر بالتحديد ، لأنه هو نفسه كان قليل الكلام فى هذا الشأن ، وكان يقول : إن من حظه العاثر أن روحه حلت فى جسده ، ولم يرغب أبداً فى مناقشة هذا الموضوع .

لقد أكمل تثقيفه الأساسى فى الإسكندرية ثم اشترك فى حملة عسكرية ضد الفرس حتى يكون على صلة بالفكر الفارسى (الزرادشتية) والفكر الهندى (الهندوسية والبوذية) .

لقد كان بالتأكيد جندياً غير عادى ، وغير ناجح ، وفى هذه الحملة التى كابدت الهزيمة أوشك أفلوطين أن يرتاح من عار امتلاك الجسد وفر هارباً إلى روما . وظل هناك يحاضر حتى نهاية حياته ، وبالرغم من إخلاصه وصدقه صار لصيقاً بالطبقات العليا ، ولم ينل فقط رؤياه الصوفية التى كانت هى الهدف فى فلسفته ، بل استطاع أن يوظف قواه الخارقة التى اكتسبها ، فى أربع مناسبات ، منها ما يحكى عن اكتشافه «العِقْد» الذى سرقته إحدى الخادمات من سيدتها الغنية ، كان غير ميال لصياغة أفكاره كتابة ، ولكن وبعد وفاته ، قام أحد تلاميذه ويدعى بورفيرى بتجميع ما دونه أثناء سماعه لمحاضراته ونسخها فى تسعة أجزاء تسمى : بالتساعيات ، وهى رديئة الترتيب ، ومعظمها غامض ومبهم ، ولكنها تحوى نظاماً منطقياً فى التفكير ، ومن الضرورى القيام ببعض الأبحاث عنها ، فالإسكندرية لم تقدم بعد ذلك شيئاً أعظم من ذلك ، فهذه التساعيات تتناول القضية السكندرية المألوفة ، ألا وهى الصلات بين الله والإنسان .

لقد آمن أفلوطين بالله مثله مثل فيلو ومثل المسيحيين ، ونظرا لأن إلهه كان يمتلك ثلاث مراتب فإنه كاد يقول : إنه يؤمن بالثالوث ولكنه مختلف تماما عن الثالوث المسيحى وأكثر صعوبة فى الفهم ؛ فالمرتبة الأولى والأسمى فى هذا الثالوث كان يسميها «الواحد» - هذا الواحد يعنى الوحدة ، ولا يمكننا التنبؤ بأى شئ آخر عنه ، ولا حتى كونه موجوداً . إنه أكثر إبهاماً من يهوه فيلو ، فهو ليس له صفات أو قوة مبدعة ، وهو صالح فقط لأن يكون هدفا لطموحاتنا ، وبالرغم من أنه لا يخلق ولا يبدع

إلا أنه يفيض – وكأنه إلى حد ما ينبوع – ومن فيضانه أو فيضه تنبثق المرتبة الثانية من الثالوث وهى ما يسمى (المبدأ العقلانى) وهذا المبدأ العقلانى أيسر فهماً من «الواحد» لأنه ذو علاقة بما هو بعيد عن حياتنا ، فهو العقل الكونى الذى لا يحتوى كل الأشياء . بل يحتوى كافة الأفكار عن كل الأشياء ، وهو يبدع من خلال التفكير ، ويفكر فى المرتبة الثالثة أى (الروح الكلية) وهى التى طبقاً لهذا تصل إلى الكينونة ، وبهذه الروح الكلية نقترب من مملكة الإدراك ، إنها العلة الأولى فى هذا الكون الذى نعرفه ، وهى التى خلقت كل ما ندركه بالحواس ، وفى المقام الأول آلهة الإغريق وغيرها من الآلهة ، ثم أنصاف الآلهة ، ثم الأرواح الحارسة "Demons"(*) ، ونزولا فى النظام التراتبى – يأتى الإنسان ثم الحيوانات فالنباتات ، فالأحجار ، ثم المادة الأولية وهى التى تبدو لنا هامة جداً فهى آخر وأضعف ثمار الروح الكلية ، وهى النقطة التى تتوقف عندها قوة الخلق .

وهذه المراتب الثلاث : وهى الواحد ، والمبدأ العقلانى ، والروح الكلية يصنعون ويؤلفون معا كينونة واحدة وهى الله ، الذى كان ثلاثة فى واحد ، وواحدا فى ثلاثة .. وهو الهدف من كل الخلق .

وهكذا يبدو نظام أفلوطين عن بعد – غير جذاب ، عــلاوة على أنه عصى على الفـهم ، وعلينا أن ننظر إلى الجـانب الآخـر من نظامـه وهو الجـانب العـاطفى ، فكل الأشياء لا تفيض عن الله فقط ، ولكنها تعانى حتى تعود إليه ، وبكلمات أخرى فإن الكون كله ينزع إلى الخير "good" .. كلنا عبارة عن أجزاء من الله .. حتى الأحجار ، بالرغم من أننا لا نستطيع التحقق من ذلك ، وهدف الإنسان أن يصبح مقدساً بشكل حقيقى ، مادام من المحتمل أن يكون كذلك ، ولذا فإن الولادة الجديدة أو البعث ممكنة ، لكى نتحقق بشكل أفضل بأمر من الله فى الوجود الآخر ، أكثر مما يمكننا أن نتحقق منه فى هذا الوجود ، ولذا فإن النظرة الصوفية هنا متاحة ، فلربما تظفر بلمحة من الله فى هذا الوجود . فالله هو نفسنا ، هو نفسنا الحقيقية ، وفى إحدى القطع الأدبية النادرة من التساعيات نرى أسلوب أفلوطين واللهيب يتوقد من أفكاره ، مما يجعلنا نتعلم فى كلمات من الفصاحة الخالدة كيف يمكن لمثل هذه النظرة أن تُكتسب .

ولكن ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟ وكيف يكون الطريق ؟

(*) Demons فى الأصل تعنى الروح الحارس أو نصف إله عند اليونانيين أو العفريت أو الشيطان – المترجم .

وكيف الوصول إلى النظر للجمال المستحيل الكامن فى أعماق المناطق المقدسة ، بعيداً عن الأساليب العادية التى يرى بها البشر ؟!

«دعونا نفر إلى وطن الأسلاف المحبوب» هذه هى أحسن نصيحة !

ولكن كيف يكون الطيران ؟ وكيف يمكننا أن نجتاز البحر اللانهائى ؟

إن وطن الأسلاف هو المكان الذى أتينا منه وفيه يوجد الله . ما هو مسارنا إذن ؟ وما هو أسلوب طيراننا ؟ إنها ليست رحلة على الأقدام .. فالأقدام تحملنا من أرض إلى أرض . كل هذه النظم من الأشياء يجب أن نتحاشاها ونرفض أن نراها .. ينبغى أن تغلق العيون ، وتستدعى بدلاً منها رؤية أخرى .. إنها تلك الرؤية التى يجب أن تستيقظ داخلك ، ذلك لأنه برؤية الميلاد البكر لكل شىء ، وهم قليلون أولئك الذين يستطيعون الرؤية . انسحب إلى داخل نفسك وتأمل ، وحتى إذا لم تجد نفسك جميلا ، فافعل كما يفعل مبدع التمثال الذى يحب أن يكون تمثاله جميلاً .. إنه يقطع من هنا وينعِّم هناك .. ويجعل هذا الخط أخف .. وذاك الخط أنقى حتى يظهر الوجه إلى حيز الوجود متوِّجا عمله .

عندما تعرف أنك أصبحت هذا «العمل المتكامل» . وعندما تستجمع ذاتك فى نقاء كينونتك .. الآن لن يكون هناك شىء يستطيع أن يحطم هذه الوحدة الباطنية ، فعندما ترى أنك أصبحت هكذا .. فإنك قد صرت «الشخص الفاتن جداً» والآن استدعى كل ثقتك وانطلق إلى الأمام حتى ولو خطوة ، إنك لم تعد تحتاج إلى دليل .. إلى الأمام خطوة فلم تعد تحتاج إلى دليل .. جاهد وتأمل . هذه هى العين الوحيدة التى ترى الجمال الرائع ، وإذا كانت العين التى يمكن أن تتجاسر على الرؤيا قد أظلمت من جراء الرّذيلة ، أو كانت غير نقية أو كليلة فإنها لن ترى شيئاً ولا حتى موطئ قدميها .

ويلزم لأى رؤية عين مهيأة لما ينبغى عليها أن تراه ، وعليها أن تحوز بعض التشابه معه ، إن العين لن ترى الشمس أبداً ما لم تصبح – بداية – مشابهة لها ولن تتمكن الروح من رؤية الجمال الأول ما لم تكن هى روح جميلة»(*) .

وهذه القطعة الرائعة توحى لنا بثلاثة تعليقات ، ينبغى أن تنتهى بها إطلالتنا على أفلوطين ؛ فهى فى المقام الأول ذات طابع دينى ، وهى فى هذا تتطابق مع كل الفلسفة السكندرية ، ثم إنها ثانيا تركز على السلوك والتدريب «فالنظرة العليا» لا يمكن أن

(*) النص ترجمة س . ماكينّا S. MCKENNA من اليونانية إلى الإنجليزية – المؤلف .

تكتسب بحيل سحرية ، ومن ثم فالأشخاص المهيئون للرؤية ، هم فقط هؤلاء الذين سيرون . ومن جهة ثالثة .. فإن رؤية المرء لنفسه هى رؤيته لله ، لأن كل فرد يكون هو الله إذا ما عرفه تماماً .

وهنا يكون الاختلاف الكبير بين الأفلاطونية والمسيحية ، فالمسيحية تعد الإنسان بأنه سيرى الله ، بينما الأفلاطونية المحدثة شأنها شأن الفلسفة الهندية تعد الإنسان بأنه سيكون الله ، ربما وعلى أحد أرصفة الإسكندرية ، تحدث أفلوطين مع تاجر هندى أتى إلى المدينة . وعلى كلٍّ فإن نظام أفلوطين يمكن أن يتوازى مع الكتابات الدينية الهندية .. لقد أصبح أقرب من أى فيلسوف إغريقى آخر لفكر الشرق .

كان بورفيرى – وهو المريد الورع لأفلوطين – فيلسوفاً ذائع الصيت .. واستمرت المدرسة الأفلاطونية المحدثة فى الازدهار على امتداد القرن الرابع الميلادى وظل اتجاهها الرئيسى كما هو .. لقد كان تشاؤميا فيما يتعلق بالعالم الواقعى والإنسان الحالى ، ولكنه كان متفائلاً بالنظر إلى المستقبل ، لأنه اعتقد أن العالم بكل ما فيه فيض من الله ، وأن الله قد منحنا سبل العودة إليه ، وأن هذا العالم أدرك وجود الشر ، ولكن ليس هذا الوجود أبدياً ، وبالتالى فقد كان هذا الكفر دعماً عملياً لمعتنقيه ، وآخرهم هيباتيا التى دعمها أثناء استشهادها .

عندما أفكر مليا فى كتابتك

وفيك أنتِ ..

يا هيباتيا المبجلة .

عندئذ ..

أركع لمرأى

وطن العذراء المزدان بالنجوم

وهناك فى السموات

أتعرّف على أعمالك

وكلماتك الحقة

– كنجم ساطع –

من الوصايا الحكيمة(*)

هكذا كتب أحد المعجبين المجهولين فى بداية القرن الخامس الميلادى .

وأبدا لم يتم حفظ أى من محاضرات هيباتيا .. ولكننا نعرف أن بها وبأبيها الروحى .. انتهت كل تعاليم أفلوطين العظيمة فى الإسكندرية .

٣ - المسيحية :

مقــدمة

ومبكراً جداً ، وصل الدين المسيحى إلى مصر ، متسرباً من خلال المجتمعات اليهودية ، وذلك فى القرن الأول الميلادى .

وعند وصوله إلى هناك ، وجد شكلين متميزين للحياة ، مستقرين بالفعل .. كان الأول منهما ، هو الحياة الروحية للمصريين القدماء التى امتزجت بتربة وادى النيل لأكثر من ٤٠٠٠ سنة ، وعلى امتداد هذا الزمان الطويل ظلت حية ، وبالرغم من أن المسيحية استطاعت أن تغلق معابد هذه الحياة إلا أنها أبداً لم تقو على انتزاع جذورها من وجدان الناس .

- بعث «أوزوريس» كإله للشمس واكتسابه صفة إله الحصاد ، هذه الصفة التى أنعم بها عليه قديسو العالم السفلى .
- الأم «إيزيس» وطفلها حورس كرمز للرحمة .
- «حورس» وهو محارب صغير يذبح الأفعوان «ست» .
- مفتاح الحياة «عنخ» الذى يحمله الآلهة والآلهات كرمز لخلودهم .

هذه الرموز التى ترسبت عميقاً جداً فى أذهان المواطنين المصريين ، قامت المراسيم الأسقفية بإزالتها ، وبالتالى كانت هناك حالات للارتداد ، فمثلا فى مينوثيس بالقرب من أبو قير فى ٤٨٠ م تم اكتشاف جماعة من القرويين يعبدون الآلهة القديمة فى منزل خاص ، وكانت هناك أيضا حالات من الاقتباس ، حيث استطاع الدين القديم التسلل إلى الدين الجديد بشكل غير محسوس .

(*) ترجم النص إلى الإنجليزية . ر . أ . فيرنس R. A. Furness - المؤلف .

هل استعارت المسيحية من ديانة أوزوريس تعاليمها بشأن البعث ، والخلود الشخصى ، وتقديم القرابين ؟ لقد تم الوحى ! وإنه لمن المؤكد أنها استعارت الكثير من رمزيتها وفنها الشعبى ، إيزيس وحورس يصبحان العذراء وطفلها ، حورس وست يصبحان القديس چورچ – مار جرجس – والتنين ، بينما يظهر مفتاح الحياة عنخ بلا أى تحوير على بعض شواهد القبور المسيحية كصليب ذى عروة ، ويظهر بتحويرات طفيفة على البعض الآخر كصليب له مقبض .

كان الشكل الآخر للحياة الروحية هو حياة الإسكندرية ذاتها ، وقد سبق التعرف على طابعها الرئيس (هيلينيا وفلسفيًا) والمسيحية بادئ ذى بدء لم تكن فلسفية ، عندما قدمت نفسها للفقراء ، ولغير المنتمين للطبقات العليا فى فلسطين ، وبمجرد وصولها إلى الإسكندرية تحور طابعها ، وبلغت المسيحية هنا نقطة تحولها إلى الطابع الدنيوى .

كان السكندريون مثقفين إلى أبعد الحدود ، وكانت لديهم مكتباتهم التى جعلت كل حكمة البحر المتوسط فى متناول أيديهم .

لذا كان من المحتم أن يأخذ إيمانهم طابعاً فلسفياً ، ومنشغلين بقضيتهم المفضلة وهى الصلة بين الله والإنسان ، أخذوا على الفور يتساءلون نفس السؤال عن الدين الجديد وهو بالتحديد ؛ ما هى الصلة ؟

فيلو قال : هى الكلمة «اللوجس» .

وأفلوطين قال : هى «الفيض» .

والدين الجديد أجاب هى «المسيح» .

لم يكن هناك شىء مروع للسكندريين فى إجابة كهذه، فالمسيح أيضاً كان الكلمة ، وهو أيضا ينشأ من الآب ، وتجسده وافتداؤه للجنس البشرى من خلال المعاناة ، كل هذه الأفكار لم تكن غريبة عن الناس ، هؤلاء الذين اعتادوا على مثلها بالنسبة لملوكهم المقدسين ، وكانت شائعة من أساطير بروميثيوس ، وأدونيس .. إن الأرثوذوكسية السكندرية والهرطقات السكندرية كلاهما تمحور حول القضية التى كانت شائعة فى وثنية الإسكندرية وهى الصلة بين الله والإنسان . وهكذا لم تدوِّ المسيحية فجأة فى سماء مصر أو سماء الإسكندرية كعصف الرعد ، ولكنها انسلت إلى الآذان التى كانت مهيأة لها بالفعل ، فهى لم تكن لا من الناحية الشعبية ولا من الناحية الفلسفية عقيدة بعيدة . ولكنها من الناحية السياسية برزت كبدعة ، وذلك من خلال إنكارها لقداسة الحكومة الإمبرطورية فى روما .

- عنـــخ — المتحف – حجرة ٨
- صلبان مسيحية مبكرة — المتحف – حجرة ١
- إيزيس وحورس — المتحف – حجرة ١٠
- منيوثيس — صـ ٢٢٣

(أ) الغنوسطية(*) : المعرفة الخفية أو "معرفة النخبة"

سرينثس Cerinthus حـوالى ١٠٠ م .
باسيليدس Basilides حوالى ١٢٠ م .
فالنتينوس Valantinus حوالى ١٤٠ م .

قالت الغنوسطية إن العالم والجنس البشرى ظهرا نتيجة لخطأ فادح ومشئوم ، فالله لم يخلقنا ولم يرد لنا أن نُخلق .. بل نحن من صنع إله وضيع ، هو ذلك الخالق للكون الذى يعتقد فى نفسه خطأً أنه إله ، ونحن محكوم علينا بالفناء ولكن الله بالرغم من كونه ليس مسئولاً عن وجودنا ، أخذته الشفقة بالكون وأرسل مسيحه ليبطل جهل هذا الخالق ، وليهبنا المعرفة .

فالمسيح هو الصلة بين الإلهى وبين ذلك الخطأ التعس المسمى بالإنسان . ودار الغنوسطيون حول هذه الفكرة ، سرينثس الذى تعلم فى الإسكندرية قال : إن يسوع كان إنسانا ، أما المسيح فهو الروح التى غادرته عند الوفاة ، باسيليدس – وهو زائر سورى – قال : إنه كانت هناك ثلاث شرائع ، وهى ما قبل اليهودية واليهودية والمسيخية . وكان لكل حاكم من حكام هذه الشرائع ابن ، وهذا الابن كان يدرك عن الله أكثر مما كان يدركه أبوه . فالأوفيتيون(**) عبدوا الثعابين لأن الأفعى فى عدن كانت حقا رسولا من الله وهى التى دفعت حواء لتعصى خالق الكون يهوه ، وبالتالى إذا رغبنا فى أن نكون طيبين فعلينا أن نكون خطاة .

(*) وتسمى فى الأدبيات العربية بالغنوصية ، وهى مذهب العرفان ، وكان مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا أن المادة هى الشر ، وأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحانية – المترجم .

(**) هم عبدة الحيات وهم ينسبون إلى الصخور أو الرخام المرقط الذى يشبه جلد الثعبان – المترجم

والخلاصة التى تم الوصول إليها عبر الدروب المختلفة بواسطة الكاربوكريتيين ؛ هؤلاء الذين أنشأوا مقراً للحب على إحدى الجزر اليونانية ، وهم عبارة عن مشعوذين مكروهين .

ولكن واحداً من الغنوسطيين يدعى فالنتينوس (وهو من المحتمل أن يكون مصرياً ، تعلم فى الإسكندرية وقام بالتدريس فى روما أساساً) تمسك فالنتينوس بالعقيدة الغنوسطية الشائعة التى تقول إن عملية الخلق كانت خطأ ، ولكنه حاول أن يشرح من أين أتى الخطأ ؛ فهو يتخيل إلها أولياً ، وهو مركز التناسق أو الانسجام الإلهى ، وهو قد أرسل تجليات من نفسه على هيئة ذكر وأنثى ، وكل زوج كان أدنى مرتبة ممن سبقه ، والصوفية أو «الحكمة» كانت هى أنثى الزوج الثلاثين الذى كان أقل الأزواج اكتمالاً ، وقد أظهرت عدم اكتمالها ليس كما فعل الشيطان بالابتعاد عن الله ، ولكن بالرغبة المستعرة فى الاتحاد به ، لقد سقطت من خلال الحب⊗ ، واندفعت بقوة من التناسق أو الانسجام الإلهى ووقعت فى المادة فتشكل الكون نتاجا لألمها المبرح وندمها الشجى ، وهى نفسها قد أنقذها المسيح الأول ، ولكن ليس قبل أن تلد ابناً Demiurge(*) وكان هو خالق الكون الذى حكم عالماً من التعاسة والفوضى ، ولكنه لم يكن قادراً على تحقيق أو إبداع أى شىء آخر غير ذلك فى هذا العالم يوجد ثلاث طبقات من البشر ، مظهرهم جميعاً متشابه ، أناس من جسد ، وأناس لهم أرواح ، وأناس من الجوهر الروحانى ، والاثنان الأولان ينتميان إلى خالق الكون وعليهما أن يطيعاه ، أما الثالث فهو المختار من أمه الصوفية .. إنه هو الذى يحكمها ، ولكنه لا يستطيع أن يجعلهما يطيعانه ، وكان لخلاصهما أن المسيح الذى ندعوه يسوع قد هبط مباشرة من الإله الأول .

وترك مع حوارييه الاثنى عشر سر عقيدة الغنوسطية ، ووصلت الغنوسطية السكندرية على يد فالنتينوس إلى ذروة تطورها ، واتخذت أشكالاً أخرى كلما ابتعدت شرقاً ، وانتشرت فى حوالى ١٥٠ م فى كل أنحاء البحر المتوسط بل وهددت المسيحية الأرثوذوكسية بالهزيمة ، ولكنها كانت متشائمة ، وذات نزعة خيالية ، ومتخفية ، وهى ثلاث عقبات كبرى واجهت نجاحها ، فهى لم تكن عقيدة يمكن لأى مجتمع أن يتبناها ، ذلك لكونها عقيدة ضد النزعة الاجتماعية وبحلول عهد قسطنطين انتهت موضتها إلى الأبد .

- تمائم غنوسطية المتحف – حجرة ١٧

(*) هو خالق الكون المادى عند أفلاطون أيضاً – المترجم

(ب) الأرثوذوكسية المبكرة :

أكليمنضس[*] الإسكندرية حوالى ٢٠٠ م .

أوريجين Origen ١٨٥ - ٢٥٣ م .

لم تكن الأرثوذوكسية فى بدايتها بالإسكندرية محددة المعالم ، بل نحن - فى الحقيقة - كلما أمعنا النظر وجدنا أنها كانت تندمج فى كل ما حولها ؛ فقد تكيفت مع تعاليم فيلو عن اللوجس ، وطابقت ما بين اللوجس والمسيح ، وهى تشارك الغنوسطية الرغبة فى معرفة الله ، بينما هى تعلن أن تلك المعرفة ليست فى حاجة إلى أن تكون لفئة قليلة (نخبة) . لقد كان لديها إنجيلها الخاص ، ولكن الكتب المقدسة الأخرى كانت تُقرأ فى كنائسها بغض النظر عن أنه معترف بها أو غير معترف بها (مثلا كتب اليهود والمصريين المقدسة) . إنها تأثرت بالفكر اليونانى حيث أصبح الكثيرون من الأفلاطونيين مسيحيين ، وكان العكس صحيحاً أيضاً فقط كان أحد تعاليمها الفارقة ؛ هو تمجيد المسيح كقيمة عليا ، فالمسيح كان تجسيد الكلمة «اللوجس» وبه تُعرف محبة الله وقوته ، بل إن قضايا مثل «طبيعة المسيح» لم تكن تشغل علماء اللاهوت الأوائل ، حيث كان باعثهم هو أن يشهدوا ويؤكدوا ، لا أن يحللوا ، وكان لديهم إحساس بالبهجة ، يلهم كتاباتهم اللامتناهية . ومن الممكن من خلال كتاباتهم المسهبة ، أن نستشف الإيمان الذى يملأ أرواح معاصريهم من الشهداء بالعزم والتصميم .

أكليمنضس السكندرى : وهو ربما كان يونانيا من أثينا ، كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية الكبيرة فى الإسكندرية ، وكانت قضيته مثل اليهود الذين سبقوه ، هو أن يجعل دينه مقبولاً عند هذه المدينة الماكرة ذات الطابع الفلسفى . وكان أسلوبه فى ذلك سابقاً بكثير لهؤلاء المبشرين المتطورين المعاصرين (!) ، ولذا لم يشجب الفلسفة اليونانية ، معتقدا أنها كانت تمهيداً للإنجيل ، مثلما كانت الشريعة اليهودية تمهيداً له أيضاً . بل وكان يعتقد أن ما كان قبل ميلاد المسيح كان فى الحقيقة اقترابا إلهياً للحدث الأسمى .

(*) ورد اسمه كالتالى . كليمنت Clement ولكن تبين أن الكنيسة المصرية تسميه «أكليمنضس» - المترجم - انظر هامش سابق .

وكشخص مثقف ومستنير وضع المسيحية على الطريق الذى سرعان ما وافقت على السير فيه ، فقد انتشلها من الغموض الفكرى ، وأعارها القليل من المعتقدات الهيلينية ، وتبدو لباقته اليونانية فى صفحاته منسجمة تماما مع جمال الرب :

«إنه هو الأعظم فى مملكة السماء . فهو من سيعمل ويعلّم كيفيّة التشبّه بالله ، مجسداً جمالاً مطلقاً يحاكى جماله ، إنه هبة من هباته السخية لخير الجميع» .

فقط فى الإسكندرية ؛ كان يمكن أن ينشأ مثل هذا العالم اللاهوتى .

وواصل المهمة من بعده تلميذه أوريجين ، أكثر الآباء الأولين جسارة وأشدهم غرابة . كان بطبيعته مهذباً وعالماً ، وكانت لديه مقدرة طبيعية على التضحية بالذات ، مما أدى إلى اضطراب حياته وحياة أصدقائه ، كان ميلاده فى الإسكندرية لأبوين مسيحيين وحاول وهو صبى أن يشارك أباه فى استشهاده عند معبد سيرابيس ، وفى فترات هدوئه كان يساعد أمه وإخوته ، وكان من مريدى أفلوطين ، وبعد ذلك أصبح رئيساً للمدرسة اللاهوتية ، ولكى ينال الشهرة كمعلم وواعظ قام بخصاء نفسه (مخصًى من أجل مملكة السماء - متى ١٩-١٢)(*) .

ومن أجل هذا تبرأ منه أسقف الإسكندرية الذى كان نصيراً سابقاً له ، وقرر أنه ليس أهلا لأن يُرسم كاهنا ، وأكد آخرون من الأساقفة أنه من الممكن أن يرسم كاهنا وانقسمت المجتمعات المسيحية حول هذا النزاع الغريب ، ولكن أوريجين كان حذراً ، بل وكان نادماً ، ولم يكن يرغب فى إحداث فضيحة ، وانصاع لقرار طرده من الإسكندرية . كانت آراء أوريجين تميل إلى أن تعتبر عديمة الصحة ، فقد كان يعتقد فى الوجود المسبق مثل أفلوطين ، ولم يؤمن بأبدية العقاب، ولذا لم تتلقاه الأرثوذوكسية بين أحضانها إلا بعد درجات قصوى من التردد ، وكان إسهامه الأساسى هو تطوير نظرية أستاذه أكليمنض القائلة بأن المسيحية هى وريث الماضى ومفسر المستقبل وكان يقول إن المسيح كان موجوداً مع الجنس البشرى منذ بدء الخليقة ، وليس فقط حين تجسد ، وهو فى كل العصور كان يصل الناس بالله تبعاً لقدراتهم .

وعلى هذا فإن الصفة المميزة للأرثوذوكسية المبكرة هى الاعتقاد فى المسيح كصلة بين الله والإنسان .

(*) ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . متى - الإصحاح ١٩ آية ١٢ - المترجم .

وهو معتقد ذو طابع إنسانى ، وكان هذا من عمل التلاميذ اليونانيين الذين تساموا بالعقيدة الفلسطينية البسيطة وعمموها ، وأضافوا إليها من تعاليم الوثنية ، وسوف نلاحظ كيف تتحول وتتصلب ، وأن العديد من الأسباب ساهم فى إعادة تشكلها ، مثل نشوء الرهبانية الجاهلة فى مصر ، ونشوء نوع من المسيحية أكثر تشاؤما تحت حكم «ترتوليان» Tertullian فى شمال أفريقيا .

وتبدت الروح العدوانية العامة للدين الجديد فى كل مكان ، بمجرد أن أعلنه قسطنطين ديناً رسمياً ، ولكن كان هناك سبب وحيد متأصل فى العقيدة ذاتها وهذا فقط هو ما يهمنا هنا ... «المسيح كان ابن الله» ووافق الجميع . ولكن ماذا كانت طبيعة المسيح ؟ الفكر السكندرى الرائع سأل هذا السؤال حوالى ٣٠٠ م وكانت نتيجتها الهرطقة الآريوسية ، ثم سأله مرة أخرى حوالى ٤٠٠م فأنتج هرطقة الطبيعة الواحدة ، وفى ٦٠٠م كان التساؤل الثالث الذى أنتج الهرطقة الثالثة القائلة بوحدة الإرادة (المشيئة) .

وحين نلقى نظرة على هذه الأمور الثلاثة كل فى دوره ، سنكتشف أن كلا منها كان يرى أنه هو الأصولى الحقيقى (الأرثوذوكسى) وأنه هو المفسر الوحيد للصلة التى تربط الله بالإنسان ، بالرغم من أنه كان فى نظر الآخرين يعتبر مهرطقاً .

- أناجيل غير معترف بها الملحق صـ ٢٧٥

(جـ) الآريوسية :

المسيح هو ابن الله - إذن أليس هو أصغر من الله ؟ ، واعتقد آريوس فى ذلك واعتقد أنه كانت هناك فترة ما ، قبل أن يحين الوقت ، عندما كان «الشخص الأول» فى الثالوث موجوداً ، والثانى لم يوجد بعد ، إنه عالِم لاهوتى سكندرى نموذجى انشغل بالقضية المفضلة المتعلقة بصلة الإنسانى بالإلهى .

آريوس اعتقد أنه لحل هذه القضية علينا أن نجعل الصفة الغالبة فى هذه الصلة هى الإنسان ، هو لم ينكر ألوهية المسيح ، ولكنه جعله أدنى مرتبة من الآب ، فهو من جوهر مشابه، وليس من نفس الجوهر ، وهذه هى وجهة النظر التى آمن بها أثناسيوس والتى اعتُمدت كشكل أصولى من مجمع نيقية ، وزيادة على ذلك كان المسيح الآريوسى

مثله مثل خالق الكون الغنوسطى ، وخلْق الكون هذا : عمل أدنى مرتبة ، عهد به الآب إليه ، الذى هو نفسه لم يخلق شيئاً سوى المسيح .

ومن السهل أن نرى لماذا صارت الآريوسية شعبية ، فكون المسيح أصغر وأدنى من الله جعله أقرب إلينا (قرّبه الينا) حقاً إنها كانت تنزع إلى جعله مجرد رجل صالح وتحول دون القول بإله واحد . كانت هذه المعتقدات تجذب إليها من هم غير ميالين ذهنياً للقضايا اللاهوتية ، وأيضاً كانت جذابة للأباطرة وحتى لزوجاتهم .

ولكن القديس أثناسيوس الذى كان يرى البدع بعين خبيرة ، وجد أنها بينما تحبب الناس فى المسيح ، فإنها تعزلهم عن الله ، وحاربها بعنف وحقد وغل ، وقد وصفنا كيف حقق نجاحه فى الصفحات السابقة ، إذ تم إدانة الآريوسية كهرطقة فى ٣٢٥م ، وبنهاية القرن الرابع كانت قد استبعدت من النصرانية الأرثوذكسية ، ولم يبق لها أثر على مسرح هذا النزاع القديم فى الإسكندرية : فكنيسة القديس مرقص ، التى كان آريوس كاهنها ، تم إزالتها تماما ، وكذلك الكنائس التى كان أثناسيوس يرعد فيها ، والقديس ثيوناس ، وكذلك السيزيريوم(*) ، ولانعرف فى أى شارع مات آريوس بالصرع ، ولكن الصراع مازال دائراً فى قلوب الرجال الذين ينزعون دائماً إلى تمجيد الإنسانى فى الإلهى ، وإنه لمن المحتمل أن يكون الكثير من الأفراد المسيحيين اليوم آريوسيين دون أن يعرفوا أنهم كذلك .

- المرسوم النيقى (نص أصلى) الملحق صـ ٢٧٧
- صورة لمجمع نيقية صـ ١٥٢

(د) مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysism) :

المسيح هو ابن الله ، ولكنه أيضاً ابن مريم ، وعندئذ نستطيع أن نسأل ، هل يمتلك طبيعتين أم طبيعة واحدة ؟ .

أنصار مذهب الطبيعة الواحدة يقولون : إن له طبيعة واحدة ، وهم لا ينكرون تجسد المسيح ، ولكنهم يؤكدون أن الإلهى فيه قد استغرق الإنسانى تماما .

(*) معبد كانت كليوباترا قد بدأت بناءه تحية لأنطونيو ، ثم أتمه أوكتافيوس - المترجم .

هذا السؤال ظهر أولا فى الدوائر الإكليركية فى القسطنطينية ، ولكن الإسكندرية تبنته بحرارة ، وأصبحت «الطبيعة الواحدة» هى النداء القومى لمصر ، وقد رأينا سابقا (صـ٩٧) الأهمية السياسية لهذا المعتقد (الهرطقة) وكيف ارتبط بالحركة العرقية المتعصبة ضد اليونانيين والرومانيين ، وكيف عندما تمت إدانتها فى خلقدونية سنة ٤٥١م صارت مصر فى تمرد دائم ضد الامبراطورية ، فقد أعلن المجمع أن للمسيح طبيعتين غير مختلطتين ، وغير قابلتين للتغيير ، ولكن فى ذات الوقت لايمكن تمييزهما ، وهما متلازمتان - هذه وجهة النظر الأرثوذوكسية وهذا هو ما نعتقده ، لكن القبط والأحباش مازالوا يؤمنون بالطبيعة الواحدة وبالتالى فهم لا يشاركون بقية العالم المسيحى .

- الكنيسة القبطية صـ ٢١١ ، ٢٦٦

(هـ) مذهب الإرادة الواحدة (Monothelism) :

بينما كانت عقول الإسكندرية تواصل تدهورها ، صارت هرطقاتهم أكثر حذقاً ، وأكثر براعة ، فالآريوسية تعلى من قدر القضية الحقيقية التى يمكن أن يعيها العوام من الناس ، وذلك فضلا عن رجال الدين . بينما مذهب الطبيعة الواحدة (مونوفيسيزم) (Momophysism) أكثر بعدا عنهم ، ومذهب الإرادة الواحدة (مونوثيليزم) (Monothelism) من الصعب أن يصاغ فى لغة اللاهوت ، وغالباً لايمكن صياغته فى لغة العامة ، ربما لأنه يحمل داخله مظاهر اللامبالاة ، ولأنه كما رأينا صـ ٩٩ كان من اختراع الإمبراطور هرقل فى أيامه البائسة الأخيرة ، عندما كان يحاول أن يستميل مصر .

إذا كان المسيح ذا طبيعة واحدة فهو بالطبع ذو إرادة واحدة ، ولكن بافتراض أن له طبيعتين ، فكم من الإرادات يمتلك إذن ؟ القائلون بالإرادة الواحدة قالوا : إنها واحدة ، والنظرة الأرثوذوكسية التى نعتقدها تقول إنها «اثنتان» . واحدة إنسانية والأخرى إلهية ، ولكنهما تعملان معا فى انسجام وتناسق ، وكم إنها غامضة حقا تلك القضية !

ونحن نستطيع أن نؤكد أن السكندريين الذين كان العرب يتجهون نحوهم حينئذ ، لم يكونوا قادرين على فهم مذهب الإرادة الواحدة ، عندما شرحه لهم باستعجال

ذلك القائد (المشغول البال) . ولكنها لم تكن بلا مستقبل ؛ لقد فشلت كحل وسط ، ولكنها ظلت حية كهرطقة ، وبعد فترة طويلة تبرأت الحكومة الإمبراطورية منها ، ودخلت مصر فى الإسلام ، واحتفظت بها الكنيسة المارونية معززة فى المرتفعات السورية .

● الكنيسة المارونية صـ ١٩٣ ، ٢٦٧

وأخيراً .. الإسلام :

نحن نرى الآن الإسكندرية ، وهى تتعامل مع الأنظمة المتعاقبة التى دخلت أسوارها ؛ وهى الدين اليهودى القديم ، وفلسفة أفلاطون والإيمان الجديد المتمثل فى الكنيسة . وآخذة كلا فى دوره ، تركت المدينة بصمتها عليه ، واستخرجت بعض الأجوبة عن سؤالها ، كيف يمكن للإنسانى أن يكون على صلة بالإلهى ؟

والأمر المثير للجدل ، هو أن كل من لديه حس دينى ، كان عليه أن يطرح هذا السؤال .

فهذا السؤال لا يحمل طابعاً سكندرياً متميزاً ، ولكن الأمر ليس كذلك فى الإسلام ، فهو لم يكن فى حاجة إلى أن يطرح هذا السؤال . ولم يطرحه أبداً فى هذه العقيدة التى اكتسحت المدينة مادياً وروحياً حتى البحر .. «لا إله إلا الله» «محمد رسول الله» هكذا يشهد الإسلام معلنا عدم الاحتياج إلى أى وسيط ، فمحمد الإنسان اختير ليبلغنا ما هية الله ، وما هى مشيئته ، وهناك سوف تكون النهايات المصيرية تاركة إيانا لنواجه خالقنا .

نحن نواجهه كإله قوى يلطِّف عدالته برحمته ، ولكنه لا يخضع لضعف الحب ، ونحن مقتنعون بأنه – ولكونه قوياً – يجب أن يكون بعيداً ، وأن المأزق القديم الخاص بأن الله يجب أن يكون بعيداً وفى نفس الوقت يجب أن يكون قريباً منا لايمكن أن يحدث هذا مع مسلم أصولى .. إنه يحدث فقط مع أولئك الذين يحتاجون أن يكون الله محباً فضلا عن كونه قوياً ، وذلك فقط يكون فى المسيحية وأصولها المتشعبة ، وإنه لمن ضعف الإسكندرية ومن قوتها أنها قد حلّت هذا المأزق بمفهوم «الصلة» .

كان ضعفها بسبب اضطرارها الدائم إلى أن تبدل من وضع الصلة بالله علوا وانخفاضا ، فعندما كانت هذه الصلة قريبة جداً من الله كانت تجدها بعيدة جداً عن الإنسان .

وكان العكس أيضاً صحيحاً .

أما قوتها .. فلأنها .. تشبثت بفكرة الحب .. وبالكثير من لامعقولية الفلسفة ، كما تشبثت بالكثير من الجفاف اللاهوتى الذى يوجب التسامح مع هؤلاء الذين يؤكدون أن ما هو أفضل على الأرض سيكون – على الأرجح – هو الأفضل فى السماء ، والإسلام القوى – بتجنبه للحب – كان هو النظام الذى لا تقوى المدينة على التعامل معه ؛ فهو لم يعطها أى مبرر للمناورة ، فلوجوساتها وفيوضها ودهورها ، ومسيحها المختلف والمتنوع والمتعدد ، الأرثوذوكسى ، أو الآريوسى أو ذو الطبيعة الواحدة أو الإرادة الواحدة .. كل هذا ألقت به جميعاً جانباً كنفايات مهملة ، فهم لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يحولون بين المؤمن الحقيقى وبين الله .

إن الانهيار المادى الذى زحف عليها فى القرن السابع الميلادى ، كان له نظيره فى الانهيار الروحى ، فعمرو وأصحابه من العرب لم يكونوا متعصبين ولا همجيين ، وكانوا على وشك أن يبدأوا فى بناء مصر جديدة خاضعة لهم بالقرب من القاهرة ، لأنهم نفروا من الإسكندرية بشكل غريزى ، وبدت لهم كمدينة وثنية تافهة .

وتمطى بعد ذلك ألف عام من الصمت .

- نقش من القرآن · مسجد طربانة صـ١٧٦ .

الفصل الرابع

العصر العربى

المدينة العربية من القرن السابع إلى القرن السابع عشر

وأثناء ما يزيد على الألف عام التى امتدت منذ الغزو العربى لمصر ، وحتى غزو نابليون لها (الحملة الفرنسية) صارت الأحداث فى الإسكندرية جغرافية أكثر منها سياسية ، فبإهمال البشر لها ، تغيرت أوضاع اليابس والماء .

وإذا كان بإمكان الإسكندر أن يعود الآن إليها ، فإنه سيفشل فى التعرف على الساحل .

١ - حدث التغير الأساسى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، عندما امتلأ المصب الكانوبى للنيل بالطمى ، وبالتالى فإن بحيرة مريوط العذبة امتلأت أيضا بالطمى ، فلم تعد فيضانات النيل تغذيها ، وأصبحت غير صالحة للملاحة ، وتم عزل الإسكندرية عن نظام مصر النهرى بكامله ، ولم تنتعش مرة ثانية حتى تم لها استعادته ، فهى دائماً كانت فى احتياج إلى التغذية المزدوجة بالمياه العذبة والمالحة .

٢ - وأيضا حدث تغيير فى تخطيط المدينة ، فالحاجز الممتد لمسافة سبع استوديومات والذى كان قد بناه البطالمة، تهدم وصار خربا ، وأصبح الركيزة الأساسية التى نما على امتدادها وملتحماً معها لسان عريض من الأرض ، وهكذا تحولت فاروس من جزيرة إلى شبه جزيرة وهى ما يعرف حالياً برأس التين .

وبالرغم من أن العرب تركوا المدينة تتدهور ، دونما أى إصلاح ، إلا أن إعجابهم بها كان كبيراً ، وكتب أحدهم يقول إن المدينة كلها بيضاء ولامعة بالليل كما هى بالنهار ، وبسبب وجود الجدران والأرصفة المقامة من الرخام الأبيض ، اعتاد الناس على ارتداء الملابس السوداء ، وكان وميض هذا الرخام هو الذى جعل الرهبان يرتدون السواد ، حيث كان من المؤلم أيضا الخروج ليلا ، فقد كان الحائك يستطيع أن يلضم إبرته دون مصباح ، ولا يمكن لأحد أن يدخل المدينة دون غطاء على عينيه . وكتب آخر يصف الستائر الحريرية الخضراء التى كانت منتشرة على امتداد الطريق الكانوبى ، أما الثالث فكان أكثرهم حماسة وهو يصيح ، «لقد زرت مكة ستين مرة ، ولكن إذا

أرغمنى الله على البقاء شهراً فى الإسكندرية لأصلى على شواطئها ، فسيكون هذا الشهر هو أعز ما لدى» .

يمكن أن يكون العرب أى شىء .. إلا أن يكونوا همجيين ؛ فمدينتهم العظيمة (القاهرة) تعتبر رداً كافيا على هذه التهمة ، ولكن حضارتهم كانت شرقية وكانت حضارة أرضية ليست على اتصال بحضارة البحر المتوسط التى أنشأت الإسكندرية .

فى البداية : بذلوا بعض الجهود لكى يكيفوها واحتياجاتهم ، فمثلاً أصبحت كنيسة القديس ثيوناس جزء من مسجد كبير ذى ألف عمود ، وكنيسة القديس أثناسيوس أصبحت أيضا مسجداً - مسجد العطارين الحالى يحتل جزءاً من موقعه ، وهناك مسجد ثالث - وهو المسمى بمسجد النبى دانيال - ظهر فى مكان ضريح الإسكندر ، ولكن السيزيريوم والجامعة ومنارة فاروس وقصر البطالمة ، صارت كلها خراباً ، وكذلك آلت الأسوار إلى الخراب ، وبالرغم من أن العرب بنوا أسواراً جديدة فى ٨١١م إلا أنها لم تدم طويلاً ، وهذا يوضح بشكل قاطع مدى تدهور المدينة وتدهور سكانها (انظر الخريطة صـ ١٤٨) وهذه الأسوار العربية احتوت على بعض البقايا من المدينة القديمة .

فى ٨٢٨م سرق الفينيسيون (بعض سكان مدينة البندقية) رفات جثمان القديس مرقص(*) من الإسكندرية ليضعوه فى مدينتهم ، مخفين إياه أولا فى حوض لتمليح الخنازير ، وذلك لصرف انتباه الموظفين المسلمين العاملين فى الميناء ، ولم يقم العرب بمعاقبة هؤلاء اللصوص لأنهم على ما يبدو لم يعرفوا بحدوث هذه السرقة أبداً ، تلك التى أحدثت الكثير من الرضى عند الفينيسيين ، بينما لم تحدث أى إزعاج عند السكندريين .

كان القديس مرقص فى الإسكندرية من الآثار القليلة التى تجتذب العالم الأوروبى وبعد سرقة رفات جثمانه ، لم يعد هناك سبب لاقترابهم من المدينة ، وصار ميناءا مصر وقتها هما : رشيد التى تقع على المصب البولبتينى للنيل ، ودمياط التى تقع عند المصب الفاتنيتى للنيل ، أما الإسكندرية ذاتها فقد صار نظامها المائى منهاراً تماماً .

واستعادت الإسكندرية بعضا من أهميتها فى نهاية الحكم العربى(**) ؛ فالسلطان المملوكى فى القاهرة قايتباى بنى قلعة رائعة فى ١٤٨٠م على أنقاض منارة فاروس ،

(*) استعادت الكنيسة المصرية هذا الرفات فى ١٩٧٠م، وهو مدفون فى الكاتدرائية المصرية - المترجم.

(**) يقصد نهاية عصر المماليك الشراكسة ، وقايتباى هذا حكم مصر من ١٤٦٨ إلى ١٤٩٦م-المترجم.

مازالت تحمل اسمه حتى الآن ، وهذه القلعة تم بناؤها لمواجهة القوة البحرية المتنامية للأتراك الذين غزوا مصر بعد ذلك فى ١٥١٧م ، وبدأ فصل جديد فى تاريخ المدينة مساو لما سبقه فى عدم الأهمية .

- القديس ثيوناس صـ ٢١٩
- جامع العطارين صـ ١٩٦
- جامع النبى دانيال صـ ١٥٠
- بقايا السور العربى صـ ١٥١ ، ٢٠٨
- قلعة قايتباى صـ ١٨٥

المدينة التركية

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

استمر عدد السكان فى التقلص تحت حكم الأتراك ، حتى إن مساحة المدينة التى كانت تطوقها الأسوار العربية صارت فى النهاية واسعة عليهم جداً . وظهرت مستعمرة جديدة على قطعة الأرض الضيقة التى تكونت فيما بين الميناءين ، وهى مازالت موجودة ، وتسمى المدينة التركية ، وهى أكبر من كونها صفاً من المنازل المتداخلة مع المساجد الصغيرة ، وهى نسخة هزيلة من رشيد ، وتمكننا من دراسة معمار تلك القرون كأفضل ما تكون ، وهذه المدينة مكان بلا أى أهمية ، إلى الحد الذى لا يمكن أن يوجد له تاريخ مترابط . والآن ، إن كل ما يمكن أن يفعله المرء هو أن يقتبس بعض التعليقات المتفرقة للقليل من الرحالة .

١ - البحار الإنجليزى جون فوكس ١٥٧٧م (John Fox)

يروى لنا حكاية مثيرة ، عندما أمسك به القراصنة الأتراك وسجنوه هو وزملاءه ، وبالتواطؤ مع صديق له أسبانى ، نظم تمردا واستعاد سفينته ، وبأسلوب بريطانى حقيقى ، أخرجها من الميناء الشرقى تحت وابل من نيران المدافع المنطلقة من قلعة قايتباى .

٢ - جون سانديز ١٦١٠م (John Sandys)

وهو يقدم لنا وصفا شيقا ولكنه مؤثر لتدهور الإسكندرية ، وصارت المدينة التى كانت عروس المدن ومتروبوليس(*) أفريقيا .. صارت هذه المدينة لاتملك سوى الأطلال ، وكل هؤلاء الشهود السيئين على محاسنها المنقرضة يعلنون أن المدن مثلها مثل الرجال ، لها أعمار وأقدار ، لقد ارتفعت هنا أكوام عديدة من الأطلال لولا المسيحيون لما ارتفعت .

إن هؤلاء الذين قاموا بعمل استكشافات دقيقة جداً للمدينة التى عاشوا فيها غالباً (خاصة بعد هطول الأمطار) وجدوا بها حجارة قيمة ، وميداليات محفور عليها صور آلهتهم ، ورجال بأعلى قدر من الكمال الفنى ، وهى ليست كتلك الأشياء التى تُصنع الآن وتبدو قبيحة بالنسبة لها ، وتزييفا لها لا يتصف بأى حيوية .

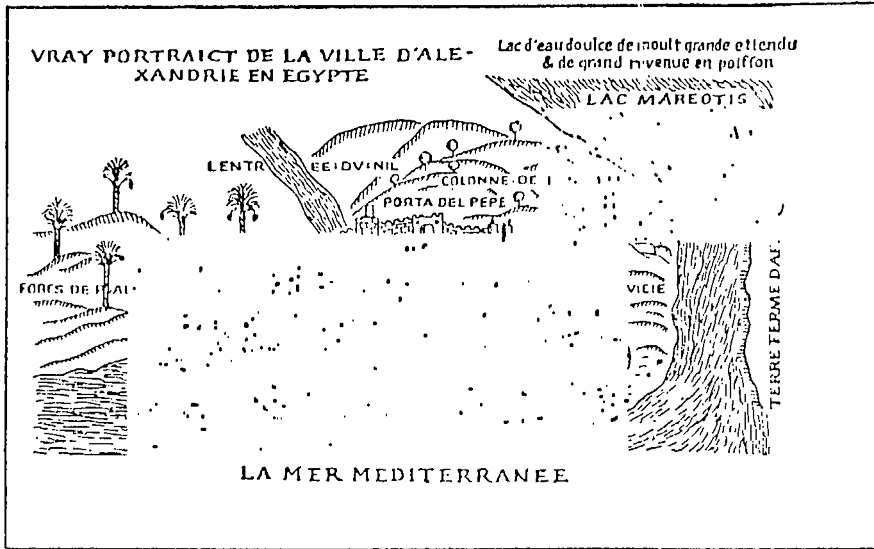
٣ - كابتن نوردن ١٧٥٧م (Captain Norden)

وهو دنماركى وكان فى حالة مزاجية متوترة ، إذ إنه كان يربد أن يضع مخططاً لتحصينات المدينة ، ولكن الأتراك لم يمكنوه من ذلك .. وكانت هناك أيضاً بالمدينة ، جالية انجليزية ، قدم لنا هذا الكاتب تعليقا عليها ، تبدو قراءته شيقة بالرغم من أنها مؤلمة :

«إنهم يحتفظون بهدوئهم ، ويتصلون ببعضهم البعض دون أن يحدثوا ضجة كبيرة ، فإذا كان هناك أمر ما حساس ودقيق ويتطلب اتخاذ قرار لمواجهته ، انسحبوا ، تاركين للفرنسيين شرف إزالة كل العقبات . فإذا نتج عن هذا أى منفعة ، أخذوا نصيبهم منها ، أما إذا تحولت الأمور إلى ما هو سيء فإنهم يؤمِّنون أنفسهم بأفضل طريقة يمكنهم بها عمل ذلك .

٤ - هناك زائرة أخرى ، نزلت هنا فى ١٧٧٩م ، وهى السيدة إليزا فاى (Mrs. Eliza Fay) وهى سيدة مفعمة بالحيوية وتواقة إلى الإغاظة ، ولكونها مسيحية ، لم يكن مسموحا لها أن تنزل من السفينة فى الميناء الغربى ، ولا أن تركب أى حيوان أفضل من الحمار ، قامت بزيارة مسلتى كليوباترا وعمود بومبى ، وكتبت لأختها بعد ذلك تقول :

(*) عاصمة أو حاضرة - المترجم



Extrait des *Observations de plvsieurs singvlaritez etc.*
par Pierre Belon du Mans
Paris 1554

١

صورة حقيقية لمدينة الإسكندرية كما تخيلها «ببير بيلون دى مون»، وتبدو فيها بحيرة مريوط ، وقصر الإسكندر ، والمسلة ، وعمود بومبى والقلعتان القديمة والحديثة ، وهى أبعد ما تكون عن الحقيقة .

«إننى بالتأكيد أعتبر نفسى سعيدة الحظ جداً ، إذا تركت هذا المكان بأسرع ما يكون» وهى لم تذكر أى شىء عن الجالية الإنجليزية ، ولكن القنصل الروسى كان قد استضافها ، وتركت تعليقاً قادحاً لزوجته البدينة .

وهناك بعض الخرائط القديمة ، التى تم جمعها من مخطوطات بعض الرحالة ، وهى لا تحمل إلا القليل من المصداقية ، مثل خريطة بيير بيلون ١٥٥٤م (Pierre Belon) وهى موجودة فى كتابنا صـ١٢٧ ، وأخطاؤها الأساسية تتمثل فى مدخل النيل ، حيث جعل مياه بحيرة مريوط تتدفق إلى البحر وهى تظهر الميناءين والأسوار العربية ، وأيضاً مسلتى كليوباترا وعمود بومبى والبداية الكانوبية أو بوابة رشيد ، تلك التى يسميها بوابة القاهرة .

كان هذا عندما لم تكن المدينة التركية قد بنيت بعد ، أما خريطة دى مونكونى ١٦٦٥ (De Moncony's) (انظر صفحة الغلاف الداخلى) ماتزال إلى حد ما أكثر لامعقولية أو غرابة . فمسلتا كليوباترا تحولتا إلى هرم ، والهضبة الصغيرة فى جهة اليمين كان يقصد بها قلعة «كافاريللى» ، وتظهر بدايات المدينة التركية فى رأس التين .

وفى ١٧٤٣م أصدر ريتشارد بوكوك (Richard Pocock) أول خريطة علمية فى كتابه «وصف الشرق» أوضح فيها قياس الأطوال وتقدير الأعماق .

أما كابتن نوردن الدنماركى (Norden) فقد نشر مخططا مصوراً بأسلوب جيد عن المستجدات مثل الميناء الشرقى مظهراً فيه المنارات أو العلامات البحرية .

أما ما وصلت إليه الإسكندرية من تدهور ، فقد أبرزته بشكل دقيق الخريطة الرائعة التى أصدرتها الحملة الفرنسية بقيادة نابوليون ، وفيها نرى المنطقة العربية قد أصبحت فارغة ، اللهم إلا القليل من المنازل فى كوم الدكة ، وبالقرب من بوابة رشيد ، وأن تعداد السكان قد وصل إلى أربعة آلاف فقط ، متكدسين فى المدينة التركية التى أصبحت بلا أسوار .

ومع نابوليون يبدأ عصر جديد .

- المدينة التركية صـ ١٧٥
- رشـيد صـ ٢٣٥
- مسلتا كليوباترا صـ ٢١٣
- عمود بومبى صـ ١٩٧
- قلعة كافاريللى صـ ٢١٩

الفصل الخامس

العصر الحديث

نابليون

فى الأول من يولية ١٧٩٨م شاهد سكان المدينة المنعزلة البحر المهجور ، وقد اكتسى بأسطول ضخم ، فعليه قدمت ثلاثمائة سفينة مبحرة من الغرب لتلقى مراسيها فى جزيرة مربوط ، حيث نزل الرجال من السفن طوال الليل ، وعند منتصف اليوم التالى كان هناك خمسة آلاف جندى فرنسى بقيادة نابوليون قد احتلوا المكان . كانوا جزءاً من قوة أكبر ، قادمة تحت ادعاء مساعدة تركيا ضد من كانوا فى مصر يقومون بتمردات دورية ضعيفة ضدها .

وكان نابوليون الذى سيصبح إمبراطورا فى المستقبل مايزال مجرد قائد (جنرال) فى الجمهورية الفرنسية ، ولكن - فى الحقيقة - كان ذا تأثير فى السياسات ، وكانت هذه الحملة من تخطيطه ، وكان حتى وقتها عاشقاً للشرق ، وقصة حبه لوادى النيل داعبت خياله ، وعرف أنها كانت الطريق إلى قصة حب أكبر وهى الهند . وفى الحرب مع انجلترا ، وجد نفسه يكسب مملكة الشرق على حساب إنجلترا ، ويعيد إلى الذاكرة قوة الإسكندر الأكبر ، وقد أنعشت الإسكندرية فيه - كما فعلت مع مارك أنطونيو - الأحلام الإمبراطورية .. إن الحملة فشلت ولكن ذكراها ظلت باقية معه . لقد لامس الشرق .. خالق الملوك وتوجه فوراً إلى القاهرة ، تاركاً وراءه الإسكندرية ، وانتصر فى معركة الأهرامات ، وعندئذ واجهته كارثة عصيبة ، لأنه كان قد ترك الأدميرال برويه (Brueys) مع تعليمات بأن يرتب تأمين الأسطول على أحسن ما يكون ، حيث كان معروفاً أن نيلسون يلاحقه .

والمفترض فى مثل هذه الظروف ، أن برويه كان عليه أن يبحر إلى داخل الميناء الغربى ، ولكن فى ١٧٩٨م لم تكن الحواجز الصخرية التى تعترض المدخل قد تم تفجيرها وإزالتها . وبالرغم من أن سفن النقل الصغيرة تيسر لها اختراق هذه الصخور إلا أن ذلك كان أكثر خطورة على البارجات .

كان برويه عصبياً واعتقد أنه من الأصوب أن يأخذ هذه البارجات ويرسو بها على أرصفة أبو قير ، معتقدا أنه بذلك يفعل الأصوب ، وتبعه نيلسون وهاجمه بشكل غير متوقع ، ودمر أسطوله .

وتفاصيل هذه المعركة الشهيرة والتي تسمى «معركة النيل» موجودة فى مكان آخر من هذا الكتاب صـ ٢٢٨ وكانت نتيجة هذه المعركة أن فقد نابوليون السيطرة على البحر ، واستولت الحملة الفرنسية على القاهرة ، وظلت قوية على الأرض ، ولكنها لم تستطع أن تتلقى أى إمدادات ولا رسائل ، وذوت كنبات اجتث من جذوره ، وأعلنت تركيا أنها ضد الحملة ، وهبطت قوة تركية مدعومة بالسفن البريطانية عند أبو قير فى يولية ١٧٩٩م ، وهنا كان نابوليون ناجحاً ، فقد قاد بنفسه سلسلة من الاشتباكات المثيرة للإعجاب ، والتى ألقت بالغزاة إلى البحر . هذه هى موقعة أبو قير البرية ، وهى موصوفة بالتفصيل صـ ٢٢٩ من كتابنا هذا ، ولكن أحلامه كان قد بعثرها نيلسون ، ورأى أن مصيره لن يتحقق أبداً فى الشرق ، وانسل عائداً إلى فرنسا ، تاركاً جيشه .

ونأتى الآن إلى الحملة البريطانية الأولى ، وإلى نتائجها الناجحة والهامة ، ففى مارس ١٨٠١م وصل السير رالف أبركرومبى (Sir Ralph Abercrombie) مع ١٥٠٠ من رجاله إلى أبو قير ، ولم يكن هدفه هو احتلال مصر ، بل إقناع الجنود الفرنسيين بالجلاء عنها . واتجه غرباً إلى الإسكندرية محافظاً على تواجده بالقرب من البحر ، وكان ريف المدينة على يساره مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن ، ولكى نفهم عملياته العسكرية ينبغى علينا أن نذكر هذين الاختلافين :

١ - إن بحيرة أبو قير - قبل أن تجف - كانت تمتد من رصيف أبو قير حتى تصل إلى الرمل وحيث إنها كانت متصلة بالبحر ، لذا فإنها كانت ممتلئة بالمياه المالحة .

٢ - كانت بحيرة مريوط الحالية جافة غالباً ، وكانت تحتوى على القليل من المياه العذبة ، ولكن معظم سطحها كان مزروعاً ومستواها يهبط عن مستوى المياه فى بحيرة أبو قير باثنى عشر قدماً ، وكان هناك حاجز مرتفع يحميها من هذه المياه . ولذا فإن أبركرومبى رأى مياها حيث نرى الآن أرضاً ، والعكس صحيح .

وتقدم بنجاح حتى المندرة لأن جناحه الأيسر كانت تحميه بحيرة أبو قير ، ولكنه حين أراد أن يهاجم الموقع الفرنسى فى الرمل ، خشى أن يلتف حوله جيش العدو ،

فعبر السطح الجاف لبحيرة مريوط .. وهنا توقف زحفه ، فكانت خسائره جسيمة ، وأصيب بجرح فى فخذه من جراء طلقة بندقية ، وكان عليه أن يتخلى عن القيادة ، وحملوه إلى قارب حيث مات هناك ، وله نصب تذكارى فى سيدى جابر يحيى ذكراه حتى اليوم . وأخذ خليفته هاتشنسون (Hutchinson) إجراءات عنيفة ، ووفقاً لتعليماته ، قطع مهندسوه الحاجز الذى يفصل بحيرة أبو قير عن بحيرة مريوط ، فاندفع الماء المالح فيها مما جلب البهجة لقلوب الجنود البريطانيين ، وفى خلال شهر كانت المياه قد أغرقت آلاف الفدادين الزراعية ، وتم عزل الإسكندرية عن باقى مصر ، وتم حماية الجناح الأيسر للحملة على طول الطريق حتى أسوار المدينة ، وبعد ذلك وفى نفس العام نزلت قوة بريطانية ثانية إلى غرب الإسكندرية عند مريوط .

واضطر الفرنسيون المحاصرون بين نارين إلى الاستسلام ، ومنحهم البريطانيون شروطاً سهلة ، حيث سمحوا لهم بمغادرة مصر بكل حفاوة وتقدير للشرف العسكرى ، وتبعهم البريطانيون.. لقد تم لنا إنجاز هدفنا ، ولم يكن هناك مبرر للبقاء فى هذا القطر لأى وقت آخر ، وتركناها لحلفائنا الأتراك . ولكنّ سبات هذه القرون الطويلة كان قد انكسر ، واتجهت أعين أوروبا مرة أخرى إلى الشاطىء المهجور .

وبالرغم من فشل نابوليون وتراجع البريطانيين ، إلا أن الإسكندرية كانت قد بدأت عصراً جديداً ، فالحياة قد عادت إليها ، كما عادت المياه إلى بحيرة مريوط عندما قطع هاتشنسون الحاجز .

- مريوط صـ ٢٢٠
- معركة النيل صـ ٢٢٨
- بحيرة مريوط صـ ٢٤١
- الرمل صـ ٢١٧
- مقبرة أبركرومبى فى سيدى جابر صـ ٢١٦
- مقبرة كولونيل برايس توفى ١٨٠١م (البطريركية اليونانية صـ١٥٢).

محمد على

حكم مصر من ١٨٠٥ - ١٨٤٨م

عندما ساق نابليون الأتراك إلى البحر فى أبو قير، كان محمد على بين الهاربين ، وهو مؤسس الأسرة الملكية الحاكمة فى مصر(*) ولا أحد يعرف عن أصله إلا القليل ، فهو ألبانى ولكن ولادته كانت على حد قوله فى مقدونيا ، حيث يقال إنه اكتسب شهرته كجامع للضرائب فى شبابه المبكر ، وكان تعليمه بسيطاً ، وكان جاهلاً بالتاريخ والاقتصاد ، وتعلم أبجدية اللغة العربية فى أواخر حياته ، ولكنه كان رجلاً ذا قدرة عظيمة وذا عزم ، وكانت حدة الذهن إحدى سمات شخصيته، ومعاودة ظهوره فى مصر (القاهرة) فى ١٨٠١م مازالت غامضة ، فقد حارب تحت قيادة أبركرومبى ، وعندما انسحب الإنجليز استفاد من الاضطراب الداخلى وأصبح من ١٨٠٥م حاكما للقطر كوال للسلطان التركى ، وتعززت قدرته بالحملة البريطانية المشئومة ١٨٠٧م ، حملة الجنرال فريزر الاستطلاعية ، كما تُسمى رسمياً ، كانت انجلترا وقتها معادية لتركيا ، وتم إرسال فريزر ليرى ما إذا كان من الممكن أن يتحقق تحول ما عن المسار المألوف فى مصر . ومثلما فعل نابوليون من قبله رسا عند مربوط ، ولكن ليس بأكثر من القوات التالية : الفيلق الحادى والثلاثون ، والخامس والثلاثون ، والثامن والسبعون ، وفيلق أجنبى ومجملهم أربعة آلاف رجل ، واحتل الإسكندرية ورشيد ، ولكن وقبل انقضاء وقت طويل كان محمد على قد قتل أو أسر نصف قواته واضطر إلى طلب الصلح وكان مستعداً للتسليم .

وتم السماح لهذه الحملة الاستطلاعية أن تركب سفنها مرة أخرى ، والأثر الوحيد الذى تركته دليلا على وجودها فى الإسكندرية ، هو شاهد قبر لجندى من الفيلق الثامن والسبعين فى فناء البطريركية اليونانية ، وازدادت قوة محمد على على امتداد ثلاثين عاماً بعد ذلك ، وتزايدت معها أهمية الإسكندرية كعاصمة فعلية له .

(*) ظلت هذه الأسرة تحكم مصر من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٢م ، وهو عيد إعلان الجمهورية فى مصر رسميا - المترجم .

وقام محمد على بتحرير الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية من الفرقة المهرطقة(*) ، وتدخل فى شئون اليونان ، وتمرد على سيده الأعلى سلطان تركيا ، ووضع سوريا تحت سيطرته بعد غزوه لها .

وظهرت إلى حيز الوجود مملكة مركزها الإسكندرية ، من الممكن أن تقارن فى امتداداتها بالمملكة البطلمية .

وبدا أن أحلام نابوليون يمكن أن تتحقق على يد هذا المغامر الألبانى ، وأن الإنجليز سوف يتم عزلهم عن الهند ، وكان هذا إنذاراً لإنجلترا .

وفجأة سقطت إمبراطورية محمد على ، فقد ثارت سوريا فى ١٨٤٠م ، ودعمها الأسطول البريطانى ، ووصل الأدميرال الإنجليزى سير تشارلز نابير (Sir Charles Napier) إلى الإسكندرية فوراً وأجبر محمد على ، على أن يقتصر حكمه على مصر ، ووفقاً للتقاليد تم عقد لقاء فى قصر رأس التين الجديد ، وصرخ نابير «إذا لم تستمع معاليك إلى مناشدتى غير الرسمية لك فى الوقوف ضد حماقة أى مقاومة لاحقة ، فإنه لن يبق أمامى إلا ضربك بالقنابل ، وأقسم بالله سوف أضربك وأزرع قنابلى فى وسط هذا البهو حيث تجلس» .

وعلى كل ، فإن محمد على قد استسلم ، وفشل كقوة أوروبية ، ولكنه كان قد أمّن لأسرته ولاية مريحة فى مصر حيث كان هو ملكا فى كل شىء ما عدا الاسم .

وكانت سياسته الداخلية سيئة السمعة إلى حد ما ، كان معجباً بالحضارة الأوروبية لأنها تجعل الناس مغامرين ، وتمدهم بالأسلحة ، ولكنه لم يكن لديه إدراك لجوانبها الأكثر إرهافا ، وكانت إصلاحاته أساساً عبارة عن مظهر خادع للتأثير فى وجدان الأجانب ، فقد استغل الفلاحين ، وذلك بشراء الحبوب منهم بالسعر الذى يفرضه وأصبحت كل مصر مزرعة خاصة له ، ومن هنا جاءت أهمية الجاليات فى ذلك الوقت ، فقد كان يحتاج إلى مساعدتهم لبيع إنتاجه فى الأسواق الأوروبية ، واستمال القنصل البريطانى والقناصل الآخرين ليصبحوا وكلاء له ، وذلك بمنحهم تراخيص لتصدير الآثار المصرية التى صارت موضة تلك الأيام .

(*) يقصد حملة إبراهيم باشا ابن محمد على على الجزيرة العربية لمطاردة الوهابيين والقضاء عليهم وتدمير الدرعية سنة ١٨٤٠م - المترجم .

وكان قنصلنا هنرى سولت (Henry Salt) الذى ماتزال مقبرته موجودة فى الإسكندرية هو الآثم الأعظم فى هذه الجريمة ، ومحمد على ، هو الذى سلم أيضا مسلتى كليوباترا إلى الحكومتين البريطانية والأمريكية على التوالى ، تلك المسلتان اللتان ظلتا فى موقعهما الأصلى خارج السيزيريوم الذى اندثر ، وكان من الممكن أن يضفيا الجلال والوقار على الواجهة البحرية الحديثة لمدينة الإسكندرية .

ومازال محمد على ورغم كل أخطائه هو المبدع للمدينة الحديثة الموجودة الآن . لقد لوح بصولجانه ، فنهض كل ما نراه أمامنا جديداً الآن من التربة العتيقة فدعونا نلق على هذه المدينة الحديثة نظرة ونتأملها .

- تمثال محمد على صـ ١٤٧
- ضريح أسرته صـ ١٥١
- قبر جندى من الفيلق ٧٨ صـ ١٥٢
- قصر رأس التين صـ ١٨١
- قبر هنرى سولت صـ ١٩٦
- مسلتا كليوباترا صـ ١٨٧ ، ٢١٣

المدينة الحديثة

فى الفترة الممتدة من ١٧٩٨ حتى ١٨٠٧م نزلت إلى الإسكندرية أو بالقرب منها أربع حملات عسكرية ، إحداها فرنسية والثانية تركية ، واثنتان إنجليزيتان ، وبذا تم سحب مصر إلى نسق النظام الأوروبى ، كان وجود عاصمة بحرية هام للغاية . وتحقق العبقرى محمد على أنه لا يمكن أن تكون تلك العاصمة البحرية هى واحدة من ميناءى مصر فى العصور الوسطى ، دمياط أو رشيد ، وإنما فقط هى الإسكندرية بعد تجديدها .

والمدينة التى نعرفها اليوم هى نتاج للترتيبات التى وضعها محمد على ، وإنه لمن الممتع أن نقارن بين ما وضعه من نظم وبين ما وضعه الإسكندر الأكبر منذ أكثر من ألفى عام .

كانت المشكلة الرئيسية هى الماء ، وبقطع الانجليز للسدود فى ١٨٠١م عادت المياه إلى بحيرة مريوط ، واستعادت فجأة مساحتها المعهودة ، ولكن مياهها كانت ضحلة جداً بالنسبة للملاحة ، وكان ملؤها بالماء المالح بدلاً من العذب - كما كان فى الماضى - سبباً فى حرمان الإسكندرية من ماء النيل . وكان على نظام الماء (النظام النيلى) أن يشق له فروعاً ؛ فالإسكندر وجد النيل عند أبو قير (المصب الكانوبى) ، أما الآن فإن النيل صار بعيداً عند رشيد (المصب البولبتينى) وكان ينبغى على محمد على أن يشق قناة طولها ٤٥ ميلاً ، وسميت هذه القناة بترعة المحمودية تيمنا باسم السلطان محمود (الحاكم التركى) ، وتم حفر هذه الترعة فى ١٨٢٠م ، إلا أن حفرها كان رديئًا ، فقد كانت حوافها غالباً ماتنهار ، وبالرغم من ذلك فإن وجودها أدى إلى النهوض المباشر للإسكندرية ، وإلى تدهور الأوضاع فى رشيد ، وأصبح للإسكندرية الآن اتصال مائى بالقاهرة ، أضافت إليه فيما بعد اتصالها بالسكك الحديدية التى وصلت إلى الميناء ، وعمل محمد على على تطوير الميناء الغربى ، الذى كان أقل أهمية فى العصور القديمة ، وبنى المهندس الفرنسى دى سيرزى (De Cerisy) فى هذا الميدان أحواض السفن ، وشيد دور الصناعة (الترسانة) وذلك فى الفترة من ١٨٢٨ إلى ١٨٣٨م ، وتم إضافة الأسطول إلى الميناء أيضا ، ولحق قصر رأس التين بهذه المجموعة ، ذلك القصر المثير للإعجاب ، فهو يقف على مرتفع فى أعلى الميناء ، مسيطراً عليه كما كان القصر البطلمى قديماً مسيطراً على الميناء الشرقى ذات يوم ، وكان هذا القصر مكان الإقامة المفضل للوالى ، الذى قرر أن تكون مملكته الجديدة ليست مجرد مملكة شرقية ، ولكن ينبغى أن تكون قوة حديثة فى مواجهة البحر .

وفى الوقت الذى بدأت فيه المدينة تطورها فى خطوات ليست رائعة التخطيط ، فإن المنازل صارت تقام ، والشوارع تمتد على المساحة المهجورة داخل الأسوار العربية .

لم يحدث أن قرر لا محمد على ولا أصدقاؤه من الجاليات الأجنبية وضع تخطيط للمدينة ، فإنجازهم الوحيد كان ميدان القناصل ، وهو يسمى حالياً ميدان محمد على ، وهو ميدان أنيق جداً ، وقد بنى الإنجليز كنيستهم إلى الشمال من هذا الميدان على جزء من قطعة أرض منحت لهم ، أما الأراضى المخصصة للفرنسيين واليونانيين ، فكانت إلى الجنوب من هذا الميدان ، وحازت الجاليات الأخرى مساحات من الأرض ، مثل الأرمن ، ولكن لم تكن هناك أية محاولة للتنسيق بين المشاريع المختلفة ، أو أية محاولة

للاستفادة من السمات الموجودة فى المكان ، والتى تتمثل فى البحر والبحيرة وعمود بومبى وقلعتى كوم الدكة وكافاريللى ، وأخيراً السور العربى .

لقد تم تجاهل البحر⊗ ، اللهم إلا للأغراض التجارية . والطرق العامة الرئيسية مازالت بعيدة عن الشواطىء ، وحتى الأرصفة الحديثة الباهرة لم تجتذب نحوها أى مبانٍ ، وتم تجاهل البحيرة أكثر من البحر ، فالبحيرة كانت ذات تخوم رائعة ، كان ينبغى الاستفادة منها للعمل على مزيد من تجميل الأحياء الغربية ، لكن الكثير من الناس لم يعلموا حتى بوجود البحيرة . أما عمود بومبى الذى كان ينبغى أن يكون مركزاً تلتقى عنده الطرق ، فقد تم إهماله بحيث لا يكاد يراه أحد ، وهناك فقط وعند أسفل شارع باب سِدرة يمكن للمرء أن يحظى بمنظر لهذا العمود من على بعد ، وهكذا تم التعامل أيضا مع القلعتين اللتين تقفان خلف المنازل ، وأخيراً تحطمت الأسوار العربية ، وما بقى منها من آثار من الناحية الشرقية وصل إلى حد أن انتفع به الناس فى شئون حياتهم ، كما أنه يتم استخدامها فى أغراض الحدائق العامة .

وكلما تزايدت مساحة الإسكندرية وثرواتها ، تطلبت التوسع والنمو فى الضواحى ، وكانت بدايات هذا النمو هو ما حدث على امتداد ترعة المحمودية ، حيث تم بناء فيلا أنطونيادس وقليل من المنازل الأخرى الجميلة ، ومع تحسن وسائل المواصلات أمكن للتجار والأغنياء أن يعيشوا خارج نطاق المدينة ، وكان أمامهم خياران ؛ فإما المكس أو الرمل ، وبكل أسف اختاروا الرمل ، فالمكس بخصائصها الطبيعية الرائعة كان من الممكن أن تتطور إلى مكان جميل جداً ، ولكن نظراً لوجود حزام من الأحياء الفقيرة يفصله عن المدينة ، وخدمة الترام التى كانت فى غاية الرداءة ، ساعدت على مزيد من استبعادها .

وامتدت المدينة بدلاً من ذلك إلى الشرق (إلى الرمل) ويخدمها فى البداية خط سكك حديدية وحالياً خطوط الترام الكهربى الجيدة .

تلك هى الملامح الرئيسية للإسكندرية كما ظهرت تحت قيادة محمد على وخلفائه ، ولا يمكن أن تكون المقارنة فى صالحها ، إذا ما قورنت بمدينة الإسكندر الأكبر ، ولكنها من ناحية أخرى لم تكن أسوأ من أغلب مدن القرن التاسع عشر ، لكنها تمتاز عنها جميعاً بميزة هائلة وهى مناخها الرائع .

- ترعة المحمودية صـ ٢٠٦
- الميناء الحديث صـ ١٨١

- قصر رأس التين صـ ١٨١
- الميدان صـ ١٤٧
- الكنيسة الإنجليزية صـ ١٤٧
- قلعة كوم الدكة صـ ١٥١
- قلعة كافاريللى صـ ٢١٩
- عمود بومبى صـ ١٩٧
- الحدائق العامة صـ ٢٠٨
- فيلا أنطونيادس صـ ٢١٠
- المكس صـ ٢٢٠
- الرمل صـ ٢١٧

ضرب الإسكندرية بالقنابل

وهكذا تطورت المدينة بهدوء تحت حكم محمد على وخلفائه ، وأحدهم وهو سعيد باشا مدفون بها ، وبعد حفر قناة السويس تحولت الأنظار عنها ، ولم يحدث فيها أى شيء له أهمية حتى عام ١٨٨٢م – هذا العام الذى ارتبط بتمرد عرابى مؤسس الحزب الوطنى المصرى ، لقد كان عرابى وزيراً للحربية ، وكان يسعى للسيطرة على الخديوى توفيق ولجعل مصر للمصريين ، ولأن الإسكندرية كانت تمتلك دائماً منذ إنشائها عنصراً أجنبياً فإنها صارت عدوه الطبيعى ، ومن هنا بدأ حملته ضد أوروبا تلك التى انتهت بفشله عند التل الكبير . وتفاصيل ما جرى – مثلها مثل دوافع عرابى معقدة – ويمكن تفصيلها إلى أربع مراحل .

١ – حوادث الشغب فى ١١ يونية ١٨٨٢م

وبدأت هذه الحوادث فى حوالى الساعة الواحدة ظهراً ، فى شارع الأخوات الراهبات ، ويُقال إن هناك حمّارين ، أحدهما عربى والآخر ملطى تشاجرا فى مقهى ، فانضم إلى كل منهما أتباعه وتوجه المشاغبون ناحية الميدان ، وعند تقاطع إحدى

الطرق بالقرب من «قسم اللبان» كاد القنصل البريطانى أن يُقتل ، والتقى فى هذا الميدان تجمهران آخران ، أحدهما من العطارين والآخر من رأس التين ، كانت السفن الحربية البريطانية وسفن الجنسيات الأخرى موجودة فى الميناء ، ولكنها لم تتخذ أى إجراء ، ورفضت القوات المصرية التدخل دون أوامر من عرابى الذى كان موجوداً فى القاهرة ، وأخيراً تم إرسال برقية إليه فاستجاب لها ، وتوقفت الاضطرابات . وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه قد خطط لهذا الشغب ، ولكنه استغله بشكل طبيعى لكى تزداد هيبته ، ويظهر للجاليات الأجنبية ، وخاصة البريطانية منها أنه هو وحده القادر على أن يمنحهم الحماية ، وفى المساء وصل إلى الإسكندرية من القاهرة مزهوا بالنصر ، ومن المعتقد أن حوالى ١٥٠ أوروبياً تم قتلهم فى ذلك اليوم ، ولكن ليس لدينا أى إحصائيات موثوق بها .

٢ – قصف المدينة فى ١١ يولية ١٨٨٢م

كانت هناك سفن حربية بريطانية فى الميناء أثناء حوادث الشغب السابقة ، وكانت هذه السفن بقيادة الأدميرال سيمور (Seymour) ، وقد مر شهر قبل أن يتخذ موقفاً ، فعليه أولا أن يقوم بإجلاء الرعايا البريطانيين ، وثانيا أن يقوم بتعزيز الأسطول ، وعليه ثالثا أن ينتظر الأوامر الآتية إليه من وطنه ، وبمجرد أن استعد سيمور ، افتعل شجاراً مع عرابى وأعلن أنه سيقوم بقصف المدينة إذا تم نصب مدافع أكثر على القلاع .

وحيث إن عرابى لا يمكن أن يوافق على ذلك ، فقد فتح سيمور النيران فى السابعة من صباح الحادى عشر من يوليو ، كانت هناك ثمانى سفن حربية مدرعة ، منها ست سفن هى أقوى ما فى قواتنا البحرية ، وكان توزيعها كالتالى . «الملكة» (Monarch) و «الكئود» (Invincible) و «بنلوبى»(*) (Penelope) بالقرب من شواطىء المكس ، و «الإسكندرية» ، و «سلطان» (Sultan) ، و «المهيبة» (Superb) بالقرب من رأس التين بينما الأخريان : المتهورة (Temeraire) والعنيدة (Inflexible) هما اللتان كانتا فى موقع مركزى خارج الحواجز الصخرية للميناء فى منتصف المسافة بين رأس التين ومربوط ، وبالقرب من مربوط كانت هناك بعض قوارب المدفعية

(*) اسم زوجة عوليس التى انتظرت عودته بوفاء وإخلاص – المترجم .

تحت قيادة اللورد شارلز برسفورد (Charles Beresford) ، ونجح القصف بالرغم من أن رجال مدفعية عرابى قاتلوا بشجاعة ، وفى المساء قصفت السفينة (المهيبة) مستودع البارود فى قلعة عداً ، وتحطمت قلعة قايتباى هى الأخرى ، ومئذنة مسجدها المبنية فى القرن الخامس عشر شوهدت وهى تنصهر مثل قطعة من الثلج فى الشمس ، والمدينة من جهة أخرى لم تتحطم تقريباً حيث إن رجال مدفعيتنا (البريطانية) كانوا دقيقين فى إصابة أهدافهم ، وجلا عرابى وقواته عن الإسكندرية فى المساء ، زاحفاً خارجها بالقرب من شارع رشيد ليتخذ موقعاً أبعد بضعة أميال فى اتجاه الشرق على ضفتى ترعة المحمودية .

٣ - حوادث الشغب فى الثانى عشر من يوليو :

ومما يدعو للأسف فإن الأدميرال سيمور بعد نجاحه هذا ، لم يحاول أن ينزل قوة لحفظ النظام ، وكانت النتيجة هى حدوث شغب أكثر شؤماً بكثير من ذلك الذى حدث فى يونيو ، ومع انسحاب قوات عرابى ، فقد المواطنون سيطرتهم على أنفسهم وتخاصم الخديوى ساعتها مع عرابى ، وأثناء القصف تحرك الخديوى من رأس التين إلى الرمل مما أدى إلى تجاهل سلطته تماماً ، واستمرت عمليات السلب والنهب طوال هذا اليوم الثانى عشر من يوليو ، وعند حلول المساء كانت النار قد اضطرمت فى المدينة وكان التدمير الحادث مادياً أكثر منه معنوياً ، حيث نجا لحسن الحظ تمثال محمد على وهو واحد من الآثار ذات القيمة فى الميدان ، بينما تم تدمير شارعى شريف وتوفيق باشا ، وفى الحقيقة فإن كل الشوارع الخارجة من الميدان تم تدميرها ، وصار من المتعذر اجتياز أى شارع فى الحى الأوروبى بسبب انهيار المنازل وتساقط جدارنها وصارت علب المجوهرات الفارغة والساعات المحطمة ملقاة على أرصفة الشوارع ، فكل الحوانيت تم نهبها ؛ وبمرور الوقت نزلت قوات الأدميرال سيمور ، وكان من المستحيل على ضباط صفه أن يشتروا المربى ، واستطاع أحدهم أن يسجل سوء حظه هذا ، مضيفاً بأسلوب آخر «إن الأسكندرية كانت ماتزال جميلة حتى وهى تحترق» . وعندئذ عاد الخديوى إلى قصره ، وتدريجياً عاد النظام مرة أخرى . وغير معروف عدد الأرواح التى أزهقت فى هذه الكارثة التى كان من الممكن تفاديها .

٤ - العمليات الحربية

وتحت قيادة اللورد ولسلى (Lord Wolseley) تم إرسال قوة بريطانية هائلة إلى قناة السويس ، وهى القوة التى هزمت عرابى أخيراً عند التل الكبير ، وحتى وصول هذه القوة إلى مصر كانت الإسكندرية فى خطر ، لأن عرابى كان من الممكن أن يهاجمها من معسكره فى كفر الدوار ، ولذا كان من الضرورى أن يتم الدفاع عنها من جهة الشرق . وفى منتصف يوليو وصل الجنرال أليسون (Alison) مع قوات قليلة تتضمن جنوداً من سلاح المدفعية ، واحتلت الثكنات عند مصطفى باشا وتل أبو النواطير ، ومحطة المياه بالقرب من الترعة ، وعلى هذا كان بإمكانه أن يراقب تحركات عرابى ، حيث كان لديه موقع آخر أقام به تحصينات قوية عند بوابات حدائق أنطونيادس ، وفى حالة مهاجمة العدو (يقصد عرابى - المترجم) من جهة الجنوب - كان هو قادراً على صد وإنهاك مقدمة جيش هذا العدو حتى يتم تخفيف الضغط ، وكانت خسائر قواته طفيفة للغاية ؛ حيث تم تخليد ذكرى هذه الأفواج فى لوحات فى الكنيسة الإنجليزية . ووصل ولسلى فى الشهر التالى ، وبعد أن عاين الموقع ، أعاد قواته إلى السفن وتظاهر بأنه ذاهب لينزل عند أبو قير ، وانخدع عرابى ، وأعد تحصينات مقاومته هناك . ولكن ولسلى واصل سيره متخطياً إياه ، ونزل عند بورسعيد ، فكان على عرابى حينئذ أن يرحل بهذا المعسكر ، وبذا ابتعد الخطر تماماً عن الإسكندرية .

- مدفع عند أبو النواطير صـ ٢١٦
- شارع الأخوات الراهبات صـ ٢١٩
- قلعة عدا صـ ١٨٤
- قلعة قايتباى صـ ١٨٥
- حدائق أنطونيادس صـ ٢١٠
- لوحات فى الكنيسة الإنجليزية صـ ١٤٧
- مدفع قذاف (هاوتزر) لعرابى فى المستشفى الحكومى المصرى صـ ٢١٤

خـــاتمـــــة ⊗

منذ ذلك القصف الذى حدث فى ١٨٨٢م كابدت المدينة مصاعب أخرى ، ولكنى لن أقوم بوصفها هنا ، ولن أحاول تقديم خطبة طنانة ، وذلك لأن الإسكندرية مازالت حية ، بل هى تتبدل حتى أثناء محاولة المرء أن يصدر حكماً عليها . وهى الآن من الناحية السياسية أصبحت وثيقة الصلة فى ارتباطها بباقى مصر أكثر من أي وقت مضى ، ولكن العناصر الأجنبية مازالت موجودة بما فيها العنصر اليونانى وهو أقدمها – إنه العنصر الذى تدين له الإسكندرية بثقافتها الحديثة، أما مستقبلها فهو مثل مستقبل المدن التجارية العظيمة مشكوك فيه .

وفيما عدا الحدائق العامة والمتحف اليونانى الرومانى ، فإن البلدية لم تنهض بمسئولياتها التاريخية إلا نادراً . فالمكتبة تعانى من حاجتها إلى الأموال ، ومعرض الفنون صار مهملاً والعلاقة بالماضى تحطمت بلا مبالاة ، فعلى سبيل المثال تغير اسم شارع رشيد ، وتم تدمير *السوق الشرقى المغطى والرائع* بالقرب من شارع فرنسا ، وازدهارها الاقتصادى المعتمد على القطن والبصل والبيض يبدو مؤكداً ، ولكن يمكن تبين القليل من التقدم فى الاتجاهات الأخرى ، ومن المستبعد أن نجد فى المستقبل ما يضاهى منارة فاروس التى شيدها سوستراتوس ، أو القصيدة القصصية لثيوقريطس ، أو تساعيات أفلوطين ، ولم يبق إلا المناخ فقط ، وريح الشمال ، والبحر بذلك النقاء الذى كانوا عليه عندما نزل عليها منيلاوس ، أول زائر لها فى رأس التين منذ ثلاثة آلاف سنة . وفى الليل تظل تسطع كوكبة نجوم شعر برنيس بنفس البريق الذى شد انتباه كونون "Conon" الفلكى .

الإله يتخلى عن أنطونيو

للشاعر اليونانى كفافيس

فى منتصف الليل .. ،
حين تسمع فجأة فرقة خفية
تمر فى الطريق بأصواتها وموسيقاها الصاخبة
لا تندب حظك الذى ضاع
ولا خطط حياتك التى أخفقت
ولا آمالك التى أُحبطت
لا تأس ..

– بلا جدوى –

ولكن مثل .. من استعد منذ زمن طويل !
وبكل شجاعة
قل لها وداعا
ودّع الإسكندرية التى ترحل
وحاذر
ألا تخدع نفسك
ولا تقل أبداً :
لقد كان الأمر كله حلما
وتوهمات ، قد أخطأت
لا تركع ... أمام مثل هذه الآمال الفارغة
بل كن مثل من استعد منذ زمن طويل
وبكل شجاعة من صار مثلك .. ،
جديراً بمدينة مثل هذه .
اقترب من النافذة بثبات وأنصت فى حزن

لكن دون توسلات جبانة

ولا شكاوى ذليلة

أنصت إلى الأصداء المبتعدة

إلى متعتك الأخيرة

إلى الأصوات

إلى الآلات الصاخبة .. ،

للفرقة الغامضة

وقل لها ..

وداعاً .

وداعاً

للإسكندرية التى تضيع منك .

القسم الثانى

الدليـــــل

الفصل الأول

من الميدان إلى شارع رشيد

المسار : الميدان ، وشارع شريف باشا ، وشارع رشيد وهو يؤدى إلى أحدث أقسام المدينة . ولا يوجد به خط للترام .

المواقع الرئيسية الهامة : ميدان وتمثال محمد على ، بنك روما ، مسجد النبى دانيال ، كنيسة القديس سابا ، المتحف اليونانى الرومانى .

الميدان

الميدان (رسمياً) ميدان محمد على ، وسابقاً كان يسمى ميدان القناصل ، ومعروف باسم ميدان المنشية لدى سائقى مركبات الأجرة الواقفين بجوار نقطة الشرطة . وصممه محمد على ليكون مركزاً لمدينته الجديدة (حوالى عام ١٨٣٠م ، انظر صـ١٣٥) . فى العصور البطلمية كانت هذه الأرض يغطيها البحر . ويصل عرض الميدان إلى أكثر من مائة ياردة ، وطوله حوالى خمسمائة ياردة، وهو مشجّر بشكل جيد ، ولكن تحيط به مبان عديمة القيمة ، وقد عانت من جراء القصف فى عام (١٨٨٢م) (صـ ١٢٨) ، عندما احترق كل شىء فى ذلك الوقت عدا تمثال محمد على وكنيسة القديس مرقص .

● وفى وسط الميدان: التمثال الذى يصور محمد على على متن جواده، وهو نموذج مثير للإعجاب من نماذج النحت الفرنسى لچاكمار ، وعرض فى الصالون فى عام (١٨٧٢م) . وكان المسلمون الأصوليون معادين لإقامته . وحتى الآن لا يوجد عليه أى إهداء .

وقد حاز وجوده ترحيباً كبيراً ، حيث إنه واحد من الأشياء القليلة الراقية فى المدينة . ويجب أن يدرس من كافة وجهات النظر .

على اليمين وأنت مواجه التمثال : المحاكم المختلطة ، حيث كان ينظر فى القضايا المدنية والتجارية بين المصريين والأوروبيين بموجب الاتفاقية المبرمة عام (١٨٧٥م) .

على اليسار : الحدائق الفرنسية ، وهى شريط رائع يمتد على هيئة زوايا حادة من الميدان إلى رصيف الميناء الجديد (صـ ١٩٣) .

على اليسار أيضاً : كنيسة القديس مرقص الإنجليكانية التى بنيت على أرض منحها محمد على للإنجليز ، بالإضافة إلى مبانى القديس مرقص المجاورة . وبإلقاء نظرة من خلال سياج فناء الكنيسة ترى التمثال النصفى العجيب للچنرال إيرل (الذى قتل عام ١٨٨٥م فى كربكان بالسودان) .

خريطة تاريخية للإسكندرية وتبدو فيها الأماكن التاريخية (بالحروف الإنجليزية الكبيرة) والأماكن الحديثة (بين أقواس) .

وقد أقام المجتمع الأوروبى له هذا التمثال ، وهو يمثل مغامرتهم الرئيسية فى عالم الفن . والكنيسة نفسها ، فى إطار عصرها (١٨٥٥م) ونظراً لمعمارها البيزنطى المقلد ، تعد على أى حال مبنى مقبولاً ؛ فهى مريحة من الداخل ، والزجاج الملون واللوح الثلاثى فى المذبح يعزفون الألوان أنغاماً . وتاريخياً ، كانت مساهمتها الوحيدة هى القتال ضد عرابى عام (١٨٨٢م) (صـ ١٣٧) . والأفواج التى تحيى ذكراها هذه الكنيسة هى : الكتيبة الثانية لدوق كورنوال لمشاة السلاح الخفيف (فى القائمة المعلقة على سلم المدخل) ، والكتيبة الثانية لدربشيرز ، المدفعية البحرية الملكية ، والكتيبة الأولى لمقاطعة لندن ، المدفعية الملكية ، والكتيبة الأولى لمنطقة كنتس الملكية الغربية (فى صحن الكنيسة) . وعلى الأشجار الموجودة بفناء الكنيسة تتجمع العصافير وتحتشد وقت الغروب ، وتملأ الميدان بشقشقاتها⊗ .

نهاية الميدان : البورصة ، ذات الأعمدة والساعة الخارجية . وفى الداخل توجد بورصة القطن ، الأولى فى التجارة المصرية ، الصراخ والصياح الذى قد يُسمع فى الصباح لا يصدر عن وحوش الغابة ، ولكنه يصدر عن تجار الإسكندرية الأغنياء وهم يشترون ويبيعون ، وفى الطرف الآخر لنفس القاعة توجد بورصة الأسهم . والمشهد بأكمله يستحق المشاهدة حقاً ، ولذا كان لابد من تقديمه .

● شارع شريف باشا . وهو شارع صغير وأنيق يعج بساريات الأعلام ، ويبدأ من الميدان على يسار البورصة ، وهنا توجد أفضل المحال التجارية . وبالقرب من نهايته ، على اليسار ، فى مدخل شارع طوسون باشا ، يوجد بنك روما ، وهو أرقى مبانى المدينة ، والذى أسسه المهندس المعمارى جورا (Gorra) . وهو نسخة معدلة من قصر فارنيز الذى بناه أنطونيو داسان جالو ومايكل أنجلو فى القرن السادس عشر فى روما .

والمواد المستخدمة فى بنائه هى الحجر الجيرى المصقول والقرميد الصغير ذو اللون الأحمر الباهت الجميل . والمبنى يتكون من طابقين على خلاف قصر فارنيز المكون من ثلاثة طوابق ، ولكن يوجد «دور مسحور» أسفل الإفريز الضخم . وعلى جانبى البوابة ، توجد حاملات متقنة الصنع للمشاعل مصنوعة من الحديد المطاوع . وفوق البوابة ، يوجد الذئب الذى يمثل شعار مدينة روما . فى مدينة كوزموبوليتانية مثل الإسكندرية ، تلك التى لم تبدع معماراً خاصاً بها ، ليس هناك تناقض فى وجود هذا النموذج من عصر النهضة الإيطالية . وبعد ذلك بقليل فى شارع طوسون باشا ، يوجد بنك مصر العقارى برواقه نصف الدائرى الجميل ذى الأعمدة . ثم يتصل شارع شريف باشا بعد ذلك بشارع رشيد .

شـــارع رشـــيد⊗

وهذا الشـارع ، على الرغم من شكله الحـديث ، إلا أنه أقدم شـارع فى المدينة ، فـهو يسـيـر فى نفس مسـار الطريق الكانوبى ، الذى كـان الشـريان الرئيـسى لمدينة الإسكندر (صـ ٥٣) . وفى عـهد البطالمة ، كان مـصفوفـا بأعمدة رخـامية من أولـه حتى نهايتـه . واسمه الكامل هو شـارع ميناء رشيد . وكـان يبدأ من بوابة رشيد فـى الأسوار العربية القديمة، ثم يتجه شرقا (صـ ١٢٣). وقـد غيرت البـلدية اسمه حـديثاً إلى اسم بلامعنى ، ألا وهو فؤاد الأول ، وبذا حطموا واحـدا من الروابط القليلة التى كانت تصل مدينتهم بالمـاضى .

وفى مـدخله ، على اليـمين يوجـد قـسم شـرطة العطارين ، وهـو يمثل مـركـز الحراسـة البريطانيـة الرئيسى ، ثم شـارع محطة مصر الذى يؤدى إلى محطة السكك الحديدية الرئيسية وهنا كان يوجد معبد صغير لسيرابيس مكان نادى محمد على ، أكبر النوادى فى المدينة حاليا ، كما يوجد أيضاً مكتب كوك

بعد مائة ياردة ، يتقاطع الشـارع مع شـارع النبى دانيال ومع خط الترام . وكـان يوجـد فى هذا المكان فى العصـور القـديمة التـقـاطع الرئيسى لطرق المدينة القـديمة واحـد من أعظم الأماكن فى العـالم (صـ ٥٣) . والأسـقف أخيلوس تاتيـوس الذى كتب فى عام ٤٠٠م رواية تافهة وبذيئة تدعى «كليتوفون ولوسيب» يصف هذا المكان قائلا

«أول شـىء لاحظته بدخـولى الإسكندرية من بوابة الشمس (بوابة رشـيد) هو جمال المدينة . وقد ربط صـف من الأعمدة بين طرفـيـها . وبالتقدم بين هذه الأعـمدة ، وصلت بمرور الوقت إلى الميدان الذى يحمل اسم الإسكندر ، وهناك استطعت أن أرى النصف الآخر من المدينة ، والذى كان على نفس الدرجـة من الجـمال . وبمجـرد رؤيتى للأعـمدة الممتدة أمامى ، ظهرت أعمدة أخرى مكونة زوايا حاده مع الأعمدة السابقة» .

● وعلى هذا ، فالمكان الذى يسـير فيه خط التّرام كان مكسواً أيضا بالرخـام فى وقت ما . وبالاتجاه يمينا لعدة ياردات فى شارع النبى دانيال نصل إلى مسجد النبى دانيـال ، والذى يقع بالقرب من موقع مـقـبـرة الإسكندر (السـومـا) ، حيث كـان يرقد الإسكندر الأكبر وبعض البطالمة مدفونين على الطريقة المقدونية (صـ ٦٤) . ولم يتم الكشف أبدا عن هذه الأقـبية ، وهناك قصـة شـائعة تقـول إن جسد الإسكندر مـازال يرقد فى واحدة منها ، وإنه لم يمس بعد ، وقد قال ترجمان من القنصلية الروسية (عام ١٨٥٠م)

– وعلى الأرجح أنه كاذب – إنه رأى من خلال ثقب فى باب خشبى جسد إنسان فى شىء يشبه القفص الزجاجى ، على رأسه تاج ، وفى وضع نصف انحناءة على شىء مرتفع أو على عرش ، وكمية من الكتب أو البرديات مبعثرة حوله . والمسجد الحالى ، على الرغم من كونه الرئيسى فى المدينة ، إلا أنه غير مبهج ، حيث يوجد ممر مرصوف ، وباب مطلى بالجير ، ومدخل كبير تدعمه أربعة أعمدة ذات أقواس حادة قليلاً . ومحرابه يواجه الجنوب لا الشرق كالعادة(*) . وقد تم ترميم كل شىء بهمجية . ويؤدى السلم الهابط إلى مقبرتين مخصصتين للنبى دانيال وللحكيم الأسطورى لقمان ، ومن الأشياء التى لم تحسم بعد : متى ولماذا زار هذان الاثنان مدينتنا ؟ والمقبرتان مقامتان فى سرداب يتخذ شكل الصليب ، وفوقه يوجد مصلى تغطيه قبة ، ويمكن الدخول إليه من باب فى المسجد . وتوجد بعض الزخارف هنا وهناك تناضل من أجل الظهور على الجدران المطلية بالجير . وفى المبنى الذى يقع على يمين الممر المؤدى إلى المسجد ، توجد مقابر العائلة الخديوية ، وهى تستحق الرؤية بسبب غرابتها ، فلا شىء يماثلها فى الإسكندرية . الضريح على هيئة صليب ، وهو ملون بألوان الرخام . ومغطى بالسجاد العجمى . وعلى أطراف السجادة توجد المقابر ، مختلفة الأحجام ، ولكن بنفس التصميم، وكلها ملونة باللونين الأبيض والذهبى . والطربوش الأحمر يرمز إلى الرجل، والتاج ذو الشعر المصفف بالطريقة التقليدية يرمز إلى المرأة. وأهم الشخصيات المدفونة هنا : سعيد باشا – فى المقبرة الثالثة على اليمين ، وكان ابناً لمحمد على ، وحكم مصر من عام (١٨٥٤م – ١٨٦٣م) ، أما محمد على نفسه فمدفون بالقاهرة . وتوجد بين الضريح والشارع فسقية بها أفاريز وقبة على الطراز التركى .

وفى مواجهة المسجد ، توجد بعض الأعمدة الأثرية المستخدمة كدعامات للبوابة ، ربما كانت واجهة الجامعة ممتدة إلى هذه النقطة (صـ ٦١) .

خلف المسجد . قلعة كوم الدكة . مكان البانوم القديم أو حديقة بان(**) ، وقد كانت قمة التل فى ذلك الوقت منقوشة على هيئة أقماع الأناناس ، وكان يتم الصعود إليها بواسطة طريق حلزونى . وفى أيام العرب ، كانت أسوار المدينة المتهدمة تمر حتى جنوب كوم الدكة (صـ١٢٤) ، ومازال باقياً حتى الآن امتداد لها، فى منتصف

(*) محاريب مساجد الإسكندرية تتجه إلى الجنوب الشرقى ، وليس إلى الشرق ! – المترجم .

(**) نسبة إلى الإله (بان) إله الغابات والمراعى والرعاة عند الإغريق – المترجم .

الطريق بين قاعدة القلعة ومحطة السكك الحديدية ، وهذه الأسوار تحاذى الطريق ، ولكن لا يمكن رؤيتها منه ، لأنها مغمورة ، وتطوق خندقاً مائياً ، وخلف القلعة تستمر الأرض المرتفعة ، والحى العربى الصغير المدعو كوم الدكة مبنى على قمتها ، والحارات المنعطفة على الرغم من ضآلتها ، إلا أنها تتناقض بجمال مع بهرجة المدينة الأوروبية . ونعود ثانية إلى شارع رشيد .

● فبعد مسافة قليلة فى شارع رشيد هناك انعطافة إلى اليسار تؤدى إلى كنيسة ودير القديس سابا . مقر البطريرك الأرثوذوكسى اليونانى (عن تاريخ البطريركية ، انظر صـ٢٦٥) . لقد أنشئت هذه الكنيسة هنا عام (٦١٥م) محل معبد أبوللو. والمبانى الحالية ترجع إلى عام (١٦٨٧م) ، وبها روح العالم القديم التى يندر وجودها فى الإسكندرية . فى ساحة الدير الهادئة توجد ثلاثة شواهد قبور لجنود بريطانيين من العهد النابوليونى(*) : كولونيل آرثر برايس من كولد ستريمز ، قتل فى معركة الإسكندرية (عام ١٨٠١م) (صـ١٣٠) ، وتوماس هاملتون سكوت من الفرقة الثامنة والسبعين ، وهنري جوسل ، صيدلى عسكرى ، وقد قتلا أثناء حملة الجنرال فريزر «الاستكشافية» المشئومة عام (١٨٠٧م) (صـ١٣٢). ومن الساحة، تهبط بعض الدرجات إلى الكنيسة التى تم ترميمها بشكل قبيح ، وفى صحن الكنيسة ، توجد ثمانية أعمدة قديمة منحوتة من الجرانيت ، ومدهونة الآن بدهان بنى . وفى جزء ناتئ من حرم الكنيسة ، توجد لوحة جدارية تمثل العذراء وطفلها . وعلى اليمين يوجد محراب القديس چورچ ، وبه طاولة من القرن الرابع ، وصورة ممتعة للمجمع الكنسى بنيقية (صـ٩٤) ، يترأسه الإمبراطور قسطنطين ، ومن حوله الأساقفة ، والمهرطق آريوس ماثل عند قدميه . ويوجد على اليسار محراب سانت كاترين بالإسكندرية . وهناك كتلة من الرخام يقال إنها جزء من العمود الذى استشهدت عليه القديسة . ويوجد خارج الكنيسة ثلاثة أجراس جميلة معلقة .

وفى نهاية الشارع على اليسار ، هناك المستشفى اليونانى ، وهو مبنى جميل يقع وسط حديقة . ويمر شارع رشيد الآن بالمحاكم الأهلية على اليسار ، ثم يصل إلى مبانى البلدية ، وخلف هذه الأخيرة ، بعد عدة ياردات فى شارع المتحف توجد مكتبة

(*) نسبة إلى نابليون الأول أو أسرته - المترجم .

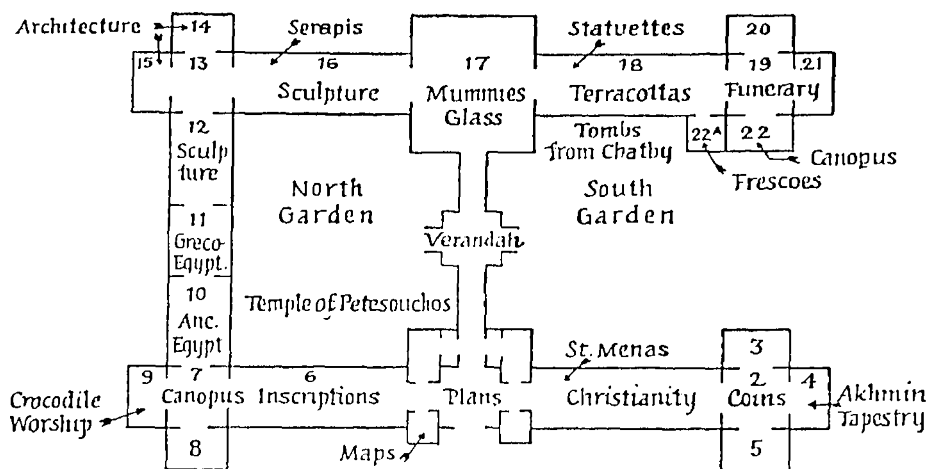
البلدية . اصعد الدرجات المقابلة لبوابة الدخول ، وادفع الباب . إن المكتبة جيدة باعتبارها وقفاً بائساً . إن المدينة التى امتلكت أعظم مكتبة فى العالم لا تستطيع الآن أن تدفع أكثر من ثلاثمائة جنيه سنوياً لشراء وتجليد كتبها(*) .

وراء المكتبة يوجد مبنى أجمل بكثير – وهو المتحف اليونانى الرومانى .

المتحف اليونانى الرومانى ⊗

لم تكن هذه المجموعة من المعروضات قد تم جمعهاحتى عام (١٨٩١م) ، وحتى ذلك الوقت كانت معظم هذه التحف ملكية خاصة للبعض . وهى بالتالى ليست من الدرجة الأولى ، وقليل منها جماله باهر . ولو عرضت بشكل جيد ، ستكون ذات قيمة عظيمة ، ولكن الزائر الذى يتفحصها ، سيكتشف فيما بعد أنها أجهزت عليه ، وتركته بلاشىء سوى ذكرى مشوشة عن التعب . فهذه الأشياء الصغيرة العديدة المعروضة المصنوعة من الفخار أو الحجر الجيرى والخالية من الألوان ستؤدى إلى اكتئابه وإلى إعطائه انطباعاً خاطئاً عن الحضارة التى لم تكن فاترة على الرغم من عيوبها . ولذا لا يجب عليه زيارتها حتى يعلم أو يتخيل شيئاً عن المدينة القديمة ، وعليه أن يزور أشياء محددة ومعينة ثم يرحل – وهذه قاعدة ذهبية يجب اتباعها عند زيارة جميع المتاحف ، ومن الممكن حينئذ أن يشعر أن قطعة من الماضى قد دبت فيها الحياة . والمجموعة موضوعة فى المبنى بشكل جيد (تاريخ البناء ١٨٩٥م) ، ومفهرسة بشكل جيد أيضاً . ويوجد للمتحف دليل (بالفرنسية) كتبه المدير ، بروفيسور بريشيا (Breccia) ، وقد أخذت منه مقتطفات ملصقة على الغرف . وارتكزت الملاحظات التالية على هذا العمل القائم على العلم ، وقد تم تجميعها على أى حال من وجهة نظر محددة ، فهى تحاول شرح وتبسيط الجزء التاريخى من الكتاب (صـ٤٧) ، وتم ربطها معاً بإشارات عديدة . (لمعرفة تنظيم المعروضات ، انظر الخريطة المقابلة) .

(*) سوف تمتلك الإسكندرية فى عام ٢٠٠٠م مكتبة من أعظم مكتبات العالم ، أنفق عليها اليونسكو وتبرع لها الكثير من الدول – المترجم .



PLAN OF GRECO-ROMAN MUSEUM

مخطط للمتحف اليوناني الروماني : ويبدو فيه حجرات المتحف بأرقامها ، وموضح عليها محتويات الحجرات والحدائق والشرفة .

مقـــدمة

يوضح المتحف بشكل أساسى حضارة الإسكندرية القديمة ، فيه توجد بعض البورتريهات - غير المرضية - للمؤسس (الإسكندر) (حجرة ١٢) ، وعملات بطلمية رائعة (حجرة ١٣) ، وأعمال : نحت بطلمية (حجرة ٤ ، ١٢) . وتظهر سياستهم الدينية فى تماثيل سيرابيس (حجرة ١٦) ، وبالنسبة للأباطرة الرومان ، يوجد فضلاً عن عملاتهم (حجرة ٢) تماثيل هائلة لماركوس أوريليوس (حجرة ١٢) . ودقلديانوس (حجرة ١٧) ، وبعض العملات الذهبية لخلفائهم البيزنطيين (حجرة ٥) . وفى نفس الوقت ، فإن سيرة المواطن العادى تم توضيحها بشكل أساسى فى القبور ، وكميات هائلة من المواد الجنائزية (حجرة ٦ ، ١٣-١٥ ، ١٧-٢١) ، ومعظمها ممل ، ولكنها حققت جمالاً عظيماً فى تماثيل السيدات المصنوعة من الفخار (حجرة ١٨) ، والآنية الفخارية للملكة المصرية (حجرة ١٧) تعد أكثر جمالاً ، وفى نفس الحجرة بوجد زجاج بديع . ومع المسيحية ، بدأ السكندرى - على الرغم من أنه لم يقدم إلينا إلا عن طريق مقابره - فى نشر عقيدة القديس مينا المشوقة (حجرة ١ ، ٥ ، ٢٢ أ) .

ويعرض المتحف أيضاً بعض المظاهر الأخرى للحياة المصرية ، على الرغم من عدم اكتمالها .

١ - **مصر الفرعونية** : توجد بعض المومياوات ... إلخ من طيبة وهليوبوليس وغيرها (حجرة ٨ ، ١٠) ، والجو يناسب وجودها هنا أكثر من وجودها بالقاهرة ، وأيضاً مجموعة من الأشياء الصغيرة (حجرة ١٠) ، وتماثيل رمسيس من أبو قير (حجرة ٩ والحديقة الشمالية) . والمزج بين الفرعونية والهيلينية يظهر فى (حجرة ١١).

٢ - **الفيوم** : وهذا هو أهم قسم غير سكندرى بالمتحف . والفيوم منخفض زراعى فى جنوب غرب القاهرة ، عمّرها بطليموس الثانى (فيلاديلفوس) . وكما حدث فى الإسكندرية ؛ اختلط الإغريق بالمصريين ، ولكن جاءت النتائج مختلفة ، حيث كان الاختلاط همجياً وساذجاً . لاحظ بشكل خاص عبادة التماسيح (الحديقة الشمالية وحجرة ٩ ، ٢٢ أ) وتوجد مومياوات من نوع جديد إلى حد ما (حجرة ١٧) تماثيل البازلت الأسود (حجرة ١١) ، ومن المؤسف أن كل معروضات الفيوم لا يتم عرضها معاً .

٣ - **أخميم** : مدينة الموتى المسيحية الأولى فى صعيد مصر ، وهى مصدر المومياوات المكسوة (حجرة ١) ، وبقايا التابسترى[*] (حجرة ١ ، ٢ ، ٤) ، والتى سيظل جمالها باقياً حتى بعد زوال العديد من التماثيل الرائعة .

الردهة :

الخرائط ، الصور ... إلخ :

لاحظ بشكل خاص (١) إعادة بناء ثيرش Thiersch لفاروس ، و (١٠) صور لقلعة قايتباى المشيدة على جزيرة فاروس (صـ ٦٠) ، و (٨) مسلة كليوباترا فى موقعها (صـ٢١٣). وفى مدخل (حجرة ٦) على اليسار ، نسخة من حجر رشيد (صـ٢٣٥) تحتوى على مرسوم مدون بثلاث لغات هى الهيروغليفية ، وهى اللغة التى كان يستخدمها الكهنة المصريون القدماء ، والديموطيقية ، وهى خط مشتق من الهيروغليفية يكتب بسرعة ، واليونانية ، وقد أصدر كهنة ممفيس هذا المرسوم عام (١٩٦ ق.م) على شرف بطليموس الخامس (إبيفانيس) . واكتشف الفرنسيون الحجر الأصلى عام (١٧٩٩م) فى قلعة القديس جوليان ، وتوجد لوحة مائية للحجر معلقة بالقرب من نفس المكان ، وقد اضطر الجنرال مينو إلى تسليمه إلى الإنجليز عام (١٨٠١م) ، وهو الآن بالمتحف البريطانى . والقصيدة الجميلة لكاردوتشى (Carducci) عن الإسكندرية معلقة ومبروزة على الحائط المجاور . وتوجد فى الصندوق أدوات من العصر الحجرى من الفيوم . وفى الردهة ، يوجد على اليمين : (حجرة ١) المسيحية ، وعلى اليسار : (حجرة ٦) النقوش والكتابة ، وإلى الأمام توجد الشرفة التى تصل بين ساحات الحديقة وحجرة ١٧ .

حجرة ١ - الآثار المسيحية :

- الجدار الأيمن : (١٠٦) يصور صليباً ذا قمة حلقية مأخوذا عن مفتاح الحياة (عنخ) الذى كانت تحمله الآلهة المصرية القديمة (صـ١١٢) ، وفى منتصف الجدار ، يوجد صندوق (A) ، وهو يحتوى على دمى فخارية من منطقة القديس مينا .

(*) نسيج مزدان بالرسوم والصور ، تتخذ منه السجف وتنجد به الكراسى - المترجم .

– وفى وسـط الحجرة بمواجهـة الباب : يوجـد تـاج عمـود بيزنطى رائـع ، ومن المفترض وجوده فى كنيسة القديس مرقص (صـ ٩١) ، وقد تم اكتشافه فى شارع الرمل . الصندوق (K) به قطع منقوشة من العاج والعظم ، وأغلبها من أكوام القمامة السكندرية ، ومن الأمثلة الجيدة ١٩٧٩ ، ٢٠١٢ ، ٢٠٢١ ، ٢٠٢٥ ، والصندوق (I) به وسادة مضفرة من مدينة الموتى المسيحية أنتينوى فى صعيد مصر ، وفى منتصف الحجرة يوجد غطاء من الرخام السماقى الجميل لتابوت حجرى ، وهو مزين من جميع الجوانب برأس جميل ، وقد عثر عليه فى حى اللبان ، ويوجد وراءه مومياوات مسيحية من أنتينوى مازالت مكسوة بمطرزاتها الفاخرة . وفى نهاية الحجرة يوجد تاج عمود بيزنطى آخر ، تم اكتشافه بالقرب من ترعة المحمودية .

– الجدار الأيسر : فى الوسط : صندوق (La) ، (M) ، وبهما قوارير من كنيسة القديس مينا ، كانت مملوءة بالماء ، الذى سرعان ما تبخر ؛ ولكن تم تصديرها لجميع أنحاء العالم المسيحى ، وهى مرسوم عليها التصميم المعتاد للقديس وهو بين الجملين . وبين الزهريات توجد بقايا مدهشة من كنيسة القديس مينا فى الدخيلة (صـ٢٢٠) ، كما يوجد نقش ضئيل البروز يمثل القديس مينا ، وهو نسخة غير متقنة من النقش الأصلى الموجود بضريحه فى الصحراء (صـ ٢٤٦) . الصناديق (P,Q,R,S) منسوجات تابسترية قبطية جميلة من أخميم وأنتينوى ترجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وللأمام هناك بالقرب من صندوق (N) نقشان كاريكاتيريان (من العصر المسيحى) يمثلان ليدا والبجعة ، وتبدو ممسكة ببيضة فى أحدهما .

حجرة ٢ – العملات :

وهى تكملة مرتبة زمنياً للعملات البطلمية فى حجرة ٣ ، والتى يجب زيارتها أولاً ؛ فهى توضح تاريخ الإسكندرية وديانتها فى ظل حكم روما والقسطنطينية . ونبدأ مع صندوق A (فى الركن الأيمن) مع أوكتافيوس (أغسطس) (٦٧٥) ، صندوق B رقم ٦٧٥ (فى عهد دوميتيان) تصور المنارة (انظر صـ ٦٠) . (٧٥) (من عهد تراجان) تمثل معبداً لإيزيس بالإسكندرية ، وبه بوابات ضخمة كانت تقف الآلهة بينها . و (٧٧١) تصور سيرابيس على عرشه . ومن (٨٩٠) إلى (٨٩٢) تمثل السلة المقدسة

التى كـان يحـملهـا أحـيـاناً على رأسـه . صندوق C من (١٣٦٣) إلى (١٣٦٦) تمثل مقابلات ودودة جداً بين الإمبراطور هادريان والإسكندرية . (١٤٠٩) تمثل مقابلة بينه وبين الإله سيرابيس . (١٤٥٠) تمثل إيزيس حارسة المنارة . ويوجد حول الحجرة أربعة تيجان للأعمدة من دير القديس مينا .

حجرة ٣ - العملات :

مجموعة العملات البطلمية تبدأ فى صندوق (Ab) (فى الجزء الأيمن من الحجرة) وتستمر فى صندوق (C-D) (إلى اليسار) . وصندوق (E-F) (فى المدخل) . والعملات مرقمة على التوالى ، وهى ذات أهمية تاريخية وفنية كبيرة ، ولكن لا يجب أن تؤخذ بجدية كما لو كانت لوحات لأشخاص ؛ لأنه غالباً ما يصور الحاكم بشكل يدنو من الألوهية . (١) على سبيل المثال هى قطعة فضية من فئة أربعة درخمات للإسكندر الأكبر ، قام بسكها كليومينيس نائب الملك . (٢ - ٤٥) بطليموس الأول كنائب للملك . لاحظ دائماً رأس الإسكندر الأكبر بقرنى الإله آمون . (٤٦ - ٢٧٤) بطليموس الأول (الملك سوتير) . ويظهر بالتدريج نمط جديد ، لاحظ فيه رأس الملك ، وعلى الوجه الآخر نسر (لاحظ أربع عشرة قطعة ذهبية من فئة أربع درخمات) (٢٧٥-٥١٠) بطليموس الثانى (فيلاديلفوس) ، وتوضح العملات التاريخ العائلى فى عهده (صـ٥٦). فمثلاً يظهر الملك أولاً وحده على قطعة ذهبية من فئة خمس درخمات فى (٢٧٥ - ٢٨٠) ، ثم تظهر أرسينوى أختـه وزوجتـه الحسناء وحدها على عملة ذهبية رقم (٣٤٢) . ثم يظهر الزوجان معاً على عملات ذهبية (٤٢٨ - ٤٣٤) ، وعلى الوجه الآخر من العملات يظهر من أسلافهما بطليموس الأول وزوجته ، ليظهروا أن السلالة استمرت فى أزواج (٥٥١ - ٦١٩) يظهر بطليموس الثالث (يوريجيتس) . (٦٢٠) قطعة ذهبية رائعة من فئة ثمانى درخمات تمثل يوريجيتس ، ولكنها سكت فى عهد ابنه فيلوباتر ، وهى أجمل العملات فى هذه المجموعة ، (٦٢١) قطعة فضية من فئة أربع درخمات ، عليها رأسا سيرابيس وإيزيس . وتبدأ العملات البطلمية الآن فى الانتهاء ، والنسر الذى ظهر فى القطع الأخيرة (صندوق D) يظهر أكثر تكلفاً وسخفاً . (١٠٥٩) (صندوق E) تصور - يالخيبة الأمل ! - كليوباترا . وهناك حول الحجرة بعض السبائك .

حجرة ٤ : العملات ومنسوجات أخميم التابسترية :

العملات كلها قطع نحاسية من عصر الأباطرة الرومان الأواخر ، وهى ليست جميلة ، ولكنها ذات أهمية تاريخية للإسكندرية . فى صندوق A-B (يميناً) (٣٨٨٤) وهى تمثل أوريليان وفاباتيث . و(٣٨٩٦) تمثل زنوبيا . فى صندوق (C-D) (يساراً) (٤٠٢٤) تمثل دقلديانوس ، وعلى الجدران (١ – ٨) منسوجات تابسترية من الجبانة المسيحية بأخميم .

على الجدار الخلفى يوجد تمثال كبير ورائع لامرأة فى لباس الحداد مع طفلها ، وهو أثر هيلينى ، وربما كان يمثل برنيس زوجة بطليموس الثالث (يوريجيتس) فى حالة حداد على ابنتها الصغرى ، وهى ابنتهما التى ألهها الكهنة فى مرسوم كانوبس ، عام (٢٣٩ ق.م) (صـ٨٧) . وفى مدخل الحجرة توجد جرة مسيحية كبيرة .

حجرة ٥ : العملات :

عملات بيزنطية ذهبية جميلة . لاحظ بشكل خاص الإمبراطور فوكاس وقد غلبه هرقل (صـ ٩٨) ، وهذا الأخير يظهر وهو يعلى الصليب الذى أعاده إليه الفرس .

الجدار الخلفى : عماد من التكية من دير القديس مينا ، وقد تمت إزالة الصليب ، ومن الأرجح أن هذا قد حدث أثناء الغزو العربى . وفى نهايته قوارير من دير القديس مينا صندوق (A) : أقنعة ملونة من مدينة الموتى (الوثنية) فى أنتينوى . صندوق (B) : فخاريات مسيحية من كوم الشقافة . عد إلى الردهة .

حجرة ٦ : النقوش ... إلخ :

هذه الحجرة لا تحوى أى جمال ، ولكنها هامة تاريخياً ، والمعروضات ليست مرتبة رقمياً . الجدار الأيمن ، بالقرب من البوابة (٤٢) نقش على تمثال لأنطونيو (صـ٦٩) ، وتمت كتابة الإهداء فى ٢٤ ديسمبر عام (٥٠ ق.م) ، وعثر عليه بالقرب من محطة الرمل ، التى هى مكان السيزيريوم. (٢) إهداء إلى بطليموس الثانى (فيلادلفوس) . (١) إهداء إلى بطليموس الأول . (٣٧) بوابة ذات نقوش لبطليموس السادس ، وبها

صندوق يحتوى على (٥٩) وهو عبارة عن لوحتين منقوشتين كانتا تخصان جندياً رومانياً (يوليوس ساتورنيناس) محفور عليهما شهادة بخدماته وامتيازاته . (٦١) يوجد فى الصندوق أيضاً وثيقة عسكرية أخرى عبارة عن لوحة خشبية مكتوبة فى الإسكندرية ، ولكنها وجدت فى الفيوم ، وهى تمنح مساعدات لمحارب قديم . (٩٤) قاعدة تمثال للإمبراطور ڤالنتنيان (من القرن الرابع الميلادى) ، تم العثور عليها فى شارع رشيد . (٨٨) شاهد قبر عليه صورة إيزيدور وأرتميسيا ، وهما سيدتان من بيسيديا ، وتم العثور على هذا الشاهد فى الحضرة . (٨٧) شاهد قبر لسيدة مع خادمها .

ثم تأتى بعض شواهد القبور الملونة يغطيها زجاج ، وهى تختلف عن بعض شواهد القبور الموجودة فى الحجرات الأخرى . (١١٩) (فى ركن الحجرة) : شاهد قبر لامرأة تحتضر بين صديقتين .

على الجدار الأيسر توجد نقوش وشواهد قبور من العصر الرومانى (صـ٨٩) . (٤٨٠) نصب تذكارى على قاعدة لأورليوس إسكندر ، وهو جندى رومانى ولد فى مقدونيا وتوفى فى الحادية والثلاثين من عمره . (٣٥٢) نصب تذكارى آخر على قاعدة لأورليوس سابيوس ، وهو جندى سورى فى الخامسة والثلاثين .

على كلا جانبى الحجرة بالقرب من باب الدخول يوجد صندوقان للبرديات ، يحتوى الأيسر على كتابات ممتعة . (١١٩) تعويذة للنيل وللروح العظيمة ساباوث ، وهى توضح مزيجاً من المعتقدات المصرية واليهودية .

(١٢٢) طلب من أوريليا --كاهنة الإله التمساح بتيسوشس- للحصول على شهادة لعبادتها للآلهة، وهو مكتوب أثناء فترة الاضطهاد الدينى (فى عهد دقلديانوس، صـ ٩١) ، وتقول فيه إنه على الرغم من مركزها ، إلا أنها قد اتهمت بالمسيحية . (٣٥٢) عبارة عن جعران ضخم . (٣٥) تمثال جميل بلا رأس لأبو الهول . (٣٥١) تمثال ضخم للعجل آبيس (تم ترميمه) ، وهو من عهد هادريان . (٣٥) تمثال لأبو الهول يبدو رقيقاً إلى حد ما ، وقدماه متقاطعتان . وهذه الأربعة الأخيرة تم اكتشافها بالقرب من «عمود بومبى» (صـ١٩٧) .

حجرة ٧ : مصر القديمة : كانوبس :

إن هذه الآثار على الرغم من أن أغلبها اكتشف فى مواقع أبو قير (صـ٢٢٤) ، إلا أنه من المحتمل أن يكون قد تم نقلها إلى هناك فى وقت غير معلوم (من هليوبوليس أوسيس) . (١) تمثال لفرعون هكسوسى (ملك الرعاة ، حوالى عام ١٨٠٠ ق.م) ، وكان يملكه رمسيس الثانى (١٢٠٠ ق.م) ، وعلى الكتف تظهر ابنة رمسيس اهوت مارع) ، وهى غالباً الأميرة التى وجدت موسى . (١٨) جزء من تمثال لرمسيس الثانى . صندوق (C) (فى الجزء الأيسر من الحجرة) به تمثالان لموظف بطلمى من معبد سيرابيس بالإسكندرية (صـ٢٠٠) .

حجرة ٨ : مصر القديمة :

خمسة صناديق للمومياوات .

صندوق (B) (على اليمين) وهو صندوق ملون من الداخل فيه وعاء غريب ، بالقرب من فوهته توجد أفعى مجنحة ، وعلى الجوانب توجد أفعى ترمز للحياة (الصليب القبطى ، حجرة ١ ، رقم ١٠٦ ، وانظر أيضاً صـ١١٣) . كما توجد عفاريت لها رءوس أفاعى . وترقد المومياوات على نقش يمثل إلهة الشمس (نيث) ، وعلى أفعى ملتفة حول زهرة لوتس وعلى روح ممثلة فى طائر . والصندوق من الخارج ملون أيضاً ، وهو من الدير البحرى فى صعيد مصر .

صندوق (E) (فى الوسط) به مومياء ملونة بشكل غنى ومرسوم على صدرها الإلهة نيث ، وهى رائعة جداً ، وترجع إلى حوالى (٦٠٠ ق.م) .

(٣) (على الجدار الخلفى) : نقش خلفى لباب مقبرة على اليسار ، الفقيد المتوج بين باقتين من زهور اللوتس ، ومربوط فى إحداهما زوج من البط ، ثم يأتى عازف قيثارة عجوز ، ويغنى بمصاحبة فتاة على الطبلة واثنين آخرين يصفقان بأيديهما . وعلى اليمين يوجد رجل يحضر شراباً ، وفتاتان ترقصان ، وهو عمل فنى جميل من هليوبوليس .

حجرة ٩ : مصر القديمة : عبادة التمساح :

إن محتويات هذه الحجرة على الرغم من أنها ليست سكندرية ، إلا أنها بطلمية ، وتوضح هذه السلالة بطريقتها المصرية . وقد جلبت هذه الأشياء من معبد بتيسوشوس ، الإله التمساح بالفيوم . وقد قام أجاثو دوراس ، وهو موظف يونانى (عام ١٣٧ ق.م) ، بزخرفة المعبد على شرف بطلميوس السابع (فيسكون) وزوجتيه ، إحداهما كانت أخته والأخرى ابنة أخيه ، وكلاهما كانت تدعى كليوباترا (بمناسبة ترتيبات زواج هذا الملك غير المحبوب . انظر الشجرة صـ٥٨ ، ٥٩) . والمعبد نفسه تم نقل جزء منه إلى المتحف ، وهو واقف بشكل جيد فى الحديقة الشمالية (انظر مايلى) . وسط الحجرة عارضة خشبية عليها تمساح محنط ، وقد حملت على هذه الهيئة فى موكب من الكهنة ، كما تصور اللوحة المائية أسفله (نسخة من لوحة جصية جدارية) ، وترقد العارضة على خزانة خشبية ، وعثر عليها فى الضريح .

الجدار الخلفى للحجرة : باب خلفى للمدخل الخارجى (انظر الحديقة الشمالية) هناك نقش يونانى ، كما توجد هنا بعض الصور التى يمكن أن يتم عن طريقها إعادة بناء المعبد .

(٣٩) (على يمين الخزانة) مائدة لتقديم القرابين للإله ، مزركشة بشكل ردىء ، ويوجد حوض صغير . وعلى يسار باب الدخول : نقش لكاهن يتعبد للإله ، بينما الإله يزحف على أزهار اللوتس .

حجرة ١٠ : مصر القديمة : معروضات صغيرة :

فى المدخل مائدة لتقديم القرابين ، وبها أحواض لسكب الخمر على جسد الأضحية . على الجدار الأيمن يوجد صندوق (C) ، به تماثيل صغيرة للآلهة ، وكلها مسماة ، وأكثرها أهمية بالنسبة لتاريخ الإسكندرية ، (٢-٢٥) أوزوريس ، (٢٦-٤٠) العجل آبيس ، اللذان امتزج اسماهما ليكونا سيرابيس (صـ٦٣) .

صندوق (D) به مومياوات لطفل رضيع ، ونسر ، وأبى منجل[*] .

(*) طائر مائى طويل القائمتين والمنقار . المترجم

صندوق (Aa) . رف (B) عليه جعارين مجنحة مطلية بطبقة من المينا الزرقاء .

رف (K) : (١) تمثال صغير لسخت ،إلهة حرارة الشمس ، لها رأس لبؤة ، وتحمل زهرة ذهبية .

رف (F) . باست ، الإله القط . (٣٩) قطيطة بين الأقدام . (٥١) أقراط ذهبية ، رف (١) عليه المزيد من تماثيل باست . (٥٥) جيد جداً .

جوار الجدار الأيسر صندوق (H) به أوعية فخارية من الألباستر ، كانت تستخدم لحمل الأعضاء التى لا يمكن تحنيطها من جسد الميت ، وكل منها مهدى إلى أحد أبناء حورس . «أمست» يحمل المعدة ، «حابى» يحمل الأمعاء ، «دواموتف» يحمل الرئتين ، و «كبهسنوف» يحمل الكبد . (لمعرفة علاقتها بكانوبس ، انظر صـ ٢٢٧) .

صندوق (Bb) به المزيد من التماثيل الصغيرة - خاصة رف (I) - لهاربوكراتيس وحورس .

ورف (K) ، إيزيس ترضع حورس - الأصل الفنى للتصميم المسيحى الذى يصور العذراء والطفل (صـ١١٢)، كما توجد بعض الجلاجل والزهريات الخاصة بعبادة إيزيس.

صندوق (L) نماذج مصغرة لأدوات المائدة ، والتى كانت توضع فى القبر مع المومياء لاستخدامها فى العالم السفلى

وتوجد أيضاً ستة توابيت ملونة حول الجدار الأيسر .

فى الوسط : منضدتان كبيرتان عليهما جعارين وتمائم وحلى ذهبية صغيرة .

حجرة ١١ : معروضات مصرية يونانية :

وتوجد هنا معروضات امتزجت فيها التأثيرات اليونانية المصرية ، وهى قليلة العدد ، ولست ممتعة كما قد يتخيل المرء ، فلم يولد من هذه الوحدة أى فن حى .

الجدار الأيمن (١٨) إهداء إلى الإله المصرى أنوبيس مع نقش يونانى . (٢٠) صورة جانبية لأحد البطالمة ، وهى جميلة إلى حد كبير . (٣٣-٤٠) عبادة الأفعى ، وهى بغيضة جدا . (٤٠) مزيج غريب الثعبان الذكر يحمل سلة سيرابيس وهراوة هرقل ، والأنثى تحمل قرص إيزيس وحزمة «سيربر» . (٤١) لوحة سيئة من الطراز اليونانى تصور فتاة تحيط بها آلهة مصرية من القبارى .

الجدار الخلفى (على الجانبين) : (٤٣-٥٣) تماثيل غير متقنة الصنع من الفيوم ، ويظهر فيها التأثير اليونانى .

الجدار الأيسر (فى الوسط) : (٦١) جزء كبير من نقش بارز من معبد فى بنها . (على اليسار) : حورس ذو رأس الصقر . (على اليمين) : صورة إنسان وتوجد بجانبها كتابة يونانية . (٦٢) نموذج لضريح من طراز خليط : وتظهر إيزيس فى المقدس وهى ترضع حورس . (٦٩) (فى صندوق A) تمثال جميل (بلا رأس) لامرأة ، من طراز مصرى ولكنه ذو حس يونانى .

المدخل بين حجرة ١١ و ١٢ . (على اليمين) : تمثال لشاب من الرخام الأبيض (من كوم الشقافة) . (على اليسار) : تمثال لطيف لطفل فى الثانية أو الثالثة من العمر.

حجرة ١٢ : تماثيل : معظمها على الطراز اليونانى - الرومانى .

فى الوسط : (٣٠) تمثال ضخم غير جميل لماركوس أوريليوس ، ويبدو فيه الإمبراطور عصبياً ، ولكنه لطيف ، ويظهر مستنداً بذراعه الأيمن على قرن الوفرة والخصب . ويوجد صليب تم نقشه فى العصور المسيحية على بطن درع (من شارع رشيد) .

الجدار الأيمن : (٨) تمثال نصفى رائع لفينوس . (١٦) ، (١٧) رءوس من الرخام والجرانيت للإسكندر الأكبر (صـ٥١) ، وهى ليست ذات أى قيمة فنية ، ولكنها وجدت بالإسكندرية . (١٨) رأس جندى شاب . (٢٠) رأس من الرخام لإلهة ذات شعر جميل (وجد بالقرب من عمود بومبى) . (٢١) رأس ، من الأرجح أنه رأس برنيس ، زوجة يوريجيتس ، ووجد فى نفس المكان .

خزانة (A) : تماثيل صغيرة ، لاحظ رقم (١٥) ، و (١٥ a) لأنهما جميلان جداً ويمثلان بطليموس يوريجيتس (؟) . (١٢) زوجته برنيس (؟) بشعرها المعقوص بطريقة معقدة . وتوجد هذه التماثيل فى منتصف الصندوق على الرف الثانى .

خزانة (D) : تمثال من الرخام يقال إنه لكليوباترا فى سنواتها الأخيرة ، تبدو فيه نحيفة ، وشفتاها مضغوطتان بقوة ، ويظهر تعبير الصرامة على وجهها . (٦٠) رأس ضخم من الجرانيت لبطليموس الرابع (فيلوباتر) ، من أبو قير .

الجدار الأيسر . (٥١) تمثال نصفى للإمبراطور هادريان . (٥٢) تمثال من الرخام الأبيض ، تظهر عليه ملامح النبل ، ومن الأرجح أن تكون ملامح ماركوس أوريليوس فى شبابه . خزانة (B) . رءوس وتماثيل غير مكتملة . (٢٧) (الرف الأوسط) رأس طفل ذى ابتسامة متألقة ، عثر عليه بالإسكندرية . (٣٦) رأس زيوس ذى الملامح القاسية والشفاه الغليظة . خزانة (F) . تماثيل برونزية صغيرة متنوعة . (٤٤) رأس امرأة بالحجم الطبيعى من الرخام ، له رقبة وفم يبدو أنهما من رشيد .

حجرة ١٣ : منوعات :

فى الوسط (١) تمثال لإمبراطور ، مثبت عليه رأس سبتيموس سيڤيروس .

فى صندوق (F) يميناً : (C) وجه باسم لفون(*) . فى قمة الصندوق نقش بارز لجرفين(**) ، وامرأة على عجلتين (نمسيس ؟) .

فى صندوق (H) يساراً (٢) رسم كاريكاتيرى لسيناتور رومانى له رأس جرذ .

حجرة ١٤ : منوعات :

فى الوسط فسيفساء من القبارى ، تصور رأس ميدوزا(***) .

الجدار الخلفى (١) تمثال من الرخام لخطيب رومانى ، والرأس لايتفق مع الجسم .

الركن الأيسر . (٢-٤) تفاصيل معمارية دقيقة من شارع السلطان حسين .

الجدار الأيسر . (٦) باب لمحراب مقبرة ، يمزج بين الطراز اليونانى والطراز المصرى ، والمائدة المقابلة من نفس المكان ، وكانت تستخدم للعطايا الجنائزية ، من مدينة الموتى الغربية .

(*) أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان - المترجم

(**) حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد - المترجم .

(***) إحدى أخوات ثلاث ، فى الميثولوجيا الإغريقية ، مكسوات الرءوس بالأفاعى بدلاً من الشعر ، كان كل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر - المترجم

حجرة ١٥ : معماريات :

بقايا صغيرة ... إلخ ، والكثير منها أنيق جداً ، وتظهر عليه آثار ألوان .

الجدار الأيمن · (٩) مذبح القرابين ، يشبه مبنى له أبواب مفتوحة جزئياً .

على عمود فى الركن الأيمن · (٢) تاج عمود يوضح بشكل جيد مزيجاً من الطرازين اليونانى والمصرى ، فشكله العام وأوراق نبات الأقنثوس التى عليه يونانية ، أما اللوتس والبردى والأفاعى فمصرية .

الجدار الأوسط (وراء ستار) · (٢٠) جانب ملون من تابوت حجرى ، رسم سطحى ظريف يمثل ديكين على وشك المصارعة بين حبل من الزهور ، القرن الثانى الميلادى .

الجدار الأيسر : (٥٠) جانب آخر من نفس التابوت ، وهو رسم منظورى لأبنية .

حجرة ١٦ : تماثيل : معظمها على الطراز اليونانى - الرومانى .

الجدار الأيمن . (٤) تمثال غير مكتمل من الرخام لبطل شاب أو إله ، الرأس والذراعان تم العمل بهم على انفصال ، وهم مفقودون ، وهو عمل جيد عثر عليه فى الإسكندرية ، ومن الأرجح أنه كان فى أحد المعابد . (٧) ، (٨) على رف · عدة تماثيل صغيرة بلا رءوس وبلا قيمة تذكر ، ولكنها ممتعة من ناحية ما تمثله - حيث يبدو الإسكندر الأكبر كإله ممسكاً بالدرع ، وعثر عليها فى الإسكندرية .

(١٢) تمثال نصفى للإلهة المزدوجة ديميتر - سيلين يوضح غطاء رأس ديميتر وطرفى الهلال .

(٢١-٢٣) كاهنات إيزيس المميزات بالعقد المقدسة التى يربطن بها شيلانهن من الأمام .

(٢٨) تاج عمود أيونى الطراز ، ويوجد واحد آخر فى الجهة المقابلة ، كما توجد أربعة أخرى فى فناء الحديقة . وعثر عليها فى سلسلة ، وربما تكون جزءاً من القصر البطلمى (صـ٦١) . (٢٧) نقش جنائزى بارز يونانى قديم من القرن الثالث ، عثر عليه بالإسكندرية ، ولكن من المحتمل أنه مجلوب من أثينا .

وسط الحجرة · (٣١) حمام أنيق من الحجر الأسود ، مزين برءوس الأسود والوشق(*) ، يخرج منها الماء ، وبعد ذلك يوجد حمام آخر (٣٧) ، وكلاهما من مدينة الموتى الغربية حيث كانا يستخدمان كمقبرتين . (٣٣) قدم ضخمة تتداخل أجزاؤها فوق الكاحل لتكون تمثالاً نصفياً لسيرابيس ، وعلى الرأس يوجد إهداء يونانى لسيرابيس من اثنين من عبّاده ، ويوجد ثعبانان فوق رأسه بينهما طفل (حورس ؟) ، وعثر عليها فى الإسكندرية . (٣٤) عُقاب هائل ، مزعج إلى حد ما ، وتم إهداؤه إلى الخديوى الأخير (من جزيرة تاسوس) . (٣٩) ساعد ضخم يحمل كرة (عثر عليها فى بنها) .

الجدار الأيسر · (٤٠) تاج عمود كبير من الحجر الجيرى كورنثى الطراز(**) . من القرن الثالث قبل الميلاد . (٤٧) ، (٤٨) ، (٤٩) ، (٥١) ، (٥٣) ، (٩٥٢) : تماثيل ورءوس لسيرابيس . هامة (صـ٦٣) . (٤٧) قد يكون نسخة رومانية من الأصل الذى فى المعبد ، وهو منسوب إلى برياكسيس ، وهو يمثل هذا النموذج بشكل جيد ، نصفه مرعب والآخر لطيف ، وتظهر على رأسه آثار التصاق السلة المقدسة ، وعثر عليه فى شارع أديب . (٤٨) يوضح سيربيروس . (٥٢) ، (٩٥٢) وجدا بالقرب من موقع السيرابيوم الحالى ، اللون الأزرق الداكن يذكرنا بالتمثال الأصلى . (٥٠) كاهن سيرابيس (؟) بلا رأس ، يرتدى ثوباً به سبعة نجوم مشعة وجعارين وهلال ، وتوجد ثيران آبيس ، وثعبان ضخم ، أحضر من المعبد . (٥٣) رأس تمثال واقعى . (٥٤) أبوللو جالس على الأومفالوس (مركز العالم) فى دلفى ، وهو أثر نادر ، ومن الأرجح أنه مجلوب من «أنيوتشى» فى آسيا الصغرى . (٥٩) تماثيل رومانية بلا رءوس ، وبعضها يوجد بجانبه لفافات من البردى (عثر عليها فى سيدى جابر) .

حجرة ١٧ : منوّعات :

حجرة ممتعة .

فى الوسط : فسيفساء جميلة تصور حفلة سمر فى الماء فى صعيد مصر · طيور وضفادع وثعابين الماء وأسماك وأفراس النهر وأقزام ، وفى الوسط سيدة ورجل وأبناؤهما ،

(*) حيوان من فصيلة السنانير أصغر من النمر – المترجم .

(**) نسبة إلى كورنث ، مدينة باليونان تشتهر بتيجان الأعمدة المزدانة بزخارف شبيهة بأوراق نبات الأقنثوس – المترجم .

ومعهم خادم متكئين تحت ظلة تهتز بفعل الرياح ، ربما كان قيصر وكليوباترا يلهوان هكذا (صـ٦٩) ، وتوجد كتابة يونانية وحاشية مزخرفة .

الجدار الخلفى · تمثال ضخم بلا رأس من الحجر السماقى لدقلديانوس (؟) على عرش (عثر عليه فى شارع العطارين) أمام التمثال : تابوت من الرخام لديونيسس وأريادن من مدينة الموتى الغربية ، وهذا الطراز نادر فى الإسكندرية ، والزخارف عبارة عن فواكه وزهور .

ويوجد فى الحجرة . مومياوات من الفيوم (انظر الملاحظة التمهيدية) ، وأفضلها توجد فى صندوق (U) فى الجهة المقابلة للعمود ، وهى تحمل صورة واقعية للميت مرسومة على الخشب .

على الجدران : صندوق (A) : زجاج بديع يعكس ألوان الطيف ، فقد اشتهرت الإسكندرية بزجاجها .

صندوق (D) : طبق من الفخار لتقديم البيض المسلوق .

طاولة (R) · معروضات جنائزية من مدينة الموتى الغربية .

(٢٥٠٦) : تمائم غنوسطية (صـ١١٤) . صندوق (G) والطاولة المجاورة (C) : بقايا الأوانى الفخارية المتعلقة بالملكة المصرية ، إنتاج تجارى من العصور البطلمية . وهذا النموذج عبارة عن زهرية خضراء مطلية بالمينا عليها نقش بارز يمثل أميرة تقدم قرباناً عند المذبح ، وعليه بعض الكتابات مثل «حظ سعيد للملكة برنيس» . وقد تم إحضار هذه الزهريات كزينات عن طريق المواطنين والسواح .

صندوق (G) . أثاث جنائزى ، فى الوسط توجد جمجمة مزينة بإكليل صناعى من القرن الثالث قبل الميلاد (من مدينة الموتى بالشاطبى ، صـ ٢١٤) .

صندوق (K) : أوعية أنيقة لحفظ رماد الجثث المحروقة (٢٨١ ق.م) .

على يمين ويسار الباب المؤدى إلى الحديقة توجد توابيت من الرخام مصممة على الطراز السكندرى المألوف .

صندوق (P) . زهريات زجاجية رائعة المنظر والتصميم ، ويوجد فى هذا الصندوق الصغير جمال أكثر مما يوجد فى أطنان من التماثيل .

حجرة ١٨ : تماثيل فخارية صغيرة :

كانت التماثيل الصغيرة - أجملها المصمم على الطراز الهيليني السكندري - فى أول الأمر متعلقة بالطقوس الجنائزية ، ثم تم وضعها فيما بعد فى المقبرة انطلاقاً من العاطفة التى تحثنا على وضع الزهور ، خاصة إذا كان الفقيد شاباً ، فقد تم اكتشاف معظم هذه التماثيل فى مقابر الأطفال والنساء . وهى أجمل المعروضات فى المتحف .

فى مواجهة المدخل ، على اليمين . صندوق (HH) ، (A) : أوعية لحفظ رماد الجثث المحروقة (من الإسكندرية) .

الجدار الأيسر · صندوق (F) (مغطى بالستائر) . توجد هناك أفضل المعروضات: ٢٧ تمثالاً لسيدات ، و (١) ، (٤) ، (٧) ، (٨) ، (١٢) ، (١٣) هى أجملها ، وقد تكون رقيقة ، لكنها فخمة . (١) متوجة باللبلاب وترتدى قرطاً صغيراً ، ويظهر شكل ذراعها من خلال ثوب يغطيه . (٧) تحمل طفلها . (١٢) تبدو مثيرة للإعجاب بشعرها المجعد قليلاً . صندوق (G) . (١) طفل على كتف أمه .

صندوق (H) : (١) طفل على مركبة لعبة ذات أربع عجلات ، مليئة بالعنب ، وتجرها كلاب . صندوق (I) . به رسوم كاريكاتيرية . صندوق (L) : قوالب للفخار .

صندوق فى الركن ، وأيضاً صندوق (F) : به آثار من مدينة نقراطيس ، السلف اليونانى للإسكندرية فى مصر .

على الجدار الأيمن · نماذج فخارية من الفيوم - قبيحة ومبتذلة .

فى وسط الحجرة : أربع فسيفساءات من كانوبس (صـ٢٣٠) ، وربما كانت تزين معبد سيرابيس هناك .

حجرة ١٩ : منوعات :

فى المدخل: جرار جنائزية لحفظ رماد الموتى مزينة بأكاليل من الزهور الصناعية ، عثر عليها فى الشاطبى (من القرن الثالث ق.م) .

فى الوسط : فسيفساء ، وهى أفضل فسيفساء هندسية بالمتحف (من الشاطبى) .

فى زوايا الحجرة . صناديق (A) ، (B) ، (C) ، (D) : بها نماذج فخارية من كوم الشقافة .

لاحـــظ فى صنـــدوق (C) ، رف (B) : (١) نموذج لسبعة قدور وجرة كبيرة ، وهى تشبه أثاث دمية . وفى صندوق (D) توجد بعض الجروتسكات(*) غير المتعة .

وأيضاً فى زوايا الشكل الثمانى : صناديق (I) ، (II) ، (III) ، (IV) : بها أثاث جنائزى (من الحضرة) (صـ٢٠٩) . فى صندوق (I) : يوجد نموذجان جميلان : زهرية مطلية بالمينا الزرقاء ومزينة بوجوه «بس» ، إله الحظ فى مصر. (رف B) . (٢) : تمثال فخارى صغير لطفل ضاحك يمسك فى يده تفاحة ، ومتشبث بقاعدة تنتهى بتمثال نصفى لديونيسس .

حجرة ٢٠ : مدينة الموتى بالشاطبى (صـ ٢١٤) :

العديد من شواهد القبور الملونة ، أفضلها يغطيه زجاج ذو لون خفيف .

على يسار المدخل . (١) أيزودورا ، سيدة من سيرين ، مع طفلها . (٢) ضابط مقدونى شاب يمتطى جواداً ، وخادمه يجرى وراءه ممسكاً بذيل الجواد (القرن الرابع ق.م) – أى بعد ما أسس الإسكندر المدينة بوقت قصير . (١٠٢٣١) صبى وطفل .

صندوق (A) و (B) : بهما أثاث جنائزى . ويوجد فى صندوق (B) بعض النماذج الفخارية اللطيفة .

(١) ، (٢) سيدات جالسات . (٧) ، (٨) ، (٩) تلميذات فى دروسهن .

قاعدة تمثال (IV) (الجدار الأيمن) : شاهد قبر لرجل شاب مع كرسى للقدمين وكلب مدلل .

وسط الحجرة : مجموعة رخامية أنيقة ولكنها مشوهة «لديونيسس» و «الفون» (وجدت بالقرب من ميناء رشيد المهدم) .

حجرة ٢١ : مدينة الموتى بالإبراهيمية (صـ ٢١٥) :

الصندوق الموجود عند المدخل : أكاليل من الزهور الصناعية ، وهى قبيحة حقاً ، ولكن قِدمها يؤثر فى المرء ، وبالصندوق مزمار مزدوج من العاج .

الصندوق الموجود فى الوسط : طيور محنطة من أبو قير (صـ٢٢٤) .

(*) قطع من الفن الزخرفى ، تتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية متناسجة عادة مع رسوم أوراق نباتية أو نحوها ، مما يحيل كل ما ماهو طبيعى إلى بشاعة أو كاريكاتير – المترجم .

صنـدوق (D) ، (F) من الإبراهـيـمـيـة . صنـدوق (D) نقش باللغـة الآرامـيـة - واحد من الآثار القليلة للاستيطان اليهودى المبكر فى الإسكندرية (صـ١٠٤) ، ويوجد المزيد على الأرضية (القرن الثالث ق.م) . صندوق (F) (الجدار الأيمن) : به أوعية لدفن رماد الجثث المحروقة . مجموعات من الجص الملون لـ «مِنْ» القضيبى(*) (الذى عرفه الإغريقى باسم بان) وهرقل وحورس ... إلخ .

حـجـرة ٢٢ : كـانوبس (صـــ ٢٣٠) :

وهى حجرة مخيبة للأمل ، ولابد أنه توجد أعمال فى الضريح العظيم أفضل من هذه المعروضات الهيلينية التى تنتمى للدرجة العاشرة .

الجـدار الأيسـر : (١-٣) : كـتـابات ذات أهمـيـة تاريخـيـة ؛ فـهى تتـحـدث عن سيرابيس وإيزيس ، وعن آلهة هذا المكان ، وعن البطالمة فيلادلفوس ويوريجيتس .

الجدار الخلفى . توجد منحوتات ونماذج فخارية فى صناديق .

الجـدار الأيمن : أعمـدة مـغطاة بالجص من معـبـد سيـرابيس ، والأخـرى لاتزال متروكة فى أماكنها .

فى الوسط . فسيفساء من الإسكندرية .

حـجـرة ٢٢ أ : لـوحـات جـداريـة :

على يمين البـاب توجد ثـلاث لوحـات جـدارية وثنيـة ، تتعلق بعبـادة التمسـاح (انظر حجرة ٧ ، والحديقة الشمالية) ، من معبد بيتوسوشس بالفيوم (القرن الثانى الميلادى) : هيرون سوباثوس ، ضابط يقدم الشكر للإله : (١) واقفاً ، (٢) ممتطياً جـواده .

بقية الحجرة : لوحات جدارية مسيحية فى غاية الأهمية ، من سرداب تم اكتشافه فى الصـحـراء بعد بحيـرة مريـوط (القـرن الخـامس الميـلادى) ، ويوجد سلم لأسـفل يؤدى إلى حـجرة مربعـة . (١) ، (٢) من سقف هذه الحـجـرة ، و (٣) من جـدرانها ، وهى تصور القـديس مينـا جـالساً بين جـمـال . (٤) ، (٥) تصور عيد البشارة . وكان يوجد ممر يؤدى إلى حجرة أصغر ، وتوجد على قنطرته (٦) ، وهى تمثل رأس المسيح .

(*) نسبة إلى عبادة القضيب - المترجم .

(٧) ، (٨) يوجدان فى هذه الحجرة الصغيرة ، وفى خارجها توجد كوة فى الحائط تفتح ، وكان فى نهايتها (٩) وهى تصور قديساً يصلى ، ويحيط به مشهد للجنّة .

الشرفة والحدائق : معروضات كبيرة :

فى منتصف الشرفة : تمثال ضخم بلا رأس لهرقل .

الحديقة الشمالية . على اليسار : إطارات لبوابات وضريح معبد بيتوسوشس ، الإله التمساح بالفيوم (انظر حجرة ٩ للمزيد من التفاصيل) . إطار البوابة الأولى هو مدخل بيلون ، وعليه نقش يونانى يرجع المعبد إلى عام (١٣٧ ق.م) ، والباب الخشبى الموجود فى حجرة ٩ ينتمى إلى هنا . وعلى كلا جانبى البوابة يوجد أسد ، وكانت تؤدى إلى ساحة من القرميد ، وكانت الساحة مغلقة عن طريق البوابة الثانية التى تطوقها نقوش تمثل «أبو الهول» ، وكانت تؤدى إلى ساحة ثانية مشابهة ، ثم تأتى البوابة الثالثة ، وأخيراً ينهى الضريح هذا المشهد . والضريح به ثلاثة تجاويف ، يتوارى فى كل منها تمثال على عارضة (انظر حجرة ٩) . فى التجويف الأيسر توجد لوحة جصية لتمساح ، وفى التجويف الأوسط توجد لوحة جصية لإله له رأس تمساح بين إلهين اخرين ، وحول التجاويف يوجد العديد من الأفاريز المزخرفة : أحدها عليه ثعابين . والواجهة الخارجية للضريح عليها لوحات جصية أيضاً تشبه الرخام ، وقد وجد أمامها صندوق كبير (حجرة ٩)

فى نهاية الحديقة : مجموعة من تماثيل الجرانيت لرمسيس الثانى وابنته بلا رءوس ، عثر عليها فى أبو قير ، وفى الجهة المقابلة للحائط يوجد رأس أخضر ضخم من الجرانيت لأنطونيو على هيئة أوزوريس، وقد عثر عليه بالقرب من النزهة (صـ٢٠٩)، والرأس المصاحب الذى يمثل كليوباترا على هيئة إيزيس موجود فى بلچيكا .

الحديقة الجنوبية . بها مقبرتان تم إعادة تنظيمهما (من مدينة الموتى بالشاطبى) (صـ٢١٤) . الأولى (فى الركن) رائعة ، والتابوت يشبه فراشاً ذا وسائد على الجانبين . والحجرة التى كان يوجد بها هذا الفراش كان يسبقها دهليز طويل للمعزين (كما فى مقابر الأنفوشى صـ١٧٨) (من القرن الثالث ق.م) ، والمقبرة الثانية بها هيكل لكوة داخل السقف (مثل نظيرتها فى كوم السقافة صـ٢٠٢) .

يمتد شارع رشيد حتى يخرج فى النهاية من بين المنازل . وهنا ، ومنذ إنشائه ، كانت تنتهى المدينة . فى العصور البطلمية كانت توجد هنا بوابة الشمس أو البوابة

الكانوبية ، وفى العصور العربية كانت توجد بوابة رشيد . وتوجد هنا الحدائق العامة (على اليمين واليسار) التى تلى الأسوار العربية (انظر صـ١٢٤ والفصل الرابع) . ويقطع هذا الشارع خط الترام المتجه إلى النزهة . ويمتد الشارع تحت اسم آخر إلى سيدى جابر (الفصل الخامس) ، ثم إلى الرمل ، وإلى أبو قير (الفصل السابع) ، وهو شارع جيد ومشجر بشكل جميل ، ولكنه شديد الاستقامة ، كعادة جميع الشوارع التى خططها القدماء .

الفصل الثانى

من الميدان إلى رأس التين

المسار : ويبدأ من شارع فرنسا ، ثم شارع رأس التين ، إلى نتوء رأس التين ، والعودة إلى الميدان عن طريق خليج الأنفوشى والميدان الشرقى ، ويسير الترام الدائرى (ذو المثلث الأخضر) بموازاة أرصفة الميناء .

المواقع الرئيسية الهامة : مسجد طربانة ، ومسجد الشوربجى ، ومسجد أبو العباس ، ومقابر الأنفوشى، وقصر رأس التين ، وميناء ماقبل التاريخ ، وقلعة قايتباى ، وأرصفة الموانى الحديثة .

ونبدأ من الركن الشمالى الغربى من الميدان ، ونجتاز شارع فرنسا «بالمدينة التركية» (صـ١٢٨) ، والتى تم بناؤها فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، على لسان الأرض المتصل بالسياج البطلمى المتهدم (صـ٥٤) . وتوجد بها البازارات والمساجد على نطاق ضيق · لأن المدينة فى ذلك الوقت كانت فى أضعف حالاتها . ولكن المنطقة رائعة ويغمرها سحر لطيف خاصة فى المساء ، وأفضل طريقة لمشاهدتها هى أن نتجول فيها بلا هدف⊗ .

فى شارع فرنسا على اليمين شارع بيرونا ، ويوجد على الجدار المقام فى مدخله بقايا من النحت المصرى يمثل الإلهة سخت التى لها رأس أسد ، ويصب الشارع فى ميدان صغير جميل يحوى المحكمة الأهلية القديمة ، ومبنى آخر (رقم ٤) له بوابة منقوشة وساحة هادئة بها أعمدة أثرية .

فى الشوارع التى على يسار شارع فرنسا توجد بعض المساجد مثل . مسجد الشيخ إبراهيم باشا (مسجد إبراهيم باشا - المترجم) . فى الركن الشمالى الغربى من الميدان مبنى كبير وقبيح ذو مئذنة ملونة باللون الأحمر والأصفر .

● مسجد الشوربجى. بشارع الميدان، وهو يستحق الزيارة بالفعل ، ويرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٧٥٧م ، وتخطيطه مشابه لمسجد الطربانة (انظر مايلى) . ومنظره من الخارج مشوه بسبب الترميم ، ولكن يوجد أعلى الباب المؤدى إلى الردهة الداخلة إلى صحن المسجد قوس مزين بحلى على شكل أوراق شجر ثلاثية الوريقات ، ومبنى بالقرميد الجميل ، ويوجد فى وسط القوس رسم مصغر لمحراب . وعلى الرغم

من بساطة المعمار فى الداخل ، إلا أن القرميد المزخرف مازال يحتفظ بروعته ؛ لأن معظمه لايزال سليماً . والقرميد يشكل لوحات على الجدران ، والتصميمات الموجودة بعضها هندسى وبعضها يصور إصيصاً للزهور . وبين اللوحات توجد أطر من ألوان متناقضة ، والألوان التى فى اللوحات هى الاصفر والأخضر والأزرق العنبرى الداكن وهو اللون السائد ، أما الأطر فالسائد فيها هو الأزرق الصينى والأبيض . والقليل من اللوحات مصنوع من حجر مختلف الألوان . والمحراب المحاط من جانبيه بعمودين ملتفين عجيبين ؛ يوجد عليه رسم إصيص للزهور . وباب المنبر جميل ، عليه كتابة كوفية مزدوجة . بأعلى اليمين ، تقرأ من اليمين إلى اليسار كالعادة ، أما على اليسار فهى مكتوبة بشكل معكوس لإيجاد التماثل ؛ ولذا فهى نموذج جيد للنزعة الزخرفية فى الفن العربى . ويوجد خارج المسجد على الجانبين صفان من الأعمدة المقبية ، وأحد هذه الصفوف يطل على الشارع ، وهو مخصص للمؤذن ؛ لأنه لاتوجد مئذنة . والآخر يطل على ساحة بها أقواس قائمة على ركائز .

مسجد أبو على : (سر إلى قرب نهاية شارع باب الأقدر الطويل ، ثم يمبناً فى شارع مسجد على بك جنينة ، ثم يمبناً مرة أخرى) . لايوجد شيء يمكن رؤيته فى هذا المسجد الصغير المتواضع ، ولكن يقال إنه أقدم مسجد فى المدينة . وبداخله نرى الرقم ٦٧٧ والذى إن كان يعنى تاريخا هجرياً ، فإنه يوافق ١٢٧٨ ميلادياً . ويقول أبناء الإسكندرية إن هذا المسجد كان على حافة البحر فى وقت مضى ، حتى أن المؤمنين كانوا يتوضأون بالماء المالح ، قد تكون هذه الفكرة المتوارثة صحيحة لأن خط الشاطئ القديم كان يمر من هنا (انظر الخريطة صـ١٤٨) . والمبنى فى هيئته الحالية لايمكن أن يكون قد بنى قبل القرن الثامن عشر ، وبداخله يوجد على قمة المنبر نموذج لقارب .

● وبالاستمرار فى السير فى شارع فرنسا ، ترى الكتلة البيضاء المكونة لمسجد طربانة وهذا المسجد يستحق الزيارة ، على الرغم من الجص والدهان الحديثين . وتاريخ البناء يرجع إلى ١٦٨٤م ، والمدخل الصغير المطل على الشارع مصمم على شكل مثلث ، والقرميد ملون باللون الأسود والأحمر ، وتوجد بينهما بعض العروق الخشبية ، كما توجد كتابة كوفية لأعلى «لا إله إلا الله» و «محمد رسول الله» ، وتوجد نماذج ضل لهذا الطراز فى رشيد (صـ٢٣٥) . والباقى من الدور الأرضى تشغله المحال . فى قمة السلم يتجلى مشهد ممتع ، حيث يوجد على اليسار عمودان أثريان عظيمان من الجرانيت لهما تاجان مزخرفان بأوراق نبات الأفنثوس (على الطراز الكورنثى) ،

وبينهما توجد ساحة فى الهواء الطلق بها تعريشات حديدية ونوافذ ذات قضبان ، وعلى اليمين يوجد رواق المسجد ، وقد كان جميلاً فى وقت ما ، ومازال ثلثا حائط المدخل مغطيين بالقرميد المبنى بنفس الأسلوب الموجود بمسجد الشوربجى ، وبأعلى الباب توجد كتابة تنص على أن الحاج إبراهيم طربانة هو الذى بناه عام ١٠٦٧ هـ ، وفوقها قوس مزين بأوراق شجر ثلاثية الوريقات ، وهناك الكثير من الأعمدة الأثرية والمسجد من الداخل عبارة عن مستطيل مقسم عن طريق ثمانية أعمدة مشوهة ولكنها أثرية ، وسقف ملون بشكل جيد ، وخاصة فى البهو الغربى . والمحراب مبنى بالقرميد بطريقة جميلة على طراز الجدار الأيمن ، والقرميد الكبير المزين بزهور الربيع يبدو عملاً حديثاً ورديئاً ، وبه ثريات قبيحة تدعو إلى الأسى ، كما يوجد به رواق خارجى به أعمدة أثرية ، وتقوم المئذنة أعلى درج المدخل ، والرواق العلوى مغطى بالقرميد .

الشارع الرئيسى الآن يدعى شارع رأس التين ، وقد كان الساحل الجنوبى لجزيرة فاروس يبدأ من هنا فى وقت ما ، وبالتالى فإنه توجد فى هذا المكان آثار قديمة : فعلى اليمين شارع سيدى أبو العباس ، وهو يؤدى إلى الميدان الذى يحمل نفس الاسم ، وهو أهم الميادين فى المدينة التركية ، وهنا عندما يحل المساء ، ينتاب المرء وهم الرومانسية الشرقية . وهنا (فى ١٩٢٢م) كانت نقطة التجمع لقيام المظاهرات الوطنية . والطريق - قبل أن يصب فى الميدان مباشرة - يمر بموقع معبد «إيزيس فاريا» الذى كان يطل على المنارة (انظر العملات فى المتحف ، حجرة ٢) .

● ويطل على الميدان المسجد الكبير الأبيض لأبو العباس المرسى ، والذى بناه الجزائريون عام ١٧٦٧م ، وبعضهم مازال يعيش بالقرب من هذا المكان ، ومقبرة هذا الولى المتوفى (عام ١٢٨٨م) توجد تحت قبة منخفضة ، والجانب الآخر من المسجد له مدخل من القرميد غير المرمم على شكل مثلث ، وبه نتوءات وقرميد وكتابة كوفية (ويمكن الوصول لهذا الجانب عن طريق ممر به منعطفات على اليمين) .

فى نهاية الميدان يوجد مسجد صغير لسيدى داود ، وبه مقبرة هذا الولى ، كما توجد فى ساحة المسجد نخلتان طويلتان . وفى الناحية الجنوبية من الميدان توجد مقبرة نموذجية تسمى (سيدى أبو الفتح) ، وهى محاطة بسور أخضر (من البغدادلى) ، وفى المنازل القريبة منها يوجد منزل رقم ٢١ ، وبه أعمال زخرفية جيدة فى «المشربية» ، ورقم ٢٣ به عتبة باب منقوشة ودعامات من طبقات متبادلة من الحجر الجيرى والخشب .

وهذا التشابك من الطبقات يحافظ على جو القرن الثامن عشر . وإلى الشرق - بين مسجد أبو العباس والبحر - يوجد مسجد حديث ضخم ، يسمى مسجد البوصيرى ، حيث كان السلطان عادة ما يقيم فيه صلاة الجمعة . وبالمشى قليلاً فى الشارع تجد بقايا حجر مغطى بالكتابة الهيروغليفية . ويستخدم الآن كمقعد عندما بقلب .

ويتصل الآن شارع رأس التين بخط الترام «الدائرى» ، وعلى اليمن توجد قطعة أرض فضاء كبيرة ، وفى أحد أركانها ، بالقرب من الشارع ، توجد بعض السقوف المهدمة المصنوعة من الزجاج ، وهى تحمى مقابر الأنفوشى ، ويقيم حارسها بالقرب منها .

مقـــابر الأنفـــوشى

على الرغم من ضآلتها بالنسبة لمقابر كوم الشقافة (صـ٢٠٢)، إلا أن هذه المجموعات من المقابر ممتعة بنظام زخارفها ولكن المدخلين والتخطيطين متشابهان ، فهما عبارة عن درج محفور فى الحجر الجيرى ، يؤدى - إلى أسفل - إلى قاعة مربعة تفتح فيها غرف المقبرة والزخارف من الجص المدهون ليماثل حجارة الرخام والقرميد ، وهى رديئة ، وأحياناً تستدعى إلى الذاكرة ورق الحائط الذى استخدمته انجلترا فى عصر الملكة فيكتوريا ، ويعرفه الأثريون بطراز بومبى الأول . ويرجع تاريخ البناء للعصر البطلمى مع إضافات رومانية ، وأسماء المدفونين بهذه المقابر مجهولة .

المجموعة اليمنى من المقابر (انظر الخريطة) صـ١٨٠

فى أول انعطاف على السلم توجد لوحة جيدة مغطاة بقماش ، موضوعها هو تطهير المتوفى بالماء (؟) ، ونصور حورس ذا رأس الصقر مشيراً بإحدى يديه إلى أرض الموت ، ومحاولاً أن يجذب الميت إليها بيده الأخرى . وأوزوريس يحمل وعاء للتطهير ، وإيزيس من خلفه . وفى الانعطاف الثانى على السلم توجد لوحة أخرى نصف محطمة، وفيها يجلس أوزوريس على عرشه ، كملك الموتى ، وخلفه الإله الكلب أنوبيس ، وأمامه حورس بالكاد يمكن تمييزه مقدماً المتوفى . وهذا الدرج يذكر الزائرين بالمصاعب التى يجب أن يمر بها المتوفى وبأوزوريس العظيم وبإيزيس وابنهما حورس ، وهو الثالوث الذى شاعت عبادته فى العصر البطلمى ، وغالباً ما ارتبط بعبادة سيرابيس ،

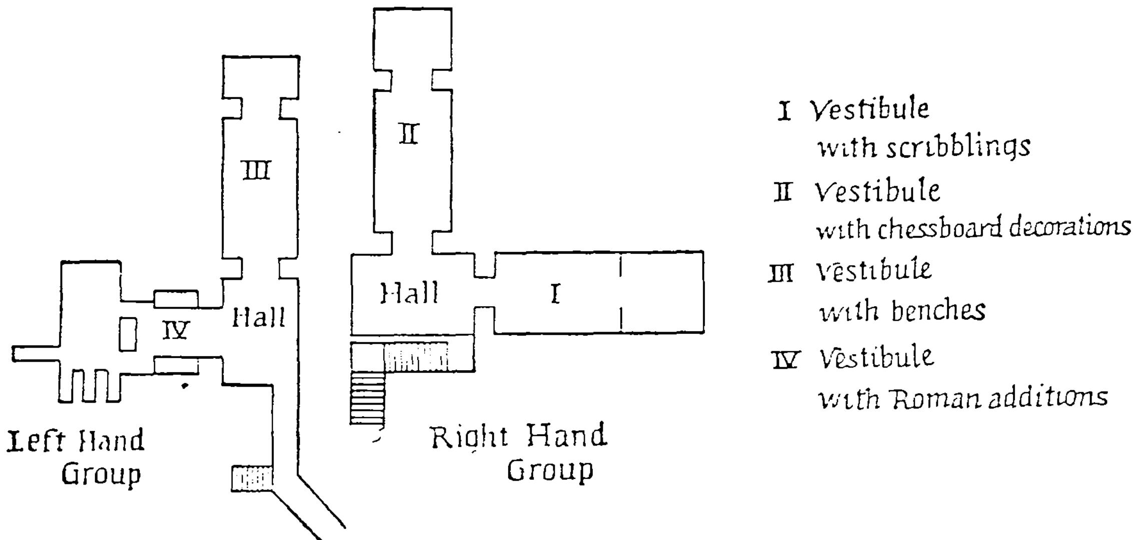
والجدران تشبه الألباستر ، كما يوجد على القنطرة تصميمات هندسية . والبهو فى الهواء الطلق ، وبه مدخل لحجرتين ، والخربشات الموجودة على جدران الرواق ممتعة للغاية ، وقد قام بهذه الخربشة زائر أو عامل منذ أكثر من ألفى عام ، وهى تساعدنا على إعادة بناء الحياة اليونانية المصرية فى المدينة . فالكتابة باللغة اليونانية ، وعلى اليسار «ديودورس» يخلد صديقه «أنتيفيلس» ، وبعدهما بقليل يوجد قارب ، وعلى الجدار الأيمن سفينة حربية بها برج للقتال ، مثل تلك التى صاحبت كليوباترا فى أكتيوم .

الرواق الذى أمامك (رقم ٢) جميل للغاية ، ومزخرف بنفس نمط الدرج ، ولاتزال توجد آثار لهذه البقايا بالمدخل ، ولكن بعد إضافة طبقة من الجص الطرى ، وتلوينه ليماثل الرخام ، ولكن بذوق أجمل . وإلى أسفل ، توجد قاعدة عمود من الألباستر ، وفوقه تصميم جميل من المربعات السوداء والبيضاء مرتبة على هيئة رقعة شطرنج ، ومقسمة عن طريق شرائط من الألباستر . وفى رقعة الشطرنج توجد مشاهد أسطورية . وهى الآن مشوهة . ومن الأرجح أن السقف ينتمى إلى طراز أقدم لتصميمه الهندسى المحض .

وفى نهاية الرواق يوجد مدخل لإحدى حجرات المقبرة عليه قرص الشمس «رع» ، ومنقوش حوله وعلى أحد جانبيه نماذج صغيرة تمثل أبو الهول نائماً على قاعدة ، وعند غلق الباب تظهر ثقوب للمزلاج والحجرة نفسها مزخرفة بنفس النمط اللطيف ، وكان فى وسطها مذبح . وفى الجدار الخلفى يوجد ضريح صغير يسد المشهد ، والمظهر العام جيد ، وهو أنيق أكثر منه هام . وهنا تتضاءل المظاهر المروعة لمصر القديمة .

المجموعة اليسرى من المقابر :

الرواق (رقم ٣) الذى يواجه المرء عندما يدخل القاعة طويل جداً ومصفوف على جانبيه مقاعد منخفضة لجلوس المعزين . ويوجد فى الحجرة تابوت ضخم من جرانيت أسوان الوردى . والرواق والحجرة الموجودان على اليسار تم الكشف عنهما بالحفر ، وتزيينهما بنفس التصميم ، ولكن فى العصر الرومانى تم إبرازهما بأعمال القرميد ، وإضافة ثلاثة توابيت جديدة .



THE ANFOUCHI TOMBS

مخطط لمقابر الأنفوشى ويبدو فيه تخطيط المقابر بجناحيها الأيمن والأيسر والردهات المختلفة

وتوجد آثار لمقابر أخرى فى الأرض الفضاء ، وهى تغطى جبانة جزيرة فاروس القديمة . فنحن الآن فى وسط الجزيرة ، وسنزور طرفها الغربى .

● إلى الأمام يقع قصر رأس التين ، وهو المسكن الصيفى للسلطان ، ويحل فيه رسمياً كل عام فى شهر يونيو ، وقد بنى محمد على هذا القصر (صـ١٣٢) ، حيث تم فيه لقاؤه العاصف بالسير تشارلز نابير ، الذى أنهى طموحاته المتغطرسة (صـ١٣٣) . وقد قام إسماعيل بترميمه ، وأقام فيه توفيق أثناء بعض المصاعب التى واجهته عام ١٨٨٢م (صـ١٣٧) . وهذا القصر ليس قبيحاً بخلاف كل القصور ، فالرواق الكلاسيكى الفخيم ذو الأعمدة يبدو مثيراً للإعجاب . وعلى يمينه توجد الثكنات⊗ .

وتضيق شبه الجزيرة . ويؤدى الطريق – يساراً - إلى نادى اليخت ، وينتهى عند المستشفى العسكرى الكائن بشكل جميل فى المنطقة الصخرية برأس التين . وتبدو المناظر الرائعة للميناء الغربى والبحر : فقد كان يوجد هنا معبد للإله نبتون . وتوجد بقايا مقابر على طول الساحل الشمالى ، كما توجد منارة حديثة داخل سياج المستشفى ، وهى تبين مدخل الميناء . ويبدأ حائل الأمواج من أسفل (أنشئ عام ١٨٧٠ - ١٨٧٤م) من صخرة أبى بكر المعزولة ، ثم ينحرف إلى اليسار . وفى الماء توجد جزيرة مربوط ولسان العجمى، وهما جزء من نفس سلسلة الحجر الجيرى مثل رأس التين ، ومتصلان بها عن طريق سلسلة من الصخور تحت سطح الماء .

والبحر فى غربى وشمالى هذه النقطة حافل ببقايا ميناء ما قبل التاريخ .

ميناء ما قبل التاريخ⊗

لتفاصيل هذا العمل الهام والغامض انظر «الموانى المغمورة لجزيرة فاروس»

المكتشف م. جوندبه M. Jondet ، وقد يكون هذا هو الميناء الذى أشارت إليه الأوديسة (انظر صـ٤٨) ، ولكن لم يذكره أى مؤرخ ، وقد ألحقه الثيوصوفيون(*) – بحماس أكبر من اللازم – بحضارة أطلنطس المندثرة . ويميل م . جوندبه إلى أنه قد يكون مينوسياً(**) ، وتم بناؤه عن طريق سلطة كريت البحرية . ولو كان مصرياً فى

(*) الثيوصوفية : معرفة الله عن طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى أو كليهما . المترجم

(**) نسبة إلى مينوس : مؤسس حضارة كريت . المترجم

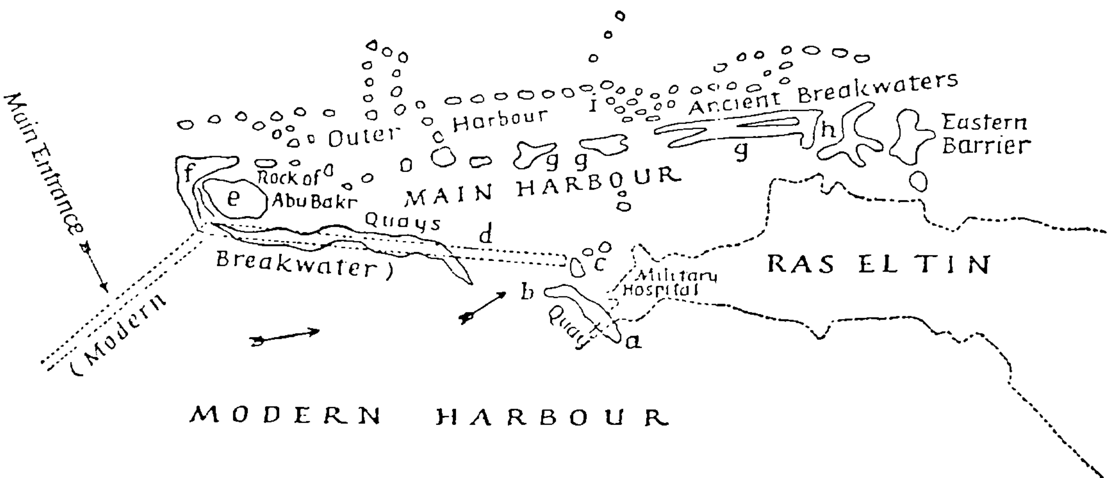
الأصل ، فقد يكون من أعمال رمسيس الثانى (١٣٠٠ ق.م) ، فقد اكتشفت تماثيل من عهده فى راقودة (صـ٤٩) ، كما أننا نعلم أن «شعوب الغرب» قد هاجمته ، وأنه قد بنى حصوناً لمجابهتهم . ولايمكن أن تكون هذه الحصون من عصر الإسكندر الأكبر مادمنا لانمتلك ما يدل على ذلك من وثائق . إنه أقدم عمل فى المنطقة ، وهو الأكثر رومانسية ، ويرجع ذلك إلى قدمه بالإضافة إلى غموض البحر .

ويمتد الميناء من صخرة أبى بكر طويلاً وضيقاً فى اتجاه الغرب من سد شرقى حتى يصل إلى الشاطىء خلف «برج البعثة المصرية» (La Tour de la Mission d'Egypte) وهذان الموقعان متصلان بسلسلة من حوائل الأمواج فى الشمال . والمدخل موجود فى جهة غير متوقعة . فبعد الدوران حول صخرة أبى بكر ، تتجه السفن شمالاً تحت نتوء رأس التين ، حيث توجد مياه عميقة ، وعلى اليسار توجد أرصفة صلبة ممتدة حتى صخرة أبى بكر ، ومستخدمة حديثاً فى تأسيس حائل الأمواج الجديد . وعلى اليمين يوجد رصيف آخر ، وعند الدخول إليه ، نكون فى وسط الميناء ، وترى ميناء ثانوياً فى الشمال .

وأفضل زيارة يمكن القيام بها للميناء هى عن طريق القارب ، لأن معظم الآثار توجد على عمق ٤ - ٢٥ قدماً تحت سطح البحر . وقد بدأت تغوص مثل خط الساحل بأكمله ، لأن الترسبات النيلية التى تقع عليها بدأت تنضغط وتنحدر إلى مياه أعمق . وهذه الآثار مبنية من الحجر الجيرى المجلوب من محاجر المكس والدخيلة ، ولكن صناعتها البسيطة لاتعطى بالطبع أى إشارة عن جنسيتها أو تاريخها . وحيث إن حائل الأمواج الجديد مبنى عبر المدخل ، فإنه يحول دون متابعة تخطيط الميناء القديم (انظر المخطط) . والرصيف الصغير (a) فى حالة ممتازة ، وهو على عمق أقل من أربعة أقدام تحت سطح الماء ، وطوله - ٧٠ ياردة ، وعرضه - ١٥ ياردة . وينحدر السطح بشكل تدريجى فى اتجاه الجنوب . والحجارة - التى يصل طول كل منها إلى حوالى ياردة - مقطوعة بحيث تتناسب تقريباً مع بعضها البعض ، وتملأ الفراغات بينها أحجار صغيرة .

ويجتاز حاجز مياه رأس التين نهاية هذا الرصيف ، ونقطة التقاطع قريبة من الكوخ الأحمر الموجود على الحاجز .

وفى الطرف الشمالى من الرصيف يوجد امتداد (b) ، وهو الذى كان يحمى مدخل الميناء .



THE PREHISTORIC HARBOUR

Modern work shown thus ....
Ancient work shown thus ———

مخطط لميناء ما قبل التاريخ   ويبدو فيه تخطيط الميناء وصخرة أبى بكر وحاجزا الأمواج القديم والحديث

وإذا اتجهنا أكثر شمالاً - بداخل الميناء تماماً - سنجد جزيرة صغيرة مغطاة بالآثار - بعضها مقابر ، وهي من عهد أقرب ، ومغمورة بالمياه ، وفيها أساسات مبنى مستطيل (٣٠ ياردة × ١٥ ياردة) ، ويمكن الوصول إليه بالسير في اتجاه الشمال . وهو متصل بالبحر عن طريق قنوات صغيرة في الشمال . وربما كانت هذه الجزيرة الصغيرة تحتوى على مكاتب الميناء .

وتظهر الأرصفة الكبيرة (d) هنا وهناك من خلال حائل الأمواج الحديث كخطوط لها لون أكسيد الحديديك (أحمر وأصفر) تحت الأمواج ، وطولها يصل إلى حوالى ٧٠٠ ياردة ، وهي منشأة على طراز الرصيف الصغير ، ولكن من أحجار أكبر ، ومتصلة بصخرة أبي بكر (e) ، والنتوء الغربي من ميناء ما قبل التاريخ ، عبارة عن كتلة صلبة تزيد مساحتها عن ٢٠٠ ياردة مربعة ، ومعظمها في مستوى سطح البحر ، ولكن يبرز منها جزء ، ومنقوش عليها عند القاعدة زخارف وبقايا بناء .

وهناك حاجز أمواج مزدوج (f) عند صخرة أبي بكر ، وهو يمثل حماية أكبر لهذه الآثار من البحر والرياح ، ومركب عليه حائل الأمواج الشمالي الضخم (g) ، وهو مزدوج أيضاً في بعض الأجزاء ، ويسير متقطعا حتى يصل إلى الحاجز الشرقي (h) والصخرة مسماه تيمنا بأول خليفة في الإسلام

والميناء الخارجي (i) لم يتم اكتشافه بشكل كامل حتى الآن .

وبالعودة إلى قصر رأس التين ، ننعطف يساراً . ونتتبع خط الترام الموازى لشاطىء خليج الأنفوشي . وهذا الخليج ضحل للغاية ، وتحمى مدخله سلاسل من الصخور ، وقد استخدمه القراصنة في وقت ما . ويعمل هنا صانعو القوارب المحليون بطول هذا الشاطىء ، ومشاهدتهم ممتعة .

ويوجد لسان الأنفوشي في ركن ، وبه مساحة للسباحة والاغتسال ، وبعده يوجد كل ما تبقى من قلعة عدا على نتوء صغير ، وقد خزن عرابي بارودة هنا عام ١٨٨٢م ، وفجرها الإنجليز (ص١٢٨) . والآن ينعطف الترام بزاوية حادة ، فتلوح في الأفق قلعة ثانية ، وهي قلعة قايتباي .

قلعة قايتباى « فاروس »

إن شبه الجزيرة الصغيرة المسحوقة والمهملة هـذه هى تقريباً أكثر بقعـة ممتعة فى الإسكندرية ، فهى تصل لارتفاع هائل ، كما كان الفنار - أحد عجائب الدنيا - واقفاً هنا . وعلى العكس من الاعتقاد الشائع ، فمازالت بعض بقايا فاروس موجودة .

ولكن الإلمام ببعض التاريخ مرغوب ، قبل زيارتها وزيارة القلعة العربية التى تحتويها .

لقد كانت ثروات شبه الجزيرة هذه معقدة ، ولكن جهود العلماء جعلتها واضحة من وقت قريب .

تـــاريخ :

١ - البناء الأصلى (انظر أيضاً صـــ ٦٠)

سمى الفنار باسم جزيرة فاروس (فى الفرنسية "Phare" وفى الإيطالية "Faro") ، وكان هذا الفنار فى تخطيط الإسكندر الأكبر لعاصمته البحرية دون شك ، ولكن لم يتم إنجاز هذا العمل حتى عهد بطلميوس فيلادلفوس . وتاريخ الإهداء المرجح ٢٧٩ ق.م ، عندما أقام الملك حفلاً لإحياء ذكرى والديه .

المهندس المعمارى سوستراتوس ، يونانى آسيوى ، والضجة التى أحدثها كانت هائلة ، فقد استند إلى الإحساس بالجمال والتذوق للعلم ، وهو استناد نموذجى فى ذلك العصر ، فقد أجمع الشعراء والمهندسون على الإطراء عليه . وكما اقترن البارثينون بأثينا ، واقترن معبد القديس بطرس بروما ، اقترنت فاروس بالإسكندرية ، فصارت الإسكندرية هى فاروس ، وفاروس هى الإسكندرية فى خيال المعاصرين . ولم يحدث فى تاريخ المعمار أن يتم تقديس مبنى غير دينى بهذا الشكل ، وأن يحوز أى مكان مثل هذه المكانة الروحية . فقد كان هادياً للخيال ، وليس فقط للسفن فى البحر ، وبعد ما خبا نوره بفترة طويلة ، توقدت ذكرياته فى أذهان الناس .

وقد أقيم الفنار فى ساحة ذات أعمدة (مخطط ٢ صـ١٨٩) ، وكان مكوناً من أربعة طوابق (مخطط ١ ، صورة ١). الطابق السفلى المربع كان به العديد من النوافذ ،

وكان يحتوى على الغرف ، المقدرة بنحو ثلاثمائة ، حيث كان يسكن الميكانيكيون والمساعدون . وكان يوجد به سلم حلزوني - ومن المحتمل أنه كان مزدوج الحلزونية - وربما كان في الوسط ماكينة هيدروليكية لرفع الوقود إلى القمة ، وإلا فعلينا أن نتخيل قافلة من الحمير التى لاتتوقف ليل نهار عن الصعود والهبوط على السلالم الحلزونية محملة ظهورها بالخشب . وكان الطابق ينتهى بمنبسط مربع ، وإفريز ، وصورة لتريتون(*) .

ويوجد هنا أيضاً نقش يونانى مكتوب بحروف كبيرة من الرصاص «سوستراتوس من كنيدوس ، ابن دكسيفانيس : الآلهة المخلصة للبحّارة» . وهى كتابة على الرغم من بساطتها ، فإنها تحمل معنى مزدوجاً . «الآلهة المخلصة» هى بالطبع كاستور وبولكس اللذان يحميان البحّارة ، ولكن المشاهد الموالى للبلاط قد يرجعها إلى بطليموس سوتير وبرنيس اللذين عزز ابنهما عبادتهما . والطابق الثانى كان ثُمانى الأضلاع ، ويملأه السلم الحلزونى من الداخل بشكل كامل . وفوقه كان الطابق الثالث الدائرى ، وفوق ذلك كانت الفنارة . ونظام الإضاءة غير محدد بدقة ، فالزائرون يتحدثون عن «مرآة» غامضة على القمة كانت أروع حتى من المبنى نفسه . ماذا كانت هذه «المرآة» ؟ هل كانت عاكساً فولاذياً لامعاً لعكس ضوء النار ليلاً أو ضوء الشمس نهاراً ؟ بعض الروايات تصفها بأنها مصنوعة من زجاج مزخرف بأناقة أو من حجر شفاف ، وتؤكد أن رجلاً كان يجلس تحتها ليستطيع بواسطتها رؤية السفن فى البحر والتى كانت غير مرئية للعين المجردة . هل كانت تلسكوباً ؟ وهل من المعقول أن مدرسة الإسكندر الأكبر للرياضيات قد اكتشفت العدسات ، وأن اكتشافها ضاع بسقوط فاروس ؟ إن هذا محتمل ؛ ومن المؤكد أن الفنار كان مجهزاً بكل الإنجازات العلمية المعروفة فى ذلك العصر ، والتى لم يتخطاها المجتمع القديم مطلقاً ، واعتبرها الناس فى العصور الوسطى عملاً من أعمال الجن .

وكان يقف على الفنار تمثال لبوسيدون(**) ، وكان هذا يمثل نهاية البرج ، الذى كان ارتفاعه الكلى يتجاوز بالتأكيد أربعمائة قدم ، ومن المحتمل أنه وصل إلى خمسمائة قدم .

(*) يوصف إله من آلهة البحر عند الإغريق ، له جسم رجل وذيل سمكة . المترجم

(**) إله البحر عند الإغريق . المترجم

٢ - تاريخ المبنى :

علينا الآن أن نتتبع هذه التحفة الهندسية خلال عصور الأساطير والنسيان ، والتى احتفظت بهيئتها ومهامها سليمة حتى الغزو العربى (عام ٦٤١م) . وكانت الكارثة الأولى التى لم يكن تداركها ممكنا هى سقوط المنارة (حوالى عام ٧٠٠م) ، وقد استتبعها بالطبع فقدان جهاز علمى لم يكن فى الإمكان تعويضه . وتوجد أسطورة تنص على أن الإمبراطور البيزنطى خطط لهذه الكارثة ، لانه لم يستطع الهجوم على مصر بسبب وجود «المرآة» السحرية ، التى اكتشفت سفنه فتم تدميرها ، فأرسل الإمبراطور ممثلا له استطاع أن ينال ثقة الخليفة ، وأخبره بأن كنوز الإسكندر الأكبر مدفونة تحت فاروس . وبدأ الخليفة فى أعمال الهدم ، وقبل أن يتدخل أحد سكان الإسكندرية من ذوى العلم الوافر ، كان الطابقان العلويان قد سقطا فى البحر ، فصارت فاروس مبتورة وبلا مشعل .

وتمت بعض الترميمات فى عهد ابن طولون (عام ٨٨٠ م) ، وأيضاً فى عام (٩٨٠م) ، ولكنها كانت مجرد إضافات وهمية للطابق الثمانى الاضلاع ، والتى استطاعت الرياح أن تطيح بها . ولكن إصلاحات المبانى كانت مهملة ، وفى حوالى عام (١١٠٠م) ، وقعت الكارثة الثانية ، وهى سقوط الشكل الثمانى نفسه على إثر هزة أرضية . وبقى الطابق السفلى المربع فقط ولكن كمجرد برج للمراقبة ، وتم تشييد مسجد صغير مربع فوقه (انظر مخطط ١ - الطابق السفلى) ثم جاءت الهزة الأرضية الأخيرة (القرن الرابع عشر) فدمرتها نهائياً . وعلى الرغم من أن العرب لم يقدروا على الحفاظ على الفنار ، إلا أنهم أعجبوا به ، وأعربوا عن حبهم للتمثال الرائع الذى كان فوقه ، والذى كان إصبعه يتبع المسار النهارى للشمس ، وتمثال آخر كان يصدر أصواتاً شجية تتعدد بتعدد ساعات النهار ، وتمثال ثالث كان يصدر إنذاراً بمجرد أن يقلع أى أسطول معاد . ربما كان التمثالان الأولان موجودين بالفعل ، فالسكندريون يحبون مثل هذه الألعاب . ويوجد عنصر الحقيقة فى أسطورة عربية أخرى ، تنص على أن المبنى كان مشيّدا على «سرطان زجاجى» . ومن المحتمل أن بعض المركّبات الزجاجية قد كونت الأساس . ونحن نعلم أن «مسلات كليوباترا» كانت مشيدة بالفعل على سرطانات من المعدن (صـ٢١٣) ، وقد خلط العقل الشرقى بين الأثرين . وتصل الأسطورة إلى ذروتها فى وصف زيارة موكب من الفرسان للفنار حيث تاهوا فى الثلاثمائة حجرة ، ثم وصلوا

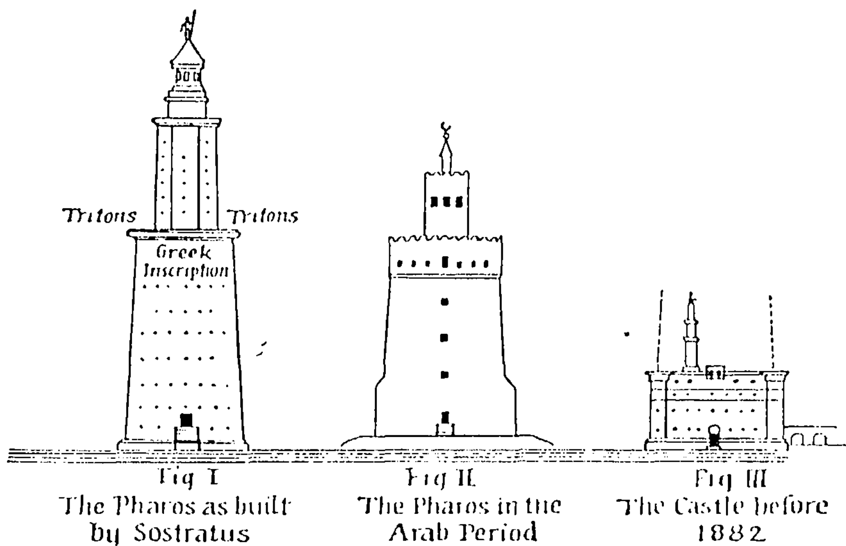


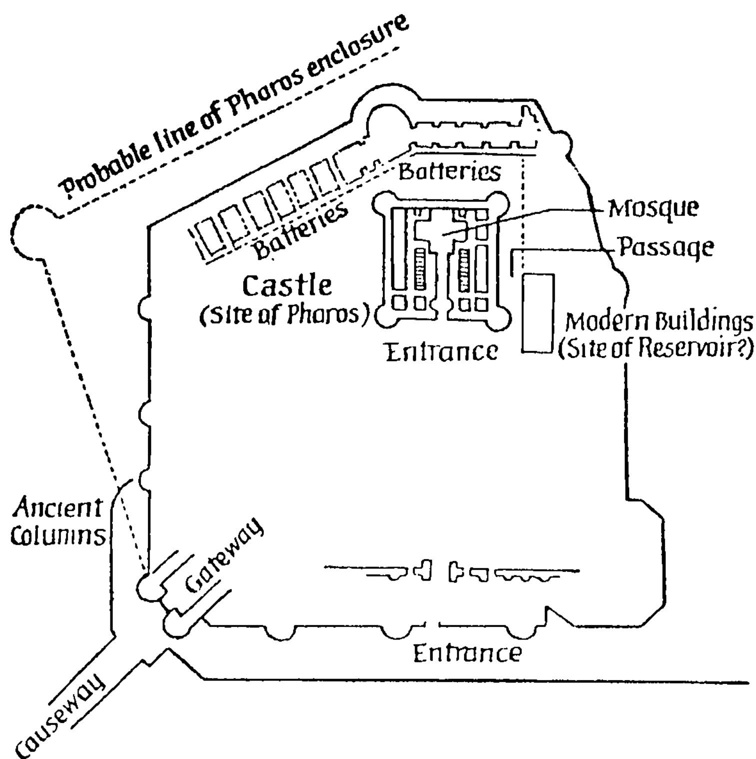
Fig I
The Pharos as built by Sostratus

Fig II
The Pharos in the Arab Period

Fig III
The Castle before 1882

KAIT BEY PLAN I

مخطط قايتباى (١) ويبدو فيه فاروس كما بناه سوستراتوس ، ثم وضعه أثناء العصر العربى ، ثم قلعة قايتباى حتى عام ١٨٨٢م



KAIT BEY PLAN II

مخطط قايتباى (٢) ويبدو فيه التخطيط الداخلى للقلعة ، والمسجد والأعمدة الأثرية والمبانى الحديثة

بلا قصد إلى فج في ظهر السرطان الزجاجي الذى انحدر بهم إلى مكان مسدود .
ولكن الفنار كان أحياناً يأوى مغامرات أكثر إمتاعاً . فقد كتب الديراوى ، على سبيل المثال :

منبر شامخ يهدى المسافر ليلاً

يهديه بنوره عندما يحل ظلام المساء

وهناك انطبع فى ذهنى ثوب من السعادة التامه بين أصدقائى

ثوب مزين بذكرى الأصدقاء الأعزاء

وبأعلاه قبة ظللتنى ، وهنا رأيت أصدقائى كالنجوم

وظننت البحر بأسفلى سحابة ، وأننى نصبت خيمتى فى وسط الجنة .

وفضلاً عن ذلك ، فإن كلمة «المنارة» - كما يسميها العرب — هى أصل كلمة "minaret" . ولاتوجد أى منارة فى الإسكندرية تشبه الفنار إلى حد ما . ولكن فى القاهرة (فى مقابر المماليك) يمكنك أن ترى الطابق السفلى المربع ، والشكل الثمانى والشكل الدائرى والقمة ، تلك التى تعيد إلى الأذهان التصميم ذا الطوابق الأربعة لسوسترانوس .

٣ - قلعة قايتباى :

أثقلت الأنقاض شبه الجزيرة لمائة عام ، ثم فى عام (١٤٨٠م) حصن السلطان المملوكى قايتباى هذه الجزيرة كجزء من ساحله الدفاعى ضد الأتراك ، الذين استولوا على القسطنطينية ، وكانوا يهددون مصر (صـ١٢٤) ، ويعتبر قايتباى رمزاً عظيماً فى القاهرة ، حيث تحيى المساجد ذكرى عهده المجيد . ولكنه لم يشيد هنا سوى قلعة ، ولكنها عظيمة معمارياً كشأن جميع أعماله ، وعلى الرغم من أنها مخربة ، إلا أن تخطيطها متناسق .

فتخطيطها كان عبارة عن شكل خماسى (مخطط ٢) . وفى المنطقة الواقعه فى موقع الفنار بالضبط توجد قلعة مربعة الشكل أو حصن يحتوى مسجداً بداخله (مخطط ١ ، شكل ٣ ، الذى يوضح القلعة قبل تخريبها ، والمنارة بارزة بداخلها) . وقد قام الأتراك بالغزو عام (١٥١٧م) ، وعندما تدهورت قوتهم بدورها ، قام محمد على (١٨٠٥ – ١٨٤٨م) بتجديد حصونها ، ولم يسمح بدخول أى زائرين ، واشتهرت القلعة كمكان حصين غامض ، وقد انتهت مهمتها بقذفها بالقنابل الإنجليزية

عام (١٨٨٢م) . وبالرغم من أنها لم نعان مثل قلعة عدا المجاورة لها ، إلا أنه تم تدميرها ، فنحطمت القلعــة ، وانهارت المنارة ، وتزايد الخراب والفساد هناك حتى اليوم⊗ .

ويمكننا الآن أن ننفحص الآثار الباقية (انظر مخطط ١ ، ٢ صـ١٨٨ ، ١٨٩) وقطعة الأرض الصغيرة المجاورة تكونت فقط فى القرن التاسع ففى الماضى ، كانت توجد مياه ضحلة ، يمتد فوقها جسر . وعلى اليمين ، ونحن نقترب منها ، يوجد مرسى لأسطول صيد إيطالى حيث كان الرجال يأتون من «بارى» فى البحر الأدرياتيكى . يؤدى الطريق المجاور للقلعة إلى حائل الأمــواج الحديث المبنى لحماية الميناء الشرقى والسور البحرى . وحائل الأمواج هذا عمل فخم ، وللأسف فإنه يتم الوصول إليه عن طريق بوابة تشبه بوابة سجن بلدية إنجليزى . وزخارف الإسكندرية الحديثة كئيبة للغاية ، والبوابة المسدودة التى كانت تؤدى إلى القلعة تحيط بها أبراج دائرية بداخلها العديد من الغرف المقبية من القرن الخامس عشر .

وعلى يسار القلعة ، يوجد بداخل سور قايتباى ، أو على الشاطئ حوالى ثلاثين عموداً من جرانيت أسوان الأحمر ، بالإضافة إلى قطعتين أو ثلاث من الجرانيت المرقش الجميل ، وقطعة من الرخام ، وهذه بقايا من الفنــار ، وربما كانت موجــودة فى أروقة الساحة المجاورة له ، والسور البحرى لهذه الساحة ينحرف عن خط سور قايتباى . وتوجد آثار لقطع الصخور⊗ .

وداخل القلعة (أفضل مكان لدخولها من اليمين) عبارة عن مكان أجرد وبه بعض من أكواخ حرس السواحل . والكوم الناتئ من البناء عند نهايتها هو بقايا قلعة قايتباى التى تحتل أرض مخطط الفنار ، وتستفيد من أساسها إلى حد ما . وبعض هذه الأساسات يمكن رؤيته فى الممر الموجود على يمين القلعة مباشرة ، ولكن اتجاه القلعة والفنار لم يكن بنفس الطريقة تماماً ، لأن القلعة كان يجب ضبطها على اتجاهات البوصلة حسب المسجد الذى تحويه .

والمبانى الحديثة الموجودة على يمين الممر مشيدة هى الأخرى على أساسات قديمه . ومن المعتقد أن خزان المياه كان مبنياً هنا ، وكان يملأ بالماء العذب من البر الرئيسى(*) . وكان على الجانب الآخر (أى على يسار القلعة الحالية) صرح يحتوى على تماثيل ميكانيكية تعمل على توازن التصميم ، ولكن هذا كله حدس وتخمين .

(*) البر الرئيسى من البلد تمييزا له عن الجزر الواقعة على سواحله - المترجم

والمسجد الموجود بداخل القلعة ملفت للنظر لسببين فهو الأقدم معمارياً في المدينة ، فضلا عن كونه قاهري الطراز في الأصل . وقد تم بناؤه بواسطة الحكومة المركزية في إطار مخططها للدفاع عن السواحل ' ولذا فهو لا يشبه المسجد العادي في الدلتا . والمدخل - بأعمدته الخمسة المصنوعة من الجرانيت المأخوذة من الفنار يبدو ذا تأثير يوحي بالآثار الإنجليزية القديمة(*) ، ولكن القوس الذي يعلوها والأبراج المحيطة تكاد تستدعي إلى الذهن الأمجاد التي تتعلق بأعمال قايتباي بالقاهرة . وبالرواق توجد بقايا نقوش في الجص على السقف ، وبقايا من الرخام في الأرضية . والمسجد الحالي على هيئة «مدرسة» ، عبارة عن مربع ، توجد في جدرانه فجوة مقنطرة في جميع الجهات ، وكل فجوة مخصصة لأحد المذاهب الأربعة (السنية) في الإسلام . ومسجد السلطان حسن بالقاهرة هو مثال شهير لهذا النموذج من المساجد . وهذا المربع والدرج المؤدي إلى الفجوات الأربع كله مغطى بالرخام ، ويدخل الضوء متخللاً التعشيقات الخشبية في السقف .

وبأعلى المسجد توجد حجرات مقببة ، ومن قمة المبنى يمكن رؤية مشهد للإسكندرية ، وهو ليس جميلاً ولكنه ذو دلالة⊗ من اليمين إلى اليسار ترى قلعة عدا ، ومنارة رأس التين (في الخلفية) ، ومئذنتي مسجدي أبو العباس والبوصيري (من الجهة الأمامية) ، وقلعة كوم الناضور ومسجد طربانة (من الجهة الأمامية) ، وعمود بومبي (في الخلفية) ، وقلعة كوم الدكة والخط الطويل للضواحي الشرقية ، ووراءهم توجد المئذنة البعيدة لمسجد سيدي بشر ، وينتهي الساحل بنتوء المنتزه المليء بالأشجار ، وأسفل ذلك تماماً يوجد حائل الأمواج الحديث الممتد في اتجاه النتوء المقابل المعروف بالسلسلة ، ويساراً توجد الصخرة الماسبة التي تتلاطم فوقها الأمواج . والآن دع الزائر (إن استطاع بذل هذا الجهد) يرفع نفسه أربعمائة قدم لأعلى في الهواء .. دعه يستبدل منارة رأس التين بمعبد لبوسيدون .. دعه يحذف المساجد والأرض المبنية عليها ، ويتخيل مكانها رقعة فسيحة من الماء يجتازها جسر .. دعه يضف إلى عمود بومبي معبد سيرابيس وإيزيس وجدران المكتبة الضخمة المدعمة .. دعه يجعل من كوم الدكة حديقة بهيجة رائعة في أسفلها مقبرة الإسكندر .. دعه يحول الضواحي الشرقية إلى حدائق .. وأخيراً دعه يفترض أن السلسلة ليست هي ما يمتد تجاهه ، إنما هي

(*) في الأصل (بانتر درويدي) نسبة إلى «درويد» ، التي تعني كاهنا عند قدماء الإنجليز - المترجم

نهاية القصر البطلمى الذى تلجأ سفن الأسطول الملكى الصغير إلى يمينه ، وتحيط به من جهة البر مدرجات المسرح وحدائق الجامعة .. وهنا يستطيع أن يكوِّن مفهوماً عما كانت تبدو عليه الإسكندرية القديمة عند النظر إليها من قمة الفنار ، وما كانت تبدو عليه عندما دخلها العرب فى خريف عام ٦٤١م .

وفى أسفل الحصون الموجودة شمال القلعة ، وتقريباً فى مستوى الشاطىء ، يوجد رواق طويل به بعض هياكل للمبانى التى تم ضربها بواسطة الإنجليز عام ١٨٨٢م .

ويسير الترام الآن بمحاذاة دوران الميناء الشرقى ، وهو حوض جميل الشكل ، وقد كان الميناء الرئيسى قديماً ، ولكن عندما خطط محمد على المدينة الحديثة ، عمل على تطوير الميناء الغربى بدلاً منه (صـ١٣٥) ، ويوجد حائل للأمواج من طابقين ليكسر الأمواج التى ترتطم بالطريق فى الجو العاصف ، وهناك متنزه رائع ، وأرصفة حديثة ، وهى التى تمتد على طول الطريق من قايتباى حتى السلسلة . والسير بطول هذه الأرصفة قد يكون ممتعاً ، على الرغم من أنه قد تفسده بعض الروائح الكريهة .

ونمر الآن ، على اليمين ، بمسجد البوصيرى (انظر ما سبق) ، وأخيراً نصل إلى الحدائق الفرنسية المتصلة بالميدان الذى بدأنا منه .

وعلى يسار الحدائق الفرنسية توجد القنصلية الفرنسية وهى مبنى منعزل ، ومكتب البريد العام ، والذى يتم الدخول إليه من الشارع الخلفى ، وكنيسة القديس أندروز ، وهى كنيسة اسكوتلاندية . ويميناً ، فى شارع الكنيسة المارونية توجد الكنيسة المارونية – وهى مبنى مقبول . (عن المارونيين : انظر صـ ١٢١ ، ٢٦٧) .

الفصل الثالث

من الميدان إلى الأحياء الجنوبية

المسار : ويبدأ من ميدان سانت كاترين وعمود «بومبى» إلى ترعة المحمودية عن طريق ترام كرموز (ذى المعين الأخضر) . ويسير ترام راغب باشا (ذو الهلال الأحمر) ، وترام محرم بك (ذو الدائرة الحمراء) أيضاً من الميدان إلى الترعة . ويوجد أيضاً الترام «الدائرى» (ذو المثلث الأخضر) ، والذى يعبر الخطوط الثلاثة السابقة فى طريقه من محطة سكك حديد مصر إلى أرصفة الميناء . ويوجد طريق للعربات على امتداد الترعة .

المواقع الرئيسية الهامة : «عمود بومبى» ، ومقابر كوم الشقافة ، والترعة . ليست الأحياء الجنوبية بالأنيقة ولا بالرائعة ، ولكنها تحتوى على موقع راقودة نواة الإسكندرية القديمة ، وهى تحتفظ ببعض الآثار الهامة (انظر صـ٤٨ - ٦٢) . ونوجد بها أيضاً الكنائس والمدارس التى تتبع مختلف الهيئات الدينية والسياسية (انظر صـ ٢٦٥) .

ونبدأ من الجهة الجنوبية للميدان ، ونصل فى الحال إلى ميدان سانت كاترين ، وهو عبارة عن رقعة مثلثة خضراء ، حيث كان استشهاد القديسة كاترين ، التى حملتها الملائكة إلى جبل سيناء . ولكن هذه الأسطورة ترجع إلى القرن التاسع فقط ، واحتمال حدوثها هو احتمال بعيد (انظر صـ ٩٢) ، وقد استوطن الفرنسيسكان هذه المنطقة فى القرن الخامس عشر ، وشيدوا كنيسة ، لكنها غير موجودة الآن . وفى عام (١٨٣٢م) أوقف محمد على أرضاً للرومان الكاثوليك ، وأقيمت كاتدرائية سانت كاترين الحالية ، وقد انهارت عند تشييدها ، ولكن هذا النذير لم يحل دون مواصلة البنائين لعملهم بعزم وعناد ، وكانت النتيجة هى هذه الكنيسة الكالحة من الخارج والمبهرجة من الداخل . وهذه الكاتدرائية لاتقوم بأى محاولة لإحياء ذكرى الأسطورة الرائعة التى تجذب الناس بروعتها فى الغرب . فلا كرامة لسانت كاترين فى الإسكندرية .

والطريق إلى الكنيسة يغمره -- فى كل الأحوال - هدوء كنسى ، وفى الخلف (يتم الدخول إليه عن طريق شارع سيدى المتولى) يوجد قصر رئيس الأساقفة الكاثوليك ، وضريح سيدى المتولى المقام على جانب الطريق ، وتحيط به حديقته .

وعلى يسار الكاتدرائية ، هناك مبنى آخر على نفس الدرجة من رداءة الذوق ، إنه كاتدرائيه الجالية اليونانية (اليونانيين الأرثوذوكس) ، وهى تحمل اسم «البشارة» .

ومدارس هذه الجالية قريبة من الكاتدرائية . وعلى اليسار ، بعد مغادرة ميدان سانت كاترين · شارع سيدى المتولى ، والذى يمتد فى نفس الطريق الكانوبى القديم ، وهو يمر بمسجد العطارين ، الذى يستحق المشاهدة . وفيما مضى كان فى هذا الموقع الهام أبنية أعظم شأناً من الموجودة به الآن ، حيث كانت به كنيسة للقديس أثناسيوس ، والتى تم تكريسها له بعد وفاته مباشرة (فى القرن الرابع الميلادى) . وأثناء الغزو العربى (أى فى القرن السابع) تم تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد كبير مربع الشكل مثل مسجد ابن طولون بالقاهرة ، وممتد إلى شمال المبنى الحالى ، ويحسبه السائحون مقبرة أو قصراً للإسكندر الأكبر .

وكان بداخله تابوت حجرى قديم ، يزن حوالى سبعة أطنان . وعندما علم الإنجليز أن الإسكندر كان يرقد هنا ، نقلوه إلى انجلترا ، عندما احتلوا الإسكندرية عام ١٨٠١م (انظر صـ ١٣٠) . وقد اعترض الفرنسيون ، وثار شيوخ المسجد بشدة ، وذهبوا لتوديع الأثر المقدس عند نقله بالقارب . وهذا التابوت موجود الآن بالمتحف البريطانى ، وثبت أنه ينتمى إلى الفرعون نخت هيروهبت (٣٧٨ ق.م) ، ومكانه الآن مسجد له شكل وتدى ، وله مئذنة على قمته . إنه نموذج صغير من المعمار الإسلامى الحديث ، وله واجهة ثانية تطل على شارع العطارين⊗ (حيث محلات العطور) وهى أصل التسمية . وبداخله يوجد ضريح سعيد محمد (القرن الثالث عشر الميلادى) ، وهو أحد مريدى أبى العباس (صـ ١٧٧) . ووراء هذا الشارع يمتد شارع رشيد (انظر الفصل الأول) ، وعلى اليمين هناك كنيسة السفارة الأمريكية ومحطة مصر .

وعلى اليمين بعد مغادرة الميدان منطقة تسكنها الجالية الأرمنية (انظر صـ٢٦٧)، وكنيستهم بسيطة وجذابة إلى حد ما ، وبها الردهة الغربية البارزة المميزة للمعمار الأرمنى ، مثل كاتدرائية إتشميادزين "Etchmiadzine" المطرانية . وفى ساحة مقابرها توجد نصب تذكارية لتاكفور باشا ولنوبار باشا من أعمال بويش (انظر صـ ٢٠٨) ، وهناك أيضاً تمثال من البازلت الأسود لأبو الهول على أرضية المدرسة .

● فى الأمام بعد مغادرة هذا المكان يمتد شارع أبو الدرداء . وفى منعطف منه على اليمين يوجد شارع الأمير عبد المنعم ، وهناك بعض بقايا المقبرة البروتستانتية القديمة فى المساحة المحيطة ببائع زهور يدعى موسنى . وهذه القبور تنتمى إلى عهد أقرب من تلك الموجودة عند القديس سابا (صـ١٥٢) ، وأكثرها أهمية هو قبر هنرى سولت . وسولت هذا هو رجل إنجليزى نشيط ، ولكنه على درجة من الغموض ، وكان له مزاج

فنى ، وقد جاء إلى هذه المنطقة لأول مرة عام (١٨٠٩م) ، عندما أرسل فى بعثة إلى أبيسينيا ، وبعد ستة أعوام أصبح القنصل العام ، ووافق على الخطط المالية لمحمد على (صـ١٣٣) ، وأذعن لاحتكاراته غير القانونية ، وكان عالم آثار متحمس من النوع التجارى ، وحاز امتيازات للتنقيب فى صعيد مصر ، وعرض نتائج التنقيب على المتحف البريطانى بأثمان باهظة . وبعد مساومات كثيرة ، اشترى المتحف مجموعته عام (١٨٢٣م) ، وتوفى بالقرب من الإسكندرية عام (١٨٢٧م) . والكتابة الغريبة الموجودة على قبره تقول: «لقد اكتشفت عبقريته الحاضرة اللغة الهيروغليفية ووضحتها، بالإضافة إلى العديد من الآثار الأخرى فى هذا البلد ، ونقل بقلمه الأمين والذكى تصويره المتقد لمشاعره الفطرية ، وقدم أفكاراً حية للعالم عن المشاهد التى أبهجته» .

وبعض القبور مختفية وسط النباتات والسراخس ، وهذه الجبانة كانت أوسع مما هى عليه الآن ، ولكن الطريق اقتطع جزءاً منها .

وفى نهاية شارع أبو الدرداء ، حيث ينعطف الترام ، يوجد مسجد عمرو بن العاص ، والذى كان مشيداً فى مكانه من قبل ، وكان يسمى مسجد الرحمة ، وقد أمر ببنائه الفاتح عمرو بن العاص حيث أغمد سيفه بعد الاستيلاء على المدينة عام (٦٤٣م) (انظر صـ ١٠٢) .

وينعطف يميناً ، ونسير لبضع ياردات بمحاذاة طريق يسير بخط الأسوار العربية المندثرة (صـ ١٢٤) ، ثم ننعطف يساراً عند المدارس الإيطالية الكبيرة ، ويدخل الترام الآن منطقة راقودة .

"عمود بومبى" ومعبد سيرابيس

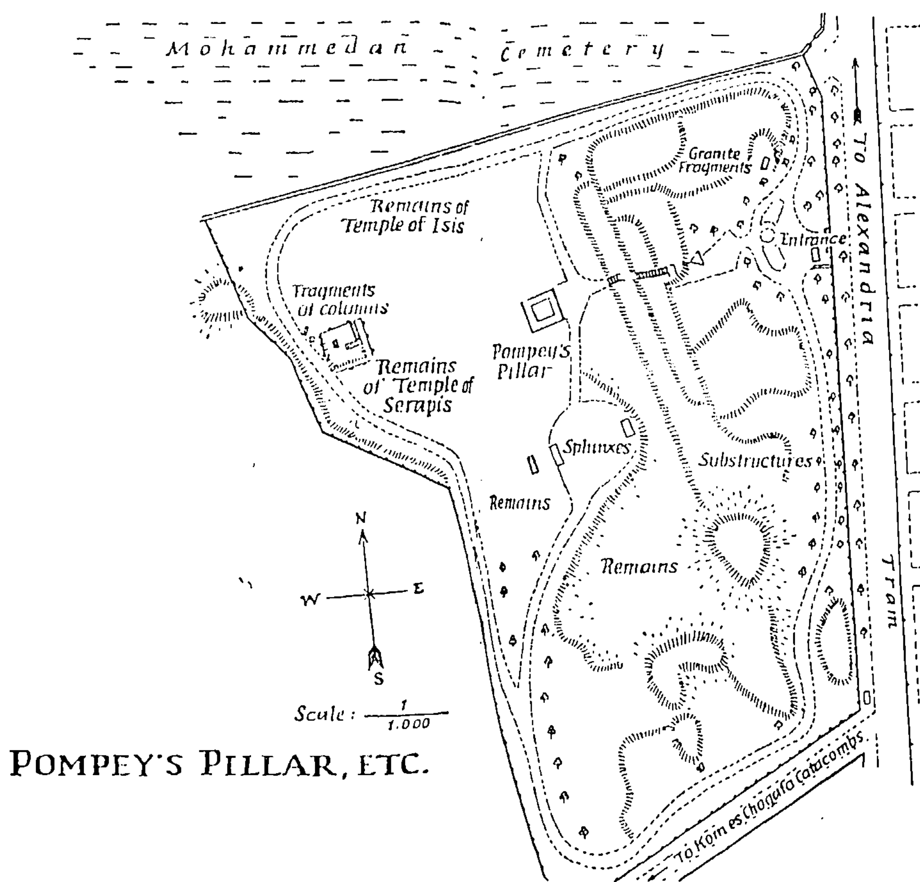
وكما يحدث غالباً فى الإسكندرية ، فإن التاريخ والآثار يفشلان فى تدعيم بعضهما البعض . فالكتاب القدامى لايذكرون «عمود بومبى» ، ولكنهم يقصون علينا الكثير عن المبانى المجاورة له ، والتى اختفت فى الوقت الحالى . فكان هذا التل المتراكم والمغطى بمعابد وبيوت منذ عصور قديمة حصناً لراقودة قبل قدوم الإسكندر بكثير (صـ ٤٨) ، حيث كانت تتم عبادة أوزوريس هنا . وقد حاز شهرة واسعة فى عهد بطليموس سوتير ، حيث تم إبدال أوزوريس بسيرابيس (صـ ٦٢) ، وتم تحصين الجزء العلوى من التل المغطى بالحصون الضخمة ، وبنى على قمته معبد الإله ، ثم أصبح

أكثر فخامة فى عهد كليوباترا ، إلى أن تم حرق مكتبة الإسكندرية الكبرى فى الحرب القيصرية⊗ ، وبدأت الملكة فى تكوين مجموعة جديدة ألحقتها بالسيرابيوم ، حيث كان هذا الموقع أهم المواقع الثقافية على وجه الأرض لأربعمائة عام ، وقد أباده المسيحيون . ففى عام (٣٩١م) أرسل البطريرك ثيوفيلوس (صـ ٩٥) إلى المعبد عصابة نهبته ، وحطمت تمثال الإله . ونستطيع أن نقول إنه لم يكن من المستحيل أن تتم إبادة الكتب فى نفس الوقت ، لأنها كانت مرتبة فى الأروقة المسقوفة ذات الأعمدة المشيدة حول المعبد (انظر مايلى) ، وكان على العصابة أن تجتاز هذه الأروقة حتى تصل إلى الغنيمة الرئيسية . وصارت أنقاضه تعج بالرهبان الذين شيدوا كنيسة للقديس يوحنا المعمدان فى ذلك المكان المقدس الذى تم تدميره . وهنا كان مركز قيادة سيريل - ابن أخى ثيوفيلوس (صـ ٩٦) ، حيث قرر أعوانه قتل هيباتيا فى الطرف الآخر من المدينة عام (٤١٥م) .

وقد اشتد الظلام بعد الغزو العربى . صحيح أن المكتبة كانت قد اختفت بالفعل (فالأسطورة التى تتهم العرب بحرق المكتبة تقوم على أساس واه) ، ولكن العرب تسببوا فى أضرار هائلة بأشكال مختلفة . فقد ألقى أحد الولاة العرب بأعداد هائلة من الأعمدة فى البحر على أمل أن تعترض هذه الأعمدة سبيل أسطول معاد . وعندما قدم الصليبيون إلى مصر (فى القرن الخامس عشر) كان النظام الأصلى للحصن قد اختفى ، ولكن ذلك العمود الوحيد جذب انتباههم . ولم يكن الصليبيون بالمثقفين ، ولكنهم كانوا قد سمعوا عن «بومبى» ، فأطلقوا على العمود هذا الاسم ، وادعوا أن رأسه موجود داخل كره على قمة العمود (انظر مشهد بيلون صـ ١٢٧) . ومازال هذا الخطأ باقياً . وعلى الزائر أن يتذكر أولاً أن هذا العمود لا شأن له بـ «بومبى» ، وثانياً عليه أن يتذكر أنه عبارة عن أثر ثانوى ، ولم تحفظه إلا المصادفة البحتة فما هو إلا جزء صغير من روائع معبد سيرابيس .

ويمكن زيارة الآثار التالية . (انظر الخريطة صـ ١٩٩) .

١ - **«عمود بومبى» (عمود السوارى)** : يبلغ ارتفاعه ٨٤ قدماً ، وسمكه حوالى ٧ أقدام ، وهو منحوت من الجرانيت الأحمر المجلوب من أسوان . وهو أثر مهيب ، ولكنه غير أنيق ، فلم تخلق العمارة شيئاً أكثر سخفاً من هذا العمود الأثرى ، وليس هناك مبرر لبقائه كل هذا الزمن ، فهو غيرمتناسق . فقاعدته جميلة ، وهى مبنية من أحجار جُلبت من مبان أقدم . ويوجد فى واجهته الشرقية (عند أقرب باب دوار) حجر من



مخطط للمنطقة المحيطة بعمود بومبى ومعبد سرابيس ويبدو فيه عمود بومبى وبقايا معبد سرابيس ومعبد إيزيس وبقايا الأعمدة وتماثيل أبو الهول

الجرانيت الأخضر عليه نقش يونانى على شرف «أرسينوى» - أخت وزوجة بطليموس فيلادلفوس (صـ ٥٨) ، وعلى الواجهة المقابلة (توجد بشكل معكوس داخل تجويف) صورة سيتى الأول (١٣٥٠ ق.م) واسمه بالهيروغليفية ، وهو يوحى بعصر الاستبطان العظيم على تل راقوده لماذا ومتى تم إقامة هذا العمود ؟

من المحتمل أن يكون قد أقيم للإمبراطور دقلديانوس ، حوالى عام (٢٩٧م) ، حيث إن هناك نقشاً يونانياً من أربعة أسطر مهدى إليه على القاعدة المصنوعة من الجرانيت فى الواجهة الغربية ، على ارتفاع حوالى عشرة أقدام . وهو لا يمكن قراءته وأنت على الأرض ، بل لا يمكن حتى رؤيته . وقد اجتهدت أجيال من العلماء لترجمته ، فتوصلوا للنتيجة الآتية : «إلى أعدل إمبراطور .. إلى إله الإسكندرية الحارس .. دقلديانوس الذى لا يقهر : بوستمس "Postumus" ، كامل مصر» .

لقد قمع هذا الإمبراطور الرهيب (صـ ٩٢) ثورة فى هذا المكان ، حيث كان يتم استرضاؤه كإله ، ومن الأرجح أن هذا العمود المقام فى فناء معبد سيرابيس كان يمجد قوته ورحمته ، وأن قمة العمود كانت تحمل تمثالاً له .

وهناك نظرية أخرى ترجح أن العمود تم تكريسه لانتصار المسيحيين عام (٣٩١م) ، وأنه كان يمجد الدين الجديد . وإن كان هذا صحيحاً ، فلابد أن العمود نفسه كان فيما سبق وثنياً ، لأن السكندريين فى ذلك الوقت لم يمتلكوا الإمكانيات أو القدرة على إقامة أثر جديد بهذا الحجم .

٢ - **معبد سيرابيس** : غربى العمود ، ويتم الوصول إليه عن طريق سلم ، والمعبد عبارة عن سراديب طويلة تحت الأرض ، محفورة فى الصخر ، ومكسوة بالحجر الجيرى . ومن المحتمل أن هذه السراديب كانت جزءاً من السيرابيوم ، فأساساته من هذا القبيل . وقد حددها بعض من الزوار المدّعين على أنها تخص المكتبة التى كانت الكتب محفوظة بها . وبداخل هذه السراديب توجد بعض الكوى نصف الدائرية التى كانت تستخدم لغرض غير معروف ، وهناك بعض الأعمدة المنحوتة من الرخام فوق سطح الأرض . جنوبى العمود ، وبالقرب من تمثال أبو الهول ، توجد ممرات أخرى مغطاة بالإسمنت ، وربما كانت هى أيضاً جزءاً من المعبد .

وكل هذا مجرد حدس ، فخريطة السيرابيوم التى جمعناها من الكتاب الكلاسيكيين ،

لايمكن مطابقتها على الآثار الباقية بأى شكل . فقد كان المعبد مستطيلاً ، وكان منشأ في وسط رواق مسقوف ذى أعمدة ، كان كل جانبين منه متصلين بصف من الأعمدة ، وكان الصفان متقاطعين . وكان المعبد مكوناً من بهو كبير ومزار داخلى ، ومن الأرجح أن المعمار كان يونانياً وبالتأكيد كان التمثال منحوتاً من الرخام الأزرق الداكن (صـ ٦٣) . من صنع برياكسيس .

٣ – **معبد إيزيس** : وإيزيس هى زوجة أوزوريس ، والتى تم اقترانها بنفس الشكل بخليفته سيرابيس ، وأقيم لها معبد فى العصر البطلمى فوق التل . وهناك بعض التنقيبات التى تتعلق بهذا المعبد شمالى العمود .

٤ – **تمثالا أبو الهول** : وقد عثر عليهما فى المنطقة المحيطة ، ويقعان شمالى العمود ، وهما منحوتان من جرانيت أسوان .

٥ – **بقايا إفريز** : وهى على المنحدر الكائن شرقى العمود ، ونمر بها فى طريق الصعود . وهى مصنوعة من الجرانيت بشكل رائع ، وتاريخها يرجع إلى القرن الأول الميلادى تقريباً . ومن المحتمل أنها جزء من البوابة الضخمة لمنطقة المعبد المسيجة . ومن يستغرق فى تأملها قليلاً قد يسترجع صورة لهذا المزار والعمود فى حد ذاته لايوحى بالمجد الزائل ولا بالصلابة .

وبهذا نختتم هذه الآثار ، التى تعتبر – بالنسبة لموقعها فى هذا المكان بالغ الشهرة – محبطة . ولكن هناك عزاء وحيد ، وهو أن هذا المكان هو موقعها الأصلى ، وقد تم تحديده بعد فترة طويلة من الشك ، وذلك عن طريق التماثيل والنقوش التى عثر عليها هنا ، وهى الآن بالمتحف (انظر غرفة ٦ ، ١٢ ، ١٦) . وبعد منطقة «عمود بومبى» المسيجة ، نعبر خط الترام ، وننعطف يميناً ، ونصل فى خلال عشر دقائق إلى مقابر كوم الشقافة .

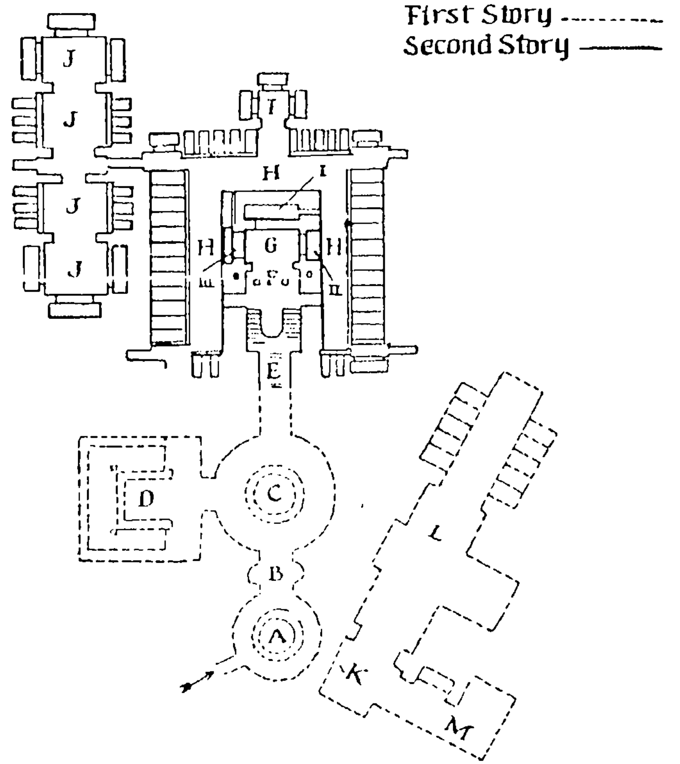
مقابر كوم الشقافة

بعد عبور الباب الدوار (بخمسة قروش) تجد أرضاً مسفلتة لحماية ما تحت الأرض من الرطوبة . على اليسار ، هناك أربعة توابيت أنيقة من الجرانيت القرمزى . وإلى أعلى ، أى فى المستوى الأصلى للتل ، والذى تم إزالة أجزاء منه عن طريق اقتلاع الحجارة والتنقيب ، توجد على منحدراته بعض الممرات المغطاة بالبلاط ، وهى أثرية ، ولكنها غير ممتعة . وعلى قمة هذا التل ، توجد فسيفساء من الحصى الأسود والأبيض ، والكثير منه قد انخلع . ومدخل المقابر موجود تحت البئر الكبرى من بئرى السلم الزجاجيتين . ومقابر كوم الشقافة هى أهم المقابر فى المدينة ، وهى فريدة على أى حال . فلم يتم اكتشاف أى شىء يضارعها . إنها فريدة فى تخطيطها وزخارفها التى تمزج بين التصميمات الكلاسيكية والمصرية بطريقة ملفتة للانتباه ، وهو ما لا يحدث أبداً إلا فى الإسكندرية ؛ فحجم المقابر ، والصور البديعة التى عليها ، وتماثيلها الغريبة مثيرة للإعجاب ، وخاصة لمن يزورها لأول مرة ، وبعد ذلك ، يبدأ سحرها فى الذبول ، فتصبح غريبة أكثر من كونها جميلة ، وتعبر عن التدين المتكلف أكثر من تعبيرها عن الدين . وتاريخها يرجع إلى القرن الثانى الميلادى تقريباً ، عندما بدأت المعتقدات القديمة فى الاندماج والانصهار . وأسماء شاغلى هذه المقابر غير معروفة . وهناك نظرية تزعم أنها كانت مدافن لعائلة ما ثم تم توسيعها على يد مؤسسة للمدافن . وقد تم اكتشافها عام (١٩٠٠م) فقط . ويجب فهم المخطط قبل النزول ، فهى مكونة من ثلاثة طوابق ، يقع أدناها تحت الماء (انظر الخريطة المقابلة) .

السلم (A) ، وهو مضاء عن طريق بئر السلم الذى كان الموتى يدلون منه بواسطة الحبال ، وينتهى السلم عند الردهة (B) حيث توجد كونان نصف دائريتين فى الحائط ، وكلتاهما مزودة بمقعدين ، وهما مقبيتان بطبقة صخرية رقيقة ، وهى فكرة فنية كلاسيكية غير معهودة فى الفن المصرى القديم . وبالقرب منها توجد القاعة المستديرة (C) ، وفى منتصفها بئر سلم على حافته ثمانية أعمدة ، يرتكز عليها سقف على شكل قبة ، ويحيط بالبئر ممر دائرى . وعلى يسار القاعة المستديرة ، توجد قاعة الطعام (D) حيث يأكل أصدقاء الميت وأقاربه إحياء لذكراه . إنه لمشهد كئيب . وهنا توجد ثلاث أرائك منحوتة من الحجر الجيرى حيث كانوا يتكئون على فرشها ، وقد اختفت المنضدة التى كانت فى الوسط ، ومن المحتمل أنها كانت من الخشب ، وكذلك اختفت الأعمدة التى يرتكز عليها السقف .

KOM ES CHOGAFA

PLAN OF CHIEF CHAMBERS



A Well Staircase
B Vestibule
C Rotunda
D Banquet Hall
E Staircase
F Vestibule
G I II III Central Tomb
H Passage
I Tomb Chamber
J Gallery
K Square Well
L Hall of Caracalla
M Gallery of Painted Tomb

مخطط يوضح مقابر كوم الشقافة بطابقيها الظاهرين وحجراتها وردهاتها وقاعات الدفن

ويخرج من القاعة سلم (E) الذى يهبط إلى الطابق الثانى ، حيث تظهر المقبرة الرئيسية المدهشة ، ويمكن الحصول على نتائج عجيبة عند ضبط الإضاءة الكهربية . والسلم مكسو بزخارف من الصدف وفى منتصف الطريق - لأسفل - يتفرع السلم إلى جهتين مكوناً شيئاً ما أشبه بمقصورة الملقن فى المسرح ، وهو يحجب عن العيان سلماً آخر يهبط إلى الطابق الثالث ، وهو حالياً تحت الماء .

المقبرة الرئيسية :

وتسود السمات المصرية الردهة (F) ، فى المقدمة حبث بوجد عمودان أنيقان لهما تاجان مزخرفان ، وعمادان[*] لهما تاجان مربعان وعليهما نقوش لنبات البردى . والأعمدة الأربعة تحمل إفريزاً مزيناً بقرص الشمس المجنح (رع) ، والصقور الحارسة . وبداخل الردهة ، يوجد على اليمين وعلى اليسار تمثالان من الحجر الجيرى الأبيض لرجل وامرأة ربما يكونان للمالك وزوجته ! وعلى الجدار البعيد بتزايد الاختلاط بين الدين والفن ويحرس مدخل حجرة المقبرة ثعبانان ملتحبان هائلان ، وهما لا يطوقان فقط صنوبر[**] ديونيسس وصولجان هرميس[***] الأفعوانى ، ولكنهما يلبسان أيضاً التاج المزدوج للوجه القبلى والوجه البحرى . وعلى كل ثعبان توجد رأس ميدوزا فى ترس دائرى . وعلى عتبة الباب الداخلى العليا يوجد قرص الشمس المجنح وإفريز من الأفاعى . وحجرة المقبرة (G) تحتوى على ثلاثة توابيت ضخمة منحوتة كلها من الصخر ، وهى كلاسيكية التصميم ، ومزخرفة بأكاليل من الفاكهة والزهور ، وبرءوس ميدوزا وجماجم ثيران ... إلخ ، وأغطيتها لا يمكن رفعها ، ولابد أن المومياوات كانت تدفع إلى داخل التوابيت عن طريق الممر الخلفى (انظر مايلى) . ولكن فى حقيقة الأمر ، فإن هذه التوابيت الثلاثة لم يتم شغلها من قبل .

إنه لمن الغريب حقاً فى كوم الشقافة أن تلك المعدات الجنائزية الضخمة والمتقنة الصنع قد آلت إلى العدم .

(*) العماد هو مستطيل ذو تاج وقاعده بانى ، بعض الشىء من حدار المترجم

(**) بقصد ثمار الصنوبر التى يحملها ديونيسس المترجم .

(***) هرميس هو رسول الالهه عند الإغريق ، وإله الطرق والتجارة والاختراع والفصاحة والمكر واللصوصيه المترجم .

وفى الكوة الموجودة خلف كل تابوت توجد نقوش ضئيلة البروز من الطراز المصرى ، ولكنها منفذة بأسلوب غير ذكى .

وفى الكوة الوسطى (G i) توجد مومياء فى تابوت على شكل أسد يلبس تاج أوزوريس ، وتوجد عند قدميه ريشة ماعت (إلهة العدالة) . ووراء التابوت يوجد أنوبيس (إله التحنيط) ، وعلى رأسه تحوت حاملاً رمز الخلود ، وحورس عند قدميه . وهناك أسفل التابوت ثلاثة أوعية كانوبية ، وهى أوعية للأحشاء ، ومن المفروض أن تكون أربعة .

-- النقوش الجانبية : على اليسار : رجل مع كاهن ، وعلى اليمين . امرأة مع كاهن . وفى الكوة اليمنى (G ii) تصميم جميل لأمير يلبس تاج مصر المزدوج ، ويقدم طوقاً للعجل آبيس الذى يقف على قاعدة تمثال ويحتوى قرص الشمس بين قرنيه . وخلف آبيس ، تقف إيزيس وهى تحمل ريشة العدالة وتفرد جناحيها الواقيين فى منظر زخرفى جميل .

-- النقوش الجانبية . على اليسار . ملك أمام إله (خنس) ، وعلى اليمين . وعاءان كانوبيان ، أحدهما له رأس قرد ، والآخر له رأس مومياء .

والكوة اليسرى (G iii) وهى شبيهة بالكوة اليمنى ، لكن أحد الأوعية الكانوبية على الحائط الأيمن له رأس صقر .

ويوجد تمثال غريب على كلا جانبى المدخل . على اليمين (عند الخروج) تمثال «لأنوبيس ذى رأس الكلب» ، ولكنه يرتدى زى جندى رومانى ، ويحمل درعاً وسيفاً قصيراً ورمحاً .

وعلى اليسار : تمثال للإله سبك "Sebek" ، وعلى الرغم من أنه أساساً تمساح ، إلا أنه محشور داخل حلة عسكرية ، ويرتدى قناعاً ويمسك رمحاً . ربما كان المقصود من وراء هذين التمثالين العجيبين هو حراسة المقبرة ، ولكن لا يجب أن يتأملهما المرء كثيراً ، أو أن يتعمق فى أى شىء هنا . لقد كان منوطاً بالعمال الموظفين هنا أن يصنعوا حجرة لائقة بالموت ، وإذا حكمنا بهذا المقياس ، فهم قد نجحوا فى ذلك .

ويوجد رواق واسع (H H H) حول المقبرة الرئيسية ، وفى حوائطه تجاويف فى صفين ، يمكن أن تحوى نحو ثلاثمائة مومياء ، ويمكن أن ترى خلف المقبرة الرئيسية منافذ ، دخلت التوابيت الثلاثة الضخمة من خلالها ، وتم إدخال المومياوات منها ، ويخرج من هذا الرواق حجرة مقبرة أخرى (I) ، وهناك على اليسار بهو كبير ذو أعمدة (J J J) ، ومزود بأوعية من الطراز المعهود .

وكل هذه الحجرات تمثل جزءاً من مخطط واحد . ونعود الآن إلى القاعة المستديرة (C) ، فندخل إلى مجموعة متميزة جداً من المقابر ، وذلك عن طريق صدع في الصخر ، وهذه المجموعة من المقابر مضاءة بواسطة منور مربع (بئر سلم) وكان يتم الوصول إليها من قبل عن طريق سلم منفصل ، وهو الآن متهدم . ومن العجيب أن القاعة (L) تسمى بقاعة كاراسيلا ، علماً بأن هذا الإمبراطور قام بمذبحة قتل فيها الكثير من الشباب السكندرى الذين استدعاهم إلى استعراض عسكرى ، وعلى أرضية القاعة ، تم العثور على الكثير من عظام الرجال والخيول التى اختلطت ببعضها البعض . وجدران هذه القاعة بها تجاويف مقابر بشكلها المعهود . والبهو (M) يحتوى على مقبرة جميلة : كانت مغطاة من قبل بطبقة من الجص الأبيض ، وملونة بأسلوب لطيف .

وفى الكوة الموجودة بأعلى التابوت توجد صورة تمثل إيزيس وأختها نفتيس تفردان جناحيهما فوق مومياء أوزوريس ، وهناك صور أخرى على الحوائط الجانبية . وعلى الحائط الداخلى إلى أعلى ، هناك صورة تمثل الروح على هيئة طائر . وفوق المدخل ، توجد صورة للشمس ، وزهرية ذهبية على كلا الجانبين ، وعليها صورة أبو الهول واضعاً قدمه على عجلة .

ونحن الآن نصعد السلم (٨) حيث مشهد مريوط . ومن لم يمل من المقابر الفارغة ، سيجد الكثير منها على اليمين بعد الهبوط على سلم منحوت فى الصخر

● وأسفل كوم الشقافة مباشرة ، تجرى ترعة المحمودية التى أمر محمد على بشقها (لمعرفة الظروف المحيطة بهذا الأمر ، انظر صـ ١٣٥) . وهناك طريق بمحاذاتها ، يؤدى – يميناً – إلى منطقة مخازن القطن (الفصل السادس) ، ويؤدى يساراً – بالسير أو بالركوب – إلى النزهة (الفصل الرابع) . وهذا الطريق لطيف إلى حد ما ، ولبس لطيفاً على مستوى آخر ، فهو يعبر ترعة الفرخة عند محرم بك ، وهى ترعة منفرعة من ترعة المحمودية بزاوية حادة ، وتتجه نحو البحر . ثم بعد ذلك ، هناك مكان ظليل يدعى «الشانزليزيه» ، وهو لا يشبه نظيره الباريسى ، لا فى مميزاته ولا فى عيوبه .

الفصل الرابع

من الميدان إلى النزهة

المسار : استقل الترام (ذو الزهرة الخضراء) من الطرف الجنوبي لشارع الرمل ، أي بمجرد مغادرة الميدان . ويمر ترام محطة المياه (ذو النجمه البيضاء) بهذا الميدان ، ولكنه لا يجتاز محطات المياه التي تقع في منتصف الطريق إلى النزهة .

المواقع الرئيسية الهامة : حدائق البلدية ، حدائق النزهة ، وحدائق أنطونيادس .

للتعرف على شارع الرمل (انظر الفصل الخامس) وبعدما تعبر هذا الشارع ستجد الترام يسير على اليمين ، ويمر بمسرح الهمبرا ، وهو المسرح الوحيد بالمدينة ، ومبناه لبس سيئاً ، ويوجد خلف المسرح مباشرة طريق يؤدي يساراً إلى كاتدرائية البطريركة الكاثوليكية القبطية (صـ ٢٦٧) ، أو كنيسة القيامة ، وهو مبنى غير متميز ولكنه ذو أهمية لكل من يحاول التعرف على الفئات الكنسية في الإسكندرية . وقد كرسها البطريرك سيريل الثاني عام ١٩٠٢م ، وأوقف الإمبراطور فرانسيس جوزيف إمبراطور النمسا أموالاً عليها ، كما ينص على ذلك نقش في المدخل (تمت إزالته قريباً) . وهناك تاريخ آخر موافق لهذا التاريخ (١٦١٨) بالتقويم القبطي ، وهو لا يبدأ بميلاد المسيح ، ولكنه يبدأ باضطهادات القرن الثالث الميلادي (صـ ٩٢) . وواجهة الكنيسة تشبه كنيسة القديس جون لاتيران في روما . والقنصلية البريطانية والمستشفى الحكومي يوجدان خلف الكنيسة .

وينعطف الترام يساراً ويسير بامتداد شارع السلطان حسين ، المعروف للأهالي باسم شارع ألمانيا ، ويمر بين مدارس ميناس (اليهودية) وحديقة كرومر ، وهي حديقة صغيرة مسورة مخصصة للسيدات والأطفال .

ميدان سعيد . وهو مساحة دائرية في وسطها عمود بطلمي ضخم أقيم في ذكرى استرداد الخرطوم في الثاني من سبتمبر ١٨٩٨م . وعلى كل من جانبي العمود يوجد تمثال للإلهة سخت ذات رأس الأسد . والسيدات السكندريات اللاتي يجلسن أحيانا في أعداد هائلة في هذا الميدان هن ندابات محترفات ينتظرن خروج أي جنازة من

المستشفى الحكومي المصرى الكائن خلفهن . والطريق التى تخرج من الميدان تتجه يساراً إلى محطة المزاريطة على خط ترام الرمل (الفصل الخامس) ، ويمينا إلى شارع رشيد (الفصل الأول) .

● على اليسار : توجد حدائق البلدية ، وهى صغيرة ولكنها مخططة بشكل بديع . وقد أظهر المصمم - السيد مونفرونت - عبقريته حقا فى معالجته لهذه المساحة من الأرض . وتستمر الحدائق بمحاذاة خط الأسوار العربية (صـ١٢٤) ، وتجتاز أيضاً مسار ترعة الفرخة القديمة والتى كانت تصل ترعة المحمودية بالبحر (صـ٢٠٦) . وقد تم الانتفاع بهذين المَعْلَمين ، حيث تحولت التحصينات إلى تلال صغيرة رائعة ، أو بقيت ككتل من البناء ، وهى على الرغم من قيمتها المتواضعة فى حد ذاتها ، إلا أن تنسيقها بمهارة جعلها تبدو فى ضوء القمر وكأنها تنتمى إلى العصور الوسطى . وعندما تم تجميع المياه من الترعة فى بركة صناعية تحولت إلى مرتع للبط . ولابد من عمل استكشاف شامل لهذه الحدائق بكل دقة⊗ .

ومن الترام يمكن رؤية تمثال نوبار باشا داخل الحديقة ، وهو من صنع بويش "Puech" ، والطربوش الموجود على رأس التمثال أكبر من اللازم ، ولكن المظهر العام جيد . واليد اليسرى تستند على لوح منقوش عليه جملة بالفرنسية تقول «العدل أساس الملك» ، وتظهر نفس الحكمة على قاعدة التمثال . وكان نوبار أرمنياً ، وكان سياسياً اختلفت الآراء فى أمانته ، على الرغم من أنه لم يثر أى جدال حول مهارته . وأصبح وزيراً فى عهد الخديوى إسماعيل (١٨٧٨م) ، وحاول تنظيم موارده المالية ، وخدم أيضا فى عهد الخديوى توفيق ، وكان شعاره المفضل «كن حذراً عند الانفعال» ، وهذا ما كان عليه هو دائماً ، وهو مدفون خارج الكنيسة الأرمنية (صـ١٩٦) .

● ويصل الترام إلى نهاية شارع رشيد (الفصل الأول) ، ويعبر نطاق الحدائق التى تستمر إلى اليمين فى متابعة مسار الأسوار العربية المندثرة ، وتحول المنحدرات إلى أشياء نافعة ، وتستمر بعد ذلك أيضا حتى محطة السكك الحديدية ثم تتشكل على هيئة حدوة حصان . وبساراً ، توجد المقابر الكاثوليكية الرومانية ، وفى ثانى هذه المقابر ، فى نهاية الممر الرئيسى ، توجد مقبرة أثرية أنيقة يجب زيارتها ، وهى موجودة بداخل حفرة ، وقد انهارت جدرانها الضخمة المبنية من الألباستر ، وكشفت عن سطوح المقابر اللامعة . وبالقرب من هنا يوجد ضريح بومبى ، ويقال إن

هذا هو المكان الحقيقى الذى وُضعت فيه رأسه بعدما أحضرها قاتلوه إلى يوليوس قيصر ، وهذا مجرد حدس ، وعلى الأرجح أن هذه المقـبرة تعود إلى عام ٤٨ ق.م لأنها عمل فنى متقن الصنع .

وعلى اليمين ، فى الجانب الحديث من الجبّانة توجد مقابر قديمة أخرى ، وعمود مكسو بالملاط ، وقاعدته بها شق يمتد إلى العمق .

● وفى مواجهة المدخل تقريبا ، يوجد نصب تذكارى للجنود الفرنسيين فى الحرب العالمية الأولى وهو عبارة عن مسلة مقطوعة من رخام «كرارة» صممها المهندس المعمارى الفرنسى مون . ف . إيرلانجيه (Mons .V. Erlanger) فى الإسكندرية ، وهو يمثل رمزاً للحب فى ذكرى وفاة رفاقه فى السلاح ، وقد أزاح عنها الستار اللورد اللنبى فى ٢٣ إبريل عام ١٩٢١م .

وعلى المدرّج المواجه للممر العمومى يوجد النقش الآتى .

فى ذكرى الجنود الفرنسيين الذى سقطوا صرعى أثناء الحرب العظمى ، وهو مقدم من الجالية البريطانية للجالية الفرنسية لإحياء ذكرى الأعمال العظيمة التى قامت بها الجيوش الفرنسية فى الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨م) .

وينعطف الترام يمينا من هنا بجانب نقطة شرطة بوابة رشيد ، التى يعلوها برج صغير به ساعة لإحياء ذكرى الملك إدوارد السابع ، ويصل إلى نهاية الخط ، حيث توجد محطة المياه وسجن الحضرة . وتجتاز السكك الحديدية جبانة الحضرة القديمة (انظر المتحف - حجرة ١٩) ثم قرية الحضرة حتى نصل إلى نهاية الخط فى النزهة بالقرب من محطة سكك حديد النزهة وترعة المحمودية .

● لقد كانت «النزهة» فى عهد البطالمة مسماة بضاحية إليوزيس ، حيث عاش الشاعر كاليماخوس (صـ٧٥) ، وحيث أوقف الجنرال الرومانى يوبيلبوس (١٦٨ ق.م) ملك سوريا الذى كاد أن يحتل الإسكندرية ، ورسم حوله دائرة فى الرمال ، وأجبره أن يختار على الفور بين السلم والحرب .

وهنا أيضا نزلت فرسان عمرو (صـ١٠٠) قبل أن يدخل المدينة ، وتحيط الحدائق بخط السكك الحديدية ، وقد قامت البلدية بتوسيع هذه الحدائق التى كانت حديقة صغيرة ملكا لإسماعيل باشا ، وهى حدائق غاية فى الجمال . لو قام المرء بالحكم على الإسكندرية من خلال حدائقها ، فليس بوسعه سوى الإطراء ، فهناك بعض الحدائق

برسم دخول وبعضها الآخر مجانى ، ومن يحبون البجع سيجدونه فى بركة على اليمين ، وإلى الأمام توجد حديقة الحيوان وكشك لفرقة موسيقية ومطعم . ويمكن من فوق القمة الموجودة خلف بحيرة الحضرة رؤية منظر أبو النواطير (الفصل الخامس) .

وعلى يمين كشك الموسيقى ، توجد منطقة مسيجة ، يتم دخولها مقابل رسوم ، ويجب أيضا زيارة هذه المنطقة ، حيث يوجد بها أشجار وأزهار وبيوت زجاجية جميلة⊗ .

● ونوجد خلف بركة البجع بوابة صغيرة تصل بين حدائق النزهة وحدائق أنطونيادس (رسم دخولها يختلف تبعاً لأيام الأسبوع) ، كلتا الحديقتين تابعة لبلدية الإسكندرية ، وهما حافلتان بالتماثيل الحديثة ، التى على الرغم من انعـــدام قيمتها ، إلا أنها تعطى للمكان طابعاً لطيفا ، وبها أشجار ونباتات متسلقة جميلة ، وهناك مرج بديع خلف المنزل الذى سكنته عائلة أنطونيادس اليونانية الثرية حتى وقت قريب .

●وفى الحقل الموجود خلف حدائق أنطونيادس توجد مقبرة أثرية ، وأسهل طريق للوصول إليها هو عن طريق البوابة الخلفية التى يفتحها البستانى أحيانا ، وإلا فيجب العودة إلى حدائق النزهة ، والسير بمحاذاة الترعة قليلاً ، ثم الانعطاف فى النهاية إلى اليسار وتوجد المقبرة خلف طريق حلزونى سخيف منحوت فى الصخر ، ويتم الوصول إليها عن طريق مجموعة من درجات السلم ، وأغلب الردهة مغمور بالماء ، وتخطيطها هو نفس تخطيط مقابر الأنفوشى (صـ١٧٨) ، وهو عبارة عن ردهة مغمورة بالماء يخرج منها ثلاث حجرات للدفن .

الطريق الواقع خلف الحدائق بمحاذاة الترعة جميل ، ومن المحتمل أنه يتبع نفس مسار القناة القديمة المتجهة إلى كانوبس ، حيث اعتاد السكندريون أن يخرجوا فى زوارق ليمنعوا أنفسهم ويقوموا بعبادة سيرابيس ، وهذا الطريق كان يطوق مياه الحضرة عند مكان محدد .

وفى الطريق الآخر (غرباً) تجرى الترعة فى اتجاه المدينة (الفصل الثانى) ثم تصب فى الميناء فى النهاية (فيما يخص تاريخ الترعة انظر صـ١٣٥) .

يوجد طريق من النزهة إلى سيدى جابر مباشرة (الفصل الخامس) بجانب البحيرة وهو يمر يساراً بالمكان الذى اكتُشف فيه تمثالان هائلان يمثلان أنطونيو على هيئة أوزيريس ، وكليوباترا على هيئة إيزيس ، وتمثال أنطونيو موجود فى المتحف (ساحة الحديقة) صـ١٧٣ .

الفصل الخامس

من الميـــدان إلى الرمـــل

المســار : سر من شارع الرمل إلى نهاية خط الترام ، حوالى عشر دقائق سيراً على الأقدام . ثم استقل الترام (ذا العلامة الحمراء) المتجه إلى بولكلى ثم سان ستيفانو ثم ڤيكتوريا . والترام ذو العلامة الزرقاء يتجه إلى سان ستيفانو فقط عن طريق باكوس ، وهو مواصلة جيدة .

المواقع الرئيسية الهامة : البحر ، والمنظر من أبو النواطير ، والحدائق الخاصة ، والصخور البارزة .

نبدأ من الركن الشمالى الشرقى للميدان ، ونسلك شارع البورصة القديمة الذى يوجد به على اليمين نادى الوحدة الذى يرتاده الإنجليز ، وعلى اليسار توجد **البورصة القديمة** ، وهى لبست مبنى سيئاً ، بها رواق عند المدخل من الأعمدة الرخامية ، وهى مقببة من الداخل ، وصارت الآن مكتب «لويد ترسنبنو» . ويؤدى هذا الشارع إلى شارع الرمل بالانعطاف يميناً .

وهو شارع (اسمه الرسمى شارع محطة الرمل) رئيسى مزدحم يعج بأناس يجرون من وإلى نهاية خط الترام .

ويميناً من هذا الشارع يوجد شارع ديبان⊗ ، الذى توجد به كنيسة كاثوليكية يونانية سريانية مكرسة لتخليد القديس بطرس (صـ٢٦٧) . وقد أقامها الكونت ديبان ، وهو سورى تحت الحماية البرازيلية ، وقد منحه البابا هذا اللقب . ومدافن عائلته تمتد بطول هيكل الكنيسة ، وهى بلا أهمية ، ولكنها نموذج للتعقيدات الدينية والعرقية فى الإسكندرية .

ويساراً من شارع الرمل ، يوجد شارع أڤيروف الذى توجد بنهايته كنيسة الأرمن الكاثوليك (صـ٢٦٧). ويميناً «ثانية» من شارع الرمل إلى شارع الكنيسة القبطية توجد كاتدرائية بطريركية الأقباط الأرثوذكس (صـ٢٦٦) ، وهى مكرسة لتخليد القديس مرقص ، ومن لم ير من قبل كنيسة قبطية ، فعليه أن يزورها زيارة قصيرة ، فهى قبيحة وسخيفة . والحاجز الذى يفصل صحن الكنيسة عن الحرم عليه عدة صور ، منها صورة للقديسة دميانة مع عَجَلتها ، وهى القديسة المصرية التى من المحتمل أن تكون أصلاً لسانت

كاترين فى الإسكندرية ، وحولها فى الصورة أربعون فتاة شاركتها فى الاستشهاد . وتوجد فى الهيكل بعض الصور للقديس مرقص ، الذى كان من المعتقد خطأً أن كنيسته الأصلية كانت واقعة فى هذا المكان (صـ ٩١) ، وإحدى الصور تمثله وهو يكتب إنجيله ، وأخرى تمثله واقفاً بين مسلة كليوباترا وعمود «بومبى» . وفي خارج الكنيسة توجد المدارس التى يزينها أسد القديس مرقص ذو الطراز الفينيسى بشكل سخيف .

ويميناً من شارع الرمل ، يؤدى شارع النبى دانيال إلى شارع رشيد (الفصل الأول) ماراً بالمعبد اليهودى الرئيسى .

ويصل شارع الرمل إلى نهاية الخط ، وإلى اليمين يوجد الطريق المؤدى إلى النزهة (الفصل الرابع) ، وإلى اليسار يوجد البحر والأرصفة الحديثة (الفصل الثانى)⊗ .

وكان يوجد يوماً ما فى هذا الموقع الهادىء معبد ضخم ، وهو السيزيريوم ، وزوج من المسلات وهما مسلتا كليوباترا⊗ .

١ - تاريخ السيزيريوم بدأت كليوباترا فى تشييده على شرف أنطونيو (صـ ٦٠) ، وبعد انتحارهما أكمل أوكتافيوس بناءه احتفاءً بنفسه (عام ١٣ ق.م) . وكانت تقام عبادته هناك تحت اسم قيصر أغسطس ، وظل هذا المعبد ملكاً للإمبراطورية حتى العهد المسيحى . وقد اعتزم قسطنطين الثانى (عام ٣٥٤م) على تقديمه للكنيسة ، ولكن قبل إنجاز عملية التحويل هذه ، أقام القديس أثناسيوس - الذى كان متحمساً دائماً - طقساً دينياً لعيد القيامة بداخله . فغضب الإمبراطور ، وبعد ذلك بعامين ، كاد جنوده أن يقتلوا أثناسوس داخل المبنى الذى سلموه للآريوسيين . واستمر داخل هذا المعبد صراع الآريوسيين والأرثوذكس من أجله حتى حطموه تماماً (صـ٩٤) . وبعد عودة أثناسيوس من منفاه الأخير مباشرة ، شيد على أطلال المعبد كنيسة مكرسة للقديس ميخائيل ، ولكنها احتفظت بالاسم الشهير السيزيريوم ، وأصبحت الكنيسة كاندرائية الإسكندرية ، وحلت محل كنيسة ثيوناس.(صـ٩١) .

وفى هذا المكان مزِّقت هيباتيا إرباً بالأحجار (عام ٤١٥ م) (صـ٩٦) . وهنا أيضاً أقام البطريرك المقوقس طقساً دينياً قبل أن يسلم المدينة للعرب (عام ٦٤٠م) (صـ١٠١) . ويرجع تحطيم المبنى نهائياً إلى (عام ٩١٢م) .

٢ - الشكل الخارجى لا يعرف شىء عن معمار هذا المعبد ، ولكن الفيلسوف اليهودى «فيلو» (صـ١٠٦) كتب عنه أيام كان متألقاً «إنه قطعة فنية لايمكن مقارنتها بكل

الأعمال الأخرى ، لأنه يفوقها جميعاً ، فهو مشيد بالقرب من أوسع الموانى ، وهو رائع وعال ومتناسق للغاية ، وهو منارة بارزة ، وحافل باللوحات والتماثيل المنتقاة بعناية ، ويعج بالهبات والعطايا ، وهو مزين بالذهب والفضة . إنه نموذج غريب ، أقسامه منظمة فى أماكنها ، كالأروقة والمكتبات والشرفات والساحات والأبهاء والطرقات والبساتين المقدسة . فقد أكسبه الإنفاق والفن أكثر ما يمكن فى ذلك الحين من البهاء ' فكل شىء فى موضعه المناسب . فضلاً عن ذلك ، كان أملاً وراحة للمسافرين براً وبحراً سواء فى رحليهم أو قدومهم».

٣ - المسلتان · كان يوجد أمام السيزيريوم (بين نهاية خط الترام الحالى والبحر) مسلتا كليوباترا ، وإحداهما قائمة فى السنترال بارك (Central Park) بنيويورك ، والأخرى على الإمبانكمنت (Embankment) بلندن . ولم يكن لهما صلة بكليوباترا حتى بعد وفاتها . وقد تم اقتطاعهما من محاجر الجرانيت بأسوان فى عهد تحتمس الثالث (عام ١٥٠٠ ق.م) ، وأقامهما فى هليوبوليس بالقرب من القاهرة ، فى مواجهة معبد الشمس المشرقة . وفى عام (١٣ ق م) قام المهندس بونتبوس "Pontius" بنقلهما إلى الإسكندرية فى هذا المكان . ولم بقفا على قاعدتيهما مباشرة ، ولكن كل واحدة منهما كانت مقامة على أربعة سرطانات معدنية ضخمة ، تم إنقاذ واحد منها . وكان يزين قمتيهما تمثالان لهرميس . وفى العصر العربى عندما تلاشى كل شىء بالجوار ، صارت المسلتان هما المعجزة الكبرى بالمدينة ، وسقطت إحداهما ، وظلتا فى مكانهما حتى القرن التاسع عشر ، حتى افترقتا ، وسافرتا فى رحلتهما الأخيرة · اتجهت المسلة المنهارة إلى انجلترا (عام ١٨٧٧م) ، والأخرى إلى الولايات المتحدة بعد ذلك بعامين .

لقد التقت أسوار المدينة العربية بالبحر عند هذه النقطة (قارن بمشهد بيلون ، صـ١٢٧). وانتهت ببرج اكتسحته الأرصفة الحديثة . ونحن الآن نستقل الترام⊗ .

نصف الميل الأول الذى يجتازه خط الترام هو أرض لها شهرة تاريخية هائلة ، فكل شبر منه كان مقدساً ومهيباً . كانت قصور البطالمة مشيدة مكان ملاعب كرة القدم التى على اليسار (صـ٦١)، والممتدة حتى البحر والبارزة عند نتوء «لوشياس» (السلسلة حالياً) . وكان يوجد قصر منعزل أيضاً على صخرة ، ولكنه اختفى . ويقال إن أسوار الجامعة امتدت إلى هذه المنطقة ، ولكننا لا نعرف عن ذلك أى تفاصيل ، ولا يمكننا إلا أن نكون على يقين من أن العالم القديم بأسره لم يستطع أن بتفوق على هذا المنظر .

وعلى اليمين من فوق المساحة العالية التى تطل على المسرح حيث كانت تعرض مسرحيات اسخيلوس ويوربيدس بخلفية يونانية عظيمة ، لن ترى عين مثل هذا الإنجاز مرة أخرى ، ولن يستطيع عقل أن يتخيله ' فقد حلت محله اليوم الرمال والحصى .

على يمين خط السكك الحديدية باتجاه المغادرة توجد القنصلية البريطانية ، وهى عبارة عن مبنى كبير ، ربجوارها المستشفى الحكومى المصرى ، ومن المحتمل أنها فى نفس موقع المسرح القديم ، ولذا فيجب القيام بزيارة لها® . وفى حديقة المستشفى يوجد قبر الطبيب الراحل د . شيس ، وهو مدير سابق للمستشفى ، ويرقد فى تابوت مسيحى قديم وعلى جانبيه أعمدة مسيحية مثيرة للإعجاب ، ومن المحتمل أنها من كنيسة القديس ثيوناس (ص١٩١) ، ومنقوش على كل منها صليب وو راء المقبرة يوجد درج حلزونى عليه بعض الآثار الأخرى مثل مدفع «هاوتزر» الذى كان من معدات عرابى ، ويوجد على القمة عمود رخامى أثرى اقيم بمناسبة يوبيل الملكة فيكتوريا .

● محطة المزاريطة يوجد طريق يؤدى يميناً إلى الحدائق العامة (الفصل الرابع) ، ويؤدى يساراً إلى نتوء السلسلة (انظر ما سبق) . لقد انغمر هذا النتوء مثل بقية الساحل . فقد كان أوسع وأطول من ذلك فى العصور القديمة ، وكان ممتداً حتى حائل الأمواج تجاه فاروس (قلعة قايتباى) ، وبهذا فإنه كان يسد مدخل الميناء الشرقى . وميناء البطالمة الخاص كان يقع على يساره مباشرة ، وكان على حافته منارة فى عهد العرب تسمى الفاريلون® . وربما كانت كنيسة القديس مرقص الأصلية التى دفن بها (وهو أحد كتاب الأناجيل الأربعة) مقامة على الشاطىء على يمين الفاريلون . ما من شىء يمكن رؤيته اليوم سوى نقطة حرس السواحل ونهاية مصرف المياه الرئيسى .

● محطة الشاطبى . لقد اخترق الترام المدينة الملكية القديمة ، وهو يدخل الآن الى منطقة الموتى حيث حفرت المقابر القديمة والحديثة ، ويرجع ذلك إلى جفاف الأرض . وتوجد المقابر الحديثة على اليمين . وأقربها إلى الترام هى المقابر اليهودية ، وتليها الإنجليزية فاليونانية والارمنية ثم الكاثوليكية ، وهى تطل على طريق أبو قير (الفصل الاول) . وتوجد بالقرب من المحطة المدارس الفسيحة التابعة للجالية اليونانية ، ومدارس العروة الوثقى . وعلى يسار المحطة ، يوجد المعهد السلطانى للأحياء المائية ، والذى يحتوى على معرض صغير ومتحف للأحياء المائية ومكتبة تقنية شاملة وقبة ،

ويحتوى أيضاً على نماذج من مراكب الصيد والشباك والأدوات البحرية . ولزيارته يجب ترتيب الأمر مع المدير البرفيسور باشوندا كى Pachunda Ki . وقد تم حديثاً اكتشاف بعض قطع الفسيفساء القديمة (عام ١٩٢١م) ، وهى موجودة فى المنطقة المغلقة فى مواجهة المعبد ، ويقال إن هذه الفسيفساء تعود إلى عهد مزدهر ، وإنها فى حالة جيدة ، ولكنها لم تعرض بعد ، ونأمل أن نعرض عما قريب . وقد تم اكتشاف آثار طرق ومصارف قديمة هنا أيضاً .

● محطة حمامات الشاطبى انعطف يساراً ، وسر حتى محطة إطفاء الحريق ، ثم انعطف يميناً ، فى هذه الأرض البور على يسار الطريق توجد مدينة الموتى العظيمة بالشاطبى ، وهى أقدم المقابر الكبيرة بالمدينة البطلمية (انظر المتحف ، وخاصة حجرة ٢٠ وساحة الحديقة) ، وهناك آثار قليلة ، وتوجد مجموعة مدافن قريبة من الطريق على طراز مدافن الأنفوشى (صـ١٧٨) . وهذا يعنى وجود ساحة غائرة تطل عليها أماكن الدفن . وفى نهاية المدافن تابوت مزدوج على هيئة فراش له وسائد حجرية . وعلى يمين خط الترام توجد مدافن بطلمية ورومانية أخرى على طول الطريق إلى الترعة ويجتاز الترام نفقاً غير مسقوف ، على يمينه توجد المدرسة الفرنسية العليا (الليسيه) التى تمولها الحكومة الفرنسية .

● محطة كامب شيزار (Camp de César)(*) ، ولكن قيصر لم يعسكر هنا من قبل ، وهى ضاحية غير جذابة بالقرب من البحر ، وكانت تسمى قديماً إيليوزس "Eleusis" .

● محطة الإبراهيمية وتظهر على اليمين أرض خصبة مستوية ، وهى - جيولوجياً - من رواسب الدلتا التى تراكمت على نتوء الحجر الجيرى الذى بنيت الإسكندرية فوقه (صـ٤٧) . وعلى قطعة الأرض الأمامية توجد الحلبة الخضراء لسباق الخيل التابعة لنادى سبورتنج الرياضى ، وإلى الأمام أكثر توجد أشجار النزهة ومياه الحضرة ، وعلى الأرض الجافه يساراً تمتد آثار مقابر قديمة .

● محطة نادى سبورتنج بالقرب من المدرج المسقوف التابع لحلبة سباق الخيول يوجد على اليسار شاطئ للاستحمام .

● محطة كليوباترا : ولكن كليوباترا لم تعش هنا من قبل . وتبدأ على اليمين أشجار التين التى تشتهر بها منطقة سيدى جابر ، والمعروفة بأنها أفضل أشجار تين

(*) يعنى معسكر قيصر بالفرنسية - المترجم

فى مصر ، بالإضافة إلى أشجار الموز ذات الأوراق العريضة ، والذرة .. إلخ . ويوجد طريق جميل يؤدى إلى حدائق النزهة (الفصل الرابع) مجتازاً السكة الحديد بمحاذاة البحيرة . وهذا المكان جميل فى المساء . وعلى يسار المحطة ، عند قاعدة جرف على حافة البحر ، توجد مقبرة بطلمية ذات حوائط مدهونة ، ولكن ، وبينما نحاول وصف مثل هذه الأشياء ، فإنها تتدمر . والصخور المجاورة لهذه المقبرة مجلوبة من «بركة الرهبان» الصغيرة

● محطة سيدى جابر : وهى توجد بالقرب من محطة خط السكك الحديدية الرئيسى حيث تتوقف كل قطارات القاهرة السريعة . ويوجد على اليسار طريق تحفه أشجار جميلة ، يؤدى إلى أثر «أبركرومبى» ، وهو ضئيل القيمة ، ولكنه ممتع بالنسبة للإنجليز ، حيث إنه يحتفى بذكرى مآثرهم عام (١٨٠١م) (صـ١٣٠) . وهو عبارة عن عمود ثلاثى من الرخام الأبيض ، وعلى قمته مشعل ، وعليه نقش : «لذكرى السيد رالف أبركرومبى Ralph Abercrombie ، والضباط والرجال الذين لقوا مصرعهم فى معركة الإسكندرية ، فى ٢١ مارس من عام ١٨٠١م .... وكما كانت حياة هذا الرجل مشرفة ، فقد كان موته مجيداً ، وسنبقى ذكراه فى سجلات تاريخ وطنه ، وسيقدسها كل جندى بريطانى ، وستصونها ذاكرة الأجيال القادمة المعترفة له بالجميل» .

ويوجد المسجد الحديث لسيدى جابر بالقرب من هذا الأثر . وسيدى جابر هو ولى محلى رحيم ، يطير فى الليل ليعتنى بالأطفال ... إلخ .

● محطة مصطفى باشا : على اليمين . فى أعلى الطريق ، يوجد تل أبو النواطير ، وهو أعلى منطقة بالقرب من الإسكندرية ، ويطل على بحيرتى الحضرة ومريوط ، وهو منظر خلاب ، ولاسيما فى ضوء القمر . والمنطقة المربعة المسيجة عند القمة تتبع صهريج الماء ، وفى منتصف الطريق الجنوبى الشرقى المتجه إلى خط السكك الحديدية يوجد مدفع فى الرمل، وهو عبارة عن أثر من معركة بوليو (١٨٨٢م) . وقد قام الجنرال أليسون "Alison" بوضع معظم مدفعيته هنا (صـ١٤٠) ، ولايزال المدفع يشير إلى ترعة المحمودية باتجاه معسكر عرابى . وعلى يسار محطة مصطفى باشا ، توجد الثكنات البريطانية فوق المرتفع فى نفس مكان مثيلاتها الرومانية . إن التاريخ يعيد نفسه ، تماماً كما فعل فى المقابر ، وقد أقام أو كتاڤيوس (عام ٣٠ ق.م) مدينة للموتى فى هذا

المكان حتى يرهب الإسكندرية صـ٨٨ . أما ثانى الوحدات الرومانية المقامة فهى قلعة تراچانا ، وثالثها مبنى قورينى[*] ، أما المبانى البريطانية فهى أكثر من أن نحصى .

● محطة كارلتون . القيلا الكبيرة المقامة على النل بناها رجل ألمانى على الطراز اليونانى ، ومعمارها ردىء برغم البذخ فى الإنفاق عليها .

● محطة بكيلى ونحن الآن فى قلب ضاحية الرمل ، وهى ضاحية عشوائية سكنها الإنجليز والأجانب الآخرون ، وبها حدائق خاصة من أجمل الحدائق فى مصر . وعلى يسار المحطة يوجد خليج ستانلى ، وهو منطقة جميلة على الساحل ، ومكان مفضل للاستحمام ، وتوجد أيضاً كنيسة جميع القديسين الإنجليكانية (صـ٢٦٨) . ويتفرع خط الترام هنا إلى فرعين ، يعودان للالتقاء عند سان ستيفانو ، يتجه الفرع الأيسر - وهو الأكثر استقامة - إلى سابا باشا (وهو خليج صغير وجميل) ، ثم إلى «جليمينو بولو» ثم إلى مظلوم فزيزينيا ، وهى جميعاً مناطق للاستحمام ، أما الفرع الأيمن ، فيجتاز بساتين نخيل جمبلة عبر فلمنج ثم باكوس⊗ وسِفِر وشوتز ثم جناكليس (حيث يوجد قبر أحمد باشا يحيى ، وهو من رجال الدولة ، فى مسجد يحمل اسمه) .

● محطة سان ستيفانو وهى قريبة من الكازينو ، وهو فندق صيفى راق ، عند شاطىء البحر الذى يبدو فى هذه المنطقة بالذات أزرق وجميلاً . وفى موسم الصيف ، تقام فى هذا المكان حفلات سيمفونية ، ولكن الجمهور لا يأتى إلى هنا على أية حال ليستمع إلى الموسيقى ، بل ليتحدث ويصدر ضوضاء كبيرة جداً ، لدرجة أن العابر من مسافة قصيرة يعتقد أن الأوركسترا تعزف فى حفل للصم .

● ويجتاز الترام محطة مارجرجس ومحطة لورنس ومحطة القصر ، حتى يصل إلى محطة سيدى بشر على حافة شاطئ منعزل . ويمكن أن تسير أو تركب من مسجد سيدى بشر حتى الصخور البارزة . إنها فى غاية الروعة ، وهى عبارة عن كتل من الأحجار الجيرية البارزة داخل البحر ، والتى يتخللها الماء وينبثق منها من خلال الثقوب والشقوق . وقد تم عمل شقوق طولية صناعية ، وربما قام السكندريون القدماء الذين أحبوا الألعاب المائية - بعملها وثبتوا بها أبواقاً موسيقية أو طواحين ميكانيكية . ويمكن إكمال السير على طول الساحل حتى غابات المنتزه (الفصل السابع) .

(*) نسبة إلى مدينة قورينة الإغريقية . والتمحص القورينى هو المعتقد بالمذهب القائل بأن اللذة هى هدف الحياة الأوحد . المترجم .

● محطة ڤيكتوريا · وهى نهاية الخط ، وتوجد هنا محطة سكة حديد لخط أبو قير وخط رشيد (الفصل السابع) . وتوجد فى هذ المحطة «ڤيكتوريا كولدج» (كلية النصر) ، وهى مبنى ضخم ، وهى تقوم بتعليم المواطنين فى مصر على طريقة المدارس الإنجليزية الحكومية ، بغض النظر عن عقيدتهم أو جنسهم ، وقد دعمها اللورد كرومر ، الذى قام بعمل منح دراسية بها .

والسير على الشاطىء من الإسكندرية إلى الرمل نادر الحدوث ، ولكنه ممتع ، حيث توجد جروف قليلة الارتفاع سهلة التفتت ، وشواطىء رملية ، وصخور منبسطة ، وآثار بيوت ومقابر قديمة ، وكل هذا يساعد المرء على أن يدرك كيف أن المدينة كلها كانت مغمورة بالماء . ولايوجد أى طريق شرقى السلسلة . ولحسن الحظ ، فقد فشل تصميم الكورنيش الفخيم ' وخلا المشهد من الكآبة المعهودة التى تحيط بمعظم المدن الكبيرة⊗ .

ويمكن الوصول إلى الرمل من شارع أبو قير ، وهو امتداد لشارع رشيد (الفصل الأول) .

الفصل السادس

من الميدان إلى المكس

المسار : سرْ فى شارع الأخوات الراهبات والقبارى ، ثم استقل ترام المكس (ذا النجمة البيضاء) ، والرحلة غير مريحة وغير ممتعة ، ولكن المكس مكان جميل .

ونبدأ من الطرف الجنوبى للميدان ، ونسير فى شارع الأخوات الراهبات الذى حمل هذا الاسم بسبب وجود الدير والمدرسة الكاثوليكية الرومانية بالقرب من بداية الشارع . وأصبحت كل الأشياء المحيطة بهذا المكان بائسة .

وعلى يمين شارع الأخوات الراهبات يوجد شارع بحيرى بك المؤدى إلى قلعة كوم الناضورة الواقعة بشكل فظ خارج الشوارع الرئيسية . وتاريخها قبل وصول نابليون (عام ١٧٩٨م) غير معروف (صـ١٢٩) . فقد قام كافاريلى "Cafarelli" –مهندس نابليون– بتحصينها ، وقد كبحت التقدم الإنجليزى عام (١٨٠١م) (صـ١٣١) . ومدخلها يقع فى الجهة الجنوبية ، وبه ممر حلزونى تزينه نباتات الصبار وأشجار الفلفل . وتستغل إدارة الموانى والمنارات قمة هذه القلعة التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى ١٠٤ أقدام كمركز للإشارات وكمرصد . وعلى القمة مجموعة أدوات شيقة ، ونرى مشهداً جميلاً للميناء والمدينة . وفى الركن الشمالى الشرقى توجد بعض آثار مبنى كافاريلى . وهناك خارج القلعة فى شارع باب الأخضر (الفصل الثانى) يوجد بازار للمصنوعات الذهبية والفضية . وعلى يسار شارع الأخوات الراهبات توجد «الجنينة» ، وهى عبارة عن حظيرة غريبة للأرانب .

ويمر الترام فى شارع إبراهيم الأول ، وعلى اليمين بالقرب من أرصفة الميناء فى شارع كرم ، توجد كنيسة ومدرسة فرنسيسكانية ، وهما حديثتان وعديمتا القيمة ، ولكنهما من الناحية التاريخية تحتلان مكاناً هاماً . حيث كانت كنيسة القديس ثيوناس (صـ ٩١) وقصر الأساقفة القديم متشيدين مكانهما ، وقد تربى القديس أثناسيوس فى هذا المكان . وحول العرب (عام ٦٤١م) ما وجدوه إلى مسجد رائع كان يسمى مسجد السبعين (ذو علاقة وهمية بالترجمة السبعونية للتوراة) ، أو كان يسمى بمسجد الألف عمود . وكان على طراز مسجد ابن طولون بالقاهرة . وينشطر شارع كرم هذه المنطقة إلى نصفين ، ويتجه المحراب إلى الاتجاه الجنوبى الشرقى .. وكان المسجد فى حالة خربة عندما جاء الفرنسيون ، وتم تحويله إلى ثكنات للمدفعية .

وقبل أن يصل الترام إلى الترعة مباشرة ، نجد - يميناً - بورصة القطن بمينا البصل ، وزيارتها شيقة ، ولكن من الضرورى التعريف بها ، فهذه البورصة تقع أمام ساحة رائعة فى وسطها نافورة ، وفيها تعرض بعض العينات ، حيث إن كل ما حولها تم تخصيصه لهذه الصناعة الرئيسية بالإسكندرية ، من مخازن للقطن ، وآلات خشبية رائعة لتنظيفه وضغطه فى بالات . وفى الموسم ، تكون الشوارع المجاورة زلقة من جراء الزغب المشحم .

ونعبر الآن ترعة المحمودية (صـ١٣٥) . ومازالت ضفتاها تحتفظان بأحجارهما وبانحدارهما الأصلى ، وهى تذكرنا بمشروع محمد على التجارى . والسير على الضفتين جذاب على الرغم من القذارة ، ويمكن له أن ينتهى عند مقابر كوم الشقافة (الفصل الثالث) . وتنعطف الترعة يميناً إلى الميناء الغربى .

ثم نصل إلى منطقة القبارى ، والتى سميت باسم الشيخ القبارى ، حيث كانت توجد المدافن الغربية فى المدينة القديمة . وقد تم نقل كل ما عثر عليه إلى المتحف (حجرة ١٤) . ولا يوجد شىء ممتع حتى نصل إلى المكس .

● كان من الممكن أن يصبح المكس - الذى كان قرية للصيد - ضاحية مزدهرة مثل الرمل . ولكن أحياء الفقراء المنتشرة فيه حالت دون ذلك . ويوجد المكس فى منتصف الطريق المنحنى الكبير إلى الميناء الغربى ، وخلفه مباشرة مياه بحيرة مريوط . وهناك رصيف خشبى جيد ممتد فى البحر يؤدى إلى صخرة بعيدة . وهذه المنطقة الصغيرة من البحر بها هواء مدينة نابولى إلى حد كبير .

وهناك بعد المكس ، توجد محاجر الحجر الجيرى التى أمدت المدن القديمة والحديثة بالأحجار اللازمة . وهذه المحاجر محفورة فى قمة الجبل الذى يفصل البحيرة عن البحر .

وتقع قرية الدخيلة بعد ذلك على الشاطىء ، حيث يمتد طريق جيد منها حتى العامرية (الفصل الثامن) ، ثم تبدأ الصحراء بعد ذلك ، تنتشر على رمالها بعض بقايا الفخاريات القديمة .

● وبعد الدخيلة توجد قلعة العجمى⊗ فى الجزء الغربى من الميناء، وكانت موقعاً استراتيجياً فى العهد النابوليونى (صـ١٢٩) ، وأيضاً فى فترة ضرب الإسكندرية بالقنابل (صـ١٣٧) ، وبها مكان رائع للاستحمام ، وتوجد أمام القلعة مباشرة جزيرة مربوط ،

والتى سميت باسم ولى محلى ، توجد مقبرته على هذه الجزيرة ، وتزين المقبرة نماذج لقوارب النذور . ويقول المقريزى (فى القرن الرابع عشر الميلادى) إن الناس الذين كانوا يعيشون على جزيرة مربوط كانوا يعمرون أكثر ممن يعيشون فى أى مكان آخر فى العالم ، ولكن لا أحد يعيش على هذه الجزيرة الآن . وتمتد منها سلسلة من الصخور تسد مدخل الميناء الغربى (صـ٤٨) . من السهل زيارة هذه المنطقة بركوب قارب شراعى من الإسكندرية ، ولكن ليس من السهل العودة فى المساء عندما تسكن الريح .

الفصل السابع

أبو قير ورشيد

المسار : نستقل القطار من المحطة الرئيسية (محطة مصر) ، أو من محطة سيدى جابر التى تتوقف فيها كل القطارات والتى فيها أيضاً محطة لترام الرمل (الفصل السادس) .

المواقع الرئيسية الهامة : المنتزه وكانوبس وخليج أبو قير ورشيد

عند محطة سيدى جابر يوجد منظر لبحيرة الحضرة يميناً . وبعد خمس محطات ، توجد محطة ڤيكتوريا القريبة من ڤكتوريا كولدچ ومن نهاية خط الترام . ويعبر القطار رمالاً وواحة من أشجار النخيل تكسوها الزهور فى الربيع .

● محطة المندرة أحد المنازل فى هذه القرية مطلى من الخارج للاحتفال بحج ساكنه إلى مكة ، وعليه صور لأشياء رآها أو يود رؤيتها مثل قطار السكة الحديدية ونمر وآلة موسيقية وبطيخة ضخمة⊗ .

● محطة المنتزه : يوجد بالقرب من المحطة المنتجع الصيفى للخديوى عباس الثانى . والآن (١٩٢٢م) يقوم الملك فؤاد بتجديده وإعادة تأثيثه . وإذا أردنا الدخول ، فيجب الحصول على تصريح ، إذا كان ذلك ممكناً ؛ لأن به منظرا من المناظر الفريدة فى مصر ، وهو فى غاية الروعة . والطريق إلى القصر تحفه الورود ونباتات الدِّفْلى(*) وأشجار الفلفل . وينعطف منه طريق إلى اليمين صاعداً إلى التل ومتجهاً إلى السلاملك (المكان المخصص للرجال) ، والذى بناه الخديوى على طراز من الأرجح أنه ليعجب عشيقته النمساوية . وعلى السطح توجد مزولة شمسية وبعض البنادق⊗ ومن فوق السطح ، ترى منظراً للخليج الدائرى بما فيه من نتوءات رائعة وحوائل للأمواج ، وترى الساحل يميناً حتى أبو قير والذى تلوح منارته فوق اللسان البعيد . وترى يساراً غابات المنتزه ، وترى بعد درجات سلم شديد الانحدار متنزهاً منحدراً ، وتوجد ممرات جميلة فى شتى الاتجاهات ومكان رائع للاستحمام . وعلى يمين النتوء يوجد كشك ، وهناك على حافته بعض آثار المبانى والحمامات - بقايا من «التابوزيريس بارقا» التى كانت

(*) نبته سامه عطرة الزهر - المترجم .

موجودة هنا ، وبعضها يكون أحواضاً طبيعية للأسماك . ويحتوى الغابات على أشجار الصنوبر البحرية التى استوردها الخديوى من أوروبا ، وفى الجزء الغربى وراء برج الحمام ترى الأشجار وقد نمت إلى ارتفاعات كبيرة .

وتوجد مبان متعددة فى «العزبة» ، وفى جانب من جوانبها توجد أساسات لمسجد ضخم . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، كان قصر المنتزه مستشفى تابعاً للصليب الأحمر ، وقد مر به آلاف الجنود الناقهين الذين لم ينسوا أبداً الجمال والراحة اللذين وجدوهما هناك⊗ .

● محطة المعمورة . قطعة الأرض المنخفضة على اليمين هى موقع بحيرة أبو قير (صـ١٢٠) ، والتى جفت فى القرن التاسع عشر . وهنا يفترق خط السكة الحديد المتجه إلى أبو قير عن ذلك المتجه إلى رشيد .

أبـــو قـــير

المسار محطة أبو قير هى نهاية الخط . ويمكنك أن تسير أو أن تمتطى حماراً . انعطف مباشرة إلى اليسار فى اتجاه كانوبس ، وسر مسافة ميل واحد ، ثم اتبع الساحل مروراً بقلعة قايتباى وحتى قلعة الرمل ، ثم عد إلى قرية أبو قير .

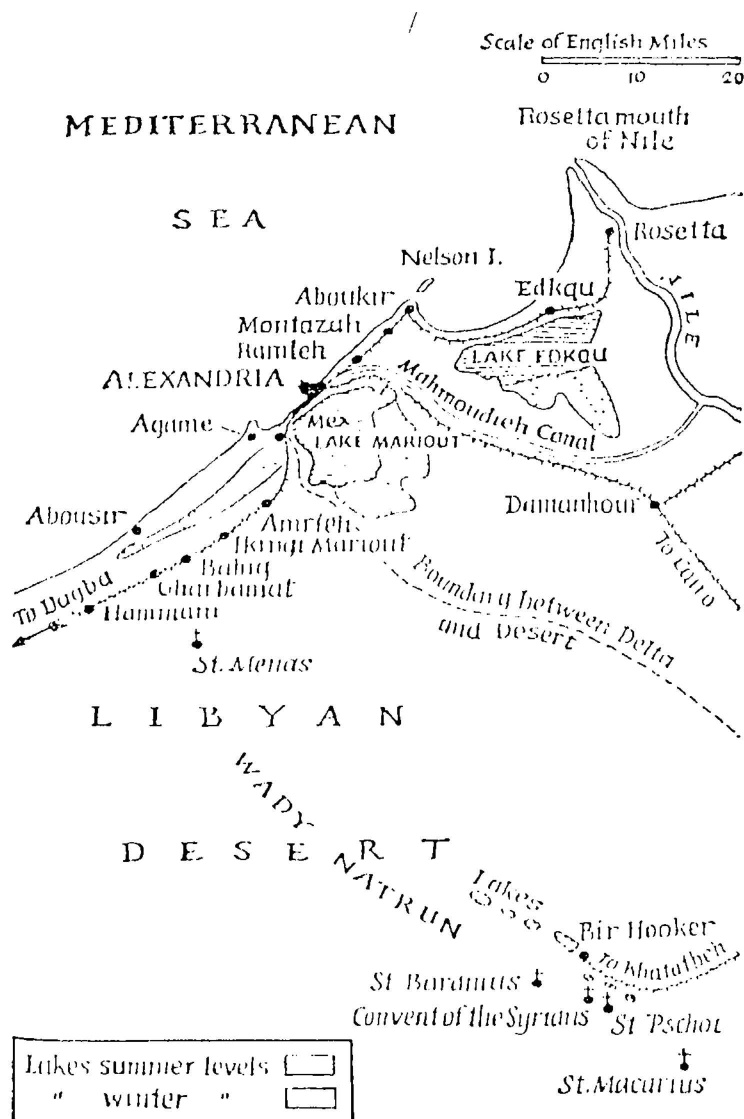
على الرغم من أن أبو قير ترتبط بالإسكندرية ارتباطاً قوياً ، إلا أنها تتمتع بتاريخها الخاص ، الذى ينقسم إلى ثلاثة عصور رئيسية .

أولاً : العصر القديم : (انظر أيضاً صـــ ٤٩) .

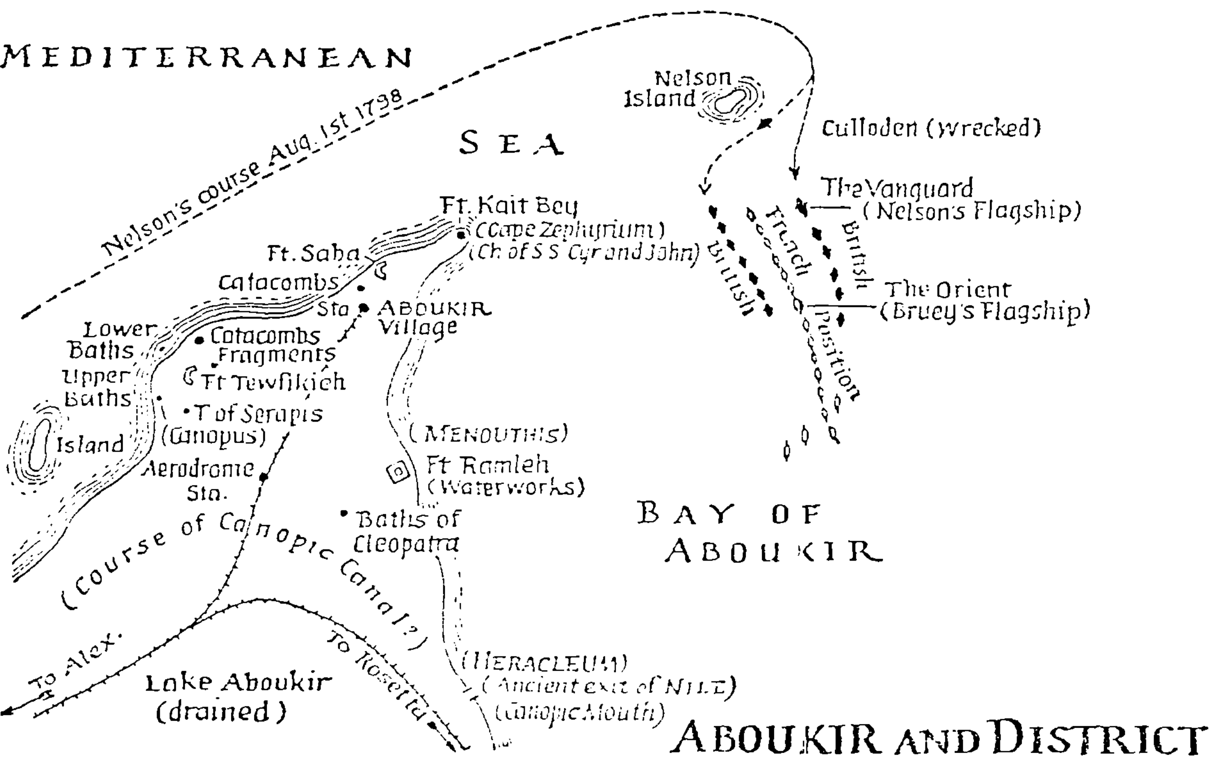
جيولوجياً : تعد أبو قير نهاية نتوء الحجر الجيرى الطويل الذى يبرز من الصحراء الليبية (صـ٤٧) ، وكان على النيل أن يلتف حوله حتى يصل إلى البحر ، ولذا فإن شهرتها مرتبطة بالنيل .

وكان النهر يصب فى الشرق فى المصب الكانوبى الذى جف الآن ، وكانت توجد مستوطنات فى هذه المنطقة قبل تأسيس الإسكندرية بقرون وعلى الضفة اليسرى للنيل (جنوبى قلعة الرمل الحالية) رأى هيرودوت (عام ٤٥٠ ق.م) معبد هرقل ، وقيل له

Country Round Alexandria



مخطط يوضح موقع الإسكندرية والاماكن المحيطه بها وطرق المواصلات منها وإليها



ABOUKIR AND DISTRICT

خريطة لأبوقير تبين موقع الخليج والأماكن المحيطة وحمامات كليوباترا وقلعة الرمل وقلعة التوفيقية ومعبد سيرابيس بكانوس وتخطيط لموقعة أبو قير البحرية فى أغسطس ١٧٩٨م .

إن باريس وهيلين كانا يلتمسان هنا ملاذاً لهما أثناء فرارهما إلى طروادة ، وكان هذا الملاذ مرفوضاً من قبل السلطات المحلية التى استنكرت زواجهما السرى . وكانت توجد مستوطنة أخرى فى مينوثيس (قلعة الرمل نفسها) ، ومستوطنة ثالثة وهى الأكثر شهرة ، والتى كانت فى كانوبس (حالياً قلعة التوفيقية) ، والتى أخذت منها المنطقة كلها هذا الاسم .

● كان كانوبس – تبعاً للأسطورة الإغريقية – مرشداً لمينلاوس "Menelaus" وقد لدغته حية وهما فى طريق العودة من طروادة ، ومات هنا فأصبح هو الإله الحارس .

وعلى الرغم من أن هذه الأسطورة – مثلها فى ذلك مثل أسطورة باريس وهيلين – ليست ذات أهمية كبيرة، إلا أنها تظهر مدى ولع الإغريق بهذه المنطقة. وتوجد أسطورة أخرى تنص على أن كانوبس كان إلهاً مصرياً ذا جسد عبارة عن إناء خزفى : وهذا أيضاً قد يكون غير مؤكد . وبتأسيس الإسكندرية (عام ٣٣١ ق.م) فقدت المنطقة الكثير من تجارتها ، ولكنها أصبحت مزاراً دينياً للطبقات العليا . وكانت توجد قناة – من المحتمل أنها كانت تتصل بالنيل عندما يصب فى البحر – كان السكندريون يسيرون فيها بالمراكب الكبيرة يغنون وهم يرتدون أكاليل الزهور . وقد أقام بطليموس سوتير معبداً هنا (انظر مابلى) ، وذلك لارتباطه بالعبادة الجديدة لسيرابيس (صـ٦٢) . وقد ذاعت شهرة هذا الدين فى العالم كله ، وكانت شعائره تجعل الرومان يحمرون خجلاً أو يشحبون حسداً . ومن هنا نشأت الفكرة التى لايزال الغرب يؤمن بها بشكل واسع ، وهى أن مصر هى أرض الفسق والسحر . وبدأت المنطقة فى الاضمحلال بمجرد نشأة المسيحية . فهى لم تملك – كما ملكت الإسكندريه – قاعدة صلبة لوجودها التجارى . ولكن الوثنية ظلت هنا حتى أواخر القرن الخامس الميلادى ، حيث تم ضبط حمولة عشرين جملاً من الأوثان مخبأة فى منزل ، وتم نقلها وإشعال النار فيها فى منطقة خلاء بالإسكندرية . وظلت هذه الخزعبلات تثير المتاعب حتى فى العهود الأخيرة .

ثانياً – العصر المسيحى :

أرسل البطريرك المقوقس (صـ٩٦) رفات القديس قير لبأخذ مكانه ، بعد أن دمر عبادات سيرابيس وإيزيس فى المنطقة (عام ٣٨٩م) . واختلط هذا الرفات برفات شهيد آخر وهو القديس يونان ، ولذا كان من الضرورى إحضار رفات القديس يونان أيضاً ،

وأقيمت لهما كنيسة جنوبى قلعة قايتباى الحالية . وظل القديسان هادئين لمدة مائتى عام ، ولكن بعد ذلك بدءا فى فصل نفسيهما والقيام بالمعجزات ، وأعادا للمنطقة بعضاً من شعبيتها القديمة . وفى الواقع ، فإن الكثير من مداواتهما كان مطابقاً تماماً لتلك التى كانت تتم فى معبد سيرابيس . وقد اختفت كنيستهما أثناء الغزو العربى ، ولكن القديس قير كان قد منح اسمه للمنطقة الحديثة أبو قير (الأب قير) . وجف فرع النيل الكانوبى فى القرن التاسع الميلادى ، وبنى الأتراك بعض الحصون هنا بغرض الدفاع عن الساحل ، ولكن التاريخ توقف حتى وصول نلسون .

ثالثاً - العصر الحديث :

(أ) معركة النيل :

لمعرفة الحدث المؤدى إلى هذه المعركة (انظر صـ١٢٩) ، أحضر بروبه (Brueys) - أدميرال نابليون - أسطوله إلى الخليج التماساً للأمان ، وأرساه فى صف طويل ، امتدّ مسافة ميلين على الساحل ، وكان معه ثلاث عشرة بارجة وأربع فرقاطات وألف ومائة واثنان وثمانون مدفعاً ، وثمانية الاف جندى ، وكان يوجد فى شمال الخليج جزيرة تسمى الآن بجزيرة نلسون ، وهى التى كان قد قام بتحصينها ، وكان من المفترض أن ترسو سفنه الحربية حولها ، وكان بين هذه السفن بارجته التى سماها (الشرق) "Orient" ، واتخذ وضعه فى السابع من يوليو (عام ١٧٩٨م) . ووصل نلسون بعد مطاردة فى الأول من أغسطس مع أربع عشرة بارجة وألف واثنى عشر مدفعاً وثمانية آلاف وثمان وتسعين جندياً وكانت الريح شمالية غربية كما هى العادة في الصيف . وهاجم نصف أسطوله - بما فيها بارجته (طليعة الأسطول) "Vanguard" - الأدميرال «بروبه» من الجهة المتوقعة وهى الشرق . أما النصف الآخر ، فقد قام - تحت قيادة البارجة (جولياث) "Goliath" - بالمناورة الرائعة التى حققت النصر للإنجليز ، فقد فاجأه الأسطول مرتين الأولى عندما مر بين مقدمة أسطوله وبين جزيرة نلسون ، وهو ماظنه بروبه غير كاف لمرور أسطول نلسون ، والثانية عندما اتخذ أسطول نلسون موقعاً غربى أسطول بروبه بينه وبين الشاطئ ، حيث ظن بروبه أن الماء بهذه المنطقة ضحل بحيث لا يستوعب الأسطول ، وبهذا وقع بروبه بين نارين . فقد هاجمه الأسطول البريطانى بأكمله فيما عدا البارجة (كلودن) "Culloden" التى جنحت بالقرب من جزيرة نلسون .

وبدأت المعركة فى الساعة السادسة مساءً ، وقتل برويه فى الساعة السابعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف اشتعلت النيران فى بارجة نلسون (الشرق) ، وانفجرت بعدها ببرهة ، وكان الانفجار هائلاً ، وأنهى الجولة الأولى من المعركة التى تلتها فترة من الصمت المروع .

وعادت المعركة للاحتدام ، واستمرت طوال الليل ، وانتهت فى ظهر الثانى من أغسطس بالنصر الكاسح لنلسون وإبادة الأسطول الفرنسى الذى لم يستطع الهروب منه سوى بارجتين وفرقاطتين ، وخسر نابليون - إلى الأبد - زعامته على البحر المتوسط ، ولذا فقد أرسل نلسون الرسالة الآتية . «بعد أن أنعم الرب العظيم على جيوش صاحب الجلالة بالنصر .. فإن الأدميرال يعتزم أن يقيم صلاة شكر فى الساعة الثانية من ظهر اليوم .. وهو يأمر كل السفن الأخرى بالقيام بهذا بأسرع ما يمكن» .

وقد توقع الفرنسيون هجوماً على الإسكندرية ، ولكن نلسون نفسه كان قد عانى أكثر مما يسمح له بمحاولة عمل ذلك . وبعد أن استراح لفترة ، فرق أسطوله مخلفاً بعض السفن لمراقبة الساحل . وقد صرح فى تقاريره العسكرية التى كتبها عند وصوله إلى وطنه بأن المعركة قد وقعت بالقرب من مصب فرع رشيد ، وسماها رسمياً «معركة النيل» بدلاً من اسمها الآخر الأكثر دقة وهو «موقعة أبو قير البحرية» .

(ب) موقعة أبو قير البرية :

وهى أقل أهمية من المعركة السابقة ، ولكن استراتيجيتها شيقة ، وكان نابليون نفسه حاضراً فى هذه الموقعة (لمعرفة الأحداث المسببة لها ، انظر صـ١٣٠) .

أعلنت تركيا - بتحريض من انجلترا - الحرب على فرنسا . وفى يوليو (عام ١٧٩٩م) قام الأتراك باحتلال خليج أبو قير ، وأنزلوا خمسة عشر ألف رجل على اليابسة ، واستقرت الميسرة عند قلعة الرمل ، أما الميمنة فعند قلعة التوفيقية الحالية ، وكان معسكرهم فى الطرف الضيق من شبه الجزيرة بين الحصن والقلعة المشيدة فى الطرف الأقصى . وكان أسطولهم الراسى فى البحر المتوسط وفى خليج أبو قير وبحيرة أبو قير (المختفية الآن) يدعمهم من ثلاث جهات ، وقد اعتزموا على اكتساح مصر من هذا المعقل .

وبعد أن تلقى نابليون هذه الأخبار ، أسرع بالخروج من القاهرة ، ووصل إلى الإسكندرية فى الخامس والعشرين من يوليو بصحبة عشرة آلاف رجل ، معظمهم من

الفرسان . وقد رافقه موراه (Murat) وكليبر (Kléber) ، وبدأ بطرد سفن المدفعية من بحيرة أبو قير ، ثم قامت قواته بمهاجمة قلعتي الرمل والتوفيقية . وبينما كان الفرسان يتقدمون تحت قيادة موراه على الأرض المستوية الكائنة بين القلعتين ، كانوا يقومون بإلقاء المدافعين المنطلقين من كلتا القلعتين إلى البحر المتوسط والخليج . وقد غرق خمسة آلاف وأربعمائة تركي ، وظل طرف شبه الجزيرة صامداً بقوة ، ولكن نابليون استطاع أن ينصب بعض مدافعه على اللسان الرملي الصلب الذى لايزال ممتداً على طول شاطىء الخليج ، وذلك ليهاجم المعسكر التركى بالمدافع ، هذا المعسكر الذى تم اقتحامه بهجوم عاصف .

بقايا كانوبس :

وتوجد هذه البقايا (انظر ماسبق) حول قلعة التوفيقية التى تراها على اليسار عند دخول القطار إلى المحطة . وكانت هذه البقايا يوماً ما ذات قيمة ، ولكنها تقريباً دمرت بالكامل على يد السلطات العسكرية التى تستخدم الأحجار الجيرية فى تسوية الطرق ، وتسمح دائماً بإضاعة الكنوز .

ومن الصعب اكتشاف البقايا ، لأن المنطقة مليئة بالحفر (ارجع إلى الخريطة)

(أ) على مسافة خمسين ياردة من بوابة القلعة يوجد فى تجويف على يسار الطريق جزءان كبيران من معبد من الجرانيت ، وهنا وجدت أيضاً تماثيل رمسيس الثانى النصفية الموجودة الآن بالمتحف (حجرة ٧) وتماثيل ضخمة لرمسيس ولابنته (المتحف - الساحة) ، وترجع هذه التماثيل إلى عام (١٣٠٠ ق.م) .

(ب) وبعد ذلك على اليسار - حول القلعة - يوجد موقع معبد سرابيس ، وهو أشهر المبانى فى شبه الجزيرة ، والذى ذاعت شهرته فى العالم القديم بأسره ، وقد كرسه بطليموس الثالث (يوريجتيس) (صـ٥٧) وزوجته برنيس ، وبعد ذلك بأعوام قليلة (عام ٢٣٨ ق.م) ماتت طفلتهما ، وعقد الكهنة اجتماعاً سريا هنا ليجعلوا منها إلهة ، وبالمصادفة صدقوا على بعض الإصلاحات فى التقويم الذى فرضه الملك ذو العقلية العلمية ، وقد تم حفظ البيان الرسمى حتى صدر فى «مرسوم كانوبس» الذى يعد الآن واحداً من أهم وثائق التاريخ البطلمى .

أما عن المعجزات ، فقد تفوق هذا المعبد على معبد سيرابيس الأصلى بالإسكندرية ، فالمرضى الذين ناموا هنا - وحتى من أنابوا عنهم أحداً للمبيت - وُجدوا معافين فى اليوم التالى . وكان المعبد دائماً مقراً للسحر والفسق فى رأى خصومه ، ومقراً للفلسفة فى نظر أنصاره ، وقد هاجمته المسيحية . وقبل تدميره مباشرة (عام ٢٨٩م) أقام فيه أنطونينوس ، وهو أحد الرجعيين الوثنيين ، وحاول أن يعيد إحياء عقيدته ، «وكان كثيراً ما يقول لأتباعه إنه بعد انقضاء عهده ، لن يكون هناك أى معبد ، وأن هذا الحرم المهيب والعظيم سيصبح ركاماً من بقايا بلا قيمة ، وسينساه الجميع» (يونابيوس ، حياة إديسيوس) . وقد كان أنطونينوس محقاً .

من المحتمل أن المعبد كان واقعاً على أعلى منطقة من الأرض فى العصر القديم ، ولكن الارتفاع العام فى السطح أدى إلى وقوعه فى منخفض عميق يحتاج الوصول إليه إلى بعض الصبر .

وتم إخلاء مساحة بيضاوية ، ونظِّمت بها بعض الأعمدة وتيجان الأعمدة التى عثر عليها فى التنقيبات ، ولكن من المستحيل إعادة تكوين الخريطة الأصلية ، ولايزال الكثير مدفوناً تحت الأرض . وفي واقع الأمر ، فإننا لسنا على يقين من أن هذا هو المعبد الحقيقى ، وقد تم العثور على نقش يهدى المعبد لا لسيرابيس بل لأوزوريس ، وعلى أى حال ، فإن الاثنين قد تطابقا فى معظم الأحيان . والأعمدة منحوتة من الجرانيت أو من الحجر الجيرى المغطى بطبقة من الجص . وتحت هذه الطبقة الرقيقة المكسورة كانت هناك ذات يوم فسيفساء بديعة . وأروع الأشياء هى عمود محزز ضخم من الجرانيت الأحمر ، وهو موجود فى حفرة قريبة ، ولا فائدة لأنها الآن تابعة للسلطات العسكرية . وكانت منازل الكهنة توجد جنوبى وشرقى المعبد ، وتبدو فيها ممرات جيدة مغطاة بالملاط ، وقد تم تدميرها . وكانت القناة التى يصل بها المريدون والعُبَّاد إلى هذا المعبد تمر إلى الجنوب خلال الأرض المنخفضة بالقرب من خط السكة الحديد ، ومسارها لم يتم التأكد منه ، وكان مصبها إما عند النيل المندثر أو عند خليج أبو قير .

(جـ) الحمامات الشمالية - وهى تقع على بعد حوالى ١٠٠ ياردة ، بالقرب من البحر على المنحدر الذى يقع وراء طرف الخليج العظيم الذى يمتد إلى المنتزه (صـ٢٢٣) . وعندما تم العثور عليها منذ عدة أعوام كانت تقريباً فى حالة ممتازة . والحمام المغطى بالملاط الوردى الصلب - الذى يميز العمل

البطلمى أو الرومانى – له عند الحافة درجتان للمستحمين . وكان محشوراً حولها من جميع الجهات أوان فخارية كبيرة ، وكانت فوهاتها بموازاة السطح . ولا يتبقى من هذا البناء الفريد سوى أجزاء صغيرة ، ويمكن العثور على بعض آثار الحوض الرئيسى والحمامات الساخنة .

(د) الحمامات الجنوبية والتماثيل الضخمة المكسورة وبالسير حول قلعة التوفيقية ، نصل إلى الساحل ، ونتبعه باتجاه الشمال الشرقى ، وتوجد فى جزء منه – تصل إليه مياه البحر – أساسات بعض الحمامات الكبيرة ، والتى تظهر مدخل القنوات التى ربما كانت مغلقة بسدود ذات بوابات . وتوجد أيضاً بعض الأخاديد ، وكيفية استخدامها غير معروفة . وعلى الساحل بعد ذلك ، توجد حمامات ساخنة تابعة لنفس المبنى ، ولاتزال توجد بعض آثار الملاط الوردى . وفى المنطقة التى تنكسر عليها الأمواج على اليسار ، توجد كتل من الجرانيت وقد تم الكشف عنها حديثاً ، وظهر أنها بقايا من تمثال ضخم (لرمسيس الثانى ؟) وأبو الهول .

(هـ) مقابر : بعد ذلك بخمسين ياردة ، وفى مكان – فى حوالى منتصف الطريق – بين الساحل والقلعة ، توجد مقبرتان ، تقع كل منهما فى تجويف ، إحداهما لها حجرة تحت الأرض ، والأخرى بها تابوت على منزلق . وتوجد آثار مقابر وأنفاق فى هذه المنطقة وأيضا بطول الجرف المنخفض بالقرب من الشاطىء .

وبهذا تنتهى زيارتنا لكانوبس التى كانت منطقة ساحرة فى يوم ما ، والتى لايتبقى من سحرها القديم سوى الهواء والبحر .

استمر فى السير بمحاذاة الساحل ، وستجد مكاناً رائعاً للاستحمام . وعلى اليمين ، فى منتصف الطريق بين الساحل ومحطة السكة الحديد ، فى منطقة مرتفعة ، توجد مقابر تم شغلها ، ثم تصل إلى نهاية النتوء ، وهو مكان جميل ، وترى قلعتين قلعة سابا ، التى تغلق المضيق ، والتى اعتصم بها الفرنسيون عندما وصل الأتراك (عام ١٧٩٩م) (انظر ماسبق) ، وقلعه قايتباى ، على الطرف ، وهى التى تم تأسيسها فى القرن الخامس عشر على يد السلطان قايتباى ، وكانت تعد جزءاً من مخطط الدفاع الذى أعده ضد الترك (انظر قلعة قايتباى بالإسكندرية صـ١٢٤) . والمنظر من هنا جيد ، حيث نرى البحر المتوسط على أحد الجانبين ، وعلى الجانب الآخر نرى نصف

الدائرة الهادىء الذى يمثله خليج أبو قير . ويمكن إلقاء نظرة من هنا أو من قلعة الرمل على مشهد «موقعة النيل» ، ويمكن تقدير مناورة نلسون العظيمة ، وترى «جزيرة نلسون» أمامك ، والتى اعتمدت عليها القوات الفرنسية ، حيث تحطمت السفينة «كلودن» (انظر ما سبق) . وكان النتوء قديماً يدعى زيفيريوم ، لأن رياح زيفير(*) كانت تهب عليه ، وكان يوجد عليه معبد صغير لأفروديت ، وعندما توفيت الملكة «أرسينوى» العظيمة (عام ٢٧٠ ق.م) ، اقترح أحد أميرالات البلاط الفكرة البهيجة بأن يتم دفنها مع الإلهة القديمة ، بحيث يقدم لها البحارة الشكر معها . ثم أصبح هذا الضريح مخصصاً للطبقات العليا ، وقد علقت الملكة برنيس شعرها هنا (عام ٢٤٤ ق.م) كتعبير عن شكرها لعودة زوجها سالماً ، وفى العام التالى ، اختطفت السماء شعرها ، ويمكن ملاحظته فى أى ليلة صافية ، وهو معروف بمجموعة «كومابرنيس»(**) . وكان المعبد سىء الحظ ، ولا يتبقى منه سوى قاعدة عمود وسط الصخور . وفى عهد المسيحية ، كانت توجد هنا كنيسة القديس قير والقديس يونان (انظر ماسبق) بجانب خليج أبو قير .

خليج أبو قير. والشاطىء ساكن ، به أشجار نخيل ، ومياهه ضحلة . ويمكن للمرء أن يستقل زورقاً ، وأن ينظر إلى أسفل ، ويرى الطمى الذى اختفت به بارجة «بروبه» المسماة «بالشرق» (Orient) ، بكل كنوزها . وقد تمت محاولات للتنقيب عنها ، ولكنها ذهبت سدى . ويعد الخليج مكاناً مناسباً للمراكب الشراعية ولصيد الترسة . والمنطقة البارزة التى وضع عليها نابليون مدافعه (انظر ماسبق) هى المنطقة المخصصة لرسو مراكب الصيد . والكثير من الصيادين صقليون ، وقد عاشوا فى أبو قير لأجيال ، وكونوا جالية منفردة بهم . وكان يوجد هنا (والموقع غير محدد) مينوثيس .

قلعة الرمل . وعلى قمتها محطة المياه ، ومنظرها رائع . والأرض المستوية التى فى الجنوب تمثل مصب النيل الكانوبى ، وهو الذى دخل منه هيرودوت إلى مصر ، حيث كان يوجد الهيرا كليوم(***) (انظر ماسبق) .

(*) بالعربية : الدبور ، وهى ريح غربية . المترجم .

(**) بالعربية : مجموعة الذؤابة . المترجم .

(***) الهراكليوم : معبد لهرقل . المترجم

وعلى بعد حوالى ربع ميل جنوب غربى قلعة الرمل ، وبالقرب من برج صغير وحديث لضخ المياه ، توجد حمامات تدعى حمامات كليوباترا .. وكليوباترا ليست لها علاقة بهذه الحمامات ، ولكنها تستحق الزيارة ، ولا يزال الحائط الخارجى الغربى المبنى من الحجر الجيرى فى حالة جيدة ، وتوجد درجات تؤدى إلى الداخل . وبالداخل توجد أسطح من فسيفساء الحصى وبقايا من الجص وحجر به مجرى للمياه . وتوجد غرفة على اليسار بها حمام بيضاوى يصل عمقه إلى حوالى ستة أقدام ، وتؤدى إليه بعض الدرجات الهابطة ، وفى منتصف أرضيته المغطاة بالحصى يوجد منخفض . وهناك على الحافة ، وفى الجدار المقابل كوات لتقوية الإضاءة ، ونرى أيضاً نظاماً لإمداد المياه وصرفها . وبعد ذلك عندما نجتاز حوضاً صغيراً من الجص ، نجد مدخلاً لحجرة صغيرة بها حمام بيضاوى يمكن الرقود فيه ، وهو حديث إلى حد ما ، ويبدو من هيئته أنه كان مخصصاً لسكان الضاحية ، وبالقرب منه يوجد حمام قدم تحت كوة ، وكان المستحم يجلس على كرسى ، اختفى الآن ، ولكن دعائمه موجودة . وكل هذه الحمّامات موجودة فى الجزء الغربى من المنطقة ، والباقى يحتوى على حجرات أخرى أكبر حجماً ، ولكنها فى حالة أسوأ . ونأمل أن تتم العناية -- كما ينبغى -- بهذه الحمّامات التى اكتشفت حديثاً ، وإلا فإنها ستلقى نفس مصير الآثار الموجودة بالمنطقة العسكرية .

وقرية أبو قير ، التى نعود إليها مجتازين أشجار النخيل ، لا تحوى شيئاً ذا أهمية ونترك ملتقى الطرق بالمعمورة (صـ٢٢٤) ، وينعطف القطار المتجه إلى رشيد يميناً ، ويجتاز الأرض السبخة المالحة ، والتى كان يصب من خلالها الفرع الكانوبى للنيل فى البحر ، ويظهر أخيراً ريف مصر . وبعد محطة الطرح ، يجتاز القطار جزءاً من بحيرة إدكو ، ويوجد منظر للقرية على اليسار .

● وتقع قرية إدكو على هضبة مرتفعة بين البحيرة والبحر المتوسط ، (ولا تحوى فندقاً أو مقهى) ، والبيوت فى شوارعها المنحدرة مبنية من الطوب الأحمر ، وتدعمها جذوع النخيل ، وأنواع من الأخشاب ، وهى تسبق معمار رشيد الأكثر تعقيداً . وتوجد بعض الأبواب المنقوشة على الطراز الإيطالى . والمساجد بها ليست ذات أهمية . وعلى قمة المرتفع توجد بعض طواحين الهواء ذات ثمانية أشرعة ، وهى تطحن الحبوب . وتنمو أشجار نخيل طيبة الثمار على الكثبان الرملية القريبة من الشاطىء ، بسبب وجود مياه عذبة تحت سطح الأرض مباشرة . وتوجد صناعة محلية هامة للنسيج ،

وخاصة الحرير الذى تستورد خاماته من الصين . وورش هذه الصناعة توجد غالباً فى الأدوار العليا من المنازل ، ويتم الصعود إليها بواسطة درج خارجى . وتوجد أماكن هادئة بديعة ، وعلى جدران بعض المنازل توجد نقوش كوفية فى الحجر . ويجلس النساجون إلى أنوالهم فى تجاويف ببضاوية صغيرة . وهؤلاء النساجون أيديهم بارعة ، وهم ينتجون بمعدانهم الخشبية البسيطة أقمشة متينة وجميلة فى نفس الوقت .

ويتم صيد السمك فى بحيرة إدكو ، وبعض الصيادين يخوضون فى الماء العميق لمسافات طويلة . ويوجد أيضاً أسطول من القوارب يرسو على المرساة الخشبية الطويلة الموجودة بالقرب من المحطة ، وأحياناً توجد بعض طيور البشروش .

ويستمر خط السكة الحديد بين البحيرة والبحر ، ثم يتجه فى النهاية شمالاً ، وينعطف عند بساتين النخيل الضخمة ، والتى تقع خلفها مدينة رشيد ونهر النيل .

رشـــــيد

رشيد والإسكندرية مدينتان متنافستان ، عندما تنهض إحداهما ، تأخذ الأخرى فى الاضمحلال . وقد سادت رشيد التى تقع على النيل لفترة ، ولكن كان ذلك فى زمن مغرق فى القدم ، فليس بها ميناء بحرى ، ولا يمكن أن يكون بها أى ميناء ؛ لأن الساحل فى هذه المنطقة جزء من الدلتا ، وسلاسل الحجر الجيرى التى خلقت ميناءى الإسكندرية لا تستمر شرقاً بعد أبو قير . واحتاجت الإسكندرية بعض التنظيم من العلم الإنسانى ، ولكنها بعد تنظيمها أصبحت مدينة لاتقاوم ، كانت رشيد مدينة هامة فى عصر غير علمى ، ودعونا نبحث باختصار ولادة الحضارة هنا وموتها فبعثها ثم اضمحلالها .

(أ) فى العصر الفرعونى، كانت المدينة وميناء «بولبتين» النهرى بالقرب من هنا ، ومن المحتمل أن موقعهما كان بعد المجرى بقليل خلف مسجد أبو مندور الحالى . ولا شيء معروف عن تاريخ «بولبتين» . وعند تأسيس الإسكندرية (عام ٣٣١ ق.م) انتقلت التجارة من مصب النيل عند «بولبتين» إلى المصب «الكانوبى» وإلى الموانى السكندرية ، وبدأت مدينة رشيد فى الاضمحلال تبعاً لذلك . ونصبها التذكارى الشهير هو المسمى بحجر رشيد ، وهو حجر

منقوش من البازلت ، وهو موجود الآن بالمتحف البريطانى . ويسرد النقش فضائل الملك بطليموس الخامس (إبيفانس) (عام ١٩٦ ق.م) (انظر شجرة العائلة البطلمية ص٥٨) . وهو وثيقة غير واضحة ، وما هو إلا نسخة مقلدة من المرسوم الأصلى الذى صدر فى ممفيس ، وانتشر ما فيه فى الدولة كلها . ولكنه حجر هام ؛ لأنه مكتوب بثلاث لغات ، وهى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، مما أدى إلى فك شفرة اللغة المصرية القديمة . والأعمدة الأثرية وغيرها التى يمكن رؤيتها فى رشيد اليوم ، من المحتمل أنها قدمت أيضاً من «بولبتين» ، ولكنها لم تكن ذات أهمية على الإطلاق ، وقد غطتها الرمال الآن .

(ب) تم تأسيس رشيد نفسها (عام ٨٧٠م) على يد المتوكل ، وهو أحد الخلفاء العباسيين فى مصر(*) . وهذا التاريخ فى غاية الأهمية ؛ ففى عام (٨٧٠م) جف مصب النيل الكانوبى ، وبذلك انعزلت الإسكندرية عن النظام المائى المصرى وكانت السفن تمر من خلال مصب «بولبتين» ، وأخذت تتردد عليه نحو ألف عام . وأصبحت «الرشيد»(**) وهو الاسم الذى أطلقه العرب على المدينة المنشأة حديثاً - الميناء الغربى لمصر ، حيث كانت دمياط هى الميناء الشرقى . وكانت رشيد ذات أهمية كبيرة أثناء الحملات الصليبية ، وعرفها القديس لويس الفرنسى (عام ١٠٤٩م) بـ «ركسى» ، وتم إعادة بنائها فعلياً فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وصارت على هيئتها الحالية ، المساجد والدور والأحواض ومستودعات الحبوب التى تغطى ضفة النهر ، كل هذا يرجع إلى تلك الفترة . وقد ابتدعت أسلوباً معمارياً متلائماً مع المكان، كانت الخامة الرئيسية فيه هى الطوب المصنوع من طمى النيل ، ذو اللونين الأحمر أو الأسود ، ولم توجد أى أحجار جيرية فى متناول الأيدى كتلك التى كانت فى الإسكندرية . وكانت أخشاب النخيل والأعمدة الأثرية تستخدم مع هذا الطوب فى أعمال البناء . وهناك بعض الأعمال المعمارية المحدودة تم فيها استخدام المشربيات والخزف المزخرف ،

(*) فى هذا التاريخ كانت الخلافة العباسية فى بغداد ، ولم تنتقل إلى مصر إلا فى سنة ١٢٦١م . المترجم

(**) تيمناً باسم الخليفة العباسى هارون الرشيد - المترجم

وهى ذات طراز رائع ولكنه ليس راقياً ، ويمكن مقارنته بالطراز القرميدى فى مدن شمال ألمانيا . ومن الممكن العثور على نماذج منه فى الدلتا وفى الإسكندرية نفسها (صـ١٧٦) ، ولكن رشيد هى مركز هذا الطراز . وكانت هذه المدينة تتشابه مع القاهرة فى مجال العمارة وفى غيره من المجالات ، وهي نعد مدينة شرقية ، أخذت فى التغريب بالكاد فى العصر الحالى . وطالما كانت الإسكندرية نائمة ، فإن رشيد كانت تزدهر . وفى بدايات القرن التاسع عشر ، وصل تعداد سكانها إلى ٣٥٠٠٠ نسمة ، بينما وصل تعداد سكان الإسكندرية إلى ٥٠٠٠ نسمة واحتلت قوات نابليون مدينة رشيد (عام ١٧٩٨م) ، واستردها الأتراك والإنجليز (عام ١٨٠١م) ، وبعد ذلك صدّت حملة الجنرال فريزر الاستكشافية عام (١٨٠٧م) (صـ١٣٢) . وكانت هذه الأحداث – على الرغم من عدم أهميتها فى حد ذاتها – مقدمة لنكبة مريرة لهذه المدينة ، وهى نهضة الإسكندرية على أسس علمية على يد محمد على ، وبمجرد أن عمل على تطوير الموانى ، وإعادة وصلها بالنظم المائية للنيل عن طريق شق ترعة المحمودية (صـ١٣٥) ، أخذت رشيد فى الاضمحلال كما أضمحلت «بولبنين» قبلها من ألفى عام ، وأصبح عدد سكانها الآن ١٤٠٠٠ نسمة ، على عكس الإسكندرية التى أصبح عدد سكانها ٤٠٠٠٠٠ نسمة ، وأصبحت رشيد ذابلة وواهنة ، وذلك لعدم اتصالها بالعالم الخارجى . بدأت المستودعات والمساجد فى الانهيار ، وخرِّبت المنازل الفخمة الخاصة بالتجار من الداخل ، وأخذت الرمال تتقدم من الجنوب والغرب ، وتغزو كل عام جزءًا صغيراً جديداً من بساتين النخيل والشوارع . ويمكن للمرء أن يتجول ساعات بلا هدف (فأفضل شيء يمكن فعله هو التجول) ، ولكن المرء لن يرى شيئاً حديثاً أو شيئاً أكثر إمتاعاً من عودة أسطول الصيد محملاً بأسماك السردين . ونصل إلى الشرق أخيراً ، ولكنه الذى تفوق – ذات يوم بالعلم – ووصل فى النهاية إلى أخر مراحل الإنهاك .

ويبدأ الشارع الرئيسى فى رشيد من محطة السكة الحديد ، ويتجه جنوباً بمحاذاة النهر ، ولذا فمن السهل أن يجد المرء طريقه . وفى هذا الشارع ، يوجد الفندق الوحيد فى المدينة ، وهو تابع لرجل يونانى ، ومن ليسوا شديدى الحساسية

يمكنهم النوم فيه ، وعلى الآخرين أن يذهبوا ليروا باقى مشاهد المدينة فى الوقت الذى يمتد بين قيام قطارين . ولهذا الفندق حديقة جميلة تطل عليها منارة مسجد .

ويوجد فى الشارع الرئيسى على اليمين مسجد «على المحلى» ، والذى أقيم عام (١٧٢١م) ، ويحتوى على مقبرة هذا الولى الذى توفى فى القرن السادس عشر ، وهو بناء ضخم ولكنه غير جميل ، وله مدخل مسقوف على شكل «الدلتا» مبنى من القرميد المرصوص بعضه فى أطر ، وبعضه بارز ... إلخ . وبعد ذلك ، توجد على اليسار أسواق مغطاة ، وبالقرب منها يوجد مدخل ذو أبواب قديمة لمبنى كبير خرب ، ربما كان (وكالة) أو ساحة للمسافرين ودوابهم ، ويمكن التجول بداخله ثم الخروج من الناحية الأخرى من باب أنيق باتجاه النهر . وهذا الجزء بأكمله من المدينة فى غاية الروعة ، فالمنازل مكونة من أربعة أو خمسة طوابق ، وبها أعمدة من طراز عتيق قائمة بين القرميد بشكل رائع ، وأفضل وأقدم نموذج لهذا الطراز المعمارى المحلى تجده فى منزل «على الفطايرى» فى حارة «الغزل» ، وعليه نقوش على العتبات العليا للأبواب والنوافذ ، وترجع إلى عام (١٦٢٠م) . والدرج الخارجى يؤدى إلى بابين ، أحدهما يؤدى إلى ديوان الرجال والآخر إلى غرف الحريم على الترتيب . وتوجد منازل جميلة أخرى ، وهى منزل الشيخ «حسن الخباز» فى شارع «دهليز المُلك» ، ومنزل «عثمان أغا» فى أحد الشوارع المتقاطعة ، وستجد به أخشاباً منقوشة ترجع إلى عام (١٨٠٨م) ، وستجد أيضاً منزل «أحمد أغا» فى شارع الغباشى فى غرب المدينة الذى تغطيه الرمال . وفى نهاية الشارع الرئيسى يوجد أهم مبنى فى المدينة وهو مسجد زغلول ، وهو يتكون فى واقع الأمر من مسجدين : أنشىء المسجد الغربى حوالى عام (١٦٠٠م) على يد زغلول ، وهو مملوك وخادم لسعيد حسن ، أما المسجد الآخر - وهو الجزء الأكثر خراباً ، فهو مسجد الضبوى ، وتوجد به ساحة فى وسطها فسقية . ومساحته الكلية هى ٨٠ × ١٠٠ باردة ، وهو مبنى بالقرميد ، فيما عدا المئذنتين فهما من الأحجار ، وهناك رأى شائع أن المئذنة الخربة قطعت بمقص ، ولكن علم الآثار يؤكد أنها انهارت فى بداية القرن التاسع عشر . وصحن مسجد زغلول عبارة عن بهو فسيح ، وبه أكثر من ثلاثمائة عمود ، معظمها أثرية ، ومرتبة فى ستة صفوف متوازية ، وتوجد أربعة محاريب للصلاة ، ثلاثة منها مزخرفة بإتقان ، وبه مقبرة هذا المملوك نفسه ، وهو يُبَجَّل على أنه ولى ، ويتم التقرب إليه بقرابين ونذور عبارة عن مراكب ، وفى نفس المقبرة ، يرقد معه سيده الراحل سعيد حسن ، ويشاركه فى مظاهر الحفاوة والتكريم .

وصحن هذا المسجد صار خرباً ، وهو مبنى بإهمال ، ولكن تأثير منظوراته – وخاصة من عند الجدار الجنوبى بالقرب من المقبرة – رائع ، وينافس نظيره فى المسجد الأزهر بالقاهرة ، ويتخلله الضوء من فتحات فى السقف .

وشرقى مسجد زغلول بالقرب من النهر ، يوجد مسجد محمد العباس الذى يرجع إلى عام (١٨٠٩م) ، وهو مؤسس بحجم أكبر ، ولكن على نفس الطراز ، وبه – بخلاف مساجد رشيد – قبة جميلة تغطى قبر الولى .

ومن المساجد الأخرى . مسجد توماكسيس ، الذى بناه صالح أغا توماكسيس عام (١٦٩٤م) ، ويتم الصعود إليه عن طريق سلم ، وتوجد به أعمال دقيقة من الحديد حول ثقوب المفاتيح ، وبه منبر جيد من القرميد أيضاً ، ومحراب الصلاة لا يزال محتفظاً بزخارفه الهندسية الأصلية ذات الأشكال السداسية و «خواتم سليمان» .

ويوجد أيضا مسجد الشيخ «تُقى» ، والذى يقع على زاوية من شارع «سوق السمك القديم» ، ومدخله مبنى على شكل الدلتا ، وبه ورود على أقواسه ، وبداخله منبر يرجع إلى عام (١٧٢٧م) .

ويوجد على بعد ميل من جنوب المدينة مسجد أبو مندور ، وأفضل وسيلة للوصول إليه هى القوارب . وهذا المسجد عبارة عن مبنى حديث رائع ، ويقع فى موقع جيد على ضفة النهر عند انعطافه ، وتوجد خلفه تلال هائلة من الرمال نهدد بدفنه كما دفن «بولبتين» من قبل .

وفى شمال المدينة ، فى منتصف الطريق بينها وبين البحر هناك موقع قلعة القديس «جوليان» ، والتى بناها جنود نابليون ، حيث اكتشفوا حجر رشيد . ولقد اختفت القلعة ، ولكن يوجد مخطط لها فى متحف الإسكندرية (فى الرواق) .

ويمكن بعد ذلك ركوب قارب فى النيل . وهو شىء مبهج

الفصل الثامن

الصحراء الليبية

المسارات : باستخدام سكة حديد مريوط إلى بهيج نذهب إلى أبوصير ثم إلى القديس مينا ، وكل رحلة منهما ستغرق يوماً .

وباستخدام السكك الحديدية أيضاً ومروراً بأبيتاى البارود والخطاطبة نذهب إلى وادى النطرون . وهو ما يستغرق يومين أو ثلاثة⊗ .

وعلى الرغم من أن الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية إلا أنها تقع على مشارف الحضارة ، فغربيها تبدأ صحراء هائلة من الحجر الجيرى تمتد إلى قلب أفريقيا ، ومعظم سكان المدينة ينسون حتى وجود هذه الصحراء ، على الرغم من أنها لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ المدينة ، وخاصة فى العصور المسيحية . وما من أحد يعرف سيرة حياة هذه المدينة ويستطيع أن يتجاهل دور هذه الصحراء .

كانت سكة حديد مريوط - فى الأصل - ملكا للخديوى السابق ، ويبدأ الخط من المحطة المركزية ، ثم ينحرف عن الخط الرئيسى عند الحضرة ، وباجتيازه محطة النزهة (الفصل الرابع) يعبر ترعة المحمودية (صـ١٣٥) ، ثم ينحرف غرباً بمحاذاة حافة بحيرة مريوط ، وتوجد قبل محطة حديقة القبارى مباشرة ، قرية صيد أقيمت على خليج صغير جدا ، وتبدو على هيئة قرية يابانية . وهى تستحق الزيارة ، عند ما يوجد صيد فأسماك البحيرة وحوش خارقه ، والمناطق المجاورة خصبة للغاية ، تجد بها أشجار النخيل والموز والحقول المزروعة بالخضر . ولكن السير غير ممتع بسبب الروائح الكريهة⊗

● محطة المكس (الفصل السادس) . يجتاز القطار اللسان الغربى لبحيرة مريوط ، أو لسان الملاحة ، ويوجد يميناً أحواض الملاحات ، والتى تظهر قرمزية باهتة فى فصل الصيف ، ووراء ها يوجد نتوء الأحجار الجيرية الذى يفصل البحيرة عن البحر .

● محطة عبد القادر ونحن الآن نقترب من الصحراء الليبية ، حيث تختلف المناظر والناس ، ويوجد على التل يميناً عند المقبرة منظر جميل وتأثيرات رائعة للألوان فى المساء .

● محطة العامرية . لقد كانت هذه القرية الكبيرة سابقاً ، عاصمة المقاطعة الشرقية من إقليم الصحراء الغربية ، ولكن العاصمة انتقلت إلى برج العرب ، ويأتى البدو إلى القطار ، وهم أضخم وأكثر بحولة وقوة ورشاقة من المصريين ، ويرتدون ثياباً بيضاء خشنة ، وطرابيش حمراء داكنة ، والسير من العامرية إلى المكس لطيف ، وأفضل أماكن السير بالقرب من الإسكندرية . وبسير الطريق شمالا من المحطة مروراً بالحدائق العامة ، ثم ينعطف عند محاجر الحجر الجيرى . ويوجد منظر جميل من القمة عند اللسان الغربى لبحيرة مريوط . سر فى الطريق الذى يعبر البحيرة ، وانعطف يميناً عند الضفة الأخرى ، ثم اعبر المرتفع الساحلى إلى الدخيلة (الفصل السادس) ، وأخيراً إلى المكس على شاطئ البحر .

● محطة مريوط إكنجى[*] «إكنجى» كلمة تركية بمعني (الثانية) ، وهى مركز جيد لنموالأزهار البرية فى شهرى فبراير ومارس . سر شمالاً باتجاه البحيرة ، والزم السير على المنطقة المنخفضة . والحياة النباتية فى هذا الإقليم تعد من أروع ما فى العالم .

● محطة بهيج . وهى مركز لرحلتين رائعتين ، وهما أبوصير على الساحل ، والقديس مينا فى الداخل .

أبو صير⊗

تقع بقايا أبوصير على بعد خمسة أميال ونصف الميل باتجاه الشمال الغربى من محطة بهيج . ويمكن الوصول إليها بلا دليل (انظر الخريطة) ' فيوجد طريق جيد طوله ٤/٣ ميل يصل إلى قرية بهيج ، وبعد القرية يوجد محجر كبير كان يتم العمل فيه فى العصور القديمة ، وهو محجر رائع . وهناك طريق يعبر المرتفع على يسار هذا المحجر إلى حد ما ، وترى بعده البقايا على امتداد الطريق . ويجب عبور نهاية بحيرة مريوط ' ولذا فلا يجب القيام بالرحلة فى الشتاء بسبب الطمى ، ونصف الساعة الأخير من الرحلة رائع ، وعلى القمة يوجد المعبد والبرج اللذان يبدوان ذهبيين فى الربيع لنمو نباتات الآذريون (القطيفة) . وبالقرب من قمة المرتفع يبدو البحر من خلال ممر جبلى أزرق داكنا ، تنسرب مياهه على شاطئ رماله بيضاء بياض الثلج ، وتبدو الأزهار مدهشة ، وهى تلون الأرض فى شتى الأنحاء . ويزعم البدو أن بقايا أبوصير هذه تسمى قصر « أبو زيد » ، وهى تمبر مدينة « تابوزيريس » البطلمية ، والتى مازالت مدينة أبوصير تحتفظ باسمها

(*) وتسمى الآن « كنج مربوط » - المترجم .

ولابد أن «تابوزيريس» أنشئت بعد إنشاء الإسكندرية بقليل (حوالى عام ٢٠٠ ق.م) . ومن الضرورى أن نقارن بين المدينتين ؛ الاثنتان مقامتان على نفس النتوء الصخرى ، ولكن «تابوزيريس» مقامة عند القاعدة حيث خرجت من كتلة الصحراء . وتحدهما البحيرة من الجنوب ، والبحر من الشمال ، وكل منهما يسيطر على ميناءين لصالح تجارتهما ، وكلتاهما بها منارة ، وكلتاهما أيضاً كانت تعبد أوزوريس . ولايعرف إلا القليل عن تاريخ « تابوزيريس » ، التى كانت تسمى « الكبرى » تمييزا لها عن «تابوزيريس الصغرى» بالمنتزه (صـ٢٢٣) . وتجارتها المباشرة عن طريق البحيرة ، كان ميناؤها على بعد نصف ميل جنوبى مبناء « بلنثينوس » المندثر . وقد حول العرب معبد أوزوريس بها إلى قلعة ، وفى العصر الحديث ، كان حرس السواحل يقيمون بها .

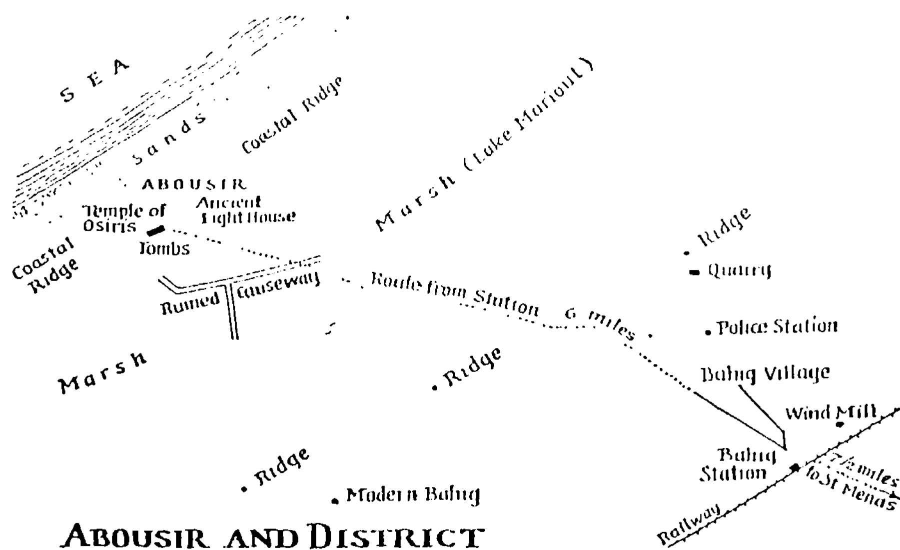
والآثار الرئيسية هنا هى

(أ) **معبد أوزوريس** : يجاور المدخل الشرقى ، وهو المدخل الرئيسى له ، مخفر حرس السواحل ، وللوهلة الأولى يبدو المدخل وكأنه حجر فى جدار خرب ، ولكنه يمكن إعادة بنائه بسهولة ، وكان على جانبى المدخل أبراج ضخمة ، مثل تلك الموجودة فى إدفو أو كوم امبو فى صعيد مصر . وكانت قواعد الأعمدة بارزة عن الجدار الرئيسى ، وفى واجهة كل منها شقوق لساريات الأعلام التى كانت ترفرف على قمتها أعلام قرمزية خفاقة . وتصعد السلالم الداخلية لهذه الأبراج التى يوجد بقاعدة كل منها غرفتان مربعتان .

والمنطقة التى تبلغ مساحتها حوالى ١٠٠ ياردة مربعة فى حالة شديدة من الفوضى ، ولقد اختفى المعبد الحقيقى ، ومن المعتقد أنه كانت هناك ساحة بها أعمدة ، فى وسطها مذبح ، وبعدها كانت توجد واجهة المعبد ، وكانت هناك ساحات أخرى شمالى وجنوبى المعبد ، وقد كان النظام مصريا ، ولكن بعض العمال كانوا يونانيين . وقد تم اكتشاف ترقيم للبنايات بحروف الأبجدية اليونانية على حجر فى الجدار الفاصل بين كل بناء وآخر .

والسور الذى يحد المنطقة شمالا فى غاية الأناقة ، لأنه يبرز عن سفح التل ، ومقام على أساسات ، وبه بوابة لنزول البحر . لاحظ البروزات فى الأبنية . وتوجد فى الطرف الشمالى الغربى بعض الآثار المعمارية التى كدسها العرب فى أكوام .

(ب) **المنارة** : كان من المعتقد خطأ أن البرج الخرب الموجود على التل شرقى المعبد عبارة عن مقبرة حيث إنه يقع فى جبانة قديمة ، ولكنه فى الحقيقة



خريطة لمنطقة أبو صير توضح معبد أوزيريس والمنارة القديمة وقرية بهيج

ما هو إلا منارة «تابوزيريس» البطلمية ، والتى تعد الحلقة الأولى فى سلسلة ممتدة من فنارة الإسكندرية ، ومتجهة على طول ساحل شمال أفريقيا حتى القيروان . وبهذه المنارة ثلاثة طوابق مثل فنارة الإسكندرية أولها قاعدة مربعة ، ثم طابق أوسط ثمانى الشكل ، ثم قمة أسطوانية . وفى الشمال ، حيث انهار الجدار الخارجى للطابق الثمانى ، يمكن للمرء أن يرى بقايا السلم الذى كان الخشب يحمل عليه حتى القمة ، وهو نسخة أبسط من السلم الحلزونى المزدوج الذى كان يصعد إلى فنارة الإسكندرية الضخمة . ولاشك أن منارة « تابوزيريس » قد خططت على غرار فنارة الإسكندرية الضخمة المعاصرة لها – وهى فى عشر حجمها – ولذا فإنها ذات أهمية كبيرة لعلماء الآثار والتاريخ (انظر صـ ١٨٥ ، ومابعدها) . وتوجد مقابر بالقرب من المنارة، وهناك مقابر وبيوت أخرى على امتداد سفح التل جنوبى المعبد .

(جـ) الطريق المعبد : يوجد فى قاع البحيرة جنوبى المدينة آثار جسر كان يربطها بالصحراء . وكانت بالتأكيد تنفذ من خلاله قناطر مثل قناطر الطريق ذى الاستديومات السبعة (انظر الهامش صـ٥٤) بالإسكندرية ، وهو يسمح بمرور القوارب .

● ومن المواقع الأخرى ذات الأهمية فى القاطعة : منطقة برج العرب (بهيج الحديثة) . وهى تقع على بعد عدة أميال من قرية بهيج (انظر ما سبق) ، ويمكن تحديد موقعها بسهولة من على برج مصنع السجاد الحديث . وبرج العرب هى عاصمة المقاطعة الشرقية من إقليم الصحراء الغربية – إدارة مناطق الحدود . وقد تم تخطيطها وتنفيذها بذوق رفيع بفضل عبقرية الحاكم العسكرى و . إ . چننجز براملى (W.E. Jennings Bramly) ، ويتكون المصنع من رواق مسقوف له أعمدة ، وقاعتين تحيطان بالبرج الكبير، وتوجد أجزاء من تحف من النحت والمعمار أدخلت بشكل بارع، وتُنسج السجاجيد من وبر الإبل وشعر الماعز على أيدى نساء بدويات وسنوسيات ، وقد بدأت هذه الصناعة فى العامرية أثناء الحرب الأخيرة(*)، ويمكن الحصول على نماذج منها من المحلات السكندرية . وتوجد بعد ذلك فى اتجاه الغرب مبان أخرى تتضمنها مدينة صغيرة مسورة ، وهى جميلة فى حد ذاتها ، ومن النماذج الإبداعية الحديثة القليلة التى يمكن رؤيتها فى هذه المناطق .

(*) يقصد الحرب العالمية الأولى . المترجم .

القديس مينا

على بعد سبعة أميال ونصف الميل جنوبى محطة بهيج ، ترقد فى وحشة الصحراء أطلال مدينة مسيحية عظيمة ، يمكن زيارتها على حصان جيد خلال فترة وجيزة ، ولكن من الأفضل إقامة معسكر هناك ويجتاز الطريق مساحات من الحجر الجيرى تنحرف بلطف قليلا ، ويغدو المشهد أقل متعة والحياة النباتية تصبح أكثر ندرة ، وذلك عندما نترك الساحل خلفنا ، وأخيراً تنكسر الرتابة بوجود كوخ مربع كان يعيش فيه الباحثون عن الآثار . ومازال الاسم الحديث للمكان (أبومينا) يحتفظ بنظيره القديم .

كان مينا ضابطاً مصرياً شاباً استشهد أثناء خدمته فى آسيا الصغرى ، لأنه رفض أن يتخلى عن المسيحية (عام ٢٩٦م) . وعندما عاد الجيش إلى مصر ، أحضر أصدقاؤه رفاته معهم ، وتحققت المعجزة فى مدخل الصحراء الليبية ، حيث رفض الجمل الذى كان ينقل الرفات أن يستكمل المسير . فدفنوا القديس هناك ، وطواه النسيان ، ولكن بعد ذلك لاحظ راعى غنم أن حمله المريض قد تعافى بعد مروره على هذا الموقع ، وجرب أن يكرر ذلك مع حمل آخر ، ونجح ، ثم شفيت أميرة مريضة أيضاً ، فأخرج رفات القديس ، وبنيت كنيسة فوق القبر ولايزال فى الإمكان تقصى آثار هذه الكنيسة ، وهى عبارة عن كنيسة مستطيلة ، فى أحد طرفيها جزء بانى نصف دائرى يقع فوق سرداب للدفن (مخطط I ، صـ ٢٥٠) ويرجع تاريخ بناء الكنيسة إلى عام (٣٥٠م) ، وقد تم إضافة امتداد ضخم لها فى نهاية القرن على يد الإمبراطور أركاديوس .

ما الذى أحدث هذا النمو السريع ؟ إنه الماء . فقد كانت توجد ينابيع بين الحجر الجيرى ، ولكنها جفت ، ولابد أنها كانت تتمتع بقوى شفائية . وشقت قنوات بعضها يفضى إلى خارج الكنيسة (مخطط II) . وقد كانت تملأ قوارير صغيرة عليها صورة القديس من المنبع المقدس عند مقبرته ، وشربت كل المنطقة المحيطة منها ، وأقيمت البيوت والأسوار والمقابر ، حتى نشأت مدينة مقدسة فى الهواء النقى حيث اندمج الدين بالتعاليم الصحية ، وكل ما فعله القديس هو حماية المرضى ، وكان أيضاً راعياً للقوافل التى كانت تأتى من الإسكندرية متجهة إلى وادى النطرون والواحات السيوية وطرابلس ، لذا فهو يرى دائما بين جملين ينحنيان فى خشوع ، لأنه يقودهما على نحو صحيح ، وفى القرن السادس الميلادى أصبح معبود الصحراء الليبية ، ولأن الصحراء الليبية كانت أقل إقفاراً منها الآن . فقد ذاعت شهرته كما ذاعت شهرة سلفه سيرابيس ، وانتشرت فى البحر المتوسط بأكمله ، حتى أنها جلبت له عُبّاداً من روما وفرنسا .

وقد كبح الإسلام جماح هذه العقيدة ، ولكن أحد الرحالة العرب رأى الكنيسة المزدوجة حتى عام (١٠٠٠م) ، وكانت النيران تشتعل بالضريح ليل نهار ، وبقى مجرى هزيل من «المياه العذبة للقديس مينا التى تشفى الألم» .

واكتشف هذا الموقع عام ١٩٠٥م ، بعد أن كاد النسيان بطويه تماماً ، وتم البحث عنه بعناية ، وعثر على ما هو أفضل من مجرد أساسات المبنى وتخطيطه ، ومعظمه هام ، وزخارف الرخام به جميلة .

المجموعة المقدسة : وهى تقع على بعد قلبل من أكواخ الباحثين ، وطولها مجتمعة يصل إلى نحو أربعمائة قدم ، وفى وسطها توجد الكنيسة الأصلية التى تغطى المقبرة ، وشرقيها توجد إضافة أركاديوس الرائعة ، ويوجد غربيها بيت المعمودية(*)، ويحدها من الشمال دير .

وأفضل موقع لرؤية هذه المجموعة هو من فوق هضبة وراء بيت المعمودية . والنظام العام واضح للغاية (مخطط I ، صـ٢٥٠) ، وهو بالتفصيل .

(أ) **كنيسة أركاديوس** . يصل طولها إلى حوالى مائتى قدم ، وهى كنيسة على هيئة صليب بها صحن وممران وجناحان(**)، وعند نقطة التقاطع كانت توجد قبة ، وكان يوجد المذبح العلوى الذى تهدم الآن من أثر سقوطها ، وخلف المذبح توجد درجات منحنية كانت تدعم العرش الكنسى .

وكل من المذبح والعرش يوجد فى جزء مربع كان يقف فيه القس والمرنمون ، ويربطها بالصحن ممر ضيق، وتم استخدام الجزء نصف الدائرى الشرقى الناتىء للدفن .

وصحن الكنيسة مبلط بالرخام الأبيض المجلوب من الأرخبيل اليونانى ، واستخدم فيه أيضاً الرخام الأخضر والأرجوانى (الرخام الأخضر العتيق(***) والرخام السماقى) ، ويوجد فى الممر الجنوبى ثلاثة أبواب تفتح فى ردهة جميلة ، وكان هذا هو الطريق الرئيسى إلى الكنيسة ، أما الممر الشمالى فيفتح من طرفه الشرقى على سلم يصعد إلى سطح الكنيسة ، والأبواب الأخرى تفتح على غرف الرهبان والتكية(****) (انظر مايلى) ، والطرف الغربى من الصحن غير متناسق ، إذ إن الجزء نصف الدائرى الناتئ من الكنيسة الأصلية يصدم العين .

(*) جزء من الكنيسة يجرى فيه التعميد . -المترجم

(**) الجناح : جزء جانبى من الكنيسة ، مفصول عن صحنها بصف من الأعمده -- المترجم

(***) هو رخام أخضر معرق أو مرقش -- المترجم

(****) نزل للمسافرين أو الفقراء تنفق عليه الكنيسة -- المترجم .

(ب) **الكنيسة الأصلية** : هى عبارة عن كنيسة مستطيلة ، فى أحد طرفيها جزء ناتىء نصف دائرى ، وبها ثلاث ردهات ، وهى فى حالة سيئة ، ولكنها تحتوى على سرداب ممتع تحت الأرض ، يمكن النزول إليه عن طريق سلم من الرخام يبدأ من كنيسة أركاديوس ، ويمر برواق معمّد له سقف مقبى من القرميد ، ثم يتجه السلم جنوباً إلى حجرة مستطيلة تحت الأرض ، حيث كان يوجد يوماً ما رفات القديس الشاب وسط زخارف أنيقة فى مقبرة ، كان يمكن رؤيتها من أعلى الكنيسة ، وكان هناك أيضاً نقش ضئيل البروز على الحائط الجنوبى ، ولايزال يمكن رؤية موضع اللوح الرخامى ، والنقش ضئيل البروز الموجود بمتحف الإسكندرية (حجرة ١) ماهو إلا نسخة مقلدة من النقش الأصلى .

ويتصل بالسرداب مصلى كان مقبيا ذات يوم ، وبه فسيفساء ذهبية ، وهذا البئر حفره الباحثون عن الكنوز (سارقو الكنوز) .

ويجرى غربى الكنيسة مجرى الماء المقدس الذى استمدت منه الكنيسة شهرتها ، وهو عباره عن عين للمياه الجوفية يصل طولها إلى ثمانين ياردة ، وقد غرقت فيها أسطوانة عمود(*) من صحن الكنيسة ، ولأن هذا المجرى يجرى منذ آن انبثق قرب رفات القديس ، فإنه اكتسب قداسة خاصة ، وقد استخدم الماء فى ملء قوارير صغيرة ، واستخدم أيضاً فى بيت المعمودية المجاور .

(جـ) **بيت المعمودية** : وهو مبنى مربع من الخارج ، وثُمانى من الداخل ، وفى وسطه عند النزول على درجات السلم يوجد "جرن المعمودية" الأساسى ، والذى به قناة فياضة ، ولا نعلم كيف كان يملأ هذا الجرن ، وكانت الأرضية مبلطة بالسربنتين(**) والرخام السماقى وأنواع أخرى من الرخام بطريقة أنيقة، وكانت هناك قبة، وتوجد ردهة فى الطرف الجنوبى من بيت المعمودية، وبالقرب من مخرجه الغربى توجد كوات للتماثيل .

وبيوت المعمودية التى من هذا الطراز والتى تكون منفصلة عن بقية أجزاء الكنيسة شائعة فى الغرب ولكنها فريدة من نوعها فى الشرق ، فهى لاتوجد إلا فى كنيسة القديس مينا التى اشتهرت بمائها الذى يستخدم فى العبادة .

(*) أسطوانة العمود : هى الجزء الرئيسى من العمود الواقع بين القاعدة والتاج . المترجم

(**) حجر الحية : رخام أخضر عادة ، مرقط أحيانا كجلد الأفعى . المترجم

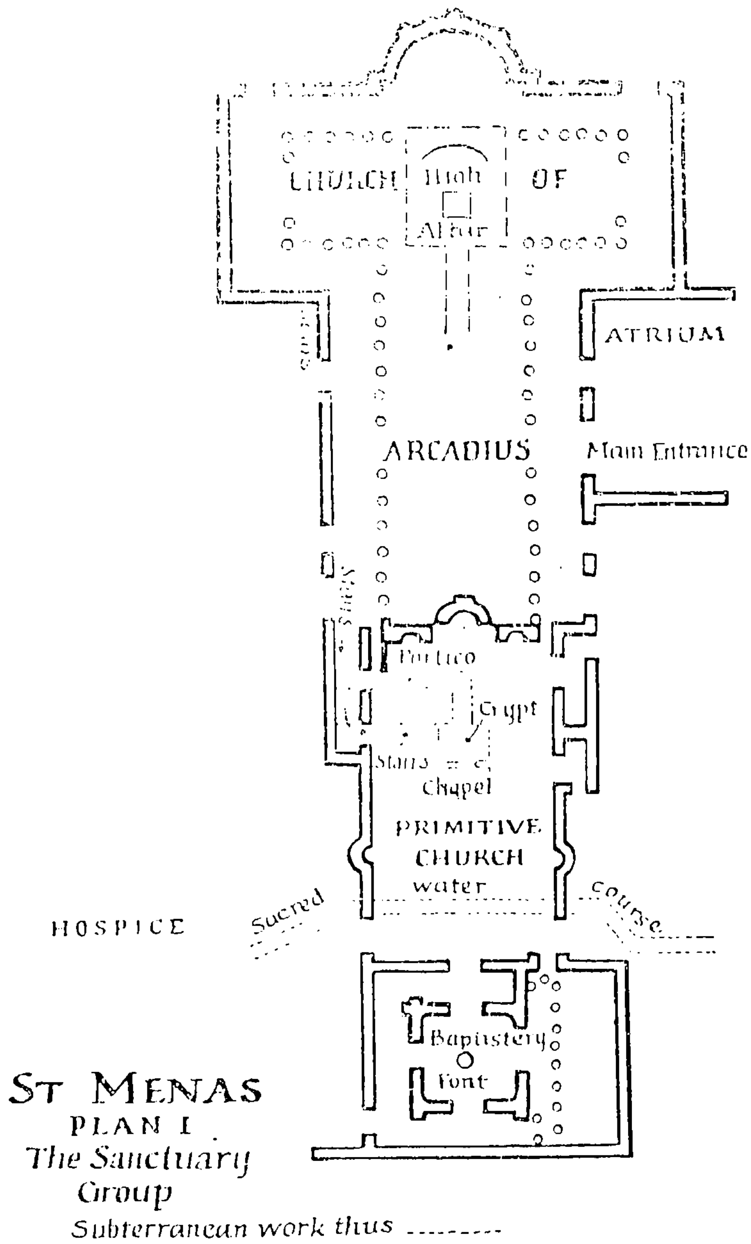
وتوجد شمالى المجموعة المقدسة مباشرة مبانى الدير والتكية ، وهى عبارة عن متاهة معقدة ، وأفضل ما فيها هو قاعة مبلطة بالرخام ، وأخرى كانت تدعمها ثمانية أعمدة . وهى توجد على بعد أربعين ياردة شمالى بوابة الكنيسة الأصلية ، وتغطى هذه المبانى- هى ومبانى المجموعة المقدسة - مساحة تصل إلى أكثر من ٤٠٠٠٠ ياردة مربعة .

الحمامات المقدسة (مخطط II) : وهى على مسافة ثمانين ياردة من مبانى الدير وهى تقع بشكل رائع وسط حوض دائرى أنيق مقطوع من الأحجار الجيرية ، والمبنى الرئيسى يحتوى على جهاز للتسخين وثلاثة حمامات ، وتوجد أيضاً كنيسة صغيرة ، ولكنها منجزة بشكل أنيق ، وهى على هيئة كنيسة مستطيلة بها نتوء نصف دائرى من كل طرف من أطرافها ، وبها ثلاثة ممرات ، وفى صحنها فسقيتان من الرخام ، من المحتمل أنهما كانتا تملآن من العين النابعة من الكنيسة الرئيسية (انظر ماسبق) ، وتعد الفسقيتان من أهم الأجزاء فى النظام بأكمله . وقد رُسم الخط الذى يصل بين التعاليم الصحية والمعجزات بوضوح ، وقد لعب جهاز التسخين والكنيسة أدوارهما ، وربما ترجع هذه المجموعة إلى القرن الخامس الميلادى ، وتوجد بعدها مجموعة أخرى

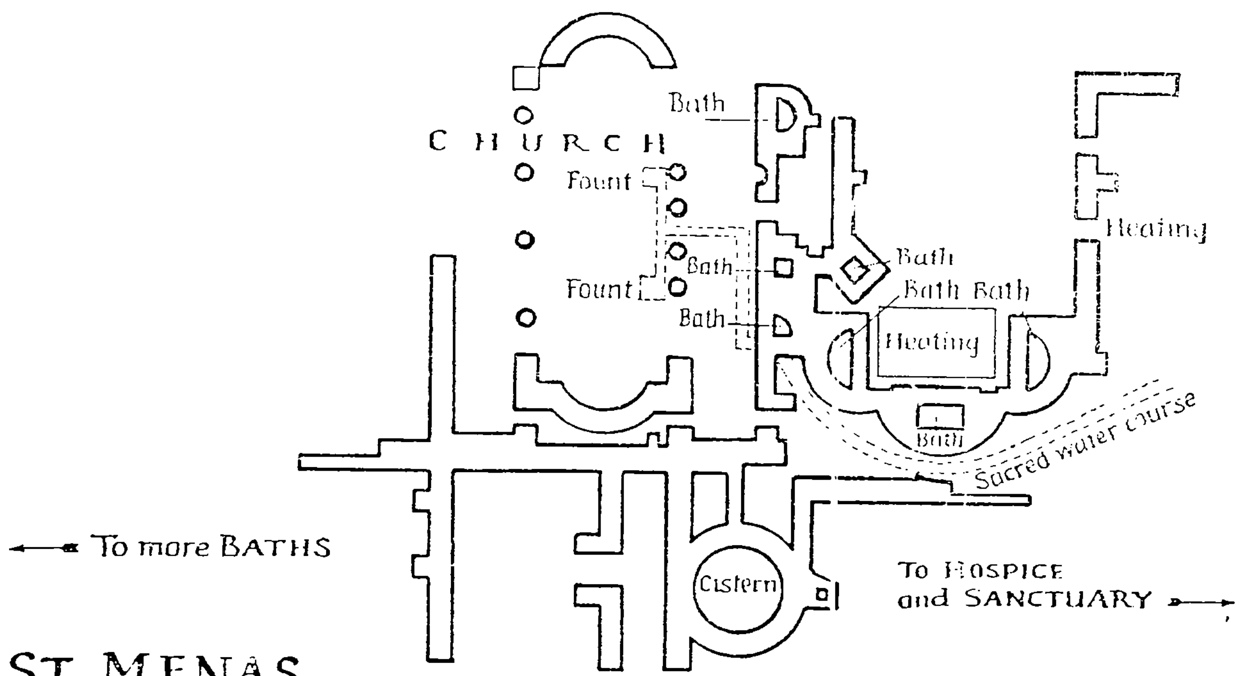
الجبانة الشمالية : وتعد الأهم فى المدينة ، وتقع على مسافة من المجموعة التى وصفت آنفاً . وفى واقع الأمر فإن زائر المنطقة القادم من اتجاه بهيج يجدها على يساره فى اتجاهه إلى الكوخ . ويمكن رؤية منظر جيد للمجموعة من قمة مرتفع . والمبنى الرئيسى بها هو كنيسة (يصل طولها إلى ١٥٠ قدما) ، وبها ثلاثة ممرات ونتوء مربع والعديد من المصلبات التى كانت تحفظ بها جثث الموتى ريثما تدفن ، وبعض هذه المصليات يوجد خارج الكنيسة ، وتلك الأخيرة ترجع إلى مابين القرنين السابع والتاسع الميلاديين .

وهذا على أى حال بيان ببقايا كنيسة القديس مينا ، وتوجد جبانة جنوبية ، ومنازل خاصة ومعاصر نبيذ وأتون كانت تصنع به القوارير الفخارية الصغيرة . والصحراء المحيطة كلها تظهر بقايا هذه العقيدة الغريبة التى سبقت مناهج لوردس (Lourdes) بطريقة ما .

وبركوب حمار والسير جنوباً لمدة نصف يوم ، يمكن الوصول إلى وادى النطرون .



مخطط (١) لمنطقه القدس «مينـا» يوضح التخطيط الداخلى لكنيسة القديس مينا



مخطط (٢) لمنطقة القديس . ميناء يوضح موقع وتخطيط الحمامات المقدسة

وادى النطرون⊗

وأفضل طريقة لزيارة الوادى هى الترتيب مع الشركة المصرية للملح والصودا ، التى تتمتع بحق تطوير هذا الجزء من الوادى الذى تقع فيه البحيرات والأديرة . ويبدأ خط السكة الحديدية الخاص بالشركة من الخطاطبة ، ويسير على الخط الفرعى بين القاهرة وإيتاى البارود (انظر الخريطة صـ٢٢٥) وينحنى القطار عند صحراء بئرفكتوريا حيث يتزود بالماء تحت شجرة وحيدة ، ثم يخرج القطار من العمران ، ولمدة ثلاث ساعات لايرى المسافر سوى غزالة بين الحين والآخر . وبعد انقضاء هذه الساعات الثلاث ، تنحدر الأرض جهة اليسار ، ويظهر دير القديس مكاريوس عن بعد ، ثم تظهر سلسلة البحيرات ، وتلوح عبرها خيالات أديرة القديس بشوى والسريان . ويتوقف القطار فى نهاية الخط عند بئرهوكر بالقرب من مصنع الشركة والاستراحة .

ووادى النطرون (النطرون . أى الصودا) هو واد غريب يبدأ بالقرب من القاهرة ، وينحدر فى اتجاه الغرب حتى يصل إلى قلب الصحراء الليبية ، ربما كان فى وقت ما فرعاً خارجاً من النيل ، على الرغم من أن تلالا ساحلية تفصله عن البحر ، وأراضيه الشمالية والجنوبية قاحلة ، ولكن الماء لايزال موجوداً على هيئة سلسلة من البحيرات المعدنية فى الجزء الأوسط الذى سار فيه القطار . وكان يتم العمل فى التراكمات الطبيعية منذ القدم ، ولكن بنشوء الرهبانية ، ظهرت للوادى أهمية جديدة ترجع إلى اضطرابه . وفى عام (١٥٠م) جاء القديس فرونتو من الإسكندرية ، واستقر هنا ، وتلاه القديس أمون عام (٢٧٠م) ، ثم تلاه القديس مكاريوس بعدها بمائة عام وكان النساك الأكثر اعتدالا يستخرجون الصودا بمساعدة العامة . أما المتطرفون فقد التمسوا مكاناً خالياً من الماء يدعى « سيتس» . ومن الأرجح أنه الجزء الجنوبى من الوادى والذى ما يزال موجوداً به دير القديس مكاريوس . ولم يلبث أن تواجد فى المكان خمسة آلاف راهب ، ومن الطبيعى أن يفقد مجتمع منعزل كهذا كل صلاته بالسمات اللاهوتية فى العاصمة . وفى عام (٣٩٩م) اضطر البطريرك « ثيوفيلس » إلى توبيخ الرهبان على الحط من شأن العنصر الإلهى فى استخدامهم ضمير المخاطب له، وكان ردهم مروعا ؛ فقد اجتازوا الصحراء ، واقتحموا الإسكندرية ، وجعلوا البطريرك يعتذر لهم ، وبعد ذلك بعدة أعوام ، قاد البطريرك جيشاً إلى الوادى لينزل بالرهبان عقاباً ولكنهم - وباللغرابة - تحولوا إلى الإثم النقيض تماماً ، ومازالوا يرتكبونه ،

وهو الحط من شأن العنصر البشرى . والحقيقة أنهم كانوا يمثلون مصر الوطنية ، أما البطريرك فكان يمثل الساحل المتأثر بالثقافة الهيلنية (انظر صـ٩٦) ، ولذا كان الصراع عرقياً أكثر من كونه لاهوتياً . فعندما وصل الصراع إلى ذروته فى القرن السادس الميلادى ، أصبح هذا الوادى هو الحصن الطبيعى للحزب القومى الذى يؤمن بالطبيعة الواحدة ، وتحت اسم الأقباط ، يواصلون الاعتقاد فى ذلك هناك حتى اليوم .

وفى القرن التاسع عشر ، قامت مستعمرة جديدة - وهى المستعمرة الصناعية - مدخنة مصنع شركة الملح والصودا هى التى تطل على المشهد . وتُرفع الرواسب من قاع البحيرات . والمنتج الرئيسى هنا هو الصودا الكاوية التى تصب ملتهبة فى أسطوانات معدنية ، وتصدر إلى الشرق بأكمله . وتنتج أيضاً الصودا العادية (النطرون) ، والمصنع ممتع ، وترجع هيئته الحالية بالإضافة إلى كل المنشآت المحيطة إلى السيد ا . هـ . هو كر (A. H. Hooker) ، والذى سميت المنطقة باسمه . ويوجد أكثر من ثمانين نوعاً من الطيور تم تصنيفها فى المناطق المحيطة ببئرهوكر .

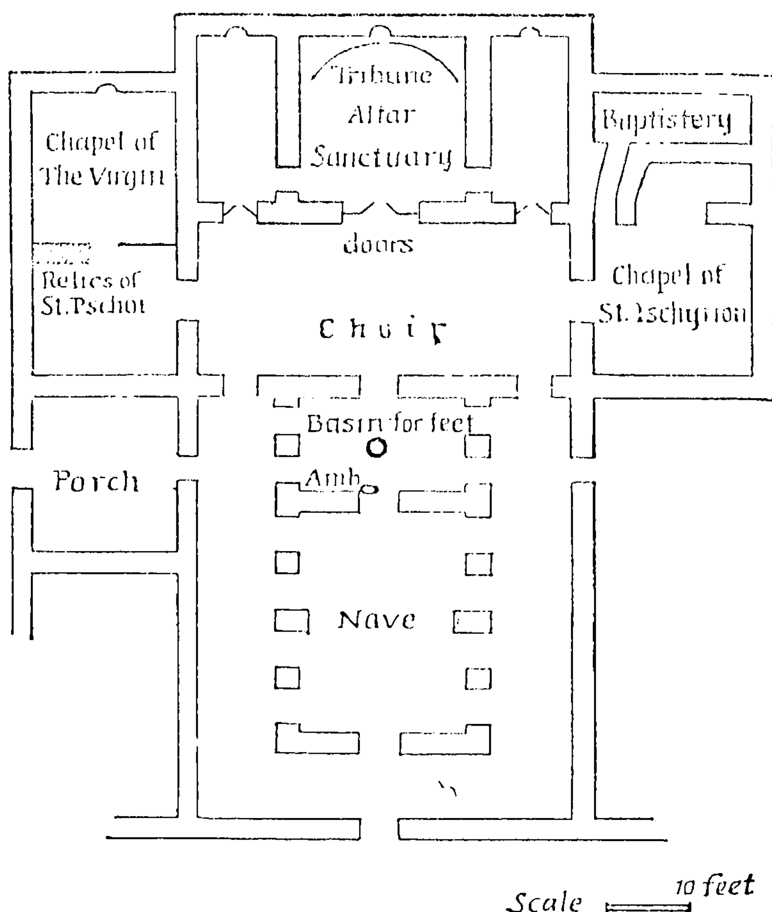
البحيرات المعدنية :

وهى تقع بين المصنع والأديرة ، وبعضها قذر ، والبعض الآخر يفوق جماله كل وصف ، خاصة فى فصل الصيف . وتتراكم على قاعها الرواسب ، وعنما تصل إلى السطح ، تبدو البحيرة وكأنها مغطاة بجليد أبيض وقرمزى ، ووسطه أحواض من المياه الزرقاء والخضراء ، وجداول مترقرقة بماء أحمر أرجوانى داكن ، وبقع من الأرض تحمر كالورود ، وعندما يرى سراب هذا المشهد ، تفوق غرابته التصور ، فيظهر الطائر بحجم الإنسان ، وتلوح كتلة الملح للناظر كقارب من الثلج . وأجمل هذه البحيرات يوجد على يسار بئر هوكر مباشرة .

الأديــرة :

لايبقى من هذه الأديرة سوى أربعة ، وتوجد أيضاً أطلال أديرة أخرى ، وجميعها من نفس الطراز ، ولتجنب التكرار ، يمكن تلخيصها فيما يلى

من الخارج منطقة مسورة بالأحجار توجد فى وسط الصحراء ، وتحتل مساحة تصل إلى حوالى فدان ، وتظهر داخل أسوارها أشجار النخيل والمبانى . والأسوار كلها مصمتة ، إلا من قنطرة تحدد موضع باب صغير ، كان هو المدخل الوحيد . وعندما يدق الجرس ، يطل الرهبان المتشحون بالسواد من الشرفة ، ويفتحون الباب ،



The Natrun Monasteries

Plan I - Church of St. Pschoi

أديره وادى النطرون . مخطط (١) يظهر فيه المخطط الداخلى لكنيسة القديس بشوى

ثم يصطحبون الزائر إلى بيت الضيافة لتناول القهوة وعصير الليمون . وهم جهلاء ، تعلوهم القذارة ، ولكن معظمهم لطفاء وكرماء ويرفضون أى نقود .

داخل المنطقة : توجد كنيستان أو ثلاث ، وتتكون كالعادة من صحن ، وجزء مخصص للمرنمين ، وهيكل ، وحجرة للطعام ، وحجرات لنوم الرهبان ، وتوجد طاحونة للحبوب ، وفرن للخبز الجاف ذى اللون البنى ، وكعك القرابين ، وهو كعك من الدقيق الفاخر مشكل عليه صليب له شكل جميل ، ويستخدم فى عملية القربان المقدس ، وتوجد أيضاً معصرة زيتون ، ومخزن للقمح ، وحديقة بها أشجار النخيل والموز والفلفل وغيرها ، ويوجد حصن (قصر) ، كان هو الملتجأ الأخير عندما تهاجم الأديرة ، ولايمكن الوصول إليه سوى عن طريق سلم متحرك من الشرفة ، ويحتوى على مكتبة وبرج محصن ، ومصليات ، وهو مكرس للقديس ميخائيل .

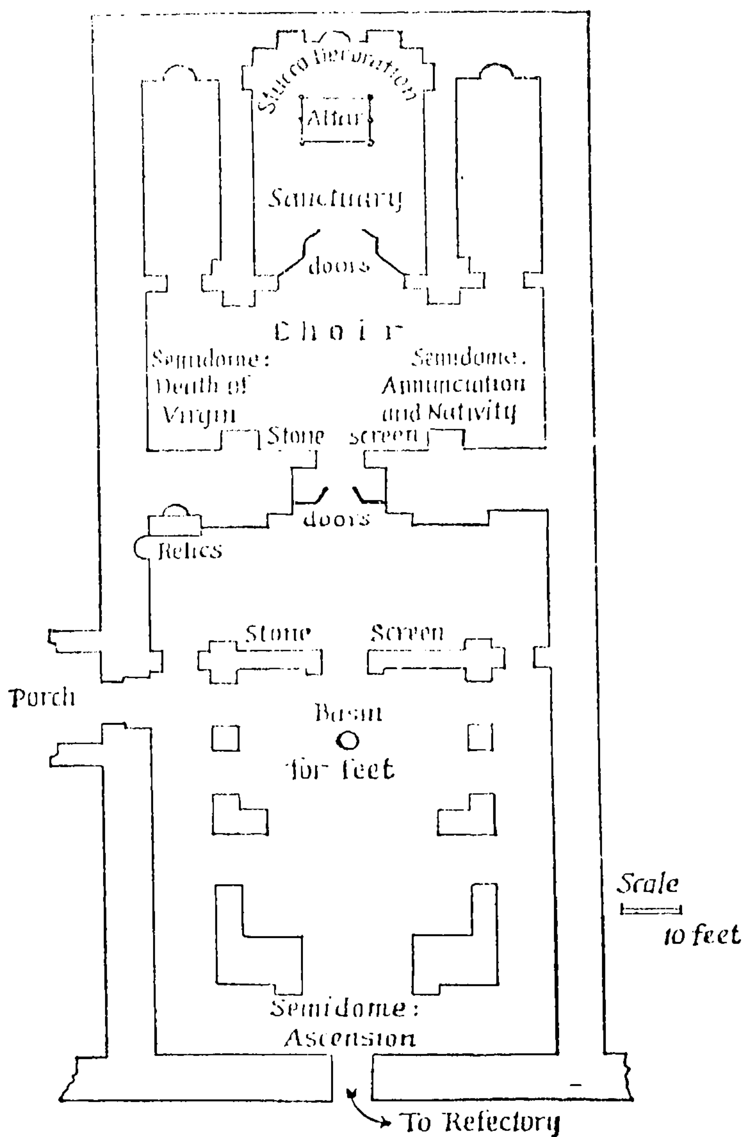
تاريخ الإنشاء يبدو أن المظهر الخارجى والنظم ترجع إلى القرن السادس الميلادى ، أما الأجزاء الثانوية فقد صنعت فيما بعد .

وما يلى جزء من صلاة شكر كتبها أحد الزوار المتميزين بعد وصوله إلى هنا «من يزر هذه القصور بإيمان ثابت ، ورغبة متقدة ، ونوبة حقيقية ، وأعمال صالحة ، فستغفر له كل خطاياه . الآن ، يا آبائى المبجلين ، ويا إخوتى الأحباء ، دعونا نُصلِّ لهؤلاء الإخوة الأعزاء الشرفاء القائمين على هذا الدير ، والذين فاجأناهم بهذه الزيارة .. دعونا نُصلِّ ليسوع المسيح ، الذى كان مع خدامه فى كل زمان ومكان ، دعونا نُصلِّ له ليكون معهم ، وليخلصهم من كل آثامهم وخطاياهم ، ولينعم عليهم بأفضل المنح وخير الجزاء ، حتى يعوضهم عن كل ما كابدوه من كدح ، وما عانوه من مخاطر وتعب طوال رحلتهم إلى هنا ، ولينزل عليهم فيضاً من بركاته ، وأن يعيدهم إلى منازلهم سالمين ، وأن ينقلهم بعد عمر طويل إلى الجنة بما فيها من بهجة ونعيم، بشفاعة سيدتنا العذراء، وكل آبائنا المقدسين ... آمين»(*) .

الأديرة الأربعة :

أولاً : دير القديس بشوى (دير أبو بشوى) ويمكن الوصول إليه بعد نصف ساعة من الركوب من بئرهوكر ، وهو مكرس للقديس بشوى ، أو «بيسا» ، وحرف الباء هو أداة التعريف القبطية ، ولذا فإن اسم القديس أساساً هو «إيسا» (أى عيسى) ، ولا يعرف عنه سوى القليل ، وتحتوى المنطقة المسيجة المحيطة بالدير على

(*) من كتاب الكنائس القبطية القديمة لـ إ. ج. بتلر - المؤلف .



THE NATRUN MONASTERIES - PLAN II
Convent of the Syrians - Church of the Virgin

أديرة وادى النطرون مخطط (٢) يظهر فيه التخطيط الداخلى لدير السوريان وكنيسه العذراء

(أ) كنيسة القديس بشوى (مخطط I ، صـ٢٥٤) ، ويتراوح تاريخ بنائها ما بين القرن السادس والقرن الحادى عشر ، وأضيفت لها بعض الإضافات بعد ذلك ، وبها رواق فسيح عند المدخل يؤدى إلى داخل الكنيسة الرائع على الرغم من إظلامه . ويوجد بالداخل ثلاثة أقسام ، وهى : الصحن ، والحرم ، والجزء المخصص للمرنمين والكهنة .

والصحن سقفه مقبى ، وتفصله عن الممرات أعمدة ضخمة مقوسة القمة ، ويوجد فى داخل الصحن (أمبون) ، وهو عبارة عن منضدة لقراءة الإنجيل ، وحوض صغير من الرخام بمساواة الأرضية ، حيث يغسل القس أقدام الناس فى خميس العهد (خميس الغسل) احتفاءً بذكرى غسيل المسيح لقدميه ، وقد تم سد العديد من الممرات ذات السقوف المقبية لتدعيم المبنى . وتوجد أبواب عالية وضيقة ذات مصاريع قابلة للطى - تعيد إلى الذهن منظراً يابانيا - تغلق الممر المقبى الذى يصل بين الصحن والجزء المخصص للمرنمين والكهنة . وتتكون الأبواب من ألواح مستطيلة ومطوقة بأطر من العاج ، وتوجد أبواب أخرى للممرات . والجزء المخصص للمرنمين والكهنة مقبى أيضاً ، ولكنه يكون زوايا حادة مع نظيره فى الصحن ، وعلى كلا جانبى هذا الجزء توجد مصليات على الأرجح أنها بنيت فى عهد قريب . على اليسار ، يوجد مصلى العذراء الذى يحتوى على صندوق به رفات القديس بشوى ، ويزعم الرهبان أن جسده مازال كما هو . وعلى اليمين ، يوجد مصلى القديس اسخريون ، ويوجد خارجه بيت المعمودية ، والدخول إلى الحرم عن طريق أبواب عليها نقوش قديمة وراءها ممر مقبى رائع .

ويوجد فى الحرم خلف المذبح ، منبر جميل يتم الصعود إليه بست درجات ، ثلاث منها مستقيمة والثلاث الأخرى منحنية ، وفى وسطه كان يوجد عرش رئيس دير الرهبان ، وقد اختفى ، وتخربت زخارف الدرجات المصنوعة من الرخام ، ووراء العرش توجد فسيفساء من الرخام ، ويوجد صليب فى وسط القبة الشرقية .

(ب) حجرة الطعام : هذه الحجرة الدينية تحتوى على مائدة حجرية كبيرة ضيقة ومنخفضة ، حيث يفطر الرهبان بعد صيامهم السنوى ، وهم لايأكلون هنا عادة ، ولكنهم يستخدمون المائدة كمكان لتجفيف البصل والخبز ... إلخ ، ويراكمون كتل الملح عند الحائط . وعلى رأس المائدة يوجد مقعد رئيس الدير ، والمكان هنا مهمل وقذر بطريقة تفوق الوصف ، ولكن المرء يستطيع - بصعوبة - أن يجد أثراً مدهشاً للمسيحية البدائية .

ثانياً : دير السوريان : وهو يوجد بالقرب من دير القديس بشوى . أقامه رهبان سوريون ، وهو مكرس للعذراء ، وقد اكتشف روبرت كرزون (Robert Curzon) عام (١٨٣٣م) فى هذا المكان فى قبو للزيت مخطوطات سوريانية وقبطية وحبشية ضئيلة القيمة وهى موجودة الآن فى المتحف البريطانى . ويصف كرزون اكتشافه فى كتاب «أديرة الشرق» . «لقد سهل لى تزويد رئيس الدير بالمشروبات الروحية الوصول إلى هذا الاكتشاف ، وقد أحضر الأرشدياكون تاتم (Archdeacon Tattam) المزيد من هذه المخطوطات ، ولكن لايوجد منها الآن شيئاً له قيمة » .

و تحتوى المنطقة المسيجة المحيطة بالدير على :

(أ) كنيسة العذراء (مخطط II ، ٢٥٦) : وهى عبارة عن مبنى جميل ، يمتد على مساحة ٤٠ × ٩٠ قدماً ، وربما تكون نموذجاً لكنيسة القديس بشوى ، ويرجع بناء الكنيسة إلى القرن السادس الميلادى . والصحن به أعمدة ذات قمم مقوسة وأقواس عالية مستدقة الأطراف ، وفى وسط الصحن يوجد حوض غسيل الأقدام فى خميس الغسل ، وهو عبارة عن لوح رخامى ذى عمق دائرى ، وفى السقف الغربى شبه الدائرى توجد لوحة جصية جدارية تصور صعود المسيح إلى السماء ، وتوجد أبواب قيمة ذات مصاريع قابلة للطى بين الصحن والجزء المخصص للمرتلين والكهنة ، وتزين هذه الأبواب لوحات من العاج ، تصور إحداها المسيح مصلوباً ، تحيط برأسه هالة نورانية ، وأخرى تصور العذراء ، وأخرى عليها صورة القديس بطرس ، ولوحة أخرى عليها صورة القديس مرقص ، ويوجد على عتبات الأبواب ودعاماتها كتابة سوريانية ترجع إلى القرن السابع الميلادى .

ويوجد فى الجزء المخصص للمرنمين والكهنة فى السقف الشمالى شبه الدائرى لوحة جصية جدارية تصور وفاة العذراء . وهناك فى السقف الجنوبى شبه الدائرى لوحة جصية جدارية تصور البشارة وميلاد المسيح ، وهى عمل فنى رائع ، وتوجد أبواب أخرى قديمة بين الجزء المخصص للمرنمين والكهنة وبين الحرم ، وتوجد لوحات من العاج تصور «ديوسكورس» (بطريرك الإسكندرية عام ٤٥٠م ، ومؤسس مذهب الطبيعة الواحدة ، انظر صـ٩٧) ، و القديس مرقص وعمانويل والعذراء وإجناتيوس وسفيروس عام (٥١٢م) ، وتوجد أيضاً نقوش سوريانية ترجع إلى عهد أقرب ، وهو القرن الثامن الميلادى .

الحرم : يوجد به إفريز رائع متقن الصنع من الجص ، له إطار خارجى ، ولوحات عليها صور أشجار وكروم تقليدية ، وتوجد أعلى الكوة الشرقية لوحة عليها صلبان . ويجب دراسة هذه الزخارف الفريدة بشكل دقيق .

(ب) كنيسة أصغر للعذراء : ويوجد بعد اجتياز مدخلها فى الاتجاه الجنوبى الغربى نقش قليل البروز من الرخام يمثل صليباً ، ويوجد بالداخل صليب آخر من الرخام الأسود ، ومن الأرجح أنها صلبان مهداة ، وهناك منبر فى الجزء المخصص للمرنمين والكهنة .

(جـ) شجرة التمرهندى عند السور الخارجى : ويقال إن القديس إبراهيم السوريانى (عام ٣٧٣م) ، وضع عكازه هنا عن غير عمد، فتجذر فى الحال ، ولكن من الأرجح أن القديس إبراهيم لم يقم بزيارة مصر مطلقاً .

ثالثا : دير البراموس : وتستغرق الرحلة من بئر هوكر إلى الدير حوالى ساعتين ركوباً ، وهذا الدير مكرس لقديس غير معروف (روماريوس ؟) .

وتحتوى المنطقة المسيجة المحيطة بالدير على :

(أ) كنيسة العذراء : والجدران الموجودة بالصحن مبنية حول أعمدة رخامية أثرية ، وتوجد عشرة صلبان مهداة ، وهى تحدد الأماكن التى يميزها الزيت المقدس عند تكريس الكنيسة ، ويوجد منها ستة فى الصحن وأربعة فى الجزء المخصص للمرنمين والكهنة ، وهناك نقوش جميلة على حاجز الحرم . وفى المذخر(*) يوجد رفات الأخوين القديسين مكسيموس ودومتيوس ، وهما اللذان صعدت من بين شفاههما حبال متقدة إلى السماء أثناء صلاتهما ، وملحق بهذه الكنيسة كنسيتان صغيرتان أخريان ، وهما كنيسة مارجرجس، وهى تستخدم الآن كمخزن القمح ، وتحتوى على قبة مزخرفة ، وكنيسة القديس تيودور (الأمير تادرس) .

(ب) كنيسة البراموس : وقد تخربت أثناء ترميمها .

(جـ) حجرة الطعام . وهى مشابهة لنظيرتها فى كنيسة القديس بشوى ، ويرجع بناؤها إلى القرن الخامس أو السادس الميلادى ، وعند مدخلها توجد خزانة حجرية ضخمة للكتب .

(د) قلعة : وبها مصلى للقديس ميخائيل .

(*) الوعاء الذى يحفظ به الذخائر الدينية بالكنيسة - المترجم

رابعاً : دير القديس مكاريوس (دير أبومقار) : وهذا الدير هو الأكثر صعوبة فى الوصول إليه من الأديرة الأربعة ، لأنه يقع على بعد عشرة أميال من بئرهوكر . والقديس مكاريوس ، مؤسس هذا الدير ، هو سكندرى ، وقد رآه أحد القديسين فى رؤياه يقتل الإمبراطور المرتد «جوليان» (عام ٣٩٣م) ، وقد اشتهر بسبب رفضه لأكل عنقود عنب ، وبسبب قتله لناموسة ، وقد ندم ندماً شديداً لقتلها ، فانعزل عارياً عند المستنقعات القريبة ، وبعد مرور ستة أشهر ، تورم جسده من قرص الناموس ، حتى إن الرهبان لم يستطيعوا التعرف عليه إلا من خلال صوته ، وقد اختار هذا الموقع لإقامة ديره ؛ وذلك لصعوبة الوصول إليه ، وتعذر الحصول على المياه ، وقد تم تجديده عام (٨٨٠م) ، ولا يعرف أى شىء عن تاريخه التالى .

والمنطقة المسيجة المحيطة بالدير مقامة على المخطط المعتاد ، وتحتوى على .

(أ) كنيسة مكاريوس : وهى مقامة على الطراز البيزنطى ، وتتكون من ثلاثة حُرم ، وجزء مخصص للمرنمين والكهنة ، وطرف غربى غير متناسق . الحرم الأوسط مسقوف بقبة جميلة من القرميد ، كانت تغطيها لوحات جصية جدارية ، ولا تزال تظهر بعض آثار نوافذها القديمة بتقسيماتها الجصية وألواحها المصنوعة من الزجاج الملون ، وكانت توجد أيضاً لوحات جصية أخرى فى الكوة الشرقية ورسوم فوق مدخل الباب المقدس ، وأبواب الحرم منقوشة بشكل جيد .

وعلى يسار الحرم : يوجد مصلى القديس يونان ذو الحاجز المزدوج ، الجزء الخارجى منه منقوش عليه لوحات رائعة ، من المحتمل أنها ترجع إلى القرن الثامن الميلادى ، والإطار يرجع إلى عهد أقرب . وقد سقط الجص من القبة التى كانت ملونة هى الأخرى يوما ما . ويوجد رفات القديس مكاريوس فى المذخر .

(ب) كنيسة الشيوخ (الشيولة) : ويميزها برج منفصل به جرس ، وبها مبنى على نفس التخطيط ، وأحد أعمدتها له تاج من الطراز الكلاسيكى المتأخر .

(جـ) كنيسة القديس اسخريون (أبو اسخريون) : وهو واحد من الشهداء الذين جادت بهم الإسكندرية ، وبها قبة رائعة قليلة الانحدار تغطى تقريباً كلا من الصحن والجزء المخصص للمرنمين والكهنة ، وهى مصنوعة من القرميد الذى لابد أنه قد جلب من الدلتا محمولا على ظهور الجمال .

(د) القلعة (القصر) : ويمكن الوصول إليها عن طريق مجموعة من الدرجات وجسر متحرك ، وفى طابقها الأول توجد ثلاثة مصليات مكرسة إلى كل من

- القديس ميخائيل . ويحتوى المصلى على تيجان أعمدة كورنثية ودورية(*) الطراز فى الصحن ، وحاجز الحرم مرصع بالعاج ، وداخل الحرم يوجد رفات ستة عشر بطريرك ، كل منها فى صندوق بسيط .
- القديس أنطونيو . ويوجد داخل المصلى ثلاث لوحات جدارية .
- القديس شواه . ويحتوى هذا المصلى على لوحات جصية أخرى .

أما فى الطابق الأرضى ، فيوجد مصلى للعذراء به مذبح ثلاثى يحتوى على انخفاضات غير معروفة الاستخدام .

(*) الطرار الدورى هو أقدم وأبسط الطرز المعمارية الإغريقية - المترجم .

٣ - الملاحق

ملحق (١)

المجتمعات الدينية الحديثة

الحياة الإكليريكية (الكنسية) فى الاسكندرية اليوم ، ليست بنفس درجة التوتر التى كانت عليها أيام القديس أثناسيوس ، ولكنها صارت أكثر تعقيدا .

فالمدينة اليوم صارت مقرا لأربع بطريركيّات ، بل وهناك الكثير من الطوائف الدينية المتواجدة بها أيضا غير ذلك .

هذه التعقيدات تعزى جزئيا إلى نشاط الكاثوليكية الرومانية ، ومحاولاتها لاستعادة المنشقين الشرقيين إلى حظيرة الإيمان ، وذلك بسعيها ، لخلق كنيسة مناوئة لكل حالة من الحالات التى تتشابه أحيانا فى الأحوال والطقوس الشائعة ، فعلى سبيل المثال ، أوجدت كنيسة كاثوليكية أرمنية للارمن ، وكنيسة كاثوليكية قبطية للقبط ، وهناك تعقيدات أخرى نشأت من المجتمعات التجارية الحديثة التى تميل إلى اعتبار الدين تعبيرا عن القومية أكثر من كونه عقيدة .

والقائمة التالية من الكنائس قد تساعد فى إظهار مدى التوسع فى هذا الأمر

البطريركية اليونانية :

وهى تسمى «اليونانيين الأرثونوكس» أو الكنيسة الملكانية (من الملك بالعربية -- المؤلف) والبطريرك الحالى لها هو فوتيوس الأول . ووضعه غريب للغاية ، فهو لاينتمى للمملكة اليونانية ولا لبطريركية القسطنطينية ، ولكنه يحتل موقعه بتكليف من السلطان التركى مباشرة ، وعلى هذا فهو مستقل إكليريكيا ، وهو يلقب ببطريرك الإسكندرية وليبيا وبنتابوليس(*) وإثيوبيا وكل مصر ، وهو من الناحية التاريخية يمثل الكنيسة التى احتفظت بولائها لبيزنطة وللإمبراطور فى مجمع خلقدونية (٤٥١م) – عندما بدأ باقى شعب مصر ينساق بعيدا نحو قضية الطبيعة الواحدة ، وبعد الغزو العربى استقر البطريرك اليونانى فى القاهرة ، ولكنه عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية منذ حوالى ٦٠ سنة(**) ، وذلك فى دير وكنيسة القديس سابا . انظر صـ ١٥٢ .

(*) أى المدن الخمس ، وهى سيرين (القيروان) ، وبرقة ، وأبولونيا (سوسة) ، وبرنيس (بنى غازى) ، وأرسينوى (توكره) – المترجم

(**) أى حوالى عام ١٨٦٠م - المترجم .

أما بالنسبة للعقيدة ، فهؤلاء اليونانيون الأرثوذوكس يختلفون بشكل رئيسى عن الروم الكاثوليك والبروتستانت حول «الفيلوك» الوارد فى قانون الإيمان المسيحى الصادر عن مجمع نيقية ، وهو يؤكد أن الروح القدس لاينبثق عن الآب والابن ، ولكن عن الابن . وهذا هو الموضوع الذى انقسم حوله الشرق والغرب وفشلا فى الاتحاد مرة أخرى فى سنه ١٤٤٩ م .

كنائس الجالية اليونانية :

وهذه أيضا كنائس أرثوذوكسية يونانية فى الاعتقاد ، إلا أن رعاياها لا يعترفون بالبطريرك ، ولكن فى الواقع صارت علاقاتهم به أكثر حيوية فى الحرب الأخيرة (يقصد الحرب العالمية الأولى - المترجم) .

إنها كنائس لجماعة من رجال الأعمال الذين يدينون بالولاء فقط للمملكة اليونانية ، فهم يعتمدون على أنفسهم فى إدارة شئونهم ، وهم الذين يختارون قسسهم ، وللبطريرك الحق فى فحص أوراق اعتماد هؤلاء القسس ومنحهم التصريح بأداء مهامهم ، وللجالية اليونانية كاتدرائية تسمى أيضا كاتدرائية البشارة بالقرب من ميدان سانت كاترين صـ١٩٥ ولها أيضا كنائس فى الرمل وسان استيفانو والقديس نيقولا والنبى إلياس .

السوريان الأرثوذوكس اليونانيون :

وهذه الكنيسة خاصة بأعضاء الجالية السوريانية ، الذين يتمسكون بالعقيدة اليونانية الأرثوذوكسية بشكل مستقل عن البطريرك، وذلك تحت رعاية الأرشمندريت(*)، وهى تقيم طقوسها الدينية باللغة العربية ، وهذه الكنيسة تسمى ، «رقاد القديسة العذراء» أى "Dormition de la Sainte Vierge" .

هذا وليس لليونانيين كنائس أرثوذوكسية غير ذلك .

البطريركية القبطية :

يؤمن الأقباط بالطبيعة الواحدة والتى تعتقد أنه بعد التجسد ، أصبح الإلهى والإنسانى متحدين فى المسيح فى طبيعة واحدة صـ١١٩ وهذا يفصلهم عن باقى العالم

(*) هو كاهن فى الكنيسة الشرقية ، يلى الأسقف فى المرتبة ، ويكون رئيسا لدير كبير أو لجماعة أديرة وهو مساو للقب مطران المترجم .

المسيحى ، ومن الناحية التاريخية ، فإن البطريركية القبطية تعارض البطريركية الأرثوذوكسية اليونانية ، وهى منشقة عنها منذ مجمع خلقدونية ، وتدعى أنها تمثل المسيحية المصرية ، ومنذ عام ١٩٦٠ م وبطريرك الأقباط يقيم فى القاهرة ، بالرغم من احتفاظه بلقب بطريرك الإسكندرية ، وعلاوة على سلطاته فى مصر ، فإنه يقوم بترسيم مطران الحبشة ، ولهذه البطريركية رئيس للأساقفة يقيم بالإسكندرية فى الكاتدرائية التى تقع فى شارع الكنيسة القبطية صـ١٩٠ .

الكنيسة الأرمنية :

وقد أسسها القديس جورجى المنور فى القرن الرابع الميلادى ، وهم يؤمنون مثلما يؤمن الأقباط بمبدأ الطبيعة الواحدة ، ويرأسها بطريرك الكنيسة الأرمنية فى أرمينيا ، وكنيستها الحالية فى الإسكندرية تسمى كنيسة القديسين بطرس وبولس ، فى شارع أبو الدرداء صـ١٩٦ .

ونأتى الآن لمجموعة الكنائس التى تتماثل مع روما فى العقيدة ، وتختلف عنها فى الطقوس .

البطريركية اللاتينية :

وتأسست بعد الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر ، والبطريرك الذى يترأسها غير مقيم فى الإسكندرية ، ويعيش فى روما ، ويمارس سلطاته من خلال رسول بابوى مقيم فى الإسكندرية ، وكنيستها الرئيسية تسمى كاتدرائية سانت كاترين (ميدان سانت كاترين) صـ١٩٥ .

البطريركية القبطية :

وتأسست فى ١٨٩٥ م وتسمى باسم بطريركية الإسكندرية ومؤسسها مارى مرقص البشير (أى القديس مرقص البشير) ويقيم البطريرك فى الإسكندرية ويمارس سلطاته فى مصر من خلال أساقفة مساعدين فى هرموبوليس(*) الكبرى ، وطيبة . وهذه البطريركية تقع فى شارع مستشفى البلدية صـ٢٠٧ .

(*) هرمو بوليس هى الأشمونين ، وطيبة هى الأقصر - المترجم

الكنيسة اليونانية الكاثوليكية :

وهى تحت رئاسة بطريرك أنطاكية الذى يعيش الآن فى دمشق ، ويمارس سلطاته فى الإسكندرية بواسطة ممثل عام ، وكنيستها تسمى كنيسة القديس بيير (شارع ديبان) صـ٢١١ ويمارس القسس مهامهم الوظيفية باللغة العربية بالرغم من أن لغتهم الإكليريكية هى اللغة اليونانية .

الكنيسة المارونية :

وأسسها القديس «مارو» فى القرن الخامس ، وكانت فى وقت ما متمسكة بهرطقة الإرادة الواحدة التى كانت فى جوهرها تحولا بسيطا عن مبدأ الطبيعة الواحدة ، وهذه الهرطقة تؤكد . أنه بالرغم من أن المسيح له طبيعتان إلا أنه ذو إرادة واحدة فقط صـ١٢٠ والاعتقاد الكاثوليكى يقول إن المسيح له إرادتان ، إلهية وبشرية ، وهما تتجليان فى وحدة واحدة .

وفى القرن الثالث عشر تقبلت الجالية المارونية هذا الاعتقاد وبذا تشاركت مع روما ، والبطريركية فى أنطاكية ولغتها الإكليريكية هى السوريانية ، أما كنيسة الإسكندرية فتقع فى شارع الكنيسة المارونية صـ١٩٣ .

الكنيسة الكاثوليكية الأرمينية :

وهى تحت رئاسة بطريركية صقلية ، وتأسست فى القرن الثامن عشر ، وللإسكندرية أسقف خاص بها ولكنه يعيش فى القاهرة وتقع الكنيسة فى شارع أفروف صـ٢١١ .

الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية :

وهى تحت رئاسة بطريرك بابليون وقد تشكلت هذه الجماعة فى ١٨٤٣م لمناوءة الهرطقة النسطورية(*) ، والكلدانيون فى الإسكندرية عبارة عن مائة شخص من المتحمسين ، الذين يقال إنهم يبحثون عن مكان يصلح لبناء كنيسة عليه .

(*) مذهب نسطورس الذى اعتبر هرطقة سنة ٤٣١ م وذهب فيه إلى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية ظلتا منفصلتين فى يسوع المسيح . المترجم .

هذا هو مايتعلق بمجموعة الكنائس الكاثوليكية ، أما بالنسبة لكنائس البروتستانت فتتمثل فى الآتى .

الكنيسة المشيخية(*) المتحدة فى مصر :

ولا ينتمى إلى هذه الجماعة كل البروتستانت ، بل ينتمى إليها معظمهم فقط ، وهى ترتبط بالإرسالية الأمريكية ، وتمارس تبشيرها بين الأقباط أساسا ، وتقع هذه الكنيسة فى شارع توفيق الأول .

الكنيسة الإنجليزية :

وأسقفية الإسكندرية هذه ، هى أسقفية لمصر والسودان ، أما الكنيسة الرسمية للجالية البريطانية ، فهى كنيسة القديس مرقص فى الميدان (ميدان محمد على) وتم بناؤها على الأرض التى منحها محمد على للجالية صـ١٤٧ .

وهناك كنيسة إنجليكانية أخرى فى الرمل تسمى كنيسة جميع القديسين ، بناها بعض أفراد الجالية البريطانية ، وبعد قليل من المشاحنات تم وضع مقرراتها المالية تحت سيطرة أسقف لندن صـ٢١٧ .

كنيسة اسكتلندا :

وهى كنيسة للقديس أندرو فى الحدائق الفرنسية .

(*) صفه لكنيسة بروتستانتيه ، يدير شئونها شيوخ منتخبون جميعا بمنزلة متساوية - المترجم

ملحق (٢)

موت كليوباترا

استحوذ موت كليوباترا - كما وصفه بلوتارك - على خيال الأجيال اللاحقة ، وحوله كل من شيكسبير ودريدن إلى مسرحية .

١ - بلوتارك :

هذا هو نص بلوتارك مأخوذا عن الترجمة الشمالية التى استعان بها شيكسبير - (المؤلف) .

«لقد كان موتها مفاجئا جدا لهؤلاء الذين أرسلهم إليها قيصر ، فأسرعوا بأقصى ما يمكنهم ، ووجدوا الجنود الواقفين على بوابتها لايرتابون فى شىء ولايدركون أى شىء عن موتها ، ولكنهم عندما فتحوا الأبواب وجدوا أن كليوباترا قد ماتت فعلا وكانت راقدة فى سرير ؛ من الذهب ، متجملة ومرتدية ملابسها الملكية ، وعند قدميها ترقد ميتة إحدى وصيفاتها - تلك التى كانت تدعى إيراس - أما وصيفتها الأخرى والتى تدعى شيرميان ، فكانت أيضا شبه ميتة ، كانت ترتجف وهى تضبط وضع التاج الذى كانت تضعه كليوباترا على رأسها .

صاح فيها أحد الجنود بغضب وهو يراها : أيصح هذا العمل ياشيرميان ؟

فأجابته : إنه صحيح جدا ! فهو جدير بملكة من سلالة ملوك عظام ، ولم تقل شيئا آخر .. لأنها قد سقطت ميتة بجوار السرير» .

٢ - شيكسبير :

أنطونيو وكليوباترا ، الفصل الخامس ، المشهد الثانى .

كليوباتر : هاتوا عباءتى ، ضعوا التاج على رأسى ، فأشواقى إلى الخلد تعتصرنى ،
آه يامصر .. إن خمور عناقيدك لن ترطب شفتى بعد اليوم ، هيا ياإيراس ..
أرينى مهارتك ، ياإيراس الطيبة .. أسرعى ..
يهيىء لى أن أنطونيو ينادينى .. إنى أراه ينهض واقفا من بين الموتى ليحيى
جسارتى ، إنى أسمعه يهزأ من انتصار قيصر ، فالآلهة أحيانا تمنح البشر
انتصارا لكى تبرر به غضبها عليهم بعد ذلك .. آه يازوجى .. إنى آتية إليك،

وبجسارتى هذه سأثبت أنى حقا زوج أنطونيو ... ها أنذا من نار وهواء ، أما عنصراى الآخران فقد وهبتهما للحياة الدنية ... هل انتهيتما هيا ياشيرميان وأنت ياإيراس .. انتزعا من شفتى مابقى من وهج الحياة .. الوداع ياشيرميان الطيبة .. والوداع إلى الأبد ياإيراس .

(تقبلهما .. فتسقط إيراس وتموت)

هكذا تموتين ؟ هل فى شفتى سم الأفعى ؟ إذا كان هذا الفراق الجميل هو فراق الحياة ، فإن لطمة الموت كقرص الحبيب ، موجع ولكنه شهى ، وهكذا ترقدين بلاحراك ... ورحيلك هذا يدلنا على أن هذه الدنيا لاتستحق الوداع عند الرحيل .

شيرميان : اهطلى ياغيوم وامطرى ياسماء .. حتى أستطيع أن أقول .. إن الآلهة كلها تنتحب .

كليوباترا : هذا دليل على جبنى ، فإيراس سبقتنى ، وإذا ما التقت بأنطونيو ذى الخصل المجعدة، سيغازلها ويقبلها قبلته، التى إن نالتها فازت بالفردوس ،

هيا إذن يارسول الموت التعس !

(تمسك ثعباناً وتضعه على صدرها)

وينابك القاتل ، حل لى لغز هذه الحياة الذى لايحل ، أرنى غضبك أيها الثعبان السام ، أيها الغبى ... أجهز على بسمك الزعاف ،آه لو كنت قادراً على الكلام لسمعتك تقول عن قيصر العظيم .. إنه بهيم ، لايفهم شيئاً فى السياسة .

شيرميان : ياكوكب الشرق .

كليوباترا . هس هس .. ألا ترين ماعلى صدرى .. إنه صغيرى الذى يرضع أمه النائمة .

شيرميان : ويلاه .. يا ويلاه !

كليوباترا : لطيف كالبلسم .. رقيق كأنفاس الهواء ، وناعم كـ ... آه يا أنطونيو .. إنى آتية إليك .. تعال أنت أيضاً .

(تدنى ثعباناً آخر من ذراعها) .

وفيم بقائى ... (تموت)

شيرميان : فى هذه الدنيا الدنية .. الوداع الوداع .. فلتفخر ياموت ، ففى دولتك الآن صبية ليس لها مثيل .. تسبّلى ياجفون .. فأنت يارب الشمس ياذا الهالة الذهبية ... لن تراك بعد اليوم عين لها كل هذا الجلال . إن تاجكِ مائل ، سأسويه ثم أنصرف .

الحارس الأول : أين الملكة ؟

شيرميان : اخفض صوتك كيلا توقظها .

الحارس الأول · إن قيصر قد أرسل ....

شيرميان : رسولاً جاء بعد الأوان .. (تضع ثعباناً) هيا أسرع .. اقتلنى .. فما أكاد أحس بك .

الحارس الأول : تعالوا يارجال

لقد ضاع كل شى

فقد خدعوا قيصر

الحارس الثانى : ها هو ذا «دولابيلا» آت من عند قيصر .. ناده

الحارس الأول · ماذا فعلتن يا شيرميان ؟ أصحيح ما عملتن ؟

شيرميان : إن ما عملناه هو الصحيح ، و هو الجدير بملكة من أصلاب ملوك .. آه أيها الجندى .

٣ - دريــــدن :

«مسرحية كل شىء للحب - الفصل الخامس المشهد الأول»

شيرميان · ولماذا كل هذا العُجب والخُيلاء ؟

كليوباترا : أتسألين لماذا - يالك من غبية ، عديمة الإحساس .

إنه لمقابلة حبيبى كما رأيته أول مرة على ضفة نهر «السدنو» فى كامل زينتى .. متألقة كإلهة

سوف أذهب إليه الآن مرة أخرى

فزفافى الثانى سيماثل فى المجد زفافى الأول

هيا

هيا أسرعا

وهيئا عروس أنطونيو

شيرميان : كل شيء معد

كليوباترا : احملانى إلى جوار سيدى ، فأنا جديرة بهذا المكان لأننى يجب أن أحارب قيصر مثله

وأن أحْظَى بنصيبى فى هذا العالم

آه

أيتها الذكريات الحبيبة لعشقى الخالد

لاتدَعى أى يد جاحدة .. تقصيك عن هذا المكان

ولتظلى فيه إلى الأبد

كى تعطى مصر لموته هذا السلام

الذى حرمنه منه حيا

أوصلانى .. إلى التابوت .

إيراس : تحت الثمار يكمن الثعبان

فمرحبا بك أيها المخادع الحنون

كليوباترا : (منحِّية أوراق الأشجار)

أنت ياأبرع اللصوص

يامن تفتح أبواب هذا « العالم » بمفتاحك الواثق ودون أن نشعر .. تسرقنا حتى من أنفسنا

مؤديا مهمة الموت المروعة

أفضل كثيرا من الموت ذاته

لامسا أطرافنا بنعومة ، تجعلنا نروح فى سُبات ذلك الموت .. ، الذى يحوم حولنا منخدعا بصورته

ومعتقدا أنه هو ذاته :

مجرد نوم

سيرابيون : (من الداخل)

لقد استسلمت المدينة ، وقيصر على الأبواب

كليوباترا : إنه جاء متأخرا جدا حتى إنه لن يستطيع انتهاك حقوق الموت !

هيا .. اكشفى ذراعى

واستثيرى ضراوة الحية

(تمد ذراعها وتسحبها)

أيها الجسد الجبان

أتتآمر مع قيصر لخيانتى ؟

وكأنك لست جسدى

سأجبرك على الموت

كيلا تكون دسيسة له

ولكى أمنح نفسى وروحى لأنطونيو

(تستدير مظهرة ذراعها دامية)

خذوه بعيدا فقد انتهى كل شىء

سيرابيون : (من الداخل) افتحوا الأبواب واحرسوا الخائنة

شيرميان : لقد جاء دورنا

إيراس : والآن ياشيرميان .. فلنكن جديرتين بمليكتنا ومولاتنا (تضمان إليهما الحيات) .

كليوباترا : أيها الموت

إنى أشعربك تسرى فى عروقى

وبرغبتى المتقدة ، سأذهب لملاقاة مولاى

وسرعان ما سنلتقى

فالخدر الثقبل يدب فى أطرافى

ويسرى إلى رأسى

فتنطبق جفونى

ويتلاشى حبى الغالى فى السديم

أين سأجده .. ؟ أين ؟

أديرونى إليه

وضعونى على صدره ..

والآن

فرقنا إن استطعت

ياقيصر الشرير

(تموت وتسقط إيراس عند قدميها ... وتموت

وتقف شيرميان خلف مقعدها وتسوى لها شعرها

يدخل سيرابيون واثنان من الكهنة وفرقة « ألكسس » وبعض المصريين)

الكاهنان : انظر ياسيرابيون .. ماذا فعل الموت المدمر ؟

سيرابيون : هذا ماكنت أخشاه .

شيرميان .. أيصح مافعلتن ؟

شيرميان : نعم .. إن ما فعلناه هو الصحيح

وسألحق بها

فهى الملكة .. آخر سلالتها العظيمة

(تسقط وتموت)

ملحق (٣)

أسفار مصرية غير معترف بها من الكنيسة(*) صـ١١٦

(أ) من الإنجيل طبقا لما يقوله المصريون :

قال الرب لسالومى التى سألت : إلى متى سينتصر الموت ؟ « طالما أنتن أيتها النساء تحملن أطفالا . جئت لكى أبطل صنع المرأة» فقالت سالومى · إذًا فقد أحسنت صنعا لأنى لم ألد أطفالا .. فأجاب الرب ..«كلى من كل زرع ، أما مابه مرارة فلا تأكلين » وعندها سألت سالومى : متى سنعرف الأشياء التى تكلم عنها الرب عن يوم الدينونة ..؟

قال الرب : «عندما تخلعون ثوب الحياء ، وعندما يصبح الاثنان واحدا ، ويصبح الذكر مع الأنثى .. فلن يكون هناك لا ذكر ولا أنثى »

(ب) من الإنجيل طبقا لما يقوله العبرانيون :

يقول يسوع : لاتدعوا من يبحث يكف عن بحثه حتى يجد ، وعندما يجد سوف يكون مذهولا ، ومذهولا سيصل إلى الملكوت ، وبوصوله إلى الملكوت سيستريح .

(جـ) من مصادر غير محددة حوالى ٢٠٠م

يقول المسيح · « إن لم تسارعوا إلى الحياة الدنيا ، فلن تجدوا سبيلا إلى مملكة الرب ، وإن لم تقيموا السبت سبتا حقيقيا فلن تروا الآب » .

يقول يسوع : « حيثما يكون هناك اثنان ، فإنهما لن يكونا بدون الرب ، وحينما يكون المرء وحيدا .. أنا أقول : إنى أكون معه .. ارفعوا الحجر فستجدونى هناك .. شقوا الخشبة وهناك أكون ».

ملحق (٤)

(*) وتسمى الأبوكريف ، وهى عبارة عن أسفار محذوفة لاتعترف بها الكنيسة المصرية ومنها سفر استيل وميكاد الأول .. وعددها ١٤ سفرا . - المترجم

قانون نيقية للإيمان المسيحى(*) صـ٩٤ - ١١٨

هذا من النص الأصلى الذى أصدره مجمع نيقية ، وهو يحتوى على فقرة ضد الأريوسيين ، والإضافات التى من عندنا على النص الأصلى موضوعة بين أقواس .

نؤمن بإله واحد .. الآب القادر .. صانع كل شيء مانراه ومالانراه ، وبإله واحد ، يسوع المسيح ، ابن الإله المولود من الآب (المولود فقط بمعنى أنه من نفس جوهر الآب) إله من إله .. ونور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، خالق كل شئ (الأشياء الموجودة فى السماء والأشياء التى على الأرض) الذى هبط من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل ، وتجسد إنسانا وتألم ، وقام فى اليوم الثالث مرة أخرى ، وصعد إلى السماء ، وسيأتى إلينا مرة أخرى ليدين الأحياء والموتى . ونؤمن بالروح القدس .

ولكن الكنيسة المقدسة الكاثوليكية والرسولية تلعن هؤلاء القائلين بأنه كان هناك وقت لم يكن فيه ابن للإله ، وإنه لم يكن موجودا قبل أن يولد ، وإنه خلق مما لم يكن موجودا ، والذين يؤكدون أنه من جوهر أومادة أخرى غير جوهر الآب ، أو أنه قابل للتغير .

(*) «نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، مايرى ومالايرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نورمن نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شئ ، هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس النبطى ، تألم وقبر وقام من الأموات في اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السموات وجلس على يمين أبيه ، وسيأتى أيضا فى مجده ليدين الأحياء والأموات وليس لملكه انقضاء» صـ ١٨٩ - ١٩٠ من كتاب قصة الكنيسة القبطية . إيزيس حبيب المصرى - طبعة ثالثة ١٩٧٨م وبعض الكتب تقدم إضافات لهذا النص مثل [كتاب الخلاص المقدس - مكتبة المحبة ، ١٩٦٧م ص ٢٢٢ - المترجم .

٤ - مدينة الكلمات

مدينة الكلمات

مايكل هاج

ذهبت إلى الإسكندرية لأول مرة عام ١٩٧٣م ، قبل حرب أكتوبر مباشرة ، عندما كان الزوار نادرين ، وكذلك كانت كتب الإرشاد السياحى ، ولذا اشتريت نسخة مهملة من رواية لورنس داريل المسماة « جستين » من إحدى مكتبات القاهرة ، وبدأت فى إعادة قراءتها بينما القطار يشق طريقه فى الدلتا الآخذة فى الاتساع .

ومن الغريب أن تستكشف مدينة من خلال صفحات رواية . ولم أصل إلى عمود «بومبى » ولا إلى المتحف اليونانى الرومانى ، ولكن إلى المرايا والنخيل المكسور بفندق سيسل ، وإلى طاولات مقهى باسترودس ، وإلى شارع التتويج حتى أصل إلى بيوت دعارة الأطفال المندثرة ، ولقد حزنت لأنى فقدت كتاب « جستين » فى سيسل ، وحينئذ لم أتوقع أن أقابل كليوباترا أيضاً . فلقد عرفت أن الإسكندرية قد تغيرت .

والمدينة قريبة جداً من وصف داريل لها فى مقدمته لهذه الطبعة ، فالإخفاق التام بالسويس عام ١٩٥٦م قد أدى – للأسف ولكن ليس للعجب. إلى رفض متشنج للتواجد الغربى فى مصر ، وحتى قبل ذلك فقد فرضت الحرب العالمية الثانية موتاً لعهد كانت فيه الإسكندرية ميناء مصر الأول ، وخلية للنحل تشغى بنشاط سماسرة القطن المحليين ... كانت شوارعها واسعة يحفها النخيل وأشجار البوتسيانا ، بها حدائق هائلة وڤيلات أنيقة ، ومبان حديثة رائعة ، وفوق كل ذلك ، كان بها متسع للتنفس ، كانت الحياة بها سهلة ، والعمل فيها رخيصا ، ولاشىء فيها مستحيل ، ولاسيما عندما يتصل الأمر براحة الانسان «(هذا ما تتذكرة جاكلين كارول فى كتابها ذى العنوان المناسب «خيول وإبل») . ونحن الآن لا نحظى فى هذه المدينة بمثل هذا الجو بسهولة .

ولكى ترى هذا العالم يجب أن تكون قد ذهبت إلى لوس أنجيلوس . وما جعل للإسكندرية طابعاً خاصاً ، هو كونها مدينة كوزموبوليتانية سكانها يونانيون وإيطاليون وبريطانيون وفرنسيون وأرمن ومواطنون من روسيا البيضاء ، وجميعهم مختلطون ببعضهم البعض ، وإن لم يختلطوا بالمصريين إلا نادرا . فكفافيس مثلا لم يزر أى منزل مصرى ، ولا يعرف العربية تقريباً ، وكل هذا فى مدينة يعيش بها خمسون ألف يونانى من إجمالى ثمانين ألف أجنبى بين نصف مليون مصرى تقريباً ، حيث عاشت معظم عائلات هؤلاء الأجانب فى الإسكندرية منذ أجيال ، واليونانيون بالذات هم الذين رسخوا ثقافتهم حيث كانوا فى هذه المنطقة الساحلية النائية من زمن بعيد .

كتب فورستر لأحد أصدقائه عام ١٩١٧ م قائلا : «اليونانيون هنا هم الجالية الوحيدة التى تحاول فهم مايتحدثون عنه ، والوجود معهم عبارة عن دخول للعالم الأكاديمى مرة أخرى ، حتى وإن كان هذا يتم بشكل غير مكتمل ، وهم الشعب الهام الوحيد شرقى «فنتيميليا» ، وهم شعب قذر وغير أمين وغير أرستقراطى ورحال ، ضللته الأحلام الهيلينية والبيزنطية، ولكنه ينفعل عقليا ، وهم يتمتعون برغبات إبداعية . ويمكن للمرء أن يغير فكرته عنهم فى النهاية» .

ولقد اكتشف فورستر اكتشافا عظيما ، وكان اكتشافه العظيم هو ذلك الشاعر قنسطينين كفافيس ، وقبل لقائهما كتب فورستر: «لا يمكن للمرء أن يكره الإسكندرية ، لأنه من المستحيل أن تكره البحر أو الأحجار ، فهى فى اعتقادى لا تحتوى على شىء آخر ، ما هى إلا مدينة كوزموبوليتانية نظيفة ، تطل على مياه زرقاء» . ولكن فيما بعد ، وفى تصديره لهذا الكتاب ، يكتب من بعد آخر : «معالم الإسكندرية فى حدذاتها غير ممتعة ، ولكنها تسحرنا عندما نصلها بالماضى» . وكفافيس هو الذى قدم الصلة الخيالية بين الماضى والحاضر ، وهذا هو ماسلم به فورستر ، ومادفعه إلا وضع قصيدة «الإله يتخلى عن أنطونيو» بين تاريخه ودليله فى هذا الكتاب . ولكن كفافيس قام بأكثر من مجرد إحياء مدينة تاريخية . فقد كتب هو نفسه عام ١٩٠٧م : «ومن الآن اعتدت على الإسكندرية (فلقد ولد وعاش فيها حياته كلها تقريباً) ومن الأرجح أنى حتى لو كنت غنيا فسأعيش هنا أيضاً ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا المكان يزعجنى كثيراً . إن هذه المدن الصغيرة عبء ومصدر للإزعاج ، فكم تشعر فيها بحاجتك إلى الحرية » ولكن فى عام ١٩١٠م أصدر «المدينة» ، وهاهى الأبيات القليلة الأخيرة منها : سوف تنتهى أنت دائماً فى هذه المدينة

فلا تأمل فى أى شىء فى مكان آخر ..

فليس هناك سفينة أو طريق لك

والآن ولأنك ضيعت حياتك هنا

فى هذا الركن الصغير

فأنت قد دمرتها فى أى مكان آخر فى هذا العالم .

إن الإسكندرية لم تضيعَ حياتك ، ولكنك أنت الذى ضيعت حياتك . إن المدينة تكون كما تصنعها أنت ، كما تصنع أى مدينة أخرى ، ولذا فليس من حقك أن تلوم

الإسكندرية على حظك العاثر . وقد جعل الشاعر من الإسكندرية مجازاً يبنى عليه مع فورستر وداريل فيما بعد إسكندريات كثيرة على قدر الإمكان .

يقول فورستر مرتاباً : إن الإسكندرية كانت مثل مخبأ ، ولكنه مخبأ وجد به الحب وأشياء أخرى . وهو يشير إلى تميز الموقع الجغرافى للمدينة والذى تدين له بتأسيسها واتجاهها للتطور مادياً وحضارياً وتاريخياً . على حافة البحر واليابس ، توسطت المدينة بين المتناقضات ، بين مصر واليونان اللتين لا تميل إحداهما إلى البساطة . ولذا صار أساس وجودها هو التوفيق بين المتناقضات ، كما حدث فى المسيحية المبكرة عندما كانت الإسكندرية تناقش صلة الإنسان بالله ، والمسافة الدقيقة بينهما . لقد كانت الإسكندرية دائماً مدينة متفجرة ، معروفة بانفعالاتها واستهتارها ، مناضلة لاحتواء توترات شديدة .

وفى عام ١٩٢٣م ، فى نقد لكتاب «فاروس وفاريلون» لفورستر فى الملحق الأدبى لمجلة التايمز (كان كتاب الإسكندرية لم ينشر حتى ذلك الوقت فى بريطانيا ، ولكن يمكن استخدام هذا النقد كتعليق عليه) ، يقول مدلتون مارى : «ينتمى السيد فورستر بلاشك إلى ذلك النوع المريب من البشر والذى يمتلك زاوية غريبة للرؤية ، إنه بشخصيته المريبة يسلك السبيل المتوقع إلى مدينة مريبة ، إلى هذا الجزء من العالم المعمور ، والذى يظهر فيه بشكل واضح للغاية انعطاف فى البعد الروحانى ... حيث المناخ العنيف الخارق للطبيعة ، والتداخل الواضح بين المقولات ، عند هذه النقطة تظهر دوامة حلزونية تحدد التقاء عالمين ، حيث توافقت المتناقضات ، إنها ليست إلا شرخا فى العالم الإنسانى ، يلصق السيد فورستر أذنه عليه أثناء تجواله ، ويجد السيد كفافيس مشغولا بالفعل فى هذه المغامرة أيضاً ، فيستمع الاثنان معاً .

عند متابعتك لرواية ما ، عبر شوارع الإسكندرية ، فقد تقودك إلى أماكن غريبة كما يحدث عند متابعتك لـ «بلوم» عبر شوارع «دبلن» ، وستحظى بلمحات هامة عن المدينة ، ولايزال كتاب « الإسكندرية » يعمل كدليل جيد، وهو يعمل أيضاً كرواية جيدة ، أو كشعر كفافيس الذى يطل على الزمان والمكان والصداقات الحميمة . وفى زيارة أخرى أخذت الكتاب معى . وبالقرب من نهاية خط ترام الرمل ، وصلت إلى المكان الذى قال عنه فورستر إنه كان فى عهده «مكانا ساكنا» (ولكنه الآن الميدان الذى يقع أمام فندق سيسل) ، وقد اكتشفت أن كليوباترا بدأت تشييد السيزيريوم فى هذا المكان على شرف أنطونيو ، وأخبرنى الكتاب أن أنظر فى صفحة ٢٨ من التاريخ ، فأقرأ : « وتعاملت مع عشيقها الجديد مثلما كانت تتعامل مع القديم بشهوانية ،

ولكن فى يقظة ، فهى لم تسبب له الضجر لإدراكها أن التبذل يعنى الرتابة والملل ، ولذا فتحت شهيته إلى أعظم المباهج رقة ، وذلك عندما تتحول الحواس إلى روح ، حيث كانت قدرتها اللامتناهية فى التلون تكمن فى ذلك . إنها كانت آخر تلك السلالة المتعالية الماكرة ، وكانت هى الزهرة التى قضت الإسكندرية ثلاثة قرون من عمرها لكى تبدعها ، والتى لن ينوى عودها أبدا .. تلك الزهرة التى تفتحت لجندى رومانى بسيط ولكنه كان فى غاية الذكاء» .

أجل ، لقد وصلت متأخراً جداً إلى فندق سيسل ، «فرأيته مجرداً من كل زخارفه المبهرجة ، ومرجّعاً للصدى ، مثل خطيرة يندفع ريح البحر بخفة من تحت بابها ومن خلال نوافذها ، وكما فعل داريل وأنطونيو من قبله ، فكرت ملياً فى هذا المنفى الذى استسلمنا له بمرور الوقت .

هذا هو ما ينتابك فى الإسكندرية ، ولو أن المدينة القديمة ظلت آثارها باقية أكثر مما هى عليه الآن ، لانتابك هذا الشعور بدرجة أقل حدة ، فعلى النقيض من روما أو أثينا وآثارهما الباقية ، فإن الإسكندرية هى الأكثر حميمية ، هنا يرقد الإسكندر مدفوناً (فى مكان ما).. وهنا انتحرت كليوباترا.. .. وهنا المكتبة والسيرابيوم... إلخ... ولكن ليس هناك أى شىء ملموس من كل ذلك . «لقد كنت أضحك وأنا أسير فى الشارع بسرعة مرة أخرى لأقوم بجولة فى الحى الذى يعج بالحياة الواقعية الساخرة للرجال والنساء ... وبدأت أبطئ من سيرى ، وأنا مشدوه بشدة ، واصفاً لنفسى فى كلمات هذا الحى السكندرى ؛ لأننى علمت أنه سرعان ماسيطويه النسيان ، حيث لن يعاود زيارته سوى هؤلاء الذين استولت المدينة المحمومة على ذكرياتهم ، وهؤلاء العجائز الذين علقت المدينة بأذهانهم كما تعلق آثار العطر بالكم : «الإسكندرية عاصمة الذكريات» . (جستين ص ١٥٢)

وإسكندرية فورستر – التى تضع الزمان فى قسم ، والمكان فى قسم آخر ، ومافى القسمين من دعوات كثيرة للانتقال بينهما – ماهى إلا دليل للذاكرة ، مثلها فى ذلك مثل رباعية الإسكندرية التى تعد من ناحية ما رواية مبنية على الدليل ؛ حيث يمثل «جستين» و «بلتزار» و «مونتوليف» أبعاد المكان ، بينما «كليًا» «تطلق العنان للزمان ، وحتى بعد أن تم طرد الجاليات الأجنبية من المدينة ، لم تتوقف عن كونها عاصمة للذكريات . ونجيب محفوظ ، الروائى العربى البارز ، الذى جعل من القاهرة عالمه الأدبى ، اختار الاسكندرية لتكون إطاراً لنقده تجاوزات وإخفاقات النظام الناصرى . «الإسكندرية

أخيراً . الإسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع» . (ميرامار ، الصفحة الأولى) .

لقد أدى الفخر والثقة التى حازتهما مصر عام ١٩٧٣م ، إلى بداية سياسة الانفتاح الاقتصادى فى هذا العام ، والتى تشجع الاستثمار الأجنبى ، كما أديا إلى معاهدة السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٩م ، وحيث إن الإسكندرية عانت بعد احتلال السويس ، فقد أدت إعادة العلاقات الودية مع الغرب ، والتحرر فى الداخل إلى إعادة بعض الرونق القديم للمدينة ، وأعتقد أن وصف لورنس داريل للإسكندرية عام ١٩٧٧م يعتبر الآن وصفاً مغالياً فى التعسف ، فهو لاينطبق بأى شكل من الأشكال إلا على هذا الجزء الأوروبى السابق من المدينة ، وعلى الثمانين ألف ذكرى ! أما الحى العربى القديم - المقام على الطريق ذى الاستوديومات السبعة الناتج عن ترسب الغرين - فلا يزال نابضاً بالحياة ، ودافئاً كعهده دوما ، حتى عندما كان يعيش على حافة الوعى الأجنبى .

على أحد جوانب ميدان الرمل ، توجد حانة يونانية ، وعلى الجانب الأخر يوجد - أسفل ما كان يوماً ما مكاتب الدائرة الثالثة للرى حيث كان يعمل كفافيس - ملهى ليلى يدعى أثينايوس ، مازال يجتمع فيه بعض اليونانيين الباقين فى المدينة ، ويستمعون لموسيقى الرمبتيكا الخشنة الحزينة العالية ، وهم يحطمون الأطباق فى مرح ، الإسكندرية تحيط بكل شىء . ومن يعرف الإسكندرية كمدينة كوزموبوليتانية ، ويتذكر الأشباح القديمة والأصدقاء القدامى الذين اختفوا الآن ، لن يستطيع تفسير الروح العربية الغامضة فى شعبها إلا بأنها حماقة .

ولكنك لن تجد شيئا جديداً فى هذا الاختلال العقلى : ويكتب داريل إلى ميلر فى ربيع ١٩٤٤م «لا أعتقد أنها ستروق لك .. هذه المدينة النابولية الرثة المنهارة المحطمة ، بمنازلها ذات الطابع الشرقى، واقفة تقشرها الشمس . بحرها منبسط لونه بنى داكن ، أمواجه هادئة تحتك بالميناء مشبعة بملل وسط أوربا المزركش بالشراب والسيارات الباكار وكبائن الشواطئ . لاموضوع للحديث إلا عن المال . حتى الحب يفكرون فيه بالمصطلحات المالية ... كلا ، لواستطاع المرء أن يكتب سطراً واحداً عن شىء له رائحة إنسانية لكان عبقرياً .

* * *

وبناء الإسكندرية تجده فى الكلمات المكتوبة عنها ، ومن بنائيها : كفافيس وفورستر وداريل . وبعض الملاحظات التالية تعدل من تاريخ ودليل فورستر إلى حدما ، حيث يجعل الزمان هذه التعديلات ضرورية ، ومن ناحية أخرى ، فهى تشير إلى هؤلاء البنائين للبعد الأدبى السكندرى ، وهى تربطهم بأماكن معينة فى المدينة ، وتحدد الأدوار التى لعبوها ، وتستمع أيضا لماسيقولونه ، وما هذه الإلمحات ، وعلى الرغم من انها ضئيلة بالضرورة كالهوامش ، إلا أنها قد توحى بالطرق التى وصلت خلالها مدينة الكلمات إلى البناء ، وتنبئ عما إذا كان فى المستقبل ستنبعث مدن أخرى من إسكندرية اليوم .

بعض التواريخ والأدلة الأخرى :

– قنسطنطين كفافيس . ولد عام ١٨٦٣م بالإسكندرية ، ومات بها عام ١٩٣٣م ، والسيرة الوحيدة المكتوبة عنه بالإنجليزية هى « كفافيس – سيرة ناقدة » لروبرت ليدل ، عن دار نشر دكورث ، لندن ، ١٩٧٤م. وشعره المستشهد به فى هذه الملاحظات مأخوذ من كتاب « قصائد مختارة . ق . ب . كفافيس » عن ترجمة للإنجليزية لادموند كيلى وفيليب شيرارد ، عن دار نشر شاتو ووينديوس ، لندن ، ١٩٧٥م.

– إ . م . فورستر : ولد عام ١٨٧٩م فى لندن ، وتوفى فى مدينة كوفنترى عام ١٩٧٠م. وسيرته كتبها ب . بن . فوربانك «إ. م فورستر .. حياة» صادرة عن مطبعة جامعة أكسفورد ، أكسفورد ، ١٩٧٩م» . ومن رواياته «حجرة تطل على مشهد» و نهاية هواردز » وكلاهما صدر قبل انتقاله إلى الإسكندرية ، ورواية « ممر إلى الهند» التى بدأ كتابتها قبل الإقامة بالإسكندرية ، ولكنها اكتملت فيما بعد ، وصدرت عام ١٩٢٤م ، وهى متاحة فى طبعات صادرة عن دار نشر بنجوين . وصدر له أيضاً كتاب «فاروس وفاريلون» وهو عبارة عن سلسلة من الصور الأدبية الوصفية للإسكندرية القديمة والحديثة ، ولقد صدر لأول مرة عام ١٩٢٣م فى لندن ، عن دار نشر هوجارث ، ونفدت الآن نسخه عند الناشر .

– لورنس داريل . ولد فى منطقة الهيمالايا بالهند عام ١٩١٢م . ولم تكتب عنه سيرة ، أما التفاصيل المتعلقة بسيرته ، فقد تم جمعها من أعمال عديدة من النقد الأدبى أو من كتاب «لورنس داريل وهنرى ميلر .. مراسلة خاصة» الذى حرره چورچ ويكس ، عن دار نشر فابر ، لندن ، ١٩٦٣م ، ولقد نفدت كل نسخة ، ومن رواياته «الكتاب الأسود» والتى صدرت قبل انتقاله للإقامة بالإسكندرية ، و «تنك» و«تنكوام» و «السيد» و «ليفيا» ، وكلها صدرت فى الستينيات والسبعينيات أما «رباعية

الإسكندرية » فتتضمن «جستين» و «بلتزار» و «مونتوليف» و «كليا» ، والأجزاء المستقلة صدرت عن دار نشر فابر ، لندن ، ١٩٥٧م وحتى ١٩٦٠م ، والطبعة التى تشير هذه الملاحظات إلى أرقام صفحاتها هى الرباعية ذات الجزء الواحد ، التى صدرت عام ١٩٦٢م(*) ، ومن كتب أسفاره « زنزانة بروسبير» و (كورفو) ، و «أفكار عن ڤينوس البحرية » (رودس) ، و« ثمار الليمون اللاذعة » (قبرص) . وشعره صادر عن دار نشر فابر فى طبعات تحت عنوان «قصائد مختارة» و «مجموعة قصائد» ، وبعضها يتناول الإسكندرية ، وتوجد أيضاً ترجمات له لبعض قصائد كفافيس المنشورة فى الرباعية مثل قصيدة «المدينة» وقصيدة «الإله يتخلى عن أنطونيو» اللتين تظهران فى نهاية «جستين» ، وقصائد مثل «شمس ما بعد الظهيرة» و «بعيداً» و «أحد آلهتهم» و "Che Fece ... Il gran Rifiuto» فى نهاية كليا » .

– نجيب محفوظ . ولد بالقاهرة عام ١٩١٢م ، (١٩١١م – المترجم) . وصدرت له روايتان فى القاهرة مترجمتان للغة الإنجليزية وهما «زقاق المدق» و «أولاد الجبلاوى» (يقصد « أولا حارتنا» – المترجم . أما روايته السكندرية «ميرامار» فقامت بترجمتها إلى الإنجليزية د. فاطمة موسى محمد ، وقدم لها چون فولز ، وصدرت عن دار نشر هينمان ، لندن ، ومطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، عام ١٩٧٨م .

ولدراسة البعد الأدبى للإسكندرية : انظر كتاب «وتبقى الإسكندرية : فورستور داريل وكفافيس» لجين لاجودس بنشن ، الصادر عن مطبعة جامعة برنستون ، نيوجيرسى ، ١٩٧٧م .

(*) وقد اعتمدنا أرقام صفحات هذه الطبعة للرجوع إليها وذلك لتعدد الطبعات والترجمات – المترجم .

٥ - ملاحظات

ملاحظـــات

⊗ صـ٣٢ شارع شريف باشا ، وهو حاليا شارع صلاح سالم ، وهو اسم أحد الضبـاط الأحـرار الذى قـامـوا بثـورة ١٩٥٢م تحت قـيـادة جـمـال عـبـد الناصـر ، وصارصلاح سالم وزيرا للإرشاد القومى ومات فى ١٩٦١م .

وفى نهـاية هذه الملاحظات سوف نثبت قـائمة بأسـمـاء الشـوارع والميـادين أيام فورستر وداريل والتغيرات الحالية فى أسمائها(*) .

⊗ صـ٣٢ فورستر لم يحك القصة كاملة ، فالطبعة الأولى من هذا الكتاب كانت فى الإسكندرية وذلك فى ديسمبر ١٩٢٢ م ، وبعد ذلك مباشرة ، تسلم فورستر رسالة مفعمه بالأسى من هوايتهد مسرز وشركاه .

تخبـره بحـدوث حـريق فى المخـازن ، وأن جـمـيع النسخ المطبوعـة من كـتـابه قـد احترقت ، ولحسن الحظ أنهم قالوا له : إن الطبعة كان مؤمن عليها ، وأرسلوا له شيكا مـجـزيا علـى سـبـيل التـعـويض ، وبعـد عـدة أسـابيع قليلة تسلم فـورسـتـر رسـالة من الناشرين أنفسـهم أكثر مأساوية ، تخبره بأن كل نسخ طبعته وجدت كاملة فى قبو لم تصل إليه نيران الحريق ، وهذا من وجهة نظر شركة التأمين سبب لهم وضعا حرجا ، كما قال الناشرون فى خطابهم ، ولم يكن أمامـهم سوى طريق واحد وهو تعمـد حـرق جميع نسخ الكتاب .

⊗ صـ٣٥ منذ صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، والاحتفاء به مازال مستمرا - طوعـا أوكـرهـا - سـواء من هؤلاء الأدباء الذين يمجـدونه فى إبداعـاتـهم الفنيـة أو من ممثلى التاريخ السياسى المعاصرين .

إن المظاهر الحديثة · للمدينة - ، ولهؤلاء الأدباء . وأولئك المؤرخين ، تمت الإشارة إليها فى كل من قسمى هذا الكتاب وهما التاريخ والدليل .

⊗ صـ٣٦ مـازالت هناك أهمـيـة عـمليـة لمن يريد التـعـرف على مـدينة الإسكندرية وضواحيها ، وتم ذكر كل التـغيرات الهامة التى حدثت - حيث إن هناك قائمة بأسماء الشـوارع والميـادين القـديمة وأمـامـهـا الأسـمـاء الحـديثة لهذه الشوارع وذلك فى نـهـاية الملاحظات .

(*) وذلك حتى عام ١٩٧٣م - المترجم .

⊗ صـ٥٥ عن هؤلاء وعن بقية السلالة البطلمية . انظر الملاحظة التالية .

⊗ صـ٥٨ بعض التفاصيل الواردة فى تحديد فورستر للحكام البطالمة ، تتفاوت دقتها عن تلك التى يقرها علماء التاريخ الآن بشكل عام ؛ فعلى سبيل المثال فإن بطليموس السابع عند فورستر ، يعرف الآن ببطليموس الثامن ، وبطليموس الثامن عنده ، هو بطليموس السابع .. وكليوباترا العظمى يجىء ترتيبها فى قائمة فورستر كليوباتر السادسة ، بينما هى تعرف الآن بكليوباترا السابعة ، وأيضا بعض التواريخ التى يذكرها كفترات للحكم تحتاج إلى تغييرات

وسنقدم فيما يلى مختصرا صحيحا :

بطليموس الأول سوتير حكم من ٣٢٣ ق. م وصار ملكا من ٣٠٤ إلى ٢٨٠ ق.م

بطليموس الثانى فيلاديلفوس حكم من ٢٨٢ إلى ٢٤٦ ق.م(*)

بطليموس الثالث يورجيتس حكم من ٢٤٦ إلى ٢٢١ ق.م

بطليموس الرابع فيلوباتر حكم من ٢٢١ إلى ٢٠٥ ق.م

بطليموس الخامس إبيفانس حكم من ٢٠٥ إلى ١٨١ ق.م

بطليموس السادس فيلوميتر حكم من ٢٨١ إلى ١٤٥ ق.م

بطليموس السابع نيوزفيلوباتر حكم من ١٤٥ إلى ١٤٤ ق.م

بطليموس الثامن يورجيتس الثانى حكم من ١٤٤ إلى ١١٦ ق.م

بطليموس التاسع سوتير الثانى حكم من ١١٦ إلى ١٠٧ ق.م

بطليموس العاشر الإسكندر الأول حكم من ١٠٧ إلى ٨٨ ق.م

بطليموس الحادى عشر الإسكندر الثانى حكم ٨٠ ق م

بطليموس الثانى عشر نيوزديونيسس حكم من ٨٠ إلى ٥٨ ق.م

كليوباترا السابعة حكمت من ٥١ إلى ٤٩ ق.م ، ومن ٤٨ - ٣٠ ق.م

بطليموس الثالث عشر حكم من ٥١ إلى ٤٧ ق.م

بطليموس الرابع عشر حكم من ٤٧ إلى ٤٤ ق.م

مع ملاحظة أن بطليموس الثالث عشر والرابع عشر كانا أخوين لكليوباترا ، أما ابنها من قيصر فكان يسمى بطليموس الخامس عشر وهو لم يحكم أبدا

(*) وردت خطأ فى الأصل وتم تصحيحها بواسطة هذه القائمة - المترجم .

⊗ صـ٦٨ الاعتقاد بأن قيصر تسبب فى إحراق المكتبة ، ثبت الآن عدم صحته ، واللهب الذى انتقل من الأسطول الواقف فى الميناء الكبير إلى الأرصفة والأحواض ، دمر عددا كبيرا من الكتب كانت موجودة هناك ؛ إما فى انتظار تسليمها إلى المكتبة أو تصديرها عبر البحار ، والمكتبة والجامعة بقيتا دون مساس فى هذا الحادث ، ولكن تم حرقهما بعد ذلك على يد المسيحيين(*) فى ٣٩١ م انظر صـ ٩٦

⊗ صـ٧٠ حكاية جبن كليوباترا أو غدرها فى «أكتيوم » أو فى الحقيقة ، حكاية المعركة البحرية ككل ، ترتكز على الشهادة الدرامية لقصائد هوراس ، وقصص مروجى الدعاية الرومانيين والتى وافق فورستر على روايتها ، كما فعل شيكسبير ، ولكن علماء التاريخ الحاليين دحضوا هذه الروايات ، ومن أجل سمعة كليوباترا ثم أنطونيو ، يجب علينا أن نفسر الرواية بشكل صحيح .

يضيق الخليج الأمبريقى على الساحل الغربى لليونان ، حتى يصير بوغازا ، عرضه حوالى نصف ميل ، وذلك عند التقائه بالبحر ، وتقع آثار مدينة نيكو بوليس "Nicopolis" التى أسسها أوكتافيان بعد المعركة ، كما تقع مدينة بريفزا "Preveza" الحديثة فى شمال هذا البوغاز ، ويوجد فى الناحية الجنوبية لسان من الأرض الرملية يحمل بعض البقايا القليلة لمعبد أبولو أكتيوس . هنا وفى سنة ٣١ ق.م عسكر أنطونيو وكليوباترا بمائة وعشرين ألفا من المشاة ، واثنى عشر ألفا من الفرسان الذين تم حشدهم لغزو إيطاليا .

ولكن فى الربيع قام ماركوس أجريبا القائد البحرى الشجاع لأوكتافيان بالاستيلاء على مركز الإمداد الحيوى فى « ميثونى» فى البلوبونيز ، وفى الصيف نجح فى حصار الأسطول المشترك لأنطونيو وكليوباترا فى داخل الخليج الأمبريقى ، وكانت عظمة أنطونيو تكمن فى كونه قائدا بريا ، وكان عليه وقتها أن يواجه أجريبا ،

(*) فى كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر · تأليف عبد اللطيف البعدادى صادر عن كتابات مصرية » أغسطس ١٩٨٨م ، وبه أكثر من مقطع عن الإسكندرية ص ٣٠ ، ٣١ ، وفيها يصف مابقى من آثارها ، ويصف ما تحطم منها ، ويذكر بعض أسماء الولاة الذين حطموا بعض هذه الآثار ، ويشير إلى حرق العرب للاسكندرية حيث يقول وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه ، وهناك هامش فى ص ٣٠ يقول . راجت حول حريق مكتبة الاسكندرية شائعات ومناقشات كثيره ولا نعرف الحقيقة معرفة اليقين . والأغلب أن المكتبة أحرقت مرتين أول مرة فى عهد يوليوس قيصر ، والثانية فى خلال الاضطرابات المتكررة بين الوثنيين والمسيحيين المتزمتين — المترجم

ذلك القائد الرومانى الوحيد الذى كان يفهم فى الاستراتيجية البحرية ، وبينما كان الحصار خلال شهر أغسطس الحار مثيرا للأعصاب ، تحول الوقت أيضا ضد أنطونيو ، فقد أصبح رجاله قلقين ، وبعضهم بما فيهم أهينوباربوس تركوه واتجهو إلى أوكتافيان ، بينما مات الكثير جدا من جنوده بسبب الحمى ، لدرجة أنه عندما بدأت المعركة أخيرا ، لم يكن باستطاعته إلا أن يمد ٢٣٠ سفينة فقط بالجنود ، ضد سفن أو كتافيان البالغ عددها ٤٠٠ سفينة ، وقد فكر أنطونيو فى التخلى عن الأسطول والانطلاق عبر اليونان بجيشه هناك حيث كان قد تقرر مصير روما مرتين قبل ذلك عند فيليبى وفارسالا . ولكن التخلى عن الأسطول كان يعنى التخلى عن أكبر مساهمة لكليوباترا فى قضيته ، والتخلى عن كليوباترا ، يعنى فقدان مصر بكل ثراوتها ، وبدلا من ذلك قرر أنطونيو أن يحاول اختراق الحصار، وأن يعود إلى مصر مع كليوباترا ، تاركا تعليمات لجيشه ، بعبور اليونان تحت قيادة قواده ، استعدادا لحملة مقدونية تحت قيادته فى الربيع التالى .

وما حدث فى الواقع تم تحريفه على يد مروجى الدعاية الرومانيين ليظهروا أنطونيو كشخص عاجز ، وأن ولاءه لم يكن رومانيا ، فهو يترك أسطوله وجيشه لكى يكون مع ملكته الشرقية الخائنة .

وبعيدا عن النية فى الهرب فإن كليوباترا وأنطونيو كانا ينفذان خطتهما لاختراق الحصار الرومانى ، وفى الحقيقة فإن معظم أسطولهما كان قد تم الاستيلاء عليه أو تدميره ، ولكن وكما كتب أحد علماء التاريخ البحرى « إن إنقاذ ٦٠ سفينة من مجموع ٢٣٠ سفينة كان إنجازاً مشرفا لرجل محاصر بما يفوقه عددا عند شواطئ خليج محجوب عن الريح »

والكارثة الحقيقية حدثت عندما بدأجنود جيش أنطونيو السير فى اتجاه مقدونية ، فاعترض أعوان أو كتافيان طريقهم ، حيث قدموا لهم شروطا مرضية إذا ما استسلموا ، واعدين إياهم أيضا بقطعة الأرض التقليدية (المقطعة) للجنود الرومانيين فى إيطاليا .

إن المسألة ليست أن أنطونيو فقد العالم فى هذه المعركة ، ولا أنه فقد هذا العالم من أجل امرأة ، بل فيما قام به أو كتافيان فى مجرى الحملة العسكرية المشتركة برا وبحرا من محاولات متعقلة لتجنب أى اشتباك معه على الأرض ، وفيما كابده فى البحر على يد أجريبا المرة تلو الأخرى ، وأخيرا من اكتشافه الحقيقة البشعة فى ذلك اليوم من سبتمبر ، عنما وجد جيشه - الذى كان من المفترض أن يبقى هناك فى اليونان منتظرا ومترقبا - قد تبعه إلى مصر .

⊗ صـ١٠٢ هذه الجملة مقتبسة من ملحوظات لورنس داريل فى روايته جستين ويوضح فيها أنها تنتسب إلى عمرو بن العاص ، وهى موجودة فى جستين ص ٧٧ وانظر الملاحظة التالية

⊗ صـ١٠٢ إجابة عمرو مقتبسة من ص ٧٧ فى رواية جستين ويستحضرها دارلى بعد أن مارس الحب لأول مرة مع جستين :

يبدو وكأن المدينة كلها تهوى على آذانى ... لقد تجولت فيها بلاهدف كما يتجول الأحياء فى شوارع مدينتهم بعد أن يضربها الزلزال ، مندهشين أن يجدوا كل مارأوه مألوفا لديهم قد تغير ، لقد شعرت أننى قد أصبت بالصمم بطريقة غامضة ، ولم أتذكر شيئا آخر ، سوى أننى بعد ذلك لوقت طويل ، قابلت بورسواردن وبومبل فى بار ، وأن الأول كان يلقى بعض الأبيات من القصيدة الشهيرة للشاعر القديم والمسماة : «المدينة» . تلك القصيدة التى هزتنى بقوة سحرها . وكأن القصيدة قد صيغت لتوها ، بالرغم من أننى أعرف كل أبياتها جيدا ، وعندما قال بومبل · إنك شارد الذهن هذه الليلة ، فما الأمر ؟ وددت لو أجبته بكلمات عمرو وهو يحتضر «إننى أشعر كما لو كانت السماء تنطبق على الأرض وأنا بينهما أتنفس من سم الخياط» .

⊗ صـ١١٥ فى جستين ، «وكسكندرية ، فإن الفسق كان بشكل ما ، صورة من صور نكران الذات ، وصورة زائفة عن الحرية .

وإذا كنت قد رأيتها كنموذج للمدينة ، فهى لم تكن للإسكندرية أو أفلوطين الذى وجدت نفسى مجبرا على التفكير فيه ، و .... فى الطفل الثلاثين الذى سقط « لايشبه الشيطان فى تمرده على الإله ولكن فى رغبته المتقدة حماسا فى الاتحاد به ، إن المغالاة فى أى شئ تحوله إلى خطيئة » جستين ص ٣٩ واستعراض فورستر لنظرية نشأة الكون لفلنتينوس ، اقتبسها منه داريل فى رسائل إلى جستين .

⊗ صـ١٣٦ فى الثلاثينيات ... أى فى العقد التى تلا وجود فورستر فى الإسكندرية . نشأت المبانى على امتداد أرصفة الميناء الجديدة ، والكورنيش - كما يسمى - أصبح من أهم معالم الإسكندرية الجذابة ، ومركزا للنشاط الاجتماعى ، وبإنشاء ميدان سعد زغلول الذى ينفتح على الميناء الشرقى بالقرب من محطة ترام ، صار مركزا للمدينة بعيدا عن ميدان محمد على (ميدان التحرير) وهذا ساعد فى إدارة وجه الإسكندرية تجاه البحر .

⊗ صـ١٤١ فى كتيب فابى صادر فى ١٩٢٠م كتب فورستر عن ضرب الإسكندرية بالقنابل وعن هزيمة عرابى . « وهكذا مرت اللحظة التى لو عولجت بشكل ملائم ، فلربما كانت قد وضعت مصر على طريق الحرية الدستورية »

وبدلا من ذلك فإن ١٨٨٢م يحدد بداية الاحتلال البريطانى العسكرى ، واندماج مصر الفعلى فى الإمبراطورية ، وفيه تقوضت الحركة الوطنية بينما سمحت سلطة الخديوى المتهالكة أن يستعيد عرشه ، فقط كدمية بريطانية متحركة .

وبعد ذلك صار تاريخ الإسكندرية ذا نضال أوسع فى الحركة الوطنية المزدهرة ضد الاستعمار الأجنبى ، وتحطمت الإسكندرية الكوزموبوليتانية على يد التطرفات التى ذهب إليها الزعماء ، حتى صارت عديمة القيمة .

والرجوع إلى تاريخ المدينة بعد عام ١٨٨٢ م يحتاج بالضرورة إلى بعض الإشارات للأحداث الهامة :

– ١٩١٨م ولد جمال عبد الناصر فى حى باكوس بالاسكندرية (انظر صـ٢١٧) وعبد الناصر سوف يصبح أول حاكم مصرى حقيقى منذ ٢٥٠٠ سنة ، التحق ناصر بمدرستى العطارين ورأس التين الثانوية ، وبينما كان فى الأخيرة شارك لأول مرة فى المظاهرات السياسية ، وأصيب بضربة فى وجهه من هراوة شرطى وقضى ليلته فى السجن ، كان وقتها فى الحادية عشرة من عمره ، وفى الخامسة عشرة انتقل إلى القاهرة ، مع أن الإسكندرية سوف تبرز مرة أخرى فى نشاطاته

– ١٩١٩ – ١٩٢٢م فى مارس ١٩١٩م طالب الوطنيون بقيادة سعد زغلول بالاستقلال ، وبدلا من تحقيق هذا الاستقلال ، نفى البريطانيون سعد زغلول إلى مالطة وسرعان ما هبت البلاد فى ثورة ، وتم قتل أكثر من ٨٠٠ مصرى قبل أن يتم إطلاق سراحه ، وتبع ذلك ثلاث سنوات من المفاوضات التى تم نفى سعد زغلول خلالها مرة أخرى(*) ، وأعيد إطلاق سراحه ، وكان الإفراج عنه بمثابة انتصار وطنى ، فالحشود الهائلة من البشر كانت تقف على طول خط السكك الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة .

واليوم يتم إحياء ذكرى سعد زغلول ليس فى القاهرة فقط بل وفى الإسكندرية المطلة على البحر الذى شاهد أسره .. (انظر الملاحظات عن صفحتى ١٣٦ ، ٢١٢)

(*) المرة الأخرى هذه كانت إلى جزيرة سيشل – المترجم .

وبالرغم من أن زغلول هو الذى بدأ حركة الاستقلال ، إلا أنه لم ينجزه بنفسه ، ففى عام ١٩٢٢م ، اختار البريطانيون أن يعلنوا ؛ أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ولكنهم احتفظوا بالسيطرة على قناة السويس ، واشترطوا بقاء جيش لهم فى مصر ، واحتفظوا لأنفسهم بحق حماية الأقليات ، والمصالح الأجنبية(*) .

- ١٩٣٦ م : المعاهدة الانجليزية المصرية . وفيها تم وضع المصالح الاجنبية تحت تصرف السلطة القضائية المصرية ، (انظر الملاحظة عن صـ ١٤٩) .

وانسحب الجيش البريطانى إلى منطقة القناة مع حقه فى العودة إلى احتلال البلاد وفى حالة حدوث حرب ، ولأول مرة منذ عام ١٨٨٢م ، اكتسبت مصر حقها فى السيطرة على قوات أمنها ، حيث بدأ التوسع فيها ، ودعت الضرورة إلى وجود ضباط جدد ، ففتحت الكلية الحربية أبوابها أمام الشباب من طبقات اجتماعية أعرض ، فدخل ناصر الكلية الحربية فى العام التالى مع أنور السادات وستة قواد آخرين لثورة ١٩٥٢م .

- ١٩٤١ - ١٩٤٢م ومع الحرب العالمية الثانية تركزت الأحداث حول الإسكندرية وعليها ، فطوال فترة ربيع وصيف ١٩٤١م كان الألمان يضربونها بقنابلهم (انظر الملاحظة عن صـ٢١٢) وفى صيف ١٩٤٢م كان روميل على مقربة يوم من المدينة .

- العلمين : وهى مسرح لسلسلة من المعارك التى حدثت من يولية إلى نوفمبر سنة ١٩٤٢م ، وأوقفت تعطش روميل إلى الدلتا ، وقلبت مجرى الحرب الدائرة فى شمال أفريقيا ، والعلمين تقع على بعد ٣٠٦ كيلومتر غرب الإسكندرية ، (انظر الملاحظة عن صـ٢٤٣) ، وفى أول يولية وصلت قوات الفرق الأفريقية - التابعة للألمان - إلى العلمين فانسحب الأسطول البريطانى من الإسكندرية متوجها إلى قناة السويس فالبحر الأحمر، واستعد خبراء الألغام البريطانيون لتفجير مستودعات ذخيرتهم فى الجانب الغربى من المدينة ، وكان السكندريون متأكدين أن البريطانيين يفرون من مصر ، واعتقد العالم أن بريطانيا . قد خسرت الشرق الأوسط .

(*) هذا هو ما يعرف فى تاريخ ثورة ١٩١٩م بتصريح فبراير ١٩٢٢م - المترجم .

ولكن روميل كان يواصل توسعاته بينما رجاله يعانون من الإجهاد ، وكانت أغلب إمداداته تذهب إلى قاع البحر بواسطة الأسطول البريطانى ، ولكن الجنرال :

أوكنلك "Auchinleck" وازن الموقف بمهارة .

« وفى ١٧ يولية ١٩٤٢م كسب أو كنلك معركة تاريخية ، لقد كانت حقا معركة يائسة وصعبة وشجاعة مثل معركة نابليون وولنجتون فى واترلو ، فلقد أنقذ الشرق الأوسط بكل مايتضمن هذا من تأثير على المجرى العام للحرب وكانت هذه المعركة هى نقطة التحول » (المعارك الخداعية للعالم الغربى ، تأليف الجنرال ج . ف . ك . فولر J. F. C. Fuller) .

وأخيرا تولى مونتجمرى قيادة الجيش الثامن ، وكما يقول فولر « هو رجل ذو شخصية تتسم بالحيوية الفائقة ، والثقة الزائدة بالنفس ، كان فى السابق يعمل أستاذا فى الإخراج المسرحى وأساليب الدعاية ، وهو جرئ فى أقواله ، حذر فى أفعاله ، وكان هو الرجل المناسب فى المكان المناسب واللحظة المناسبة » وخلال الفترة من ٢٣ أكتوبر وحتى ٥ نوفمبر ، وجه مونتجمرى هزائمه للألمان بأساليب خداعية ، ووضع روميل على طريق التقهقر ، وبعد حوالى ستة شهور تم رحيل الألمان والإيطاليين من أفريقيا .

– ١٩٤٨م – ١٩٤٩م . فى مايو ١٩٤٨م انسحبت بريطانيا من فلسطين وتوجه الجيش المصرى إلى هناك ليحول دون فقدان العرب لأراضيهم لصالح دولة إسرائيل الناشئة حديثا .

ومثله مثل الآخرين من جيله ، أرجع عبد الناصر الذى كان قد جرح فى القتال هزيمة مصر إلى الفساد والتسيب الإجرامى للملك ووزرائه ، وتم توقيع الهدنة بين المتحاربين فى فبراير ١٩٤٩م . وبينما كانت الحرب ماتزال دائرة قام سكان الأحياء الفقيرة المهملة فى الإسكندرية بمايشبه الثورة ، وإزاء تجمع قوى الشيوعيين والقوى اليمينية المتمثلة فى الإخوان المسلمين ، لم تقم الحكومة بالإصلاح ، ولكنها قامت بدلا من ذلك بالقمع .

وفى ١٩٤٩م دعى عبد الناصر زملاءه من الضباط الراديكاليين إلى اجتماع سرى وأخذت حركة الضباط الأحرار عهدا على نفسها بالثورة خلال خمس سنوات .

– ١٩٥٢م . بعد المعارك التى قام بها الفدائيون المصريون فى منطقة القناة ضد القوات البريطانية ، قام البريطانيون بمهاجمة ثكنات البوليس المصرى فى الإسماعيلية ، ظنا منهم أنهم يساعدون هؤلاء الفدائيين ، وقتلوا واحدا وأربعين من رجال البوليس ،

وجرحوا الكثيرين ، وفى اليوم التالى (٢٦ يناير) خرجت جماهير القاهرة ، غاضبة مما قام به البريطانيون فى الإسماعيلية ومن تراخى الحكومة المصرية ، وكان ذلك بقيادة «الإخوان المسلمون» ، وبتحريض من البوليس، وقاموا بتدمير ٧٠٠ مبنى ومحل ومطعم، يمتلكهم بريطانيون وإيطاليون ويونانيون ويهود ، بينما قتل سبعة عشر من الأجانب وخمسون مصريا ، وذلك قبل أن يتمكن الجيش - الذى كان يخشى من التدخل العسكرى البريطانى - من استعادة النظام ، ولكن الإسكندرية ظلت هادئة خلال ذلك .

وفى ليلة ٢٣ يولية قامت وحدات الجيش المصرى الموالية لحركة الضباط الأحرار باحتلال مراكز قيادة الجيش ، ومراكز الاتصال فى القاهرة ، وفى السابعة صباحا أذاع أنور السادات بيانا على الشعب المصرى ، أعلن فيه قيام الثورة ، فملأت الحشود الشوارع راقصة مبتهجة ، وكان الملك فى قصر المنتزه - وهو المقر الصيفى له فى الإسكندرية - (انظر صـ٢٢٣) ومرعوبا انتقل فاروق إلى قصر رأس التين على الميناء الغربى (انظر صـ١٨١) ، وأرسل ناصر الذى كان يدير العمليات فى القاهرة مذكرة إلى اللواء محمد نجيب فى الإسكندرية «دعونا نعزل فاروق ونرسله إلى المنفى ، فالتاريخ سوف يحكم عليه بالموت» .

وفى السابعة من صباح ٢٦ يولية استولى الجيش على قصر رأس التين دون إزهاق للأرواح ، وفى وقت مبكر من الظهيرة تنازل الملك عن العرش ، وفى السادسة مساء رحل الملك إلى إيطاليا مرتديا زى أميرال على ظهر اليخت الملكى مصحوبا بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفع كتحية له .

- ١٩٥٤م · فى ١٩ أكتوبر وقعت بريطانيا اتفاقية(*) تنهى معاهدة ١٩٣٦م وطبقا لبنودها ، كان على قواتها أن تنسحب من منطقة القناة فى غضون عشرين شهرا ، وأعلن ناصر «إن الصفحة البغيضة للعلاقات المصرية البريطانية قد انطوت وسنبدأ فى كتابة صفحة جديدة ، فليس هناك الآن أى داع كيلا تعمل بريطانيا ومصر معا بشكل بناء» .

واستاء الإخوان المسلمون من عدم قدرتهم على مواصلة نشاطاتهم الفدائية ضد القوات البريطانية ، التى سرعان ما سيتم جلاؤها عن منطقة القناة .

(*) هى الاتفاقية المعروفة باتفاقية الجلاء - المترجم

وفى ٢٦ أكتوبر وفى مدينة الإسكندرية ، حاولت إحدى مجموعاتهم قتل عبد الناصرفى مؤتمر عام ولم يصبه أى من الطلقات الست التى انطلقت فعلا ، وبعد ذلك تم قمع حركة «الإخوان المسلمون» .

– ١٩٥٦م : كان رئيس الوزراء البريطانى أنتونى إيدن على استعداد دائم لتوجيه اللوم لعبد الناصر على أى بادرة تحدث على اتساع الشرق الأوسط باسم القومية العربية .

وخلفاً لتشرشل جاء إيدن ليعيد إلى الأذهان ماقدمته بريطانيا لاسترضاء ألمانيا فى فترة ماقبل الحرب ، وهو الآن يستعرض موهبته فى تصحيح أخطاء الماضى وذلك بإساءة تفسير الحاضر ، فقد بدأ فى مقارنة عبد الناصر بهتلر ، ووضع نفسه فى ذروة هستيريا العداء لمصر ، حتى أوشك على الجنون «ولكن ما هذا الهراء الذى تقولونه ؟ عزل ناصر أو تحييده !؟ .. إننى أريده محطما .. ألا تفهمون وسوف أكون شخصا عديم القديمة ، إذا ما حدثت أى فوضى أوأى ارتباكات فى مصر[١]» وردا على صفقة الأسلحة المصرية مع تشيكوسلوفاكيا ، رفضت بريطانيا والولابات المتحدة المساعدة فى بناء السد العالى بأسوان .

وفى الذكرى الرابعة لترحيل الملك فاروق ، وفى الإسكندرية ، وفى نفس المكان الذى كانت فيه نجاته من رصاصات القتلة قبل ذلك بعامين ، أعلن عبد الناصر ، فى الذكرى الرابعة لترحيل الملك فاروق أمام الحشد المتهلل من الجماهير تأميم قناة السويس المملوكة للبريطانيين(*) ، وذلك لتوجيه دخلها السنوى البالغ ٣٥ مليون جنيه استرلينى لمشروع السد العالى .

رأت اسرائيل أن انسحاب القوات البريطانية من منطقة القناة ، يمثل افتقاد القوة الحاجزة بينها وبين مصر ، أما فرنسا فقد اغتاظت وخشيت من دعم عبد الناصر – القائم أساسا على الكلام – للنضال التحررى الجزائرى الذى كان يحاصر ربع مليون جندى من القوات الفرنسية ، وأصبح تحطيم عبد الناصر هدفا مشتركا ، وعندئذ تآلف التحالف التآمرى لغزو مصر ، من إسرائيل وفرنسا وبريطانيا .

وفى ٢٩ أكتوبر دخلت القوات الإسرائيلية سيناء ، ونزلت القوات البريطانية والفرنسية فى منطقة القناة فى ٥ نوفمبر ، مدعية أنها تمنع التصادم بين القوات

(*) كان لفرنسا أيضا جزء من أسهم شركة قناة السويس – المترجم

الإسرائلية والقوات المصرية ، ولو أن ذلك لم يتم قبل أن تدك القاذفات البريطانية المطارات المصرية لحماية إسرائيل من هجوم مضاد .

وانتهى الغزو بالخزى والعار ، عندما أجبرهم رد الفعل الغاضب للرأى العام العالمى ، والضغط القوى من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على الانسحاب ، وأدى هذا الهجوم المجهض لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى تعزيز وضع عبد الناصر وتقويته فى مصر بل وعلى (امتداد العالم العربى) .

ونتج عن هذا الهجوم أيضا فى مصر ، حالة من : الغضب والخوف ، وهى التى أدت إلى تدمير الإسكندرية الكوزموبوليتانية القديمة بشكل تراجيدى .

وكانت الخطة الأصلية للقوات البريطانية والفرنسية أن تنزل هذه القوات فى الإسكندرية ، ولكن تم التخلى عن هذه الخطة قبل شهر واحد من الهجوم ، حيث إن معركة رئيسية فى ميناء كبير ، لم يكن من المحتمل ، أن تحوز رضا الرأى العام العالمى، ولكن إذا كانت الإسكندرية قداستبعدت من الناحية العلمية ، فإن الجاليات الأجنبية لم تحظ إلا بقليل من الاهتمام ؛ حيث نبهت السفارة البريطانية رعاياها كى يغادروا البلاد كما حدث فى ١٨٨٢م ، وحتى هذا التنبيه لم يحدث للجاليات الأخرى من المالطيين والقبارصة ، ومواطنى جبل طارق ، وهم جميعا مرتبطون إلى حد كبير ببريطانيا ، وهو لم يحدث بالطبع مع اليهود المصريين أيضا ، وحتى عام ١٩٥٦م كانت سياسات عبد الناصر معتدلة وضرورية ، وتفضى فى الغالب إلى وضع حد للملكيات الإقطاعية الكبيرة ، وإعادة توزيع الأرض للتخلص من فقر الريف ، وكان تمصير التجارة والصناعة سيأتى إن عاجلا أو آجلا ، ولكن كان ينبغى أن يكون بالتدريج ، وأكثر مراعاة لحقوق الآخرين ، وأدق اختيارا . وبدلا من ذلك وفى ١٩٥٧م تم طرد المواطنين البريطانيين والفرنسيين المقيمين فى مصر ، وأيضا ثلث اليهود المصريين ، وهم على الأغلب ممن كانوا يحملون جنسيات أجنبية . تم طردهم جميعا إلى المنفى بأساليب العنف البوليسى والضغوط الاقتصادية ، وما تبقى بعد ذلك من المجتمع الأجنبى أخذ فى التضاؤل عندما صار أصحاب المصانع والمستوردون من المصريين فقط ، وأصبحت اللغة العربية إجبارية فى التعاملات التجارية .

وقليل من الأجانب ، وغالبا ما كانوا من اليونانيين ، استمروا فى إدارة بعض الأعمال الصغيرة مثل البنسيونات والحانات والمكتبات ... إلخ وهى التى تخطتها إجراءات التأميم ، تلك التى سوف تحدث فيما بعد .

وحلت محل المستشفيات اليونانية والفرنسية والإيطالية فى الإسكندرية ، مستشفيات مصرية وماحدث للمستشفيات حدث مثله أيضا للمدارس ، بل وأسماء الشوارع التى كانت تحكى يوما ما عن دور الإسكندرية فى منطقة البحر المتوسط أخذت الآن تعكس دلالات محدودة .

⊗ صـ ١٤٩ إنه لمن المدهش أن يكون وصف فورستر للمدينة - حتى فى تفاصيلها التى تبدو سريعة الزوال - مازال حقيقيا حتى اليوم ، فعند الغروب مازالت العصافير تتجمع فى ضوضاء عند شارع أو كنيسة القديس مرقص ، ولكن هناك موجة هائلة من التغيير طرأت على ذلك العالم الذى اجتمع هنا فى الإسكندرية يوما ما والذى تقف البورصة الخربة شاهدة عليه فى صمت .

- الميدان : ميدان التحرير الآن ، كان فى وقت من الأوقات مزدانا بالأشجار ، وكان من خلال المحكمة المختلطة والكنيسة الإنجليكانية للقديس مرقص والبورصة يعكس اهتمامات الجاليات الأجنبية ، لكنه الآن يهدر ممتلئا بأبخرة أحد مواقف الأتوبيسات . وتمثال محمد على وجميع المبانى التى ذكرها فورستر مازالت باقية هنا ، ولكنها باقية كتذكار لفنون الماضى . ومن الممكن أن تكون المحكمة المختلطة فى زمن فورستر دليلا على الإصلاح وعلى السيادة المصرية المحدودة ، ففى القرن السادس عشر ، حيث كان السلطان العثمانى يقوم بإعفاء غير المسلمين - ممن استقرت أوضاعهم فى أغراض التجارة داخل الإمبراطورية العثمانية - من الضرائب ، ومنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام محاكم قنصلياتهم ، مع تدهور السلطة العثمانية ، أخذت الجاليات الأجنبية فى مصر الأفضلية الكاملة لهذه الامتيازات الأجنبية ، وظلت حتى منتصف القرن التاسع عشر فوق القانون من الناحية العملية .

ولكن فى عام ١٨٧٥ م أصبح كل الأجانب تابعين للمحاكم المختلطة ، أى للسلطة القضائية المصرية ، وذلك فى كافة القضايا ماعدا الجنايات ، التى ظلت تنظرها المحاكم القنصلية ، وهذه الحماية المتواصلة من قانون الجنايات المصرى تساعدنا كثيرا على فهم ، كيف أن أوكار الأفيون (التى يصف فورستر زيارته لواحد منها فى فاروس وفاريلون) "Pharos and Pharillon" وأيضا المواخير التى ازدهرت فى الإسكندرية ، كان الأجانب يديرون معظمها .

وأصبحت هذه المحاكم القنصلية ذاتها تحت السيادة القضائية للمحاكم المختلطة فى ١٩٣٧م وذلك طبقا للمعاهدة المصرية الإنجليزية (١٩٣٦م) وتم إلغاء هذه المحاكم

فى ١٩٤٨م وبـذا أصبحت المحاكم المختلطـة خاضعـة تمـاما للقانون المصرى ... وهنـا صارت أيام الجاليات الأجنبيـة - كفئـات ذات امتيـازات - معـدودة بـدايـة من ١٩٣٧م وقبل ثورة ١٩٥٢ بوقت طويل .

وبالرغم من أن المواطنين المصريين قد تأثروا قليلا بالمحاكم المختلطة (التى نظمت طبقا للقانون الفرنسى ، وأحيانا كان قضاتها من البريطانيين) فإن هذه المحاكم صارت ميدانا لتدريب المحامين المصريين ذوى المكانة العالية ، والذين أصبحوا عمليا من النخبة السياسية التى ساعدت على تشكيل الحركة الوطنية فى مصر .

- الحدائق الفرنسية · (ميدان عرابى الآن) وهو القائد الذى تسبب تمرده فى ١٨٨٢م فى ضرب الإسكندرية بالقنابل البريطانية (انظر صـ١٣٧) وهذه الحدائق تم تجريدها من الخضرة الورافة لتصبح مخزنا «وجراجا» للأتوبيس والترام .

- الكنيسة الإنجليكانية للقديس مرقص ، وهى تقف بشكل غير ظاهر خلف سور من الأشجار المحيطة بها ، والتمثال النصفى الصغير الغريب للجنرال إيرل "Earl" الذى كان موجودا بها قد اختفى ، والكنيسة بها دفتر للزوار ممتلئ بالتسجيلات تقريبا حتى غزو السويس ١٩٥٦م ، إذ لاتوجد به أى توقيعات أو تسجيلات للزوار بعد ذلك .

- البورصة : تقف البورصة خلف لوحة للإعلانات مغطاة بإعلانات سياسية وهى تبدو خربة من الداخل وواجهتها المقوسة تواجه دورة مياه عمومية قبيحة ، والتبادل التجارى للقطن والمواد الأخرى أصيب بالكساد ، بسبب قوانين التأميم فى ١٩٦١م .

- شارع شريف : وعلى جانبيه ترتفع بعض ساريات الأعلام التى يتناقص عددها ، وفى هذا الشارع كان ميلاد قسطنطين كفافيس ، وأيضا كان هنا مكتب شركة مسرز هوايت هيد ميرورز وهو الناشر الأصلى لهذا الكتاب .

وكما كتب فورستر فى مقدمته لطبعة ١٩٦١ م قائلا : كان هناك الكثير من التسويف وبعض الاختلاف فى الآراء قبل نشر الطبعة الأولى بالفعل فى ١٩٢٢م ، وتمت الموافقة فقط على مخطوط هذا الكتاب فى بداية ذلك العام ، عندما قام فورستر بزيارة لمصر فى طريق عودته من الهند إلى وطنه إنجلترا ، وكان فورستر قد أخطر كفافيس فى خطاب مؤرخ فى ٢٥ مارس ١٩٢١م بأنه يئس من نشر هذا الكتاب : «بالنسبة لكتابى عن الإسكندرية ، فقد فقدت كل اهتمامى به ؛ فالمخطوط مازال فى شارع شريف باشا ، وكما أتوقع فإنه سوف يظل هناك إلى الأبد ، مافائدة الخطط والخرائط إذا ظلت مجرد بروفة طباعة ؟ وما فائدة أى مخطوط ؟ بل وقبل كل شىء ،

ما فائدة شارع شريف باشا ؟ إننى أتمنى أن تتساءل بهذه الأسئلة وأنت تسير فى هذا الشارع فى المرة القادمة ، بتلك النبرات من صوتك ».

وفى هذا الشارع أيضا يوجد البنك الأهلى المصرى ، بنك روما سابقا وتستطيع أن ترى كيف أن اللافتة القديمة أزيلت ، وحل محلها لافتة أخرى تختلف فى الحجم ، وعند التقاء هذا الشارع ببداية شارع طوسون باشا ، وفى المبنى رقم (١) منه كان يعمل لورنس داريل فى مكتب الإعلام البريطانى ، أثناء الحرب العالمية الثانية «إننى مسئول مكتب كبير إلى حدما مختص بالدعاية الحربية هنا ، وأحاول أن أواكب هذا العالم الجديد البالى ، الذى تحاول فيه شعوبنا المعتوهة أن تصوغه بالدم والحديد ، إنه لعمل يفوق طاقة الاحتمال ، وعلى كل فهو مكتب مزدحم بالفتيات الفاتنات ، فالإسكندرية - بعد هوليود - زاخرة بالنساء الجميلات أكثر من أى مكان آخر . وبلا مقارنة ، فهم أكثر جمالا من نسوة أثينا أو باريس . فامتزاج القبط واليهود والسوريين والمصريين والمغاربة والأسبان يعطيك نساء ذوات عيون كحيلة ولماحة ، وبشرة زيتونية منمشة ، وأنوف وشفاه حادة ، ومزاج يشبه البركان ....» وهذا النص هو من خطاب لداريل موجه إلى هنرى ميلر ومؤرخ فى ٢٣ مايو ١٩٤٤م .

⊗ صـ١٥٠ شارع رشيد ، وقد تغير اسمه مرة أخرى إلى شارع الحرية وعند نهايته الغربية (فى رقم ١) يقوم نادى محمد على ، وهو ناد أنيق وكوزمو بوليتانى وبه صالات للقمار حيث تتم هناك المقامرات الهائلة ، وكان فورستر عضوا بهذا النادى الذى أصبح الآن قصرا للثقافة(*) .

وظل شارع النبى دانيال يحمل نفس الاسم ، ويقع فيه مسجد النبى دانيال وهو بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لتقاطع الطرق، حيث كان جسد الإسكندر الأكبر . ويخبرنا سيوتونيس بحكاية طريفة عن زيارة أوكتافيان (المسمى فيما بعد بأغسطس) ، وذلك بعد ثلاثمائة عام من موت الإسكندر ، عندما تم إحضار التابوت الحجرى لجثمان الإسكندر من ضريحه ، عندئذ حملق أغسطس فى جثته ثم وضع تاجا ذهبيا على التابوت ، ونثر بعض الزهور إعرابا عن التقدير لجثمان هذا الملك ، وعندما سئل عما إذا كان يود أن يرى بطليموس أيضا أجاب : «لقد رغبت فى أن أرى ملكا ولم أرغب فى أن أرى جثة» ومن المعتقد أن الإمبراطور «كارا كالا» (١٨٨ - ٢١٧م) كان هو آخر الزوار الذين رأوا جسد الإسكندر ، ومن المحتمل أن تدميره تم فى الاضطرابات التى وقعت فى نهاية القرن الثالث الميلادى .

(*) وهو قصر ثقافة الحرية - المترجم

ودون أن نبلبل القراء ، فإن تقاطع فؤاد الأول (الذى كان فيما سبق يسمى شارع رشيد وحاليا يسمى شارع الحرية) والنبى دانيال يحددان الموقع المتخيل للسوما ، وكان داريل يستمتع بنكتة خاصة ، حيث صار هنا فى نفس المكان «صالون فخم للحلاقة لصاحبه مانمجيان ، وكان يقع عند تقاطع شارعى فؤاد والنبى دانيال ، وهنا وفى كل صباح ، كان بومبال بيبو مضطجعا على كرسيه إلى جوارى فى المرايا وكنا نصعد ونتأرجح فى نعومة ثم نهبط إلى الأرض كمومياوات الفراعنة . وفى نفس اللحظة تبدو صورنا فى مرايا السقف وتتعدد وتنتشر» جستين ص ٣٥ ، وانظر أيضا بلتازار ص ٢١٨.

ولسوء الحظ فإن المقابر الخديوية لم تعد موجودة ، وعبر هذا الشارع هناك أربعة أعمدة أثرية مستخدمة كأعمدة لبوابة ، (ربما كانت جزءا من الموسيون) وهذه طريقة مثلى لملاقاة الماضى إذا كان مقدرا لك أن تلتقى به بشكل ملموس فى الإسكندرية ، فالقليل من البقايا أو الآثار المستخدم الآن فى البناء سبق استخدامه قبل ذلك مرات ومرات ، وعلينا نحن أن نخمن الغرض الأصلى من صنع هذه الآثار ، والأرجح أن الكثير من ماضى الإسكندرية لم يتم اكتشافه بعد ، وذلك كما يرى المركز البولندى للاكتشافات الأثرية فى منطقة البحر المتوسط ، والذى تأسس فى ١٩٥٩ م فى كوم الدكة .

لقد أزيلت فى البداية القلعة التى يذكرها فورستر ، ثم بعد ذلك تم استكشاف «الكوم» [وهى كلمة مصرية تعنى الرابية الضخمة من البقايا التى تغطى المواقع الأثرية – المؤلف] حيث تم العثور على طبقات من مقابر المسلمين يرجع عهدها إلى الفترة – من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر – وأيضا تم اكتشاف مبان هائلة للحمامات الرومانية التى كانت موجودة فى القرن الثالث الميلادى ، وتم اكتشاف مسرح رومانى صغير فى ١٩٦٤م ، كان حافزا على المزيد من الاكتشافات الأثرية الكثيرة الأخرى ، وكان هذا المسرح من المسارح المغطاة التى تقدم العروض الموسيقية ، وكان به عدد من المقاعد يتراوح مابين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ مقعد ، وتوحى بعض نقوشه أنه كان يستخدم أيضا فى مباريات المصارعة، وهو جميل، والمنطقة المحيطة به مزخرفة ومزدانة بالمناظر الطبيعية ، وكلها فى حالة عالية من الجودة ، ولكنها قد استنفدت كل ما لديها من إثارة لمزيد من الكشوف الأثرية الحالية ، تلك التى يمكن الوصول إليها من خلال الخندق العميق العريض الذى مازال محفورا ، إلى الشمال الشرقى من هذا المسرح ، والحوائط المتربة لهذا الخندق مغطاة بركام من الأجزاء الخزفية الرائعة ، وإذ نمعن النظر أمتاراً عديدة أسفل سطح هذا الكوم يمكننا أن نرى الحوائط الحجرية وبقايا المنازل المشيدة من

اللبن ، والأفضل من كل ذلك أن نهبط إلى أسفل ، عندئذ سنسير عبر الشوار
البطلمية المغطاة بواجهات المحلات ، فإذا كانت كليوباترا قد ذهبت للسوق يوما ما
فإنك هنا يمكنك أن تقول لنفسك إنك تسير حيثما سارت كليوباترا ، فالمشاعر التلقائي
شئ نادر جدا فى الإسكندرية .

ونعود مرة أخرى مع فورستر إلى شارع رشيد ، حيث يوجد بالقرب من كنيس
ودير القديس سابا ، ومقر البطريركية الأرثوذوكيسة اليونانية ، شارع يسمى الآن
شرم الشيخ ، تخليدا للمدينة التى تقع عند مدخل خليج العقبة والتى استولت عليه
إسرائيل فى حرب الستة أيام عام ١٩٦٧م ، كان هذا الشارع معروفا - فى السابق
بشارع لبسيوس ، وفورستر كان يعرف هذا الشارع جيدا ، فالتمجيد الأولى لمدين
الإسكندرية بدأ من هنا ، فى الطابق الثانى من المبنى رقم ١٠ ، وهو مايعرف اليو
ببنسيون أمير ، ولكنه كان ذات يوم أكثر إثارة ، حيث عاش فيه كفافيس فى الربع قر
الأخير من حياته (من ١٩٠٧ حتى أوائل ١٩٣٣م) وهى فترة نضجه الشعرى ، وتوج
لوحة تذكارية موضوعة هنا منذ عام ١٩٤٨ م (تم نقل محتويات شقة كفافيس لإقام
متحف له فى الطابق الأعلى من القنصلية اليونانية الواقعة فى المبنى رقم ٦٣ م
شارع الإسكندر الاكبر) .

لقد قابل فورستر كفافيس لأول مرة فى عام ١٩١٧م وكتب «لم يخطر أبداعل
ذهن كفافيس أن أعماله الأدبية يمكن أن تروق لى ، أو حتى أن يكون بإمكانى فهمها
وإنى لأتذكر ما اعترانا من بهجة فى إحدى الأمسيات المعتمة فى شقته ، عندما تبين
أنى كنت أتابعه باهتمام ، وعندما كان ينتابه السرور ، كان يقفز ويوقد شمعة ، ؛
شمعة أخرى ، وكان يقطع السجائر إلى نصفين ويشعلها ، ويقدم لى قطعا من «اللبا
مع شرائح صغيرة من الخبز والجبن ، وكان كلامه يدور حول عالم البحر المتوسط
وعن الكثير مما يتداخل معه من عوالم» .

ومنذ ذلك الحين، بذل فورستر كل ما استطاع من جهد للتعريف بأعمال كفافيس
وكانت قصيدة «الإله يتخلى عن أنطونيو» هى أول قصيدة لكفافيس تنشر بالإنجليز
(والقصيدة منشورة فى هذا الكتاب) .

وبعد ذلك بسنوات ، علق فورستر قائلا «لقد فعلت القليل لكى ينال شهرته وك
هذا تقريبا هو أفضل مافعلت» .

وفى الطابق الأرضى للمبنى رقم ١٠ فى شارع لبسيوس .. كان هناك ماخور . «يالهم من بؤساء» هذا ماقاله كفافيس لواحد من أصدقائه الذين رافقوه حتى باب منزله فى إحدى الليالى ، «يجب أن يرثى المرء لحالهم ، فإنهم يستقبلون بعض الأشخاص المثيرين للاشمئزاز ، وبعضا من الوحوش الآدمية ، ولكنهم – وعند ذلك اتخذ صوته نبرة حارة وعميقة – يستقبلون بعض الملائكة .. بعض الملائكة !» .

وكان أصدقاؤه الإنجليز يسمون هذا الشارع شارع كلابسوس بالرغم من أن الحى كله كان سيئ السمعة .

وكان كفافيس يشبع شذوذه باصطياد الغلمان من المقاهى المتجاورة على امتداد شارع مسيلة .

وكان مقهى قصر البليادرو مأواه المفضل ، وهو مازال موجودا ويحمل نفس الاسم ولوجود المستشفى اليونانى أمامه ، والكنيسة البطريركية على ناصية الشارع ، كان كفافيس مغرما بأن يقول : «أين يمكننى أن أعيش فى مكان أفضل من هذا ؟ فالماخور فى الطابق الأسفل يلبى ضروبا من التسلية الجسدية ، والكنيسة المجاورة تقوم بغفران الخطايا ، وهنا المستشفى أيضا حيث نموت» .

ولقد مات فعلا فى تلك المستشفى ، وأقيمت له الطقوس الجنائزية فى كنيسة القديس سابا ، ودفن جثمانه فى الجبانة اليونانية فى الشاطبى . « متشعبا مثل أذرع نجمة البحر متمحورا حول مقبرة المؤسس» (يقصد الاسكندر الأكبر – المترجم) كليا صـ٧٠٠ . لقد كانت معظم شخصيات داريل تقطن شوارع هذا الجزء من المدينة ، فقد تقاسم داريلى وبومبال إحدى الشقق فى شارع النبى دانيال ، وكانت شقة كليا تقع فى شارع فؤاد ، وكانت تمتلك أيضا ستوديو فى نفس الشارع بجوار كنيسة ودير القديس سابا ، وأما جستين ونسيم فكانا يعيشان فى بيت بالمدينة يقع خلف شارع فؤاد ، وكان بلتازار يسكن فى شارع لبسيوس «فى غرفة نخرة ، بها كرسى من الخيزران يظل يقرقع طوال الليل ، وبها ألقى ذات يوم شاعرنا العجوز قصيدته» كليا صـ٧٠٢ .

وغير بعيد عن البطريركية اليونانية بيت السرقونى ، حيث قام ناروز بغرز مسمار فى جمجمة «توتو دى برونيل» معتقدا أنه يقوم بقتل جستين فى إحدى حفلات الكرنفال ، وكل من كوهين وميليسا مات فى المستشفى اليونانى ، ومازال بالإمكان أن تزور باسترودس فى شارع الحرية ، قبل تقاطعه مع شارع النبى دانيال فى الجهة الشرقية ، لقد كان هذا المكان إحدى صالات الشاى اليونانية القديمة ، حيث كان دارلى ونسيم وبلتازار يجتمعون أحيانا لتناول العرقى .

«الإسكندرية هى الأميرة والبغى ، وهى المدينة الملكية ، والمؤخرة اللواطية ! إنها لن تتغير أبدا طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطرم داخلها مثل عصير العنب الذى يتخمر فى الراقود ، وطالما ظلت فيها الشوارع والميادين ، تتدفق وتنبجس ، وتتخمر فيها هذه الأهواء المختلفة والضغائن المتباينة ، والتى سرعان ما تهدأ فجأة ، إنها الصحراء الخصيبة لعلاقات الحب البشرى ، تلك الصحراء المغطاة ببقايا عظام أولئك المنفيين فيها» كليا ص ٧٠٠

واليوم فإن هؤلاء المنفيين من اليونانيين والأوروبيين الآخرين ، قد رحلوا ولم يتركوا عظامهم فى المدينة ، ذهب أغلبهم إلى أوطانهم ، وعلى أى حال فإن «ماريانا» اليونانية صاحبة بنسيون ميرامار تتكلم بلسان هؤلاء الذين ظلوا فى المدينة :

«آه يا مسيو عامر تقول إن الإسكندرية ليس كمثلها شىء .

كلا لم تعد كما كانت على أيامنا . الزبالة ترى الآن فى طرقاتها

قلت بإشفاق :

عزيزتى .. كان لابد أن تعود إلى أهلها .

قالت بحدة : ولكننا نحن الذين خلقناها»(*).

⊗ صـ١٥٣ واليوم تساعدنا كثيرا رحلة فورستر السياحية ، داخل المتحف اليونانى الرومانى ، بالرغم من إعادة ترتيب بعض معروضاته ، وإضافة القليل أيضا من المعروضات الجديدة التى لم يتم ترقيمها كلها بعد ، وبالرغم من ذلك ، فإن المعروضات الأكثر أهمية ، ماتزال كما وصفها فورستر ، وكتيبات الدليل التى يعرضها المتحف للبيع ليس لها أية قيمة ، وإذا كان أحد المعروضات ليس فى مكانه الذى أشار إليه فورستر ، فعادة مايكون بالقرب من هذا المكان ، والتغيير الوحيد والحقيقى الذى حدث فى مخطط فورستر للمتحف ، هو إضافة الحجرتين رقم (١٦ - أ ، ١٨ - أ) فى مواجهة الحجرتين (١٦ ، ١٨) وتماثيل النساء المصنوعة من التراكوتا .. (يقصد العرائس المصنوعة من الفخار - المترجم) والتى أغضبت فورستر للغاية ، تم نقلها من الحجرة (١٨) إلى الحجرة (١٨ - أ) وإنه لمن المفيد حقا قضاء بعض الوقت فيها ، فمن الممكن أن تستشف داخلها مدى شاعرية الماضى .

(*) رواية ميرمار لنجيب محفوظ - صـ ١٣ . دار العلم - بيروت - الطبعة الثانية ٧٤ - المترجم .

بعد إصدار رواية نهاية هوارد "Howards End" فى ١٩١٠م دخل فورستر مرحلة من العقم الإبداعى والإحباط ، وكتب روايته موريس "Maurice" وهى رواية عن الشذوذ الجنسى، وبالرغم من معرفة البعض بها ، إلا أنه لم يكن بالإمكان نشرها ، «حتى موتى أو موت إنجلترا» لقد اتخذ من اندلاع الحرب رمزا على وجوب فقدان أى أمل فى الإبداع ، وحصل على وظيفة مفهرس ، وأحيانا مراقب ليلى للحرائق فى الصاله الأهلية للمعروضات الفنية ، حيث كانت أقيم المعروضات الفنية موضوعة فى المخزن ، وكان يقول لأصدقائه إنه إذا قتل من جراء الضرب فإن موته سيكون متلائما مع القطع الفنية التى تنتمى إلى الدرجة الثانية ، وفى خطاب مؤرخ سنة ١٩٢٠ م كتب د. هـ. لورنس "D.H. Lawrrence" عن الإسكندرية : «ولكن كم هو مضحك ذلك الوضع الذى وضعت نفسك فيه ، بالرغم من أننى أتذكر دائما ذلك الشغف الذى كنت تجده فى فهرس الصالة الأهلية للمعروضات الفنية» .

⊗ صـ١٧٥ كان الامتداد الداخلى للميناء الشرقى فى أيام فورستر ، لايزيد عن كونه مساحة من الأرض ، ولهذا فإن الترام – كما يقول فورستر فى أول الصفحة – كان يجرى على مرأى من أرصفة الميناء الجديدة .

وفى بداية الثلاثينيات ، تم بناء هذه المساحة من الأرض الواقعة مابين خط الترام والميناء ، ولذا فإننا نجد الترام يجرى الآن بطول ما أصبح يسمى شارع التتويج ، وهو مواز لشارع فرنسا القديم ويقع بينه وبين الكورنيش ، – شارع التتويج : كثيرا مايذكر داريل هذا الشارع الذى يقع خلفه الحى الشعبى (قاع المدينة) وهو مدخل للعالم البدائى « لقد انثنينا راجعين ووصلنا إلى الأحياء الفقيرة المزدحمة ، التى تقع خلف شارع التتويج ، وهنا تكشف لنا مصابيح السيارة ، تلك المقاهى التى تشغى بالبشر كتلال من نحل ، وعلى ضوئها غير المعتاد تبدو الميادين مزدحمة بالناس ، وعلى امتداد الأفق كانت هناك ظلال المنازل المتهالكة وغير اللائقة للسكنى ، ومن مكان ماخلفها تعلو الصرخات الحادة والعويل المصاحب للجنازات ، وبين مواخيرها كانت جستين تبحث عن ابنتها المختطفة » (جستين ص ٤١ وماليليها) «وذات مرة أفرط مونتليف فى الشراب وتغلغل فى هذا الحى سكران هاربا من «الاعتدال» أو التعرض للفضيحة ، باحثا عن الإلهام أو البوح، وكانت المومسات صغيرات السن المشتعلات اهتياجا يعاملنه بخشونة» (مونتليف ص ٦٢٣ وماليليها) .

المشهد الأول لديميتر(*) "Demeter" وهى تبحث عن بيرسيفون(**)Persephone ، ولكنها فشلت فى أن تجدها والمشهد الثانى لديونيسوس (***) "Dionysus" حيث أبعدته المينادات(****) "Maenads"

ولكنهن فشلن أيضا فى إنجاز دورهن الميثولوجى «لم يكن كل ذلك كابوسا : لقد كان عالما مفعما باللواط وتداعى الخواطر الهزلية ، اتخذه سكوبى ملاذا له ، هذا البحار السابق الذى بلغ السبعين من عمره ، وكان يعمل شرطيا لبعض الوقت ، وصار الآن أحيانا يرتاد شوارع المدينة مخنثا ، مرتديا زى النسوة فى جو متميز من الإباحية والانفعال ، كان من الممكن أن يغرق جيرانه فى بحار من الويسكى ، وبعد موته تم الاحتفاء به كولى من أولياء الله الصالحين» (بلتازار صـ ٢٢٤ ومايليها) (وكليا صـ ٧١٤ ومايليها) إن السير فى شارع فرنسا ظل كما يصفه فورستر مثيرا لبهجة التجوال فى «قاع المدينة» مساء وبلا هدف ، وطريقة داريل فى توزيع الضوء والظل فى الصورة تغالى فى الظلمة بغرض التأثير ، كما ينبغى أن يفعل زائر متخلص تماما من الجبن ، فأينما ذهب عقل أو قلب أو ذكريات الإسكندرية ، فإن هذه الصورة ستبقى دائما روح هذه المدينة .

⊗ صـ١٨١ فى الساعة السادسة من مساء السادس والعشرين من يولية ١٩٥٢م ، وفى قصر رأس التين تنازل الملك فاروق عن العرش (هو آخر السلالة التى أسسها محمد على – المؤلف) ورحل مبحرا إلى إيطاليا ، وكان يخته الخاص محملا بمائتى صندوق للثياب ، امتلأت على عجل بالأغراض الشخصية ، وكانت كلماته الأخيرة للواء محمد نجيب «ستكون مهمتكم صعبة ، إنه ليس من السهل – كما تعلمون – أن تحكموا مصر» .

⊗ صـ١٨١ ميناء ماقبل التاريخ : تم بناء قواعد عسكرية حديثة مكانه ، وذلك بعد أن قدم فورستر وصفا له مصحوبا بخريطة .

(*) ديميتر : إلهة الزراعة عند الإغريق – المترجم .

(**) بيرسيفون : ابنة زيوس وديميتر ، أخذها هاديس (بلوتو) ليتزوجها فى العالم السفلى ، وهى تعرف باسم الإلهة بروسرمينا ، عند الرومان – المترجم .

(***) ديونيسوس : إله الخمر عند الاغريق – المترجم .

(****) المينادا : إمرأة تشارك فى مهرجات ديونيسوس (باخوس) أو امرأة شديده الاهتياج أو مختلة العقل – المترجم .

⊗ صـ ١٩١ تم إعادة بناء القلعة .

⊗ صـ ١٩١ «البقايا القديمة» التى رآها فورستر ملقاة على الشاطئ وبالرغم من وجود بعض هذه «البقايا» واضحة فى الحائط ، فإنه من الصعب جدا أن تمعن النظر عن قرب فى بعض الأجزاء من المبنى ، (وذلك مثل أساسات القلعة التى بطول الممر إلى جهة اليمين) وحيث إن القلعة فى مواجهة تيار الهواء ، فإن أماكن وضع المدافع والثكنات وأماكن الجنود المسلحين سوف لاتستحوذ على كثير من اهتماماتنا الأثرية .

⊗ صـ ١٩٢ هذا المنظر الآن صار أقل دلالة عما كان ؛ فقلعة كوم الدكة تم إزالتها بسبب الكشوف الأثرية للمسرح اليونانى ... إلخ .. والمبانى بطول الكورنيش حجبت الكثير من المعالم القديمة فى أفق الإسكندرية .

⊗ صـ ١٩٦ كان هناك منزل ذو طراز شرقى قديم فى شارع العطارين ، وقد مضى زمن طويل على هدمه ، حيث كان البواب يجمع الصبايا والصبية لممارسة البغاء وكان كفافيس حجرة هنا فى أواخر القرن الماضى ، وكان أحيانا ينام مع غلمان يونانيين .

«كانت الحجرة رخيصة وقذرة

تتخفى فى أعالى الحانات المشبوهة .

....

وهناك على ذلك السرير العادى

امتلكت نكهة العشق»

«من قصيدة : ذات ليلة»

وقد كتب أحد أصدقاء كفافيس ويدعى «تيمون مالاتوس» عن الشعر وعن المدينة يقول ، « فى أى وقت يمكن للمرء أن يعيش فى أحد الأحياء المنعزلة والمتعارف عليها فى الإسكندرية – ذلك دون أن يكون له مكان خاص فى المدينة ، ويمكننا القول بأن هذا الحى يكون جيدا بمقدار ما يجعلنا غير قادرين على معرفة أى شىء عن سلوك المرء وأساليب حياته، والسبب فى ذلك أن تلك الأحياء كانت تمتد بينها مناطق خربة وغامضة ، وهذه المناطق منذ أن امتلأت بالمنازل أعطت المدينة انسجاماً كانت تفتقده فى السابق

ولهذا كان كفافيس يقضى لياليه فى واحد من هذه الأحياء ، عبدا لأهوائه . ومع ذلك كان فى الصباح ، عندما يكتشف إلى أى حد سقط فى الحضيض فى الليل ، كان يندم ، ويكتب بحروف كبيرة على قطعة من الورق : «أقسم ألا أفعلها مرة ثانية» ولكن .. بعد ذلك .. عندما كان الليل يأتى مرة أخرى .. كان يعود إلى بهجته القاتلة مرة ثانية غير واضع لقسمه أى اعتبار» مقطع من «ليدل كفافيس ص ٦٧» "Liddell's Cavafy".

ومرجع المؤلف فى هذا النص هو قصيدة كفافيس «إنه يقسم» .

ولد كفافيس فى شارع شريف باشا ، وبعد ذلك عاش فى شارع توفيق باشا ثم فى شارع رشيد ، وانتقل بعد ذلك إلى شارع لبسيوس فى حى المسيلة ، وهو حى غير مشهور ، ولم يعد بعد ذلك مضطرا للانتقال بعيدا عن هنا .. وقد أصبح غير مهتم بإخفاء شذوذه .

وبدأ فى كتابة قصائده الشهوانية الشاذة فى ١٩٠٣م ، وبدأ أيضا فى نشرها (بمعنى توزيعها على أصدقائه – المؤلف) بدءا من عام ١٩١٢م .

والملاحظة عن صـ١٥٠ تبين أن بلتازار (رباعية الإسكندرية) كان يعيش فى شقة فى شارع لبسيوس ، وهى نفس الشقة التى كان يسكنها كفافيس ذات يوم . وبدرجة ما كانت الشخصية التى ابتدعها داريل مستمدة من كفافيس ، فهناك نفس المحاورات الواسعة النطاق التى يصفها فورستر فى لقائه المبكر مع الشاعر « تكلم بلتازار وهو شبه نائم عن كرم آمون وعن ملوك الحربون(*) ومعاركهم .. أو عن النبيذ المريوطى الذى إليه – وليس للتاريخ – عزا هوراس الثرثار اضطراب عقل كليوباترا (كليا ص ٨٤٦) والعلاقات الجنسية الشاذة عند كليهما سافلة ومنحطة . «أن تشبه الإله ، وأن يكون لك سحر مثل وابل من السهام الفضية ، وأن تكون وضيع النفس وقذرا ، ومشترى بالمال وذا شخصية فارغة : هذا ماكانه بنايوتس إنى أعرف ذلك لقد كان يبدو وكأنه لا يمثل أى اختلاف مهما كان، فقد رأيت فيه شخصية سليوشيا».. ذلك الذى كتب عنه كفافيس قصيدة .. لقد لعنت نفسى فى المرآة ، ولكن لم يكن لدى أى قوة لسلوك مغاير ...» (كليا ص ٧٠٤) والقصيدة التى يتكلم عنها هى «واحد من آلهتهم» .

(*) الحربون : رمح لصيد الحيتان – المترجم .

ولكن بلتازار كان عضوا فى جمعية سرية ، وهناك مصدر آخر لهذا «لقد اكتشفت بعض الحقائق عن جماعة سرية ، وهم من النسل المباشر «للآرفيوسيون»(*) الذين كانوا على امتداد التاريخ الأوروبى فى عمل دائب ، وكانوا يمثلون تشكلا لتجربة فيثاغورسية خالصة ، وهناك حوالى ست أوسبع جمعيات فى منطقة البحر المتوسط ، إنهم لايلقنون شيئا لأحد ، ولايدافعون عن شئ ، وإنهم حتى لايتماثلون ، وهم خبراء ماقبل المسيحية ، وفى يوم من هذه الأيام سأذهب لرؤية السيد بلتازيان لأكتشف كل مايتعلق بالدائرة والمربع ، إنه يعمل صرافا صغيرا هنا .. » من خطاب للورنس داريل إلى هنرى مبلر فى ربيع ١٩٤٥م .

انظر الملاحظة عن صـ٦٨

⊗ صـ٢٠٨ حدقت السيدة ستتش من الشرفة فى الحدائق وقالت : إن فورستر يقول : يجب التعرف على هذه الحدائق جيدا ، ولكن هذا سيكون فى يوم آخر .

ومتوجهة بحديثها إلى رجل بجوارها : هل عندك دليل فورستر ؟

– كم رغبت فى امتلاك نسخة منه ، ولكن الحصول عليه صعب للغاية .

– لقد صدرت منه طبعة جديدة منذ وقت قريب .. خذ نسختى ، فأنا يمكننى دائما الحصول على نسخة أخرى ، وأخرجت من سلتها نسخة من كتاب الإسكندرية لفورستر.

– لم أكن أعرف هذا ، ومادام الأمركذلك ، فيمكننى أن أحصل على نسخة منه ، شكرا جزيلا على أية حال .

– خذها ياأحمق .

– حسنا شكرا جزيلا على هذا الكتاب .. إنى أعرف بالطبع كتابه «فاروس وفاريلون» .

– ولكن هذا الدليل يفوقه بكثير .

من (ضباط ونبلاء .. لإفيلين واف ص ١٢٦ – ١٢٧) .

"Evelyn waugh's Officers and Gentlemen" P. 126 - 127

(*) الأرفيوسى : هو من له علاقة بأرفيوس ، وهو فى الأسطورة الإغريقية موسيقى تبع زوجته يوريدس إلى مثوى الأموات ، فسمح له هاديس (بلوتو) بعد أن سحره بألحانه ، أن يخرجها من ذلك المثوى ، شرط ألا ينظر إلى الوراء .. ولكنه نظر إلى الوراء فى اللحظة الأخيرة ففقدها ... – المترجم .

⊗ صـ٢١٠ كان اللقاء الأول لفورستر بكمسارى الترام : محمد العدل ، فى حدائق النزهة (انظر الملاحظة عن صـ٢١٣) واشترى له فورستر هدية من الكحك اللزج (لقمة القاضى) «إننى لا أهتم بالكحك .. كم دفعت ثمنا له ، ومنذ كم قرن اشتريته ؟» (وفيما بعد أخبر فورستر أن هذا الكعك ربما تكون به مواد مخدرة) . ثم ركبنا القطار سويا إلى منزل محمد العدل ، وتسلى محمد العدل بتوزيع الكعك على الركاب الجالسين حوله .

⊗ صـ٢١١ توجد فى شارع ديبان مكتبة جراماتا ، وهى الملتقى المفضل لأدباء الإسكندرية وصاحبها ستيفن برجاس (إلياس نيكوس زليتاس) كان يصدر «تاجرماتا» وهى نشرة أدبية ، قدمت العديد من قصائد كفافيس لأول مرة ، وقد يأتى كفافيس إلى هنا فى وقت متأخر من الليل ومعه قصيدة انتهى من كتابتها فورا قائلا : «لقد أحضرتها لك يانيكو ، حتى أستطيع أن أنام فى سلام» وفى مرة أخرى يقول : «خذها يانيكو .. إنها تحرق أصابعى» .

⊗ صـ٢١٢ تقع نهاية خط الترام فى ميدان الرمل .. وكان كفافيس يعمل فى مكاتب الدائرة الثالثة للرى فى الدور العلوى من المبنى الذى يقع فى الجزء الشمالى من الميدان ، واليوم ، فإن حلوانى «جراند تريانون» وملهى أثينايوس الليلى يحتلان الدور السفلى فيه ، وفى هذه المنطقة يمكن للمرء أن يقابل قسطنطين كفافيس ، كما يصفه فورستر فى كتابه «فاروس وفاريلون» صـ٩١ . «إنهم ينعطفون فيرون رجلا يونانيا مهذبا ، يرتدى قبعة من القش ، ويقف دون حراك فى زاوية مهملة من الكون .. نعم إنه السيد كفافيس ، وهو متجه إما من شقته إلى المكتب أو من مكتبه إلى الشقة ، فإذا كانت هى الحالة الأولى فهو يختفى عند رؤيته ، تعلوه لمحة خفيفة من القنوط ، أما إن كانت الحالة الثانية ، فهو قد يكون قد اقتنع تماما بأن يبدأ جملة .. جملة هائلة ومعقدة ولكنها حسنة التكوين ، مليئة بالكلمات الاعتراضية التى لاتختلط أبدا ، وبالنوايا المضمرة التى تخفى فى الحقيقة شيئا ما ، إنها جملة تتحرك بالمنطق نحو النهاية المتوقعة ، ولكنها نهاية تكون دائما أكثر حيوية وإثارة مما يتوقع المرء .. إنها جملة شاعر» .

⊗ صـ ٢١٢ هذا الموقع الهادئ هو الآن ميدان سعد زغلول ، وهو يعد بالإضافة إلى ميدان الرمل المجاور له وسط المدينة ، وهما فى هذا يماثلان ميدان محمد على القديم (الآن ميدان التحرير) إن لم يفوقاه .

ويقع فندق سيسل الذى بنى فى أوائل الثلاثينيات على الجانب الغربى من ميدان سعد زغلول ، وهو يطل على الميناء ، وكما يقول داريل فى مقدمته «إنه قد أقام هنا فى بداية زيارته الأولى للإسكندرية ، وفى زيارته الأخيرة عاد إلى هذا الفندق مرة أخرى «خارج الصفوف الطويلة لعربات النقل التى تقف أمام فندق سيسل تتزاحم عربات التاكسى ... وأمام القنصلية جلس رجل بدين جدا مثل «قريدس ملكى» (أى جمبرياية ضخمة - المترجم) على مكتبه ووجه إلى الحديث دون تكلف قائلا : قد تبدو مهمتى مثيرة للاستياء ولكنها ضرورية ، فنحن نحاول جذب أى شخص لديه استعداد خاص قبل أن يحصل عليه الجيش ، وقد وصلنى اسمك من قبل السفير الذى عينك فى قطاع الرقابة الذى افتتحناه قريبا ، ولذا فهو أحوج مايكون إلى العمالة ... أعتقد أنك ستحتاج إلى أسبوع حتى تجد لنفسك مسكنا قبل أن تستقر هنا .. سرت ببطء على الكورنيش فى اتجاه سيسل حيث عقدت عزمى على أن أستأجر غرفة وآخذ حماما وأحلق ذقنى » (كليا ص ٦٧٦ ، ٦٧٧) وهكذا كانت عودة دارلى من إحدى جزر بحر إيجة إلى الاسكندرية، وهذه الفترة تتوافق مع وصول داريل لأول مرة إلى الإسكندرية ، حيث كان يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية فى كلاماتا وأثينا فى بداية الحرب ، ولكنه فر إلى مصر فى إبريل ١٩٤١ م عن طريق جزيرة كريت عندما غزا الألمان أراضى اليونان .

«لم تكن الإسكندرية التى رأيتها لأول مرة وأنا بالبحر ، هى ما تخيلته عنها من قبل ... أنين ضعيف ورهيب وصلنا شاقا طريقه فى الماء يخفق خفقان أجنحة السيرانات(*) المرعبة التى كانت تصرخ مثلما يصرخ الملعونون فى اليمبوس(**) ... وفجأة تحددت ملامح الميناء بوضوح شديد على لوحة السماء الداكنة ، حينما شرعت أصابع من الضياء ، طويلة وبيضاء فى التجول فى السماء بطريقة هوجاء .. وأخيرا رأينا ماكانت تبحث عنه هذه الأصابع ، لقد كانت ست طائرات فضية بالغة الصغر ، تتحرك إلى أسفل فى أجواء السماء ببطء، بدا لنا أنه بطء غير محتمل.. وهاجت السماء حولها .. ولكنها ظلت تتحرك بنفس التراخى الممل ، وببطء أيضا تقدمت بشكل لولبى

(*) السيرانات : هى مجموعة من الكائنات الأسطورية عند الإغريق ، لها رءوس نسوة وأجساد طيور ، كانت تسحر الملاحين بغنائها ، فتوردهم موارد الهلاك . - المترجم .

(**) اليمبوس : هو الأعراف : موطن الأرواح المحرومة من دخول الجنات ، دونما اقتراف أى ذنب ، ذلك مثل أرواح الأطفال غير المعمدين .. الخ . - المترجم

متتبعة خيوط القذائف ذات البريق الحاد التى انطلقت من السفن ، أو النفثات الباهتة للشظايا المصحوبة بسحابات تحدد مسارها» (كليا ص ٦٦٧ ، ٦٦٨) .

فى نهاية ١٩٤٠م طرد ويفل (الإنجليزى - المترجم) جراتسيانى (الإيطالى - المترجم) من مصر ، ولكن الألمان عززوا الإيطاليين ، ودخلت قوات المحور مصر مرة أخرى فى إبريل ١٩٤١م ، وعلى الرغم من أن القاهرة لم تعان من الهجمات الجوية ، وذلك بالتأكيد راجع إلى تهديد تشرشل بأن بريطانيا ستبدأ قذفها المنظم لروما إذا ماتم ضرب أى من القاهرة أو أثينا ، إلا أن ضربات العدو للإسكندرية قد ازدادت وقتل حوالى ٦٥٠ مدنياً أثناء الصيف . انظر الملاحظة عن صـ١٤١ .

« كليا يجب أن تختبئى ...

هززتها بلطف ، فهمست « إنى أأنف أن أموت مع الكثير من الناس وكأننا فى جحر لفئران هرمة ..

دعنا نذهب للفراش معا ونتجاهل الحقيقة الخشنة لهذا العالم .

وهكذا أصبحت ممارسة الحب فى ذاتها نوعا من التحدى للزوبعة التى ترعد فى الخارج والتى كانت تدوى وتقرعق كعاصفة رعدية ، لكنها من صفارات الإنذار ومن أصوات المدافع التى تلهب السماوات الباهتة للمدينة بوميض برقها المهيب ، وصارت القبلات ذاتها مشحونة بذلك اليقين الثابت الذى لا يتأتى إلا من خلال التوقع المسبق بالموت وبحضوره ، وربما كان من الخير لنا أن نموت فى أية لحظة ، لأن الحب والموت قد تشابكت أيديهما فى مكان ما ، لقد كان تعبيرا عن كبريائها أيضا أن تنام على ذراعى كطائر برى ، أرهقه الصراع مع غصن شجرة مغطى بمادة لاصقة لاصطياد الطيور .. لقد بدت الدنيا وكأنها ليلة صيف عادية يسودها الوئام ..» (كليا ص ٧٢٧) .

كان هذا فى شقة كليا فى شارع رشيد القريب ، أما سيسل المقترن بجستين «أراها جالسة وحيدة على شاطئ البحر ، تقرأ جريدة وتقضم تفاحة ،أو فى ردهة فندق سيسل بين أشجار النخيل التى يعلوها التراب . » (جستين ص ٢٢) «لقد تقابلا فى نفس المكان الذى رأيتها فيه لأول مرة ، فى مرآة ردهة فندق سيسل الكالحة» (جستين ص ٥٨) .

«قد تكون منتظرة فى استراحة فندق سيسل الكئيبة ، ويداها المكسوتان بقفازين تطوقان حقيبة يدها ، وهى تحدق من خلال النوافذ فى البحر الذى يمتد ويترامى ،

ويعلو وينخفض من وراء ستارة النخيل التى ترفرف وتصر صرير الأشرعة المفكوكة فى ميدان البلدية الصغير » (مونتليف ص ٥٥٠)

وهذا الفندق باق كما هو ، نفس الردهة الكالحة ، والنخيل المغطى بالتراب ، والمرايا والرياح والبحر .

« ولكنك فى سيسل تنتظر جستين بلاجدوى ، لقد كانت يوما ما هنا فى الإسكندرية ... لقد وجدت هنا فى العام الماضى إمرأة غريبة ورائعة ، لها عينان سوداوان وكل ردود أفعالها كانت مناسبة ، وكل إيماءاتها ملائمة ... كان فى داخلها إنسان حقيقى وفى هذا المستنقع من الفساد والمال ، كانت هى دائما عند البحر ، إنها الشخص الوحيد الذى استطعت أن أتحدث معه حقا .. إننا نتشارك فى نوع ما من حياة اللاجئين ، إنها تجلس على الفراش لساعات وتحدثنى عن كل شئ ؛ عن الحياة الجنسية عند العرب والشذوذ الجنسى ، وختان الذكور ، والحشيش و« الحلاوة » وختان النساء والقسوة والقتل ، وكطفلة حافية القدمين لأبوين يهوديين تونسيين [كانت أمها يونانية من «سمرتا » والأب يهودى من « قرطاج »] وقد رأت كل ما هو داخل مصر ، حتى الأماكن القذرة المليئة بالفحش والحقارة ، إنها إنسانة من برج الجدى ، مثلها مثل كل الاشخاص ذوى الحساسية التبتية (نسبة إلى بلاد التبت – المترجم) إننى أحيانا أحس أنها قريبة من الجنون لأن أحداما لايمكن أن يعرف ما كانت تتحدث عنه ، وكان ممتعا لى أن أعيد لها ترابط خبراتها ، وأن أعالج رعبها ، وأن أحدد لها كتبا ، لأظهر لها أن جزءا عظيما من عالم الحس والإبداع لايساوى شيئا بالنسبة للإسكندرية .

أظن أننى لوا ستطعت أن أذهب إلى جزيرة يونانية ، وأن أعيش فى فقر مدقع مع إنسانة مثلها ، فإننى سأعمل ببراعة ، لقد نضجت بالفعل ، وعندى الكثير لأقوله ، ولكنى أتساءل : متى سأتحرر من عالم أشباه الرجال هذا وأكتب عنه ؟» خطاب من لورنس داريل لهنرى ميلر فى ربيع ١٩٤٤م .

لقد استلهم داريل شخصية جستين من إيف كوهين التى صارت فيما بعد زوجته الثانية وأهدى إليها رواية جستين . «إلى إيف .. تلك الذكريات عن مدينتها الأصلية» ، انظر الملاحظة «الأولى» عن ص٢١٤ .

إن البحر والنسيم الشمالى السائد الذى يدفع الموج تجاه الصخور على امتداد الكورنيش ، هما اللذان يذكرانك بماضى الإسكندرية وبإمكانياتها ، وفى أسوأ الأحوال

فإن البحر فى نظر الأوروبيين وسيلة للهرب ، ولكنه لدى المصريين يبدو وكأنه يفضى إلى العدم .

«الكورنيش لايمكن أن يرى من شرفة سيسل .. إن لم أنحن فوق السور فلاسبيل لرؤيته – البحر يمتد تحتى مباشرة ، كأنما أراه من سفينة ، وهو يترامى حتى قلعة قايتاباى محفورا بين سياج الكورنيش ، وذراع حجرى يضرب فى الماء كالغول بينما يختنق البحر ، يتلاطم موجه فى تثاقل ، وهو كظيم ، وبوجه أسود ، ضارب للزرقة ، منذر بالغضب يضطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفاياته «ميرامار» من المفيد أن تقارن كلمات نجيب محفوظ بأفكار عمرو بن العاص عن ركوب البحر ص١٠٠ ، ١٠١ من هذا الكتاب .

⊗ صـ ٢١٣ على الرغم من أن فورستر كان فى منتصف الثلاثينات ، عندما وصل إلى الإسكندرية ، إلا أنه لايوجد دليل على أنه استمتع بأكثر من حبه لرجل آخر وكان حبا من طرف واحد ، ففى شتاء ١٩١٦ – ١٩١٧م وأثناء ركوبه الترام من وإلى محل إقامته بالرمل ، انجذب فورستر إلى كمسارى مصرى شاب يدعى «محمد العدل» وتطورت العلاقة بينهما ، وتجاوزت حدود المجاملات المتبادلة ، ومالبث محمد أن رفض قبول أجرة الركوب من فورستر قائلا ، إنه لم يكن يتوقع مطلقا كل هذا اللطف من رجل إنجليزى ، وبعد فترة وجيزة ، كان فورستر يقضى لياليه واحدة تلو الأخرى فى موقف الترام ، منتظر ذلك الترام المرغوب والكسمارى المرغوب ، وقد وفر عليه محمد بعض التسكع حين أخبره بمواعيده ، فأصبحا يلتقيان كثيرا ويتحدثان ، وكان موعدهما الأول فى حدائق النزهة (انظر الملاحظة عن صـ٢١٠) لقد كان هذا هو بداية الحب العميق ، وأول علاقة جنسية تندرج تحت اسم «الاستمتاع بمباهج الحياة» الذى يكتشفه داريل فى كل سطر رقيق من سطور هذا الكتاب ويشير إليه فى مقدمته .

«كانت الصعوبات العملية شديدة ، فالفوارق العرقية والاجتماعية واسعة ، ولكن عندما يعرض عليك الحب والصدق والذكاء ، فضلا عن كل ما يمكنك أن ترغب فيه من السمات الظاهرة مثل روح الدعابة والمرح ، فبالطبع عليك أن تقبل وإلا فستموت روحيا » من خطاب لفورستر إلى فلوبنس بارجر فى ١ يونية ١٩١٧ م . ومما هو جدير بالذكر ، أن فورستر وحده من بين مشاهير الأدب العظام بالإسكندرية هو الذى أقام علاقة خاصة مع مصرى من نفس الجنس ، وعلى الرغم من أن ارتباط الإسكندرية بعالم

البَحر المتوسط هو الموضوع الذى كتب عنه فورستر فى «التاريخ» إلا أنه يشير إلى الإسكندرية كبوابة بحرية للهند والشرق الأقصى .. انظر صـ٥٢ .

«ربما يكون أفلوطين قد تحدث مع تجار هنود على أرصفة ميناء الإسكندرية ، وعلى كل ، فإن نظام أفلوطين يمكن أن يتوازى مع الكتابات الدينية الهندية ، لقد أصبح أقرب من أى فيلسوف إغريقى آخر لفكر الشرق «صـ١١١» لقد كانت الإسكندرية جسر فورستر إلى الهند الحبيبة ، ليس فقط جغرافيا أو ثقافيا أو روحيا .. بل وشخصيا أيضا . ومحطمة كل حواجز الطبقات والأعراق والأجناس ، لتكتسب هذه الألفة مع نفسية وطموح أحد الرعايا الإمبراطوريين لبريطانيا ، وهذا ما أتاح له فرصة كتابة : «ممر إلى الهند» "A Passage to India" بعد الحرب .

وفى مايو سله ١٩٢٢م توفى محمد العدل ، وكان فورستر يتقدم بصعوبة فى كتابة روايته ممر إلى الهند «لقد لقيت صعوبة كبيرة فى كتابة هذه الرواية حتى إننى اعتقدت أنى لن أكملها أبدا» وأثناء ذلك صحح بروفات كتاب الإسكندرية الذى كان من المفترض أن يتم نشره فى شهر ديسمبر ١٩٢٢م ، ولكن الخطاب الذى أرسله إلى محمد فى نوفمبر من نفس العام والذى بدا غريبا وكأنه النظير السرى لإعادة صياغة «مدينة الاشباح الهائلة» "an immense ghost city" الذى كتب لها إهداء غامضا ، وكان قد شرع فى تأليفها فى الوقت الذى بدأت فيه أولى اللقاءات فى ترام الرمل .

«محمد .. إنى احاول أن أجعل هذا حقيقيا .. لكن الكلمات تقف فى طريقى ، وأنت الآن قد فنيت ، وانتهيت إلى أشياء رهيبة ، لقد مت منذ ستة أشهر ، أنا لا أبالى بذلك ، ولكنى أخشى أنك أصبحت غير حقيقى ، وبذا تبدو كل أحاديثنا معا ، بل كل الليالى التى قضيناها نائمين فى فراش واحد ، وكأنها تخص أناسا آخرين ، ياعزيزى كم أود أن تكون هذه الذكريات هى ذكرياتى عنك التى لا أبغى تلويثها ، إننى لا أريد أن أثرثر عن الحب المثالى ، ولكننى أرغب فقط فى أن أكتب لك وكأنك حقيقى ، ولذا فإنى أحيانا أحاول التفكير فى تعفنك وأنت فى قبرك .. إنها حقيقة ملموسة بالنسبة لى تعيدنى إلى حقيقتك أنت» .

فى جستين ص ٥٧ «شارع باب المندب ، شارع أبو الدردار ، شارع مينا البصل شوارع زلقة يغطيها زغب القطن الآتى من أسواقه القريبة . النزهة (حديقة الورد .. بعض الذكريات عن القبلات) محطات الأتوبيس التى تحمل أسماء أشخاص مثل سابا

باشا ، ومظلوم ، وزيزينيا وباكوس وشوتز وچناكليز .. إن المدينة تصبح
عندما يحب المرء أحد قاطنيها » .

كتب فورستر عن حقائق ماضي الإسكندرية وحاضرها ، وعن موكب إ.
وخسائرها ، والذى لايمكن إنقاذ أى شئ فيه سوى سلامة المدينة وكرامته
حدث عندما « تخلى الإله عن أنطونيو » . وفى السطور الأخيرة من رواية «
الهند » أصداء لقصيدة من كفافيس ، ترددت فى خطاب فورستر إلى محمد
سنتخلص منك بعد خمسة آلاف وخمسمائة عام ، فإننا سنقذف كل رجل إنجل
فى البحر ، ثم (واقترب منه بغضب) ... ثم (توصل إلى قرار ... وقبله قبلة خـ
ثم سنصبح أصدقاء .

قال الشخص الآخر ، وهو يحتضنه برقة · ولماذا لا نصبح أصدقاء ه
إن هذا ما أرغب فيه ، وما ترغب أنت فيه أيضا ولكن الخيل لم ترغب فى ذ
انحرفت فى اتجاهين متضادين، ولم ترغب الأرض فى ذلك ، فقد انبثقت منها
على الراكبين أن يجتازوها فى صف واحد . المعابد والبركة والسجن ، والقصر
والفساد وبيت الضيافة الذى لاح فى الأفق وهم ينبعثون عن الوادى وير
تحتهم .. كل هذه الأشياء غير راغبة فى ذلك ، وقالت بمائة صوت فى نة
(لاليس بعد) وقالت السماء · لاليس بعد» .

⊗ صـ٢١٤ هذا المسرح ، ليس هو المسرح الرومانى الذى تم اكتشافه
الدكة فى الستينيات من هذا القرن (العشرين - المترجم) انظر الملاحظة عن
وهو يقع ليس كما يعتقد فورستر ، ولكنه أكثر قربا من البحر ، وعلى ذ
اكتشافات كوم الدكة الأثرية - والتى تضمنت الكشف عن مستوى الشارع
وهو ماتم معرفته قريبا - تقدم لنا ما هو أكثر من الرمل والحصى لنبنى عليه
عن الموقع .

تقع القنصلية البريطانية الآن فى ٣ شارع مينا البصل فى حى رشدى
وهى منطقة سكنية تفضل الطبقات العليا من الجاليات الأجنبية الإقامة بها ، و
فيها «دافيد مونتليف» ، وهو السفير فى رواية داريل ، وخلال شهور الصيف

بالقاهرة ، كان الملك يأتى إلى هنا ، وحاليا يأتى رئيس الجمهورية ، ويتبعه رجال السلك الدبلوماسى .

«لقد كان مقر الإقامة الصيفى الجديد مبهجا ، وكانت تحيط به حديقة هادئة حافلة بأشجار الصنوبر فى رشدى» (مونتليف ص ٥٠٧) .

إن داريل لايتطوع بتقديم تواريخ الفترة التى تغطيها رباعية الإسكندرية ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نحدد هذه التواريخ ، على نحو دقيق جدا ، فبالرغم مما يقوله داريل فى ملاحظاته التى تصدرت روايته «مونتليف» «لقد مارست حقى كروائى فى أن أقوم ببعض التحريفات الضرورية للتاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط ، وأيضا فى شخصيات هيئة السلك الدبلوماسى» .

ففى مونتليف يموت الملك عند اكتشاف التآمر على فلسطين ، ويستطيع نسيم أن يكسب الموقف بتقديم مصاحف محشوة بالأوراق النقدية إلى «ممليك»، ويتوفى الملك فؤاد الأول فى ٢٨ إبريل ١٩٣٦م ويتولى الحكم من بعده ابنه فاروق . ومع هذا فإن مونتليف تغاضى عن الدليل على التآمر ضد فلسطين ، لصالح الحكومة المصرية ، كان قد أتى إلى مصر كسفير ، وفى الحقيقة فإنه حتى توقيع المعاهدة المصرية الإنجليزية فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦م كان لبريطانيا فى مصر مندوب سام ولكنه كف أن يكون فى مقدمة ممثلى البعثات الدبلوماسية الأجنبية ، واتخذ لقب سفير ، وكان هذا هو السير مايلز لامبتون "Miles lampton" (والذى لقب فيما بعد باللورد كلِيرن) "Lord - Killearn" وهو المندوب السامى الذى أصبح سفيرا من عام ١٩٣٣ - ١٩٤٦م ، وبصرف النظر عمارآه مونتليف فى شبابه فى مصر ، فإن الأحداث الرئيسية للثلاثة أجزاء الأولى من الرباعية (جستين ، بلتازار ، مونتليف) تنحصر فى الفترة من ١٩٣٥/١٩٣٦م إلى ١٩٣٧/١٩٣٨م .

«وأخبار أوروبا تسوء كل يوم» (بلتازار ص ٣٨٤) وقد قضى دارلى شتاءين أوثلاثة فى جزيرة يونانية وهو يكتب جستين وبلتازار ، ويربى ابنة نسيم من مليسا (بلتازار ص ٢١١) .

وهذه السنوات التى قضاها دارلى على الجزيرة تتماثل مع تلك السنوات التى قضاها داريل من حياته فى قبرص من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٥م ، والتى كان يقوم فيها بالتدريس ، بالإضافة إلى ما قام به من تربية ابنته من إيف كوهين وحده لفترة من الزمن ،

وكانت إيف كوهين متشابهة تماما مع جستين ، ومن أجل أن يكتب ، كان يقوم في الرابعة من صباح كل يوم .. كانت فترة عصيبة وكئيبة ، لكنه في صيف ١٩٥٦م كتب إلى هنري ميللر : «لقد انتهيت توا من تأليف كتاب عن الإسكندرية سميته «جستين» . إنني سقطت في هوة عميقة من الألم واللامبالاة بعد رحيل إيف إلى انجلترا في منتصف أغسطس مصطحبة معها طفلتنا التي أفتقدها ، وبضربة حظ صادفتني فتاة سكندرية جميلة ، وقعت بين ذراعي ، ومنحتني ومضة أمل تكفي لأن أستقر ، وأن أنهي هذا الكتاب تماما ، إنها فرنسية تدعى كلور ، وهي كاتبة تتميز بشئ غريب وخاص ، لقد كنا نعمل معا ليلة تلو الأخرى بين كتبنا وآلاتنا الكاتبة واقفة على طرف المائدة أمام نيران المدفأة ، نمسك بخريطة للإسكندرية ونتتبع بأصابعنا شوارعها ، محاولين استعادة الكثير مما فقدته ، المواخير ، والحدائق وانتظار إشراقات الصباح على بحيرة مريوط ... » وكان أمام داريل أيضا كتاب فورستر عن الإسكندرية . ويعود دارلي إلى الإسكندرية في ربيع ١٩٤١م وهو نفس موعد وصول داريل لأول مرة إلى المدينة . (انظر الملاحظة عن صـ٢١٢) .. أما «كليا» فتتعرض للفترة التي قضاها داريل بالفعل في مصر ، وبانتهاء الحرب أصبح من الممكن الوصول إلى أوربا مرة أخرى ، وانفتح أفق جديد وراء خطوط القتال (كليا صـ٨٤١) ، رحل داريل من الإسكندرية إلى رودس في يونية ١٩٤٥م .

⊗ صـ٢١٤ وهو عند فورستر في «فاروس وفايلون» وفي رواية ميرامار لنجيب محفوظ ، كان هذا البنسيون مبنى ضخم قديم ، يطل على نتوء السلسلة ، ويقع على – أو بالقرب – من موقع القصور البطلمية المندثرة .

ونلاحظ في الصفحة الأولى من الرواية ؛ أنها تضع هذه المنطقة في سياقها الحالي . الموقع الحقيقي تقريبا الذي تخيله الكاتب للمبنى ، والذي يقع فيه بنسيون ميرامار في الرواية في الطابق الرابع ، وتحتل قهوة ميرامار الطابق الأرضي في هذا المبنى أيضا .. وهذا المكان الآن يشغي بالحركة التي لاتتوقف أبدا ، وهو متخصص في تقديم مايستمتع به عادة زائروه من البحارة ، وصار هذا المكان يحمل – طبقا لذلك – اسم الرواية .

⊗ صـ٢١٧ . ولد جمال عبد الناصر في ١٥ يناير ١٩١٨م في حي باكوس بالإسكندرية ، وهي منطقة تقطنها أدنى شريحة من الطبقة الوسطى .. انظر الملاحظة عن صـ١٤١ .

⊗ صـ٢١٨ كان الكورنيش بالتالى ممتدا من السلسلة وحتى المنتزه .

⊗ صـ ٢٢٠ توجد غربى هذه المنطقة مباشرة جزيرة «كليا» حيث كان دارلى وكليا يذهبان للسباحة والغوص (فى الرواية – المترجم) وحيث أنقذها دارلى من الغرق بعد أن اشتبكت فى حطام سفينة غارقة « بهلب» قديم .

وقام دارلى بتخليص يدها (انظر كليا ص ٨٢٨) .

إنها ليست جزيرة مربوط التى وصفها فورستر صـ٢٢٠، «بأن البحر يغطيها عندما يعلو» ، «وأنها غير محددة على الخرائط البحرية» .

كانت «كليا» تظن أن هذه الجزيرة ، هى جزيرة «تيمونيم » "Timonium" حيث عاش فيها أنطونيو بعد معركة أكتيوم كناسك ، وفورستر يصفها فى مكان ما فى الميناء الغربى ، (انظر صـ٧٠) «وعندما لم يكن أمامهم شئ يفعلونه سوى انتظار الموت المؤكد الذى سيصحب وصول أو كتافيان – لماذا بنى لنفسه صومعة على هذه الجزيرة الصغيرة ، لقد سميت باسم ناسك شهير .. كان مبغضا للبشر، ربما كان فيلسوفا يدعى تيمون ؟ – وهنا كان على أنطونيو أن يقضى أوقات فراغه ، وهنا كان دارلى يستعيد المرة تلو الأخرى كل الذكريات فى عقله عن هذه المرأة ، ونوبات سحرها غير العادى التى كانت قادرة على بعثه ؛ حياته فى الخرائب ، ثم مرور الإله ، وكل هذا كان يدعوه لأن يقول لها وداعا ... فالإسكندرية عالم بأكمله» (كليا صـ٨٣١) .

⊗ صـ٢٢٣ هذه التصاوير التى على واجهات المنازل ، والتى تظهر أن صاحب المنزل قد ذهب للحج ، مازالت شائعة فى كل أنحاء مصر ، فالكعبة .. ذلك المكعب الأسود المقدس فى مكة ، هى إحدى هذه التصاوير الشائعة ، وكذلك وسيلة السفر سواء كانت سفينة أو طائرة مروحية خيالية ذات محرك واحد أو ذات كابينة مفتوحة ، أو على الأغلب ، طائرة كبيرة نفاثة .

⊗ صـ٢٢٣ السلاملك : هو الآن عبارة عن فندق ، وهو من أكثر الأماكن التى يمكنك قضاء وقت ممتع بها فى الإسكندرية ، بالرغم من أن منظر المكان تشوه ، بسبب وجود فندق فلسطين الجديد ، وهو من أكثر الأماكن سوقية فى مصر .

⊗ صـ ٢٢٤ قام فورستر بعمل الكثير من مشروعه البحثى هذا فى المنتزه ، وساعد فى تنظيم وإقامة حفلات التسلية ، وأعطى محاضرات عن الإسكندرية القديمة ، وقضى هنا فترة النقاهة من الإصابة باليرقان ، ومن هنا أحب المكان ، وغالبا ما كان يعود إليه لقضاء عطلات نهاية الأسبوع .

⊗ صـ٢٤١ لايستغرق السفر إلى وادى النطرون بالسكك الحديدية وقتا أطول من الذهاب إليه بالسيارة أو عربات الأجرة أو الأتوبيس الواصل بين الإسكندرية والقاهرة عبر الطريق الصحراوى .

وعلى الرغم من وجود خط للسكك الحديدية من الإسكندرية متجه غربا بطول الساحل إلى مرسى مطروح ، فالرحلات إلى أبوقير والقديس مينا ، يجب أن تكون بالسيارة أو عربات الأجرة .

⊗ صـ٢٤١ . يستحسن الوصول إلى القرية بعد زيارة عمود بومبى ومقابر كوم الشقافة ، وعندما نعود إلى شارع عمود السوارى سنجد أن الطريق يسير بطول الجانب الشرقى للمنطقة حول عمود بومبى ومعبد سيرابيس (انظر الخريطة .. صـ١٩٩) . ثم سر إلى الجنوب وهناك سوف يسمى الشارع بشارع كرموز ، وهو يؤدى إلى الجسر فوق ترعة المحمودية ، التى كانت هى الشريان الذى أعاد به محمد على الحياة إلى الإسكندرية ، والآن صارت راكدة ذات روائح عفنة ، وتعترض مجراها جزر من النباتات وأجزاء من سفن صدئة . والطريق الجديد والسكك الحديدية المؤدية إلى القاهرة ، قامت بوظيفتها الآن .

اعبر ذلك الجسر الصغير المصنوع من الصلب ، ثم انعطف توا إلى اليمين متتبعا ضفة الترعة ، ربما لمسافة مائتى متر ، حتى تلاحظ على الجانب الأيمن معدية تعمل بالحبال . (يمكنك العودة بهذه الطريقة إلى المدينة ، وعلى الجانب الآخر اركب الترام الأصفر رقم (٢) إلى ميدان التحرير) .

وعلى الجانب الأيسر من المكان الذى تجد عنده المعدية يوجد نفق سفلى ، حيث يجب عليك أن تنحنى خلاله لتعبر تحت خط السكك الحديدية ، وعندما تخرج من هذا النفق ، انعطف إلى اليسار ، ثم يمينا مارا على مصنع القطن ، وهو مكان يتم فيه تحويل الملابس القديمة إلى خيوط وبالات وتحيط به تماما مساحة خربة من الأرض ، بها قاذورات ووحل وعوادم صناعية عفنة .

وعلى يسارك ، سوف ترى الطريق المرتفع الواصل بين ميناء الإسكندرية الغربى والقاهرة . اعبر ذلك الطريق وستجد بحيرة مريوط أمامك ، زرقاء وواسعة فى مواجهة الأفق المنبسط الذى تكسوه جزر من قصب الغاب .

وبالسير إلى اليمين منحصرا الآن بين البحيرة والطريق ، يوجد صف طويل من الأكواخ والقوارب المسطحة القيعان مربوطة بطول الشاطئ ، وهى تبدو وكأنها قوارب يابانية تماما .

(جستين ص ١٦٨ وما يليها) وهنا ذروة الرواية ونسيم يصطاد البط فى مريوط ، ودارلى الذى كان يخشى على حياته يعرف موت - كابوديستيريا واختفاء جستين .

⊗ صـ٢٤٢ أضاف داريل بعض المعلومات عن «تابو زيرس»

والتى تم اكتشافها بالقرب من الكرمة (كليا ص ٦٦٠) .

إن القصر الصيفى الذى بناه نسيم من أجل جستين ، كان فى أبوصير (جستين صـ١٣١) من قديم الزمان، عن طريق الركوب إلى بنى غازى ، وعلى امتداد الشاطىء ، وصل هو إلى انحناءة فى الصحراء تبعد عن البحر أقل من ميل ، حيث يتدفق فجأة ينبوع عذب من خلال طبقة رملية سميكة ، وهنا جحظت عينا نسيم من الدهشة على المنظر البعيد للقلعة العربية القديمة ، والصخور البيضاء المعمورة بالمياه على امتداد الشاطىء ، حيث تتلاطم الأمواج طيلة الليل والنهار ، لم يكن قد تحدث عن ذلك لأى شخص ، ولكن فى أعماق ذهنه ، كانت تتكرر فكرة بناء منزل صيفى للمرح من أجل جستين» وكان هذا القصر الصيفى قد تم وصفه أيضا (جستين صـ ٣٣) حيث إن موقعه كان بالقرب من برج العرب (صـ٢٤٥ من هذا الكتاب) .

ومنطقة العلمين تبعد عن أبوصير بمسافة ستين كيلومتر إلى الغرب (انظر الملاحظة عن صـ ١٤١) . وهنا يوجد متحف ذو صهاريج ، ومدفعية ثقيلة ، وبقايا أخرى متروكة هناك بعد المعركة ، بينما توجد الجبانة البريطانية إلى الشرق من المدينة وهى فى غاية الروعة ، أما فى الغرب فهناك الجبانتان الألمانية والإيطالية ، وكلتاهما يكثر عليهما التردد ، وهناك أيضا الكثير من الألغام الحية ما تزال مدفونة فى الرمال ، ويجب أن تكون حريصا عند التحول بعيدا عن المسار المألوف .

⊗ صـ ٢٥٢ لم يعد ممكنا الوصول إلى وادى النطرون بالقطار ، ولا بالاستعدادات التى تقوم بها الشركة ، وبدلا من ذلك ، يمكنك الوصول عن طريق القاهرة/الإسكندرية الصحراوى ، الذى أنشئ فى ١٩١٧ م ، وهناك بين المدينتين استراحة تقع فى منتصف المسافة بينهما (حوالى ٩٥ كيلومتر من كل منهما) حيث تقف الأتوبيسات عدة مرات فى اليوم ، ويمكن تأجير سيارة لتأخذك عبر جولة إلى الأديرة ، ومن الممكن عمل زيارة

قصيرة إلى وادى النطرون فى نصف يوم ، وحتى وقت قريب ، كان من الضرورى أخذ تصريح من البطريركية القبطية للقديس مرقص القائمة فى ٢٢٢ شارع رمسيس بالقاهرة ، لزيارة هذه الأديرة ، والآن أصبح فى الإمكان أن تذهب إلى هناك وتطرق الباب ، إلا أنه من الحكمة أن تأخذ التصريح من البطريركية أولا .

وغير مسموح للنساء بالدخول إلى الأديرة(*) ، وما يقدمه فورستر من إرشادات للوصول إلى كل من هذه الأديرة ، صار غير معمول به . وبدلا من ذلك يمكنك أن تتجه من الاستراحة إلى الوادى مارا بقرية ، حتى تصل إلى لافتة تحدد مكان دير أبو بشوى ودير السوريانى ، والطريق معبد حتى دير أبو بشوى ، ودير السوريانى يقع بالقرب منه فوق الرمال ، ودير السوريانى يعتبر أهم الأديرة الأربعة .

ومن دير أبو بشوى يستمر الطريق حتى دير أبو مقار ، الواقع فى الطرف الجنوبى للوادى ، على أنه إذا كنت قادما من القاهرة للوصول إلى أبو مقار فيمكنك الخروج من الطريق الصحراوى قبل الاستراحة بأربعة عشر كيلو متر ، حيث يوجد طريق مرصوف وله علامات ، وهو يمتد إلى خمسة كيلو مترات فى الصحراء ، ودير البراموس ، وهو أكثر الأديرة اتجاها إلى الشمال وأكثرها صعوبة فى الوصول إليه ، حيث إن ذلك يتم عبر رحلة شاقة طويلة بين الرمال ، تجعله أيضا أكثر بعدا عن العالم .

(*) صار الآن مسموحا للنساء وللأطفال الدخول إلى هذه الأديرة - المترجم .

٦ – تغييرات فى أسماء الشوارع والميادين

فيما يلى قائمة بأسماء بعض الشورع والميادين التى ذكرت فى النص أو فى الملاحظات ، ولمساعدة القارىء على أن يجد طريقه ، تم وضع الأسماء الحديثة لهذه الشوارع أمام نظائرها القديمة ، وعلى الرغم من أن اسم الشارع قد يكون تغير رسمياً ، إلا أنه من الممكن أن يظل معروفاً باسمه القديم .

وأسماء الشوارع تكتب الآن بالحروف العربية واللاتينية (*)

الاسم القديم	الاسم الحديث
– شارع العطارين	شارع عرابى
– الطريق الكانوبى	شارع الحرية (فى الأسبق كان شارع رشيد ثم شارع فؤاد الأول).
– شارع شريف باشا	شارع صلاح سالم
– الكورنيش	شارع ٢٦ يوليو ، بطول الميناء الشرقى .. هذا هو الكورنيش الذى عرفه فورستر بالأرصفة الجديدة ، ويسمى طريق الكورنيش شرقاً إلى المنتزة باسم شارع الجيش ، وفى الحقيقة فإن شارع ٢٦ يوليو عادة مايسمى بالكورنيش .
– شارع فؤاد الأول	شارع الحرية (انظر الطريق الكانوبى وشارع رشيد).
– الحدائق الفرنسية	ميدان عرابى .
– شارع محطة الرمل	شارع سعد زغلول .
– شارع لبسيوس	شارع شرم الشيخ .

(*) هناك بعض الشوارع التى كانت تكتب أسماؤها بالفرنسية ، وأصبحت تكتب الآن بالعربية ، دون تغيير فى اسم الشارع نفسه ، ولذا لم نهتم كثيراً بها مثل « شارع الإسكندر الأكبر وكان يسمى فيما مضى "Rue Alexandre le Grand" ، أو مثل شارع أبو الدرداء كان يكتب أيضاً بالفرنسية "Rue Abouel Dardaa" .

الاسم القديم	الاسم الحديث
- شارع المسلة	شارع صفية زغلول .
- ميدان محمد على (المعروف أيضاً قديماً بالميدان)	ميدان التحرير .
- حدائق البلدية	حدائق الشلالات .
- الأرصفة الحديثة (انظر الكورنيش)	
- نهاية خط ترام الرمل	ميدان الرمل .
- شارع رشيد (انظر الطريق الكانوبى	وشارع فؤاد الأول)
- شارع الأخوات	النهاية الجنوبية لشارع إبراهيم الأول .
- شارع السوما	شارع النبى دانيال .

المشروع القومي للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت: أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت: أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت: شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت: أحمد الحضري
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت: سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت: يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت: مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت: محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت: هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت: أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت: عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بلمان نويل	ت: حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لوسي سميث	ت: أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضي / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت: محمد مصطفى بدوي
الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت: طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت: نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت: ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت: سيد أحمد علي الناصري
تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت: سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت: بكر عباس
مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت: إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت: أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت: نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت: منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت: بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت: أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت: عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت: مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت: أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت: د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	ت: خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت: حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت: جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت: أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت: منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت: محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت: أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت: المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت: مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت: أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت: محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت: ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	هـ. ت. نوريس	ت: عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت: محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا و ج. م. فيبالسيسي	ت: محمد أبو العطا
العلاج النفسي التدعيمي	بيتر ن. نوفاليس وستيفن ج. روجسيفيتز وروجر بيل	ت: لطفي فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ. ف. ألنجتون	ت: مرسي سعد الدين
المفهوم الإغريقي للمسرح	ج. مايكل والتون	ت: محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت: علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت: محمود علي مكي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت: محمود السيد، ماهر البطوطي
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت: محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت: السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت: صبري محمد عبد الغني
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور سميث	مراجعة وإشراف: محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت: محمد خير البقاعي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت: رمسيس عوض
في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت: رمسيس عوض
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت: عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت: المهدي أخريف
ناتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت: أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت: عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود
السياسي العجوز	ت. س. إليوت	ت فؤاد مجلي
نقد استجابة القارئ	جين ب. تومبكنز	ت حسن ناظم وعلي حاكم
صلاح الدين والمماليك في مصر	ل. ا. سيميونوفا	ت حسن بيومي
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت سعيد الغانمي وناصر حلاوي
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمري
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوي
مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت محمود السيد علي
مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالي
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقي	ت أحمد فتحي يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العناني
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيي الدين
وسم السيف	ميجيل دي ثربانتس	ت محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوسكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	ت نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوي
مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت سري محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت بشير السباعي
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحي
النص الروائي (تقنيات ومناهج)	برنار فاليط	ت رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت عز الدين الكتاني الإدريسي
قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوي
مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا	ت د. أشرف علي دعدور

صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت محمد عبد الله الجعيدي
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود علي مكي
حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ت ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت إكرام يوسف
راية التمرد	سادي بلانت	ت أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلي
غرفة يخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينتيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر ونفانوليفا	ت أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	جون جراي	ت أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت سمحة الخولي
فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحي	ت بشير السباعي
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقي جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق علي	ت طلعت الشايب
تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت كاميليا صبحي
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أيفلينا تارونى	ت وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبوري
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت حسن بيومي

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكي المعاصر

الجانب الديني للفلسفة

الولاية

المدارس الجمالية الكبرى

مختارات من الشعر اليوناني الحديث

بارسيفال

العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل

عدالة الهنود

چان كوكتو على شاشة السينما

الأرضة

عرام الفراعنة

نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة

القصة القصيرة (النظرية والتقنية)

صاحبة اللوكاندة

التجربة الإغريقية   حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي

العنف والنبوءة

خسرو وشيرين

العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)

وضع حد

التليفزيون في الحياة اليومية

أنطوان تشيخوف

من المسرح الإسباني المعاصر

خطبة الإدانة الطويلة

تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع)

حكايات ثعلب

شامبوليون (حياة من نور)

الحورية الهاربة

الإسلام في السودان

العربي في الأدب الإسرائيلي

إله الطبيعة

ضحايا التنمية

المسرح الإسباني في القرن السابع عشر

أيديولوجيا

تاريخ الكنيسة

فن الرواية

ما بعد المعلومات

الورقة الحمراء

موت أرتميو كروت

علم الجمالية وعلم اجتماع الفن

المهلة الأخيرة

الهيولية تصنع علمًا جديدًا

قضايا التنظير في البحث الاجتماعي

مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها